قائمة

الفكر الأصيل 4
حول الحكومة الإسلامية 4
الحكومة الإسلامية في ظل ولاية الفقيه 9
حقوق الإنسان في الإسلام 14
حقوق الإنسان لن يوفرها إلا الإسلام 19
التبليغ والإعلام في الإسلام 23
ضَرورة العَودة إلى القرآن 35
ضَرورة العَودة إلى القرآن 35
العودة إلى نهج البلاغة 38
المقدمة 38
الحكومة في نهج البلاغة 40
الحكومة في نهج البلاغة 41
مفهوم الحكومة 44
ضرورة الحكومة 46
منشأ الحكومة 47
الحكومة حق أم تكليف؟ 48
نظرة إلى خصائص عصر حكومة علي (عليه السلام) 50
عصر حكومة علي (عليه السلام) 51
خاصية الزمان 53
تصوير شخصية علي (عليه السلام) في نهج البلاغة 55
تبويب مطالب نهج البلاغة وشرح الأجزاء الأساسية 56
ترجمة نهج البلاغة إلى الفارسية 57
تبويب نهج البلاغة 58
التبويب بلحاظ اعتبار السند 59
ترجمة مفردات نهج البلاغة 60
ربط الأجزاء المتفرقة للخطبة الواحدة 61
ضرورة نشر تعاليم نهج البلاغة في العالم الإسلامي 62
ضرورة نشر تعاليم نهج البلاغة 63
أهمية قفدم نهج البلاغة 64
أهل التأويل والالتقاط 65
القرآن ونهج البلاغة 66
بيان الأمراض وعلاجها 67
حب الدنيا (الدنيوية) 68
محاربة قبول التكبّر 70
أهمية الإفشاء 71
روح التوحيد رفض عبودية غير الله 72
دروس وعبر من حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) 81
الامام الرضا(ع) وولاية العهد 87
عنصر الجهاد في حياة الأئمة (عليهم السلام) 93

LEADER.ir
دفتر مقام معظم رهبری
contact@leader.ir

كتاب الفن والأدب في التصور الإسلامي 107
مقدمة 107
الفصل الأول 108
أهمية دور الفن والأدب 108
المحتوى وإسلامية الأعمال الفنية 110
متانة الشكل الفني 113
الفن في ظل الحكم الطاغوتي 114
المهام الراهنة والمستقبلية 117
الفصل الثاني 121
مسألة الغناء والموسيقى 121
مدائح أهل بيت العصمة النبوية بيان نهج الحياة الحقة 123
الفصل الثالث 126
الشعر: الالتزام والتجدّد 126
الملحق الأول 128
الملحق الثاني 135
الفصل الرابع 137
القصة والتمثيل 137
العمل المسرحي والعمل السينمائي 139
الملحق الأول 140
الملحق الثاني 146
الملحق الثالث 149
الإمامة والولاية في الإسلام 152
مقدمة 152
المقالة الأولى: معنى الولاية 154
المقالة الثانية: العلاقة المهيمنة على الأمة الإسلامية 162
المقالة الثالثة: جنة الولاية 167
المقالة الرابعة: من هو الحاكم على البشرية؟ 173
المقالة الخامسة: حول الولاية 179
المقالة السادسة: العلاقة بين الولاية والهجرة 185
المواعظ الحسنة 192
تمهيد 193
البكاء على النفس 194
نعمة الدعاء 196
وبالوالدين إحساناً 198
التكبر 201
اللين 204
العفو 206
شهر رجب 208
إرادة الحق هي الغالبة 211
حقوق الإنسان في الإسلام 213
قيادة الإمام الصادق (عليه السلام) 218
قصة المحاضرة 218

LEADER.ir
دفتر مقام معظم رهبری
contact@leader.ir

نظرتان خاطئتان. 220
النظرة الصحيحة. 222
مراحل مسيرة الإمامة. 224
موقف الإمام السجاد (عليه السلام). 226
حياة الإمام الباقر (عليه السلام). 228
قيادة الإمام الصادق (عليه السلام) 233
معالم حياة الإمام الصادق (عليه السلام). 236
تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها. 237
بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عن رسول الله (عليهم السلام):. 242
إقامة تنظيم سري ايديولوجي ـ سياسي 244

حول الحكومة الإسلامية

إن "الحكومة الإسلامية" تعتبر من أهم القضايا الراهنة للعالم الإسلامي، بل وحتى للعالم غير الإسلامي، فهي أدق المسائل وأكثرها إثارة.

وعندما يكون اسم الإسلام مقروناً بالحكومة والنظام السياسي وتشكيل مجتمع ما، فإنه يكون مثيراً بالنسبة للمسلمين، وفي نفس الوقت مرعباً ومخيفاً لأعداء الإسلام.

ومنذ أن بدأت النهضة الإسلامية (أي منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي) ، فإن العالم غير الإسلامي والقوى السياسية العظمى في العالم، التي كانت ـ آنئذ ـ في بداية تكوينها، أحسّت جميعها بالخطر، خاصة وأن استعادة الإسلام لحياته ؛ أو بتعبير أدق الإسلام الذي يدّعي الحكومة والنظام الاجتماعي، ظهر أول ما ظهر في المناطق التي كان الاستعمار باسطاً سلطته عليها، والتي كانت تواجه مطامع السياسات السلطوية العالمية.

إن الفكر الإسلامي الثوري الذي يدعو الى الاستقلال وحاكمية الإسلام ظهر خلال القرن الأخير في الهند، ثم في بعض دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط التي كانت تعاني من الظلم والإضطهاد، ومن هنا بدأ الاستعمار يحسب حساباً لتلك المناطق.

إن الاستعمار البريطاني العجوز ـ وللمحافظة على شبه القارة الهندية ـ ارتكب في تلك المنطقة جرائم لم يكن لها مثيل. وقد لا نبالغ إذا قلنا إن مبادرة بريطانيا لإقامة سلطة لها في بعض مناطق أفريقيا والشرق الأوسط، جاءت لحفظ سلطتها على الهند.

وتزامناً مع الاهتمام الذي كان يوليه الاستعمار البريطاني للهند، سُمِعَت في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي صيحات بعض القادة الدينيين لتلك المنطقة الذين كانوا يدعون الى الجهاد والشهادة، فأدخلت الرعب في نفوس الإنجليز. ولذلك وحتى بعد مرور 50 عاماً على الانطفاء المؤقت للشعلة التي أوقدها كبار علماء الهند في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، مثل السيد أحمد عرفان والشاه عبد العزيز دهلوي، كان عملاء الإنجليز يحاولون تشويه صورة تلك الشخصيات أمام الشعب الهندي وإثارة الناس ضدهم، كما أوجدوا ديناً مأجوراً ليتحدى الدين الإسلامي. لذلك ليس من العجب أن نرى أنه عندما يحمل السيد جمال الدين راية الإسلام في إيران والهند ومصر وأوروبا وتركيا، ويدعو الناس الى الإسلام، فإن ردود فعل المستعمرين في ذلك الوقت، تشكل في الحقيقة جزءاً من أكبر ردود الفعل التي تواجه أي حركة ثورية. وإلا فهل كان السيد جمال يعمل شيئاً آخر في مصر وبقية الدول الأخرى عدا دعوته الناس الى الإسلام؟!

سحق الانتفاضات الإسلامية

وخلال مئة عام، أي منذ بدء النهضة الإسلامية الحديثة، كان الاستكبار العالمي والذي كان ـ آنئذ ـ متمثلاً بالاستعمار الإنجليزي يقضي على كل حركة من جانب العلماء المسلمين، تحمل اسم الإسلام ولها دوافع إسلامية، وكمثال على ذلك سحق الحركات الإسلامية في الهند ومصر وبقية الدول الإسلامية.

هذه المسائل إنما تبين مدى تخوّف العالم الاستكباري والسلطات العالمية من اسم الإسلام الذي يدعو الى الحاكمية وإدارة حياة أتباعه.

وبديهي أن هناك قانوناً عاماً، وهو أن أهل الحق لو صمدوا في دعوتهم لانتظروا وانسحب العدو، وهذا ما حصل بالفعل. لذا فإن أول نموذج لمثل هذا التراجع نراه في مقابل "نهضة التنباك" في إيران التي قادها الميرزا الشيرازي والذي كان يناضل ضد السلطة الاقتصادية لبريطانيا.

فالمرحوم الشيرازي حرك بخطوته تلك الشعب الإيراني، معتمداً على الإيمان الديني لأفراد الشعب، بحيث استطاع في نهاية الأمر أن يهزم العدو.

وبعد أعوام على تلك النهضة، انطلقت "الثورة الدستورية"، حيث تحرك الناس في ذلك الوقت بفتوى وقيادة المراجع الدينيين وعلماء الإسلام، وأجبروا السلطة الاستبدادية على التراجع، كما أفشلوا السياسات العالمية التي كانت تدعم الاستبداد، واستطاعوا أن يشكلوا حكومة تستند الى أحكام الإسلام ؛ لكن تلك الثورة فشلت بعد انتصارها، وذلك بسبب أحابيل الاستعمار.

وبعد عدة سنين حدثت في إيران مجدداً انتفاضة مسلحة باسم "انتفاضة الغابة" يقودها أحد علماء الدين المسلمين وبعض المسلمين المجاهدين، يدعمها أكثر علماء الدين.

وفي نفس الوقت، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأت في العراق أكبر ثورة لعلماء الدين ضد الاستعمار البريطاني.
وكانت تلك الثورة تعكس ـ في الحقيقة ـ المقاومة العظيمة للحوزة العلمية في النجف الأشرف أمام سلطة بريطانيا على العراق.
وخلال تلك الانتفاضات، حقق المسلمون بعض الانتصارات، وتلقّوا في نفس الوقت بعض الضربات.
والتجربة التي مر بها المسلمون وغير المسلمين طوال هذه المدة، أثبتت الحقيقة التالية وهي أن الإسلام إذا ما تحرك في نقطة من العالم بهدف إقامة نظام إسلامي، فستكون له القدرة على تعبئة وتشكيل القوى وتحدي القوى الاستعمارية. وقد مررنا نحن بهذه التجربة وخرجنا بهذه النتيجة وهي أنه أينما ظهرت حركة إسلامية شعر الاستكبار العالمي بالرعب منها وحاول التصدي لها.
بديهي أننا نعتقد أن الحق يخرج نتصراً في كل صراع يخوضه ضد الباطل، بالضبط كما يعد القرآن الكريم بذلك{أم يقولون نحن جميعٌ منتصرٌ. سيهزم الجمع ويولون الدبر} (القمر، 44 ـ 45) .
وعلى أي حال فإن البحث حول "الحكومة الإسلامية" بحث مهم للغاية بنظر المسلمين، كما هو باعتقادنا أهم بحث يلزم ـ اليوم ـ طرحه في العالم الإسلامي.
وهنا أريد أن ألفت انتباه الإخوة الأعزة المشاركين في هذا المؤتمر (مؤتمر الفكر الإسلامي) والذين يتدارسون المسائل المتعلقة بالحكومة الإسلامية، الى بعض الأمور:

مسؤولية المفكرين الإسلاميين
منها أن بعض الأشخاص من بين المجتمعات الإسلامية، ومن بين المؤمنين بالإسلام ـ وبتأثير من الدعايات الثقافية المغرضة للأعداء ـ حصلت لهم هذه القناعة وهي أن الإسلام يفتقر الى نظام سياسي وحكومي، وفي نفس الوقت ساق هؤلاء الجماهير المسلمة نحو مثل هذا الاعتقاد.
وإن أهم وظيفة ملقاة على عاتق المفكرين الإسلاميين هي إزالة هذه التصورات الباطلة من الأذهان.
إن الاعتقاد بالتوحيد ووجود الله يعني الاعتقاد بالحياة النوعية الاجتماعية للإنسان، فأصل الاعتقاد بالله وبالأنبياء يقتضي أن ينتخب الإنسان شكل حياته الخاصة بإرشاد من الأنبياء.
والقرآن الكريم يشير الى هذه المسألة في عدة آيات منها{لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط... } (الحديد، 25) .
ونفهم من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأنزل معهم الكتاب ليقيموا القسط، وليقيم الناس بدورهم القسط في المجتمع.
إذاً، فالسؤال هو: ما هي القواعد التي يجب أن تقام الحكومة على أساس منها؟ هذا سؤال مهم.
إن الحكومة تشكل العمود الفقري لحياة المجتمع. إذاً فبواسطة أي شخص، وعلى أساس أي قاعدة مبادئ، وبأي صورة يجب أن تشكل؟ وهذا سؤال أساسي آخر.
إن جميع المذاهب تجيب عن هذا السؤال، فهل يمكن أن نتصور الأنبياء يتركونه بلا جواب؟
{وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولّوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومَن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} (المائدة، 49 ـ 50) .
هذا هو جواب الأنبياء، وهذه الإجابة لا تقتصر على الإسلام فقط، إذ أن جميع الأنبياء جاؤوا ليجيبوا عن السؤال المذكور.
والنظام الذي يظهر على أساس من الاعتقاد الإلهي، له بُعد سياسي يتمثل بالحكومة، كما أن بُعده الاقتصادي قائم على إقامة القسط في المجتمع، كما وله أيضاً بُعد أخلاقي، ونظام سياسي ألا وهو نظام الحاكمية والتشريع وإدارة البلاد، والذي يسمى بـ "الحكومة الإسلامية".
إذاً علينا أن نعمل للقضاء على الأفكار التي تقول إن الإسلام لا يدعو المسلمين لإقامة حكومة إسلامية، لأن كل شعب يؤمن بالإسلام عليه أن يطالب بحكومة إسلامية ؛ ولا يمكننا أن نتصور أناساً يؤمنون بالإسلام دون أن يؤمنوا بالحكومة الإسلامية.
إن عدم الاعتقاد بالحكومة الإسلامية، مصيبة كبرى قائمة في العالم الإسلامي.
والمسألة الأخرى هي أن العادة قد جرت بتشكيل حكومات مزيفة بدلاً من الحكومة الإسلامية الحقيقية. فكثير من الذين حكموا باسم الإسلام لحد اليوم، إنما كان وجودهم بمثابة تهمة موجهة الى الإسلام.
فعلى العالم الإسلامي ـ اليوم ـ أن يعرف ما هي الحكومة الإسلامية؟ وما لم يعرف ذلك، فمن المحتمل أن تترك الإدعاءات الباطلة لأعداء الإسلام تأثيرها في هذا المجال.

عندما تكون هناك في زاوية من العالم دولة غنية مثل إيران، تسلّط عليها الاستكبار العالمي وخاصة أميركا لفترة طويلة، وكان يعتبرها معقلاً قوياً لحفظ مصالحه، وتحدث فيها ثورة على أساس الإسلام، وترحب الجماهير بالحكومة الإسلامية، وتحكم القرآن في جميع أمورها، فإن هذا الأمر يشكل خطراً على الاستكبار العالمي. ثم إن الاستكبار العالمي لن يتمكن ـ والحال هذه ـ من أن يدّعي بأن الدين هو أفيون الشعوب.

لقد كان هذا الإدعاء قائماً لعشرات السنين، حتى أن البعض قد آمن به. ولكن أي شخص يستطيع ـ اليوم ـ أن يعتقد بأن الدين هو أفيون الشعوب؟ وعندما تقوم أكثر الأفكار الاستكبارية والرأسمالية رجعية بمهاجمة الجمهورية الإسلامية بأحدث الأسلحة، فكيف يمكن اتهام نظامنا بالرجعية؟ وهل يمكن للنظام الذي يدعو الناس الى الاستقلال والحرية، أن يكون رجعياً؟ وهل يمكن للنظام الذي يدعو الناس الى الاستقلال والحرية أن يكون رجعياً؟ وهل يمكن لأعدائنا أن يدّعوا بأن نظام الجمهورية الإسلامية الذي يقف على رأسه إنسان زاهد، إنسان متّقٍ، يجسد حياة الأنبياء، نظام طاغوتي وملكي؟ وهل يمكن لمثل هذا النظام أن يتبع الأهواء والشهوات الدنيوية؟

كيف يريد أعداء الإسلام أن يتحدَّوا نظاماً يدعمه الشعب بكل ما يملكه من طاقات؟

قد يستطيع هؤلاء ـ عبر أحابيلهم ـ أن يوجدوا أنظمة مشابهة، ولكنها تظل مزيفة.

إن خطر تشكيل أنظمة إسلامية مزيفة في العالم الإسلامي اليوم بات كبيراً، وعلى المسلمين أن يأخذوا هذا الأمر بنظر الاعتبار. ومن هنا فإننا نعتقد بوجوب تحديد مفهوم الحاكمية في الدين.

حاكمية الدين

ترى ما معنى حاكمية الدين؟ هل أن الحاكمية تعني السلطة المطلقة لشخص أو فئة معينة على الناس، أم تعني تحمل مسؤوليات كبيرة من قبل بعض الأشخاص الذين يتساوَون مع الآخرين من حيث الحقوق؟ ما هو منشأ هذه الحاكمية؟ وإذا ما تقرر أن يكون هناك شخص أو عدة أشخاص على رأس الحكومة الإسلامية، فبأي المقاييس يمكن لهؤلاء أن يحددوا المسؤوليات لأنفسهم؟

إن الإسلام قد أعطى أجوبة لمثل هذه الأسئلة، فهناك مقاييس فيما يتعلق بمسؤولي الحكومة الإسلامية كي لا يتمكن الأشخاص الذين يفتقرون الى تلك الخصائص من ترشيح أنفسهم للمناصب. فالإسلام لا يسمح بأن يشغل الفاسدون والمستبدون والأوغاد مناصب لهم عبر الحصول على آراء الناس.

إن رأي الناس أمر لا بد منه، إلا أن الشخص الذي له المؤهلات المطلوبة، عليه في نفس الوقت أن يكون تقياً عادلاً وعارفاً بالإسلام. فالشخص الذي يريد إدارة المجتمع، يجب أن يعرف الإسلام معرفة كاملة{أفمَن يهدي الى الحق أحق أن يُتّبع أمّن لا يهدّي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون} (يونس، 35) .

نعم، من الضروري أن يكون الحاكم الإسلامي عارفاً بالدين وواعياً، ومَن يملك هذه الشروط ويتميز بالتقوى وضبط النفس يستطيع أن يرشح نفسه. ثم يصل الدور الى الناس ليبدوا رأيهم فيه، فإذا لم يوافقوا عليه، فلن يكون حكمه شرعياً، إذ أن الإسلام لا يقبل بفرض أية حكومة على الناس.

إن حكومة الله في النظام الإسلامي ممزوجة بحكومة الناس، ولذلك فعندما نقول "جمهورية إسلامية" فهذا يعني أن حفظ القوانين والأحكام الإسلامية لا يتناقض ونظام الجمهورية وانتخاب الناس.

والسؤال المطروح هو: كيف يجب أن تكون أخلاق الحاكم، ونوع الحكومة؟

إن التقرب الى الناس والتحدث معهم والعيش مثلهم، هي من المقاييس الأخرى لمسؤولي الحكومة الإسلامية. وأينما سُمِع اسم للحكومة الإسلامية فيجب البحث عن هذه المقاييس، وكلما روعيت هذه المقاييس اقتربت تلك الحكومة من الإسلام.

ومتى ما اقترنت حاكمية الكفر والفسق وسلطة المستكبرين العالميين وحفظ المصالح النفطية وغير النفطية لناهبي الشعوب، باسم الإسلام، فإن اسم الإسلام ـ آنئذ ـ لن يتعدى التزوير.

نحن لا نقبل بأي شكل من الأشكال أن تكون هناك حكومة إسلامية في ظل حاكمية أميركا والإتحاد السوفياتي وبقية القوى العظمى. لذلك فإن الحكومة الإسلامية (أي القسم الأساسي من الكيان السياسي للعالم السياسي) والتي تراعى فيها كافة السياسات الإسلامية الأخرى ومن بينها {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً} (النساء، 141) .

ومن جملة السياسات الأخرى{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم... } فهذه السياسات يجب أن تكون قائمة، لنتأكد من أن الحاكمية هي حاكمية إسلامية.

ومن الأساليب الأخرى، التي يلجأ إليها أعداء الإسلام والمتسلطون على العالم كسلاح ضد حاكمية الإسلام، هو تجريد الإسلام والفكر الإسلامي من الإخلاص والنزاهة والأصالة الإسلامية، فمتى ما ظهرت حركة إسلامية حقيقية قائمة على الإيمان والفكر

الإسلامي، وضع الى جانبها تيار إسلامي آخر، ولكن بأفكار التقاطية ؛ ومن هنا كان على المسلمين أن يأخذوا هذه المسألة بنظر الاعتبار.

ولو راجعنا تاريخ الحركات الإسلامية منذ القرن التاسع عشر والى اليوم، لرأينا أن مثل هذه التيارات كانت موجودة. على سبيل المثال إن الإنجليز أسسوا مدرسة إسلامية ذات اتجاهات غربية، مقابل مدرسة دار العلوم في الهند التي كانت مبلّغة حقيقية للإسلام. ومثل هذه الأمور حدثت في بلادنا أيضاً، فمثلاً نجد الذين أنهَوا دراساتهم في الغرب، مزجوا الإيمان الإسلامي بالثقافة والإيديولوجية الغربية، وهذا ما خدم النظام الحاكم آنذاك والذي كان يخاف الإسلام الأصيل.

إن التيار الإسلامي في بلادنا والذي يستند الى الكتاب والسنّة، يتعرض اليوم لهجوم القوى العالمية. ولو لم يكن ملتزماً بالكتاب والسنّة لما كان يواجه مثل هذا الهجوم من قبل الأعداء.

لقد بذلنا منذ انتصار الثورة الإسلامية، جهوداً كثيراً لحفظ الإسلام المستنبط من الكتاب والسنّة، وصونه من التيارات الالتقاطية (الشرقية منها والغربية) . فلن نقبل الإسلام الممزوج بثقافة الأجانب، ونعتقد أن مثل هذه الأفكار لن تشكل خطراً على الاستكبار.

وعلى أي حال، فمن الأجدر بالعالم الإسلامي ـ اليوم ـ بنفوسه البالغة ما يقارب مليار شخص، أن يفكر بالحكومة الإسلامية على أنها فكر عملي وجدي.

الجمهورية الإسلامية تحقيق عملي للإسلام

أيها الإخوة الأعزاء، إذا كان الأمل للمفكرين الإسلاميين قبل 50 عاماً متمثلاً بتأسيس عدد من الجامعات الإسلامية، وإذا كان هدف المفكرين الإسلاميين في يوم ما المشاركة في المؤتمرات العالمية بغية طرح الأفكار الإسلامية، فإن الوضع يتباين اليوم بدرجة كبيرة.

فاليوم تقوم في نقطة حساسة من العالم، حكومة على ضوء الكتاب والسنّة، وإن أمل تشكيل الحكومة الإسلامية لم يعد أملاً بعيداً. لذا فإن الشعوب الإسلامية لو دُعيت لتشكيل حكومة إسلامية، لما كان لها الحق في التزام السكوت وإظهار العجز.

إن الشعراء والخطباء والعلماء والكتّاب والفنانين الذين لهم دوافع إسلامية في قلوبهم، لا يحق لهم ـ اليوم ـ أن يلجأوا الى مكان آخر غير الإسلام، ويرووا عطشهم وعطش مخاطبيهم من ينبوع آخر غير ينبوع الإسلام، ذلك أن تحقق الإسلام أمر عملي، وإن الجمهورية الإسلامية في إيران هي نموذج لذلك.

نحن لا ندّعي تشكيلنا حكومة أشبه بحكومة الرسول الأكرم (ص) ، ولكننا ندّعي بأننا نمضي الى الأمام نحو حكومة الرسول الأكرم (ص) .

إن عالمنا الراهن هو عالم المجاميع، حيث أن القوى العظمى والدول الصغيرة في أجزاء متعددة من العالم تجتمع معاً لتحقيق أغراضها وأهدافها. وعلى هذا الأساس توجد في العالم اتحادات ومجالس ومعاهدات وأحلاف كثيرة، وإن أكثر تلك المجاميع ضعفاً هي منظمة المؤتمر الإسلامي.

ماهية منظمة المؤتمر الإسلامي

إنني وباعتباري رئيساً لدولة عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي أصرح من هنا بأن هذه المنظمة هي أكثر المنظمات العالمية ضعفاً وهزالاً وأكثرها فقداناً للتأثير الدولي، لها لا تدافع عن حق المسلمين، ولا تفكر في إيجاد الحلول لمشاكل العالم الإسلامي، كما ولا تتخذ أي مواقف تجاه أعداء الإسلام، ولا تبلّغ للإسلام.

إن الدولة الوحيدة التي ترفض الدستور والموازين العرفية في حالة تناقضها مع الفقه الإسلامي، تتمثل اليوم بالجمهورية الإسلامية، وإن النظام الوحيد الذي يستند في أحكامه وقوانينه الى الكتاب والسنّة هو نظامنا.

إن مجلس الشورى الإسلامي لن يصادق على أي قانون لا يتفق والفقه الإسلامي، على أنه حتى لو تمت المصادقة عليه، فإن مجلس صيانة الدستور يرفضه.

ترى ما هو الدعم الذي قدّمته منظمة المؤتمر الإسلامي (التي تضم مجموعة من الدول الإسلامية) الى الجمهورية الإسلامية التي تعمل لتطبيق الأحكام الإسلامية؟! وإذا كانت هذه المنظمة تدافع عن الإسلام حقاً، أليس من الأفضل لها أن تدافع عن بلاد يقوم نظامها على الأحكام الإسلامية؟! ولماذا لا ترد هذه المنظمة على الأجهزة الإعلامية العالمية التابعة للصهاينة والتي تتآمر على الثورة الإسلامية في إيران؟!

إن ما يقارب الـ 90 % من مجموعة أجهزة الإعلام العالمية المعروفة، هي ـ اليوم ـ في قبضة الصهاينة، وتتآمر على الجمهورية الإسلامية، وتتمثل إحدى وظائفها الأساسية مقابل المبالغ التي تتسلمها، بترويج الدعايات السيئة حول الثورة الإسلامية.

استمعوا الى إذاعات العالم لتعلموا كيف أنها تبث سمومها ضد الثورة الإسلامية، وكيف أنها تشوه الحقائق.

وإذا كانت الدول الإسلامية صادقة في ادعائها بأن منظمة المؤتمر الإسلامي جاءت للدفاع عن الإسلام، فلمَ لا تتصدى هذه المنظمة للدعايات المغرضة التي تقوم بها الصهيونية ضد الجمهورية الإسلامية؟

حسناً إننا لا نطلب من المنظمة أن ترد على هذه الدعايات، ولكن لماذا تحالفت وسائل إعلام أكثر الدول الإسلامية مع أعداء الإسلام، وراحت تطلق الدعايات ضد الثورة الإسلامية؟!

إن جميع المسلمين الحريصين على الإسلام والمؤمنين بالجمهورية الإسلامية، ملزمون بالتصدي لمثل هذه المؤامرات التي تحاك في العالم الإسلامي.

وأنتم أيها المفكرون والعلماء الإسلاميون، طالبوا بالتصدي لجميع المؤامرات التي تحاك في الدول الإسلامية ضد الجمهورية الإسلامية في إيران.

إننا على حق، وإذا كان من الممكن أن تقضي هذه المؤامرات على الجمهورية الإسلامية، لكننا قد متنا ـ الى اليوم ـ سبع مرات.

هذا ونحن في كل يوم يمر على عمر هذا النظام نحقق مكسباً جديداً، ونعلم بأن هذه المنجزات إنما تتحقق بفضل الله وعونه وتضحيات هذا الشعب الشجاع.

وعلى هذا الأساس فإن الاعتقاد بحاكمية الإسلام يجب أن يكون متزامناً مع الدفاع عن الجمهورية الإسلامية.

إنني آمل أن يتوصل الإخوة الأعزاء المشاركون في هذا المؤتمر الى نتائج جيدة بعونه تعالى.

إن هذا المؤتمر لهو ساحة جيدة للتدارس حول الحكومة الإسلامية. وإننا رغم تشكيلنا للحكومة الإسلامية، ما زلنا بحاجة لمثل هذه البحوث.

نسأل الله أن تتحقق الحكومة الإسلامية في الدول الإسلامية الأخرى. نحن أول تجربة في هذا المجال، ونأمل أن تغنينا التجارب القادمة.

الحكومة الإسلامية في ظل ولاية الفقيه

الحمد الله رب العالمين، الحمد الله مالك الملك، خالق الخلق، باسط الرزق، فالق الإصباح، ديّان الدين، رب العالمين، والحمد الله على حلمه بعد علمه، وعلى طول أناته في غضبه وهو قادر على ما يريد. والصلاة والسلام على نبي الرحمة ورسول الهدى والسلام، وبشير رحمة الله ونذير نقمته، سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه المنتجبين.

قال الله الحكيم في كتابه{بسم الله الرحمن الرحيم يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد... } (ص،26) .

أبدأ بالترحيب بضيوف "عشرة الفجر" وبالفضلاء والعلماء المشارين في هذا المؤتمر القيّم، وكذلك بجميع الإخوة المحترمين والأخوات المحترمات، أرحب بكم جميعاً أيها الأعزاء..

يُعقد هذا المؤتمر في ظروف يمر العالم فيها بواحدة من أكبر أزماته التاريخية التي تؤدي عادة الى ظهور تطورات ضخمة، وهي أزمة تشتد تفاقماً يوماً بعد يوم.

لقد شهدت النظم الاجتماعية والأمم على امتداد التاريخ وفي فترات متباعدة حالات من هذا القبيل، وهي حالات ترى فيها الأمم الذكية وشخصياتها التي لها ما يكفي من الذكاء والفطنة بشائر ببزوغ يوم أفضل وحالة فضلى.

وعلى الرغم من أن الأزمة الحاضرة ـ بما فيها من مشقة وحرارة وثقل وظلام وصعوبة ـ لا تصيب عادة إلا الشعوب الضعيفة، وعلى الرغم من أن هذه الشعوب الضعيفة هي التي تتحمل التضحيات في خضم هذا التناحر العالمي العنيف والمتزايد، فإن موطن هذه الأزمة ومسقط رأسها في مكان آخر، إن بؤرة هذه الأزمة تقع في قلب النظم القائمة على المدنية المادية. إن أفضل المرض هناك، وأولئك هم المرضى الحقيقيون، وإن الخطر الحقيقي في نهاية المطاف يتهددهم هم.

في الواقع إن أخطار هذه الأزمة التي أشرت إليها إنما تهدد الأنظمة القائمة على الصناعة والمدنية المادية، وتلك الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المبنية على الحضارة المادية والإيديولوجية المادية (شرقية كانت أم غربية) . إن الزلزلة ستقع هناك، على الرغم من أننا نشهد آثارها ومشاكلها وأزماتها وأمراضها، كما قلت، في أفريقيا وفي الشرق الأوسط وفي آسيا وفي بلدان أميركا الوسطى وأميركا اللاتينية. غير أن المرضى الحقيقيين هم أولئك، وأعراض المرض بادية عليهم، إنها إخفاق المدنية الصناعية المادية في إدارة أمور الإنسان، إنها الأمراض المستعصية المنتشرة في أوروبا وأميركا، كالتضخم والبطالة والفساد الاجتماعي المستحكم، وضروب من الاختلالات النفسية التي تزرع اليأس في الجيل الشاب وتشيع الخمول بين قوى المجتمع النشطة، وتجعلهم يركضون وراء التافهات من الأمور والخاويات من الأفكار، ومن ثم التحول الى الجريمة. هذه دلائل سوء في المجتمع، وظهورها في أي مجتمع دليل على أن ذلك المجتمع قد أصيب بالشلل، ولم يعد قادراً على إدارة شؤونه، وخاصة إذا عرفنا أن تلك الأمراض ليست سريعة الزوال، بل إن تلك المشاكل والاختلالات خرجت من نطاقها الضيق الخاص بالمحللين والمختصين الى حيث المؤسسات العامة والناس، ففضلاً عن كونهم يلمسون تلك الأمارات والآثار بكل وجودهم فإنهم يحسون بها في أفكارهم وعقولهم أيضاً، بما ينطبق تماماً مع الآية الشريفة{ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس... } (الروم،41) .

هذه هي حصيلة ذلك الحطب الأخضر الذي باعه مؤسسو التمدن المادي، الغربيون والشرقيون، للناس والأجيال، إن دخانه اليوم يعمي عيونهم هم ويهددهم بالزوال والفناء.

غير أن الشعوب، من جهة أخرى، قد استيقظت، وهذا أمر مهم وجديد. إن هذه اليقظة تختلف عن يقظة الشعوب في أواسط النصف الأول وأواخره من القرن العشرين فيومئذ كان الناس يصحون، ويغادر المستعمرون البلاد المستعمرة، وتقام أنظمة أسمَوها بالأنظمة الوطنية أو الشعبية لتحل محل المستعمرين. إلا أن الخديعة التي ألبسوها على الناس، والمكر الذي مكروه بهم، قد زادا الناس خبرة وحنكة وشحذا ذكاءهم. إن يقظة المسلمين اليوم يقظة لا يقنعها غير القضاء جذرياً على المشكلات. إن اليقظة اليوم تتخذ وجهة واحدة، وهي الوقوف بوجه الظلم الذي ينزل بعض القوى الاستكبارية في العالم بالشعوب، وذلك هو جوهر القضية، وإن تكن الشعارات تختلف من حيث المكان واللسان.

إن شمال أفريقيا وجنوبها يغليان اليوم، ولكن بشعارات مختلفة ولغات متباينة، أما المطاليب فواحدة. في كلتا الجهتين يعلو الهتاف ضد النظم والحكومات، ضد التمييز العنصري في الجنوب وضد أمور أُخَر في الشمال.

إن أهالي مصر وأهالي أفريقيا الجنوبية يطالبون جميعاً بحكم عادل وباحترام الإنسان حيث يحتقر. إن الإنسان في مصر قد احتقر مثلما احتقر الإنسان في أفريقيا الجنوبية.

لقد هبّت الشعوب اليوم من نومتها، وقد رافقت يقظتها تجربة ناجحة بين شعوب العالم الثالث، تلك هي تجربة إيران الإسلامية.

إن من العوامل الرئيسية في يقظة الشعوب هو وجود نظام يستند الى حركة جماهيرية، ويعتمد مقاومة شجاعة لا تعرف الاستسلام للقوى العالمية. إنها جاذبية النظام الجمهوري الإسلامي التي تحيي الأمل في نفوس الشعوب، وكلما مضى يوم ونحن باقون، وهذا النظام باقٍ، والإسلام هو الحاكم الوحيد، ازداد هذا الأمل في الشعوب قوة ورسوخاً.

إن المحاباة لم يُقضَ عليها بعد، والمتشائمين لما تدخل الثقة في قلوبهم، إلا أن مرور الوقت كفيل بتحقيق ذلك، على أن يكون مرور الوقت هذا مصحوباً بحفظ المبادئ، إذ أننا إذا فقدنا مبادئنا نكون قد فقدنا هويتنا الثورية، وهو ما سوف يدعو الى زوال ثقة الشعوب التي تريد أن تجعل من إيران قدوة تقتدي بها.

هذه الظروف العجيبة تكشف عن عظم الكارثة التي تحيق بالقوى العظمى والناشئة عن ضعف أنظمتها القائمة على القوى العسكرية الغاشمة. أي أننا حتى لو افترضنا عدم وجود أي طرف معارض لتلك الأنظمة المتسلطة المادية في العالم، غربية وشرقية، فإنها لا بد لها من الإنهيار والسقوط بسبب بنيتها السقيمة والاختلال والنقص الموجودين في داخلها.

إن هذا النقص الذاتي والبناء المادي السريع العطب والسريع الزوال شبّهه الله تعالى بالكلمة الخبيثة بقوله{ومَثَلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار} (إبراهيم، 26) .

فهي أنظمة غير باقية، لأن تلك الكلمة الخبيثة تفتقر الى الإمكانية الذاتية على البقاء، خاصة وأن الشعوب المظلومة والمستضعفة قد سارعت الى إعلان معارضتها لتلك النظم المادية، كالذي نراه في أفريقيا والشرق الأوسط، في لبنان وفي جنوب آسيا وفي كل مكان في العالم حيث يوجد شعب مستضعف، وهي اليوم أشد من أي وقت مضى. إن ما يعتبر قدوة للشعوب هو النظام الجمهوري الإسلامي، وما من نظام آخر تتخذه الشعوب قدوة لها اليوم. في الماضي كانت هناك نظم لفتت أنظار الشعوب التي كانت تريد صنع نفسها ومستقبلها، أما اليوم فلا. إن البقعة النيّرة التي تتطلع إليها الشعوب وهي تناضل وتضحي وتخاطر بحياتها، هي نظام الجمهورية الإسلامية. والمسلمون من تلك الشعوب أقرب الى ذلك بطبيعة الحال. وذلك لأن المسلمين يرَون أن شخصيتهم الإسلامية المضطهدة المحتقرة قد برزت اليوم في صورة نظام شجاع، مهاجم، مقدام، تقدّمي، مجرّب، ولذلك فإنهم يشعرون بالعزة والفخر.

ظلت الهوية الإسلامية عرضة للمهانة والتحقير سنوات طويلة. وقد أريدَ للمسلمين أن يتركوا هذه الهوية وينبذوها لأنها مجرد خرافة زائدة.

إن الذين استسلموا للضغط وهجروا هويتهم الإسلامية، يشعرون اليوم بالثورة في أعماقهم، وهم يرَون تلك القيم التي اعتبروها قيماً سلبية غدت اليوم قيماً إيجابية فعالة أثبتت وجودها النشط على الصعيد العالمي الواسع. إنهم يحسون بالحاجة الى العودة الى تلك القيم. وهذا هو السبب في ما نشهده اليوم من أن المتنورين، الذي تنكروا للإسلام، عادوا يزحفون نحو القرآن والإسلام الصحيح في كثير من دول العالم، فضلاً عن الشعوب والجماهير المستضعفة التي بقيت محافظة على هويتها الإسلامية والحيوية، وفعالة في إيجابيتها، وشجاعة في مواجهة القوى العظمى، وثابتة لا يعتريها الكلل، ونامية كالكوثر في العطاء، لا يعود يخامرهم الشك لحظة في أن هذه الهوية قيّمة، فيتجهون نحوها، مدركين أنها مصداق الآية{إنا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر} . ذلكم هو الدليل على أن التاريخ يعيد نفسه، فاليوم ذلك التمدن نفسه يطعن القيم الإسلامية والإيمانية، إنه هو "الأبتر"، هو المنتهي الذي لا عقب له. إن الأمة الإسلامية تحس بهذا كله، ولكنه إحساس ليس مقتصراً على الأمة الإسلامية، فالأمم غير المسلمة تحس الإحساس نفسه، وهم كذلك يحبون النظام القوي المقتدر المقاوم لقد أتعبتهم السلطة، ولا فرق بين السلطات فالسلطة الظالمة سيئة بصرف النظر عن نوع النظام الذي تمثله. لذلك فإننا نشهد اليوم التوجه نحو الإسلام وإيران الإسلامية والجمهورية الإسلامية والثورة الإسلامية وشعارات هذه الثورة في بلدان هي تحت سيطرة الشرق والغرب. إننا نشهد هذا الميل فيهم بكل وضوح وثبات ؛ ولا يختلف الأمر مع أولئك الذين نادَوا بالشعارات الاشتراكية في بلدانهم، فهم بعد أن أدركوا فراغ أنظمتهم وضعفها وهشاشتها لكونها بُنِيت على تلك الشعارات، التفتوا بميولهم نحو ذلك النظام المقتدر الصلب المقاوم ؛ ذلك هو نظامكم، نظام الجمهورية الإسلامية.

إنكم وفي مثل هذه الظروف يدور بحثكم حول الحكومة الإسلامية، إنكم تحسبونه بحثاً جافاً، ولكنه ليس بحثاً عقلياً مجرداً. إن البحث في الحكومة من أكثر البحوث واقعية وعملية مما يمكن أن يجري بحثها في العالم.

الحكومة في النظام الإسلامي تعتبر العمود الفقري والدماغ والقلب ومقر قيادة الجسم ومصدر الأوامر للأعصاب، ذلك لأنها أحد العناصر الثلاثة المهمة التي يتألف منها النظام الاجتماعي في النظام الإسلامي. وهذه العناصر الثلاثة هي: الحاكم، والقانون

والناس، فالحكومة تأتي على رأس هذه العناصر الثلاثة. ليس من الممكن أن نفكر بإقامة نظام إسلامي من دون أن نفكر في الحاكم وفي شكل نظامه.

إذا ما ادُّعيَ أنه نظام إسلامي، فإن خير محك لهذا الزعم هو أن ننظر الى حاكمه، وهذا أقرب محك الى متناول اليد. كيف يصح أن يكون الإسلام هو نظام الحياة في بلد ما ثم يكون أهم قسم من هذا النظام ورأسه، وهو الحكومة، بعيداً عن استلهام الأحكام الإسلامية، ولم يتشكل بالشكل الإسلامي؟ إننا إذا أردنا أن نبحث في الحاكم والحكومة علينا أن نبحث بكل دقة وإنعام نظر، ذلك لأن هذا الموضوع يقع اليوم هدفاً للهجوم. إن من المهم للأجيال القادمة ولسائر جماهير العالم أن تعرف أن الإسلام وتحقق نظامه على صعيد الواقع ليس هو وحده الذي يتعرض للتهجم وإخصام على يد القوى العظمى وأعدائه، إنهم يهاجمون حتى وجوده الذهني في الأفكار، إنهم يحاربونه في كل جبهة تظهر فيها حكومة إسلامية، وها هي أمامكم إيران الإسلامية كمثال على ذلك. إن قوى العالم بلا استثناء لم تترك وسيلة تؤذي بها هذا البلد وهذا الشعب وهذه الحكومة وهذا النظام إلا استعملتها، ولم تترك طريقاً لإظهار العداء لهذا البلد وهذه الأمة إلا سلكته، بما في ذلك حياكة المؤامرات، والحرب، والاعتداء العسكري، ونشر الشائعات والأراجيف، والمقاطعة الاقتصادية. هذه كلها كانت كافية لتطيح بأي نظام آخر. غير أن مناعة هذا النظام ناشئة من القرآن الذي حفظه من الإنحراف يساراً أو يميناً لاستمالة فريق من الناس.

هذه الهجمات قد وجهت الى وجود الحكومة الإسلامية العيني. إلا أن مهاجمتها في وجودها الفكري لا يقل عن ذلك عنفاً، ويتمثل هذا في تحريف مفهوم الحكم الإسلامي. وهو ليس بالأمر الجديد، فقد كان على امتداد التاريخ. فباسم الحكم الإسلامي وإمامة المسلمين، في عهد السلاطين العباسيين والأمويين، حدثت أمور ضد "أئمة العدل" كما يصفهم الشاعر الإسلامي المجاهد "الكميت الأسدي" في إحدى قصائده التي يقول فيها:

ساسة لا كمَن يرى رعية الـ ـنـاس سواء ورعية الأنعـام

من هذا يبدو أن الذين كانوا على رأس الحكم يومذاك، والذين يعرّض بهم الكميت، كانوا لا يميزون بين رعي الناس ورعي الأنعام، ومنذ ذلك اليوم أناس ارتكبوا مثل تلك الأعمال باسم حكم الإسلام والحكومة الإسلامية، واليوم ما يزال هذا التحريف في مفهوم حكم الإسلام باقياً في الأذهان بشكل أو بآخر.

لقد أثار عالم اليوم الكثير من اللغط حول تحريف مفهوم الحكومة الإسلامية. فمرة يشبّهونها بالحكم الكنسي في الفترة المظلمة من تاريخ أوروبا، ومرة يقولون إنها حكم رجعي ومتخلف لا يؤمن بالتطور ومرة ثالثة أنها ضد العلم، ورابعة أنها ضد المدنية، أو يسمونها بأنها تعارض حقوق المرأة التي تؤلف نصف سكان المعمورة، لو أنهم استطاعوا بكلمة واحدة أن يدخلوا في الأذهان أن النظام الإسلامي يعارض منح المرأة حقوقها، لتمكنوا من إثارة نصف سكان العالم ضد هذا النظام، وإذا ما صدّقت النسوة بهذا فمن البديهي أنهن لن يقفن الى جانبه.

كثيرة تلك الأساليب التي مارسوها والتهم التي ألصقوها بالنظام الإسلامي والحكومة الإسلامية لتحريف حقيقة الإسلام، ولهذا كان لا بد من القيام بعمل جاد في هذا السبيل. إن الآيات القرآنية كثيرة بهذا الشأن، وكذلك المصادر الإسلامية أيضاً، فعلى المفكرين الإسلاميين والعلماء المسلمين أن يشمّروا عن ساعد العمل، فلو أنهم تناولوا هذه المسألة وحدها بالشرح والتوضيح، لكان له أثر كبير في تهيئة عقول الأمم والشعوب لمعرفة الحق. وهذا ما حدث فعلاً في بلدنا، فخلال الخمس عشرة سنة من نضالنا الثقافي والسياسي كانت أشد ضربة أنزلناها بالتصورات التي أشاعها النظام الشاهنشاهي السابق هي بحث الحكومة الإسلامية وشرحها، سواء في الدروس التي كان يلقيها إمام الأمة في النجف الأشرف، أم في البحوث التي دارت حول هذه المسألة كمقدمة لها، فكانت هذه تدخل في أعماق مجتمعنا، يتناولونها بالدرس والفهم والاستيعاب. إن البحث في هذه القضية مهم وينبغي أن لا نستصغر شأنه. إننا في هذا النظام الجمهوري أقمنا الحكومة الإسلامية، وإن لم ندَّعِ أنها أقيمت بصورتها المتكاملة، ولكننا ندّعي بأننا نتخذ الاحتياطات التامة للتقيد بتطبيق أحكام القرآن، وإننا ندرك أن الحركة نحو تكميل هذا النظام حركة تدريجية، وإننا سائرون على الدرب نحوه، إذ أن هناك الكثير من المسائل لم نحلها بعد.

إن أول مسألة برزت أمامنا في باب الحكومة في نظام جمهوري إسلامي، وارتسمت في أذهاننا جميعاً باعتبارها شعاراً إسلامياً وعَلَماً من أعلام الحكم الإسلامي، هي القول بأن الإنسان قد ولد بطبيعته حراً، وليس هناك تحت الشمس إنسان يحق له أن يحكم إنساناً آخر. وكان هذا في نظرنا جزءاً من البديهيات والمسلّمات الإسلامية. والأمر كذلك أيضاً في النصوص الإسلامية، فقد جاء في الآية الكريمة{وتلك نعمةٌ تمنّها عليّ أن عبَّدت بني إسرائيل}(الشعراء، 22) ، وكذلك ورد عن أمير المؤمنين علي (ع) قوله "لا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حراً".

وهذا هو مضمون آيات قرآنية متوافرة ومتواترة. وفي هذه الآية التي ترد على لسان موسى (ع) مخاطباً فرعون، القصد من تعبيد بني إسرائيل هو التسلط عليهم وحكمهم واضطهادهم دون اهتمام بمشاعرهم. إن الإسلام يمنع كل أنواع التسلط المعنوي والمادي على الناس، ما دامت هذه السلطة غير منتهية الى الله. يقول الله سبحانه{إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} (التوبة، 31) .

أي أن سلطة الأحبار والرهبان الفكرية والروحية تعتبر ربوبية، فهي ممنوعة. كذلك سلطة فرعون المادية سلطة ربوبية ممنوعة.

إن الحكم على الناس الله وحده سبحانه، كما جاء في الآية الثانية على لسان يوسف (ع){... إن الحكم إلا الله أمَرَ ألاّ تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيِّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون} (يوسف، 40) .

ولعل السبب في أن أكثر الناس لا يعلمون هو أنهم قد اعتادوا على غير ذلك، إنهم اعتادوا على أن يحكمهم أفراد من البشر فليس بمقدورهم أن يتصوروا أن أياً من البشر، مهما تكن قدرته وثروته، ومهما يكن شرف قبيلته ونبل نسبه، لا يمكن أن يتسلط على جمع من البشر ويحكمهم {ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون}.

وفي الآية التي أوردتها في صدر كلامي، يخاطب الله سبحانه وتعالى داود (ع) قائلاً{يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض} أي لولا "الإرادة" الإلهية في "جعل" داود خليفة، لما كان لداود الحق في هذا على الرغم من كل فضائله ومقامه.

وفيما يتعلق بالأنبياء جاء في سورة البقرة{كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه... } (البقرة، 213) . ههنا تعيّن أن النبي يحكم بين الناس لا بحسب ما يهوى ويشتهي بل وفق الكتاب، فهو الحاكم وهو ميزان الحكم. إن هيكل النظام العام يقرره كتاب الله، والنبي قد "جعله" الله القائم بتنفيذ ما جاء في الكتاب. وهذا هو المبدأ الثاني من مبادئنا المقبولة عندنا.

أي أننا بعد أن قبلنا بأن أفراد البشر لا حق لهم في أن يحكم بعضهم بعضاً وأن كل حكم من هذا القبيل لا ينتهي الى الله يكون حكماً غاصباً وغير منطقي، نعود لنبحث عما يجب أن يعتمده الحاكم الإلهي عند الحكم، وهو كتاب الله، وهذا هو "القانون" الذي يعتبر العنصر الثاني من العناصر الثلاثة في الحكومة الإسلامية والنظام الإسلامي. فالحكم يجب أن يكون على وفق ما جاء في كتاب الله.

والحاكمون هم الأنبياء الذين نصّبهم الله، أو الأوصياء الذين ينصّبهم النبي. أما عندما لا يكون هناك حاكم نصّبه رسول الله (ص) ، كزماننا هذا، فلا موجب للاختلاف حول إمام منصوب بين القائلين بنصب خليفة بعد رسول الله (ص) والقائلين بعدم نصب خليفة بعده. لم يعد اليوم معنى في وجود ذلك الاختلاف حول العثور على الحاكم الإسلامي، لأننا سواء أقلنا بالتنصيب أم لم نقل، فإن الإمام الحاكم المنصوب لا وجود له، فعلينا أن نبحث عن المعيار.

ترى ما هي تلك المعايير التي إذا توفرت في فرد حقّ له أن يحكم من قبل الله. إن مثل هذا الفرد يجب أن يحكم بكتاب الله، ويجب أن يكون عالماً بالكتاب إذ لا يمكن أن يحكم بكتاب الله مَن لم يكن عالماً به، ولـمّـا كان عليه أن يربي الناس ويهذبهم ـ وهذا من شؤون الأنبياء، وعلى الحاكم الإسلامي أن يكون كذلك أيضاً ـ فلا بد أن يكون هو نفسه قد تربى وتهذب، ولهذا تجب مراعاة العلم والعدالة في الحاكم الإسلامي. إن الإمام أو القائد ـ وهو تعبير دقيق وكامل عن الحاكم الإسلامي ـ لا بد وأن يكون عالماً بكتاب الله، أي يجب أن يكون متفقهاً في الدين، ولا بد وأن يكون عادلاً، لا يتّبع هوى نفسه، ذلك لأن الله تعالى أمر نبيه داود (وسائر الأنبياء) قائلاً به{ولا تتّبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله} لأن اتباع الهوى هو أصل الفساد في المجتمعات، وبناءاً على ذلك فلا بد للحاكم الإسلامي من أن يتجنب الوقوع تحت تأثير هوى نفسه، وهذا لا يكون إلا بالعدالة، فتكون نفسه مصونة عن الميل الى الدنيا، فلا تجذبها المطامح الدنيوية.

هذه الشروط والمؤهلات لم ترد بصورة تفصيلية في النصوص الإسلامية ولا في الكتاب والسنّة، إنما هي: حكومة الفقيه وولاية الفقيه التي اخترناها محوراً وقاعدة لبناء نظامنا الجمهوري وأعلنّا عنها. حكومة الفقيه هي حكومة العالم بعلم الكتاب، العالم بالدين، ولكن لا كل فقيه، فالعالم الذي يقع تحت تأثير هوى نفسه لا يمكن أن يدير شؤون البلاد، وبالإضافة الى العلم والتهذيب، أو العلم والعدالة، لا بد وأن تكون له القابلية على الإدارة، وهذا شرط عقلي، كما جاء في القرآن الكريم في حكاية طالوت{... إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤتَ سَعةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم... } (البقرة، 247) ، وبديهي أن البسطة في الجسم لا تعني القوة الجسمية والبنية السليمة فحسب بل لعلها تعني أيضاً العقل السليم والقدرة على الإضطلاع بأعمال الإدارة، وحتى لو لم تعنِ ذلك فإنها شرط لا بد منه.

هذه أمور نرى لزوم توفرها في الحاكم وعلى أساسها تم اختيار الحاكم، فالولي الفقيه أو ولاية الفقيه مبنية على هذا الأساس، وبموجبه اختير الولي.

وهكذا نكون قد وجدنا الحل لقضية الحاكم والقانون، فالحاكم هو ذلك الإنسان الذي اختير على وفق المعايير والموازين، وهي موجودة في القرآن. والقانون هو ما أشير إليه في القرآن وما وجب حتى على الأنبياء اتباعه دون أن يصدروا حكماً من عندهم ؛ فالكتاب فيه قوانين الدين والوحي الإلهي.

العنصر الثالث هو الناس، أترانا في النظام الإسلامي قد أهملنا الناس؟ كلاّ أبداً، فالناس عنصر رئيسي في النظام، هم الذين ينتخبون، وهم الذين يعيّنون، وهم الذين يرجع إليهم في التشاور وفي اتخاذ القرارات. إن الناس في الواقع هم أصحاب الاختيار

والاختيار حقيقة موجودة.

إن في انتخاباتنا اختلافاً مبدئياً عن الانتخابات الديمقراطية الغربية ـ وإن كانت التسمية تُطلق عليهما كليهما ـ وهي تختلف عن الديمقراطية الشرقية اختلافاً رئيسياً أيضاً، على الرغم من أنها في ظاهرها انتخابات ديمقراطية.

في الديمقراطية الغربية يحق لجميع الناس أن يشتركوا في الانتخابات وأن ينتخبوا مَن شاؤوا، أي لا وجود لشروط خاصة في المنتخَب ؛ فإذا استطاع شخص فاسد أو فاسق أو ضعيف أن يعلن عن نفسه، بالمال أو بالإغراء، فيحرز أصوات بعض الناس، فإن النظام لا اعتراض له على ذلك. أما في النظام الإسلامي فالأمر ليس كذلك، فثمة شروط لا بد وأن تتوفر في المنتخبين، والناس ينتخبون ممن تتوفر فيهم تلك الشروط أو الموازين، ومَن لا تنطبق عليه تلك الموازين لا يرشح للانتخاب.

أما في الديمقراطية الشرقية فالأمر أسوأ، إذ أن الانتخابات لا تجري بين الناس جميعاً، فحق الانتخاب مقصور على أعضاء الحزب. بل يمكن القول في كثير من الحالات إنه حتى أعضاء الحزب لا يحق لهم الانتخاب، بل إنه مقصور على كبار النخبة من الأعضاء فقط.

أما في نظام الجمهورية الإسلامية فالانتخاب حق للجميع، أو للأكثرية القريبة من الإجماع، فيما يتعلق بانتخاب القائد، على شرط أن يكون فقيهاً عادلاً وحائزاً على الشروط الأحَر، كالقدرة والإدارة والتدبير والإيمان بخط الثورة الإسلامية وغير ذلك مما هو مدوَّن في دستور الجمهورية الإسلامية المعمول به حتى الآن، فالناس ينتخبون واحداً من بين هؤلاء، ومَن يفز بأكثرية أصوات الناخبين المطلقة يكن هو القائد للأمة.

أما بالنسبة للحكم فللناس دورهم في انتخاب مجموعة لنظام كامل، كما أن للقيم دورها، وللأحكام الإلهية دورها أيضاً. وهذا هو النظام النبوي. ذلك أننا عندما ندرس تاريخ الأنبياء نجد أن أهم عمل قاموا به هو التعليم والتزكية وإدارة شؤون المجتمع. هذه هي الأعمال الثلاثة التي كان الأنبياء يضطلعون بها: تعليم الناس المعارف الإلهية، والمنظور الإسلامي، والأحكام الإلهية، وتربيتهم، وتزكيتهم، ورعاية مواهبهم، وإعداد الناس لكي يديروا شؤونهم بأنفسهم، ومن ثم إدارة شؤون المجتمع الذي تكون إدارته من شؤون الأنبياء، ما دام فيهم نبي، بحسب الحكم الإلهي.

إن لدينا اليوم هذا النموذج، ولكن كما قلت هنالك بون بين هذا النموذج وما يمكن أن يكونه النموذج الثالث، إلا أن هذا البون ينبغي أن يتضاءل يوماً بعد يوم، وأن تردم الهوة التي تفصل بينهما حتى يتطابقا معاً.

لقد كنا نعلم بالطبع أن مجرد وجود نظام كهذا سيؤلب علينا القوى العظمى والسلطات الاستكبارية، وكنا ننتظر حملاتها، وما زلنا ننتظرها حتى الآن. لم يخطر لنا ببال أن القوى العظمى في العالم سوف ترفع أيديها الأثيمة بسرعة عن هذا النموذج الإسلامي الحي، ولا نحن نتوقع ذلك منها، بل الذي نتوقعه هو استمرارها في التهجم والهجوم، بمثلما كان الحال في صدر الإسلام كما جاء في القرآن الكريم{ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصَدَق الله ورسوله.. } (الأحزاب، 22) .

فهم لم يستغربوا حشود الأحزاب لأنهم كانوا يتوقعونها. ونحن اليوم كذلك، فكلما ازدادت حساسية الاستكبار الشرقي والغربي من جهتنا وازداد تكالبه علينا، زاد إيماننا بحقانيتنا وبأننا خطر حقيقي على الاستكبار العالمي، ولذلك راح يلقي بثقله ضدنا.

واليوم وبعد أن وصل تكالب الاستكبار علينا الى أقصى درجاته، فقد وصل إيماننا ـ بفضل الله ـ الى أقصى درجاته أيضاً.

ها أنتم اليوم أمام هذا النموذج العيني القائم لنظام حكومة إسلامية يمكن تحليلها، وها هي مسألة مهمة يمكن فيها للإخوة والأخوات المشاركين والمشاركات في هذا المحفل، والعلماء الأجلاء المحترمين في الجلسة، أن تتظافر مساعيهم لتحليل هذه المسألة على أحسن وجه، ففي ذلك عون لنا على إيصال نظامنا الى الكمال، وستكون حصيلة هذه التحليلات موضع التطبيق عندنا، كما أن فيه أيضاً تنويراً لسائر الأمم.

إنني أطلب وأرجو من العلماء المحترمين والخطباء والمتنورين في الدول الإسلامية في العالم أن يتناولوا موضوع الحكومة الإسلامية بالشرح والتوضيح للناس، فهذا من أهم المواضيع التي يجب أن تُدرس وتُبلّغ لعموم الناس. عليهم أن يبيّنوا للناس مدى المسافة التي تفصل واقع الحياة حولهم عن الحقيقة التي يريدها الإسلام ويريدها الله.

إن هذا هو الذي يحدو بنا الى أن نقدّر هذا الاجتماع الجليل القيّم وأن نجلّه، سائلين الله تعالى أن يوفقكم، أيها الإخوة وأيتها الأخوات، آملين أن تعرض في جلساته العامة وفي لجانه في أيام انعقاده بحوث نافعة تعمل على تحسين المعرفة بالقضايا الخاصة بالحكومة الإسلامية.

مرة أخرى أرحب بضيوفنا الأعزاء، وعلى الأخص ضيوفنا الأجانب من الدول الإسلامية وغيرها ممن تفضلوا بقبول دعوتنا للمشاركة في هذا المؤتمر، وكذلك أرحب بضيوف عشرة الفجر، سائلاً الله تعالى التوفيق لكم جميعاً أيها الأعزة، وكذلك للقائمين على أمر هذا المؤتمر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

حقوق الإنسان في الإسلام

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهرين المنتجبين وصحبه المهتدين..

إن مسألة حقوق الإنسان هي إحدى المسائل الأساسية المهمة، كما أنها من أكثر قضايا الإنسان حساسية، فقد اتخذت في العقود الأخيرة أبعاداً سياسية فضلاً عن أبعادها الأخلاقية والحقوقية. ومع أن تدخل الأهداف السياسية والتكتلات والمواقف السياسية قد وضع عقبات ومشاكل عديدة أمام الطرح الصحيح لهذه المسألة، إلا أن كل ذلك يجب أن لا يثني المفكرين والمهتمين بالأمر عن مواصلة دراسة حقوق الإنسان وحل مشكلاتها.

وفي الغرب هذه المسألة قد تم إحياؤها من قبل المفكرين، فهي ومنذ نحو مئتي عام تتصدر قائمة المسائل السياسية والاجتماعية للعالم الغربي، حتى أضحت مسألة مهمة نجد بصماتها على الكثير من الانقلابات والتغييرات السياسية والاجتماعية.

وقد بلغ هذا الاهتمام الغربي ذروته خلال العقود الأخيرة، فكان صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وتأسيس منظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مصداقاً عينياً للاهتمام بقضية حقوق الإنسان في العالم، ويمكننا اتخاذ هذا المصداق مقياساً نستند إليه في تحليلنا وحكمنا على ما سمعناه من شعارات وضجيج عن حقوق الإنسان خلال المئتي عام الأخيرة، وخاصة خلال العقود الأخيرة.

وطبيعي أننا نحن المسلمين نعلم جيداً أنه إذا كان الغرب قد أولى هذه المسألة اهتماماً كبيراً خلال العقود الماضية، فإن الإسلام كان قد اهتم بها وبأبعادها الواسعة والشاملة منذ قرون عديدة. فقد عالجها بشكل أساسي وجذري، وهذا ما نلاحظه في الكتب والآثار الإسلامية الموجودة والتي لسنا بحاجة الى تفصيلها الآن ما دمنا نتحدث الى جمع من المسلمين.

إن الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم والأئمة (عليهم السلام) أكدت جميع حقوق الإنسان التي تنبّه إليها العالم واهتم بها خلال العهود الأخيرة، وهي تحظى دوماً باهتمام المسلمين والعلماء، وهم ليسوا بحاجة الى التذكير بها وتكرارها. وفي ختام حديثي، سأذكر بأن على المجتمع الإسلامي اليوم مسؤولية تعريف العالم بهذه الحقيقة الإسلامية الوضّاءة لكي لا يدع هذه الأصالة الإسلامية تضيع وسط أعاصير الضجيج والأجواء السياسية المفتعلة على الصعيد العالمي.

هنا تطرح عدة أسئلة نفسها، وتشكل الإجابة عنها، هدفنا من هذا البحث. من المؤكد، أيها المفكرون والباحثون، أنكم ستقدمون خلال هذا المؤتمر بحوثاً عميقة ونافعة حول الجوانب والأبعاد المختلفة لحقوق الإنسان، وهذا بحد ذاته سيكون ذخراً للعالم الإسلامي يمكنه من الإطلاع على الموضوع من منظار إسلامي.

السؤال الأول هو: هل كانت المحاولات التي جرت خلال القرنين الماضيين، وخاصة خلال نصف القرن الأخير، منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن وتحت اسم حقوق الإنسان، موفقة أم لا؟ وهل استطاعت كل هذه التصريحات والاجتماعات والمؤتمرات من جانب هيئة الأمم المتحدة والإذاعات حول حقوق الإنسان أن توصل البشر الى حقوقهم الحقة؟ أو في الأقل هل استطاعت إعطاء الإنسان الجزء الأكبر من حقوقه؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، فمجرد الإطلاع على حقائق عالمنا اليوم، يكفي لإثبات إخفاق كل ما بذل في هذا المجال لحد الآن، ونظرة عابرة لوضع المجتمعات المتخلفة التي تشكل النسبة الأكبر من سكان العالم ستثبت لنا أن أكثر البشر لم يحصلوا خلال نصف القرن الأخير على حقوقهم، وليس هذا فحسب بل إن أساليب سلب حقوق الإنسان والشعوب المحرومة قد تطورت وتعقدت وأصبح من الصعب علاجها. نحن لا يمكننا تقبّل ادعاءات منظمات حقوق الإنسان ولا ادعاءات هؤلاء الذين يدّعون مناصرة حقوق الإنسان، بينما نحن نشاهد الواقع المر لشعوب أفريقيا وآسيا، وجوع ملايين البشر، وحرمان العديد من الشعوب من أبسط حقوقها الاجتماعية. إن هؤلاء الذين رفعوا عقيرتهم خلال الأربعين عاماً الماضية دفاعاً عن حقوق الإنسان إنما هم أنفسهم قد سلبوا ولا زالوا يسلبون حقوق الشعوب المحرومة في العالم الثالث، واليوم نشاهد حكومات وأنظمة تسلّمت السلطة في العالم الثالث تستند الى تلك القوى نفسها وتنتهج طريقها نفسه في انتهاك حقوق الإنسان في بلدانها.

إن الحكام الجبابرة الذين كثر عددهم خلال نصف القرن الأخير في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، لا يستطيعون انتهاج الدكتاتورية دون الاعتماد على القوى الكبرى في العالم، والقوى الكبرى هي نفسها التي ترفع عقيرتها دوماً بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان، وهي التي أسست الأمم المتحدة التي لا زالت حتى اليوم خاضعة لسيطرتها.

إن تفشي الفقر والجوع والموت في العديد من دول العالم، إنما هو نتيجة التدخل والظلم والإغتصاب الذي تقوم به هذه القوى. فمَن الذي أوصل أفريقيا المليئة بالخيرات الى ما هي عليه اليوم؟ ومَن الذي استغل شعبي بنغلادش والهند لسنوات طوال وأوصلهما الى هذا الوضع بحيث يتفشى فيهما الجوع والموت بينما تملكان من الخيرات والبركات ما شاء الله؟

ومَن الذي ينهب ثروات دول العالم الثالث ويطوّر تكنولوجيته وصناعته ويجمع الأموال الطائلة على حساب الفقراء والجياع في هذه الدول؟

إن الذين أسسوا منظمة الأمم المتحدة، وأصدروا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذين يواصلون اليوم وبكل صلافة الإدعاء بالدفاع عن هذه الحقوق، هم أنفسهم سبب معاناة الشعوب وتعاستها، وإلا فلماذا تبقى أفريقيا الغنية بالثروات والموارد الطبيعية، وأميركا اللاتينية المليئة بالثروات الطبيعية، والهند الكبيرة الواسعة، ودول العالم الثالث التي تمتلك كل هذه الطاقات البشرية والثروات الطبيعية، لماذا تبقى كل هذه المناطق متخلفة عن مواكبة ركب التطور والتقدم؟

إن الذي يحكم العالم اليوم، هم أصحاب المال والقدرة الذين وضعوا بأنفسهم أسس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وها نحن نرى الوضع المأسوي الذي تعاني منه الشعوب وهي ترزح تحت نير تسلّط هذه القوى ونهبها لها.

منظمة الأمم المتحدة التي تعتبر ثمرة كل الجهود الرامية الى حفظ حقوق الإنسان، ما الذي عملته للشعوب، وماذا تفعل اليوم؟ وفي أية قضية سياسية أو كارثة كبرى أصابت الشعوب استطاعت هذه المنظمة أن تلعب دوراً فعالاً وإيجابياً؟ ومتى نهضت هذه المنظمة لدعم المظلوم؟ ومتى استطاعت هذه المنظمة منع القوى الكبرى من مواصلة سياساتها الظالمة؟ إن هذه المنظمة أكثر تخلفاً من الكثير من الدول والشعوب. فعلى الرغم من كل هذه الإدعاءات، فإنكم تشاهدون في أفريقيا اليوم نظاماً عنصرياً، بل إنكم تشاهدون التمييز العنصري داخل الدول المتقدمة نفسها. إذاً فمنظمة الأمم المتحدة لم تفعل شيئاً من أجل حقوق الإنسان، إذ قُصر دورها في المشاكل العالمية على التوصيات والإرشادات فقط كما تفعل أية كنيسة.

وفي منظمة الأمم المتحدة، يوجد مجلس الأمن الدولي الذي يعتبر النواة المركزية للمنظمة ومركز القرار، وفيه تمتلك الدول الكبرى حق النقض (الفيتو) فتستطيع الدول الكبرى نقض أي قرار يتخذه المجلس ضد المتسببين في إضعاف الشعوب وإبقائها متخلفة. إن منظمة الأمم المتحدة وكل المنظمات التابعة لها، سواء أكانت ثقافية أم اقتصادية أم فنية أم غيرها.. خاضعة لتأثير القوى الكبرى. وقد شاهدتم الضغوط التي مارستها أميركا ضد منظمة اليونسكو الثقافية بسبب مجيء رجل مسلم الى رئاسة المنظمة يسعى الى إبقائها مستقلة ؛ فقد شاهدتم خلال السنتين الماضيتين حجم الضغوط التي مارستها أميركا ضد هذه المنظمة ورئيسها.

إذاً فالأمم المتحدة، باعتبارها ثمرة كل الجهود التي بذلت من أجل حقوق الإنسان، تراها اليوم عقيمة لا فائدة منها، بل إنها تتصرف أحياناً وكأنها ملك للقوى الكبرى. ومع ذلك فإننا لا نرفض وجود الأمم المتحدة أساساً، بل نعتقد أنها يجب أن تبقى، ولكن يجب أن يجري إصلاحها، فنحن أيضاً عضو فيها. والذي أريد قوله هو إنه بعد كل تلك الجهود والضجيج والإدعاءات، وبعد كل تلك الآمال التي عُقدت على هذه المنظمة، نشاهد اليوم مدى عجز هذه المنظمة عن تأمين حقوق الإنسان، وهكذا فقط اتضحت الإجابة عن السؤال الأول، إذ يمكننا القول: إن الجهود التي بُذلت من أجل حقوق الإنسان خلال القرون الأخيرة قد باءت جميعها بالإخفاق.

السؤال الثاني هو: هل كانت كل هذه الجهود صادقة ومخلصة؟

من الواضح أن هذا سؤال تاريخي قد لا تكون له آثاره العملية، ولهذا فلن نطيل البحث والتفصيل فيه، ونكتفي بالقول إن أغلب هذه الجهود لم تكن مخلصة. صحيح أنه كان من بين المتصدين لهذا الأمر مفكرون وفلاسفة ومصلحون، إلا أن السياسيين كانوا يتحكمون بكل شيء حتى أن جهود بعض المصلحين أصبحت بالنتيجة تصب في مصلحة تجار السياسة. ففي الماضي، كان الذين يطلقون نداءات الدفاع عن حقوق الإنسان هم الأنبياء والحكماء وأمثالهم، أما اليوم فنشاهد هذه النداءات تصدر عن السياسيين، ولهذا فمن حقنا أن نشك في صدقها وإخلاصها. أنظروا مَن الذي ينادي بحقوق الإنسان اليوم، فالرئيس الأميركي السابق إتخذ من ضمان حقوق الإنسان شعاراً ليصل بواسطته الى الرئاسة، وفي أيام رئاسته الأولى كان يظهر من أحاديثه وتصريحاته أنه يريد العمل بجد بهذا الخصوص، إلا أنه وقف في النهاية الى جانب أظلم الحكام المعارضين لحقوق الإنسان وأقساهم وأشرسهم في المنطقة، فقد وقف الى جانب الشاه والصهاينة المتسلطين على فلسطين وسائر المستبدين المعروفين في هذا العصر.

إن الحكام ورجال السياسة الذين يرفعون عقيرتهم اليوم بالدفاع عن حقوق الإنسان في المؤتمرات والمحافل الدولية، ليسوا بأفضل ممن سبقوهم إذ أننا لا نشاهد الصدق والإخلاص في تحركاتهم. فالذين وضعوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وعلى رأسهم أميركا، كانوا يسعَون الى فرض سلطتهم وهيمنتهم على العالم. إن هؤلاء هم أنفسهم الذين قتلوا عشرات الآلاف من البشر بالقنبلة الذرية، وهم أنفسهم الذين زجّوا بأبناء الهند والجزائر وأفريقيا في جيوش تخوض حروباً لا علاقة لها بهذه الدول من قريب ولا من بعيد. نعم إننا لا يمكن أن نصدّق أبداً أن روزفلت وتشرشل وستالين وأمثالهم قد فكروا يوماً بحقوق الإنسان

الحقيقية، أو أنهم كانوا صادقين ومخلصين في تأسيسهم منظمة الأمم المتحدة وإصدارهم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

إذاً، فقد اتضح الجواب عن السؤال الثاني، وهو أننا نعتقد أن تحركات السياسيين ومساعيهم وأغلب النداءات والصرخات الداعية الى إعطاء الإنسان حقوقه لم تكن صادقة أبداً.

أما السؤال الثالث، وهو السؤال الأساسي فهو: ما هي أسباب كل هذا العجز والإخفاق في هذه المساعي؟ إن هذه النقطة يجب أن تحظى بقدر أكبر من اهتمامكم، وسأتناولها أنا هنا باختصار. فنحن نعتقد أن ما يطرح اليوم باسم حقوق الإنسان إنما يطرح في إطار نظام معْوَجّ وخاطئ، ألا وهو نظام الهيمنة، نظام الظلم، وهو ما يؤمن به أولئك الذين أوجدوا الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذين يرفعون اليوم عقيرتهم ويملأون الدنيا شعارات دفاعاً عن هذه الحقوق، كما يؤمن به أيضاً ـ مع الأسف ـ أغلب الحكام والسياسيين في العالم، ويتلخص معنى هذا النظام في أن هناك مجموعة من الناس تهيمن على الباقين ويجب أن تبقى مهيمنة. هذا النظام تتبعه ثقافة الهيمنة. فالعالم اليوم مقسّم الى قطبين أو مجموعتين: مجموعة المهيمنين، ومجموعة الخاضعين لهذه الهيمنة، فالمجموعة الأولى تعتقد بأن نظام الهيمنة يجب أن يسود، والثانية رضيت بهذا النظام وخضعت للهيمنة. وهذا هو الخلل الكبير في الوضع العالمي اليوم. فالذين يرفضون هذا النظام والذين يتمردون على الوضع الاجتماعي والسياسي السائد في العالم، هم أولئك الثوار التحرريون أو دول قليلة جداً، وهؤلاء يتعرضون لضغوط مستمرة، والجمهورية الإسلامية خير مثال على ذلك، فقد رفضت نظام الهيمنة بكل أشكاله، ورفضت هيمنة أية جهة أو دولة أو مجموعة، سواء أكانت شرقية أم غربية. وقد شاهد الجميع ما واجهته الثورة الإسلامية خلال سنيّ عمرها الثماني من ضغوط سياسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية بسبب اتخاذها الموقف الصادق والجاد والمستقل من نظام الهيمنة.

فإن كانت هناك بعض التقدمية تقف بوجه الهيمنة الغربية والأميركية، فسنلاحظ أنها تميل الى المعسكر الشرقي بنسب متفاوتة، فبعضها يرتمي بشكل كامل في أحضان المعسكر الشرقي وروسيا، وبعضها الآخر يميل الى هذا المعسكر مع وضوح الاستقلالية في الكثير من مواقفه وسياساته.

إن الدولة الوحيدة التي رفضت الرضوخ لضغوط أية قوة، هي الجمهورية الإسلامية بشعبها وكل قواها، فقد رفضت نظام الهيمنة جملة وتفصيلاً. فنحن نعلن موقفنا الصريح والواضح وبدون أي تحفظ من أية حالة هيمنة تمارسها قوة أو فئة ضد شعب من شعوب العالم.

إن أكثر العالم رضي بنظام الهيمنة، فأنتم تلاحظون أنه حتى الحكومات الخاضعة للهيمنة، تملك الجرأة على الوقوف بوجه القوى الكبرى ومواجهتها، بينما نحن نعتقد أن هذا الأمر ممكن ويسير.

نحن نعتقد أن الدول الفقيرة، والدول التي رضخت للهيمنة والدول التي أجبرت على الرضوخ للهيمنة رغم امتلاكها القدرات والثروات، بإمكانها الوقوف بوجه القوى الكبرى إن أرادت ذلك، وهذا الأمر يسير لا يحتاج الى معجزة، إذ يكفي حكومات هذه الدول أن تعتمد على شعوبها.

إن ضعف نفوس وإرادة بعض الحكام، وخيانة بعضهم الآخر أدّيا الى خضوع هؤلاء لنظام الهيمنة، فهذا النظام هو الذي يسيّر الاقتصاد والثقافة والعلاقات والحقوق الدولية، وطبيعي أن تكون مسألة حقوق الإنسان قد انطلقت من هذه النظرة، ووجدت وتنامت في إطار هذا النظام. فالذين ينادون بحقوق الإنسان في الغرب ويسعَون الى إعطاء مواطنيهم بعض الحرية الشكلية والإمكانات الرفاهية، يقومون هم أنفسهم بقتل آلاف البشر من الدول الأخرى، فما الذي يعنيه ذلك غير سيطرة ثقافة الهيمنة على عقول هؤلاء؟ إنهم يقسمون الإنسان في العالم الى نوعين: الأول/ إنسان يجب الدفاع عن حقوقه، والثاني/ إنسان بلا حقوق، يجوز قتله واستعباده واغتصاب ثرواته. هذه هي ثقافة الهيمنة المسيطرة على العالم، وحقوق الإنسان المطروحة اليوم، إنما هي وليدة هذه الثقافة.

هذا هو إطار حقوق الإنسان في عالمنا اليوم، والذي تعمل القوى الكبرى بواسطته على تعميق الهوة بينها وبين الدول الضعيفة، وتزيد من ضغوطها عليها، لتسرع هي في تطورها وتقدمها العلمي والتكنولوجي.

إن الأقمار الصناعية تدور اليوم حول الأرض لتجمع الأسرار والمعلومات الخاصة بالدول والشعوب، فبأي حق يتم كل هذا؟ إن جميع المحادثات واللقاءات بين الناس على سطح هذه الأرض تخضع للإنصات من قبل أولئك الذين يملكون التفوق التكنولوجي ولتجسسهم، فبأي حق يتم هذا؟ هل سأل أحد عن ذلك؟ هل مَن يعترض على ذلك؟ بما أن أميركا تملك أقماراً صناعية إذاً فمن حقها استخدام هذه المعلومات المستحصلة، والجميع يرضخ لذلك! ترى أليس التجسس على أحاديث الآخرين وأسرارهم اعتداءاً على حقوقهم؟ وهل قام أحد بطرح هذا السؤال على أميركا وروسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا؟ ونحن نسأل: هل يمكن طرح مثل هذا السؤال؟ ويأتي الجواب بالنفي، لأن الجميع سيقولون إن هذه الدول تملك القوة والقدرة ويجب أن تقوم بذلك.

إن مسألة القنبلة النووية واستخدام السلاح النووي تُطرح اليوم على الصعيد العالمي، تطرحها الدول الكبرى نفسها لأن كلاً منها تخاف الأخرى، فتقوم بافتعال الضجيج واللجوء الى كل وسيلة لخداع الأخرى ودفعها الى التقليل من تسليحاتها النووية، بينما

تقوم هي بزيادة تسليحها. ترى هل فكرت الدول الصغيرة بأن تعلن للدول المنتجة للأسلحة النووية بأنها ستقطع علاقاتها معها وستقطع عنها مواردها وتسهيلاتها وإمكاناتها ما دامت تواصل انتاج هذا السلاح الذي يحمل خطراً كبيراً يهدد البشرية بالفناء في أية لحظة؟ هل فكرت دول عدم الإنحياز وسائر الدول بأن تشكل محوراً معارضاً لانتاج الأسلحة النووية؟ بالطبع لا. ولو أنكم عرضتم عليهم هذه الفكرة لقالوا إن هذه الدول تملك تكنولوجيا متطورة وباستطاعتها انتاج هذه الأسلحة. إن هؤلاء قد استسلموا واقتنعوا بنظام الهيمنة الذي بات مقبولاً من كلا الجانبين: المهيمنين والخاضعين للهيمنة في وقت واحد.

نحن نشاهد في المحافل الدولية أن ممثلي الدول تدهشهم إدانتنا للشرق والغرب ويعتبرون ذلك تهوراً من جانبنا بينما هو موقف طبيعي من شعب مستقل، وعلى الشعوب جميعاً سلوك نفس هذا النهج، كما أن على الحكومات أيضاً أن تتخذ هذا الموقف الذي تتركه وللأسف.

نخلص الى القول بأن ثقافة الهيمنة، تعتبر اليوم أكبر آفة وخطر يهدد العالم كله، خاصة الشعوب المستضعفة.

إن القوى الكبرى، وفقاً لثقافة الهيمنة تسمح لنفسها بنقض حقوق الإنسان حيثما شاءت، فهي تهاجم غرينادا وتساند الصهاينة الذي يقتلون الأبرياء في لبنان، وتساند ـ مع بعض الدول الأوروبية ـ النظام العنصري في جنوب أفريقيا في ظلمه واضطهاده لأصحاب البلد الأصليين، أما لو نهض شخص في إحدى بقاع العالم وتمـرّد على هذا الوضع غير المتوازن، فقام بتفجير قنبلة أو عملية ثورية، او قاد حركة ضد هذه المعادلة غير المتوازنة، لتعرَّض للإدانة، ولألصقت به صفة الإرهاب، بينما الإغارة على ليبيا وقصف منزل رئيس دولة والاعتداء على أراضي دولة أخرى لا تتعرض لأية إدانة.

عندما يتحدث هؤلاء عن الإرهاب يطرحون عمليات أفراد مظلومين نهضوا غاضبين، من فلسطين ولبنان ودول أفريقيا وأميركا اللاتينية، ويبعدون الأذهان عن الاعتداءات والانتهاكات والإرهاب الذي تمارسه أميركا وبريطانيا وسائر القوى الكبرى. إن هذه هي ثقافة الهيمنة التي تسيطر، مع الأسف، على أذهان البشر.

في ثقافة الهيمنة، تعطي المصطلحات معاني تتلاءم مع نظام الهيمنة، فمثلاً يطرح معنى الإرهاب بشكل بحيث لا تعتبر الإغارة على ليبيا وتهديد نيكاراغوا والهجوم على غرينادا، مصاديق له، هذا هو الخطأ الكبير في عالمنا اليوم.

إذاً، فسبب عدم نجاح كل المحاولات والمساعي المبذولة باسم حقوق الإنسان من قبل المخلصين الصادقين والحريصين على هذه الحقوق، يكمن في أنهم يطرحون هذه الحقوق في إطار نظام الهيمنة وثقافتها، وفي هذا الإطار يريدون وضع حقوق الإنسان، وهذا أمر مستحيل. إذ يجب تحطيم هذا الإطار، أولاً تجب إدانة نظام الهيمنة ورفضه جملة وتفصيلاً حتى يمكن فهم مسألة حقوق الإنسان، والسعي من أجل ضمانها بالشكل الصحيح.

وهنا نصل الى السؤال الرابع والأخير وهو: ما العلاج؟

برأينا يكمن العلاج في جملة واحدة هي: العودة الى الإسلام والوحي الإلهي. إنها الوصفة الطبية النافعة للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء. إن على المجتمعات الإسلامية أن لا تفكر بغير هذا، عليها أن تحيي القرآن والفكر الإسلامي وتستنبط القوانين والأحكام من المصادر الإسلامية (القرآن والسنّة) فذلك كفيل بتحديد معالم حقوق الإنسان ومصاديقها، ومساعدتنا في ضمان هذه الحقوق. ولأجل إعطاء الإنسان حقوقه علينا ترك التوصيات والنصائح، فهي عديمة الفائدة،{خذوا ما آتيناكم بقوة} فلقد أعطى الله هذه الحقوق للإنسان وعليه أخذها بكل قوة. على الشعوب أن تعتمد على الفكر الإسلامي في مواجهة الهيمنة والضغوط، وهذا الكلام لا يصدر من إنسان يجلس في زاوية المدرسة يفكر بالمسائل والنظريات الإسلامية، بل إنه صادر عن ثورة خاضت تجربة ناجحة ولمست حقائق عديدة، فثورتنا تجربة تقدم نفسها لكل الشعوب. أنا لا أقول إننا استطعنا حل كل مشاكلنا، فبسبب الثورة واتجاهنا نحو الإسلام اختلقوا لنا مشاكل عديدة، إلا أننا استطعنا إنهاء مشكلة الهيمنة، وشعبنا اليوم مستقل عن جميع القوى، ويمكنه اتخاذ أي قرار يريده بكل حرية واستقلالية. وطبيعي أن أمام شعب يريد التحرر من كل أنواع التبعية طريقاً طويلاً وشاقاً، لكن التبعية التي لا تقترن بالهيمنة هي أمر طبيعي يمكن تحمله، وواضح أن ثورتنا وجمهوريتنا الإسلامية قد ورثتا مجتمعاً مدمراً واقتصاداً منهاراً وثقافة منحطة، لقد ورثت ثورتنا. إيران كانت خلال الستين عاماً الأخيرة معرضة للغزو من كل صوب وعلى الأصعدة كافة، ولا يتوقع أحد أن الثورة ستستطيع التعويض عما فات إيران على الصعيد الثقافي والأخلاقي والاقتصادي والعلمي والصناعي في فترة وجيزة، ونحن أيضاً لا ندّعي ذلك.

إننا نعتقد أنه إذا استطاع شعبنا الوصول الى مستوى مادي عالٍ، فيجب أن يتم ذلك في ظل الاستقلال والاعتماد على النفس واستخدام جميع إمكاناته المادية والبشرية.

إن الذي يمكن أن ندّعيه بكل ثقة، هو أن الجمهورية الإسلامية لم تعد تخضع لأية هيمنة أو ضغوط سياسية من جانب أية قوة، وليس بإمكان الضغوط السياسية التي تمارس ضدها تغيير نهجها وخطها، ولا التعديل من مواقفها أو إجبارها على الاتجاه نحو إحدى القوى الكبرى، إننا حررنا أنفسنا من سلطة القوى الكبرى وهيمنتها، وهذا بحد ذاته تجربة غنية.

نحن نعتقد أن أفضل النماذج لحقوق الإنسان في الإسلام هو حق الحياة، وحق الحرية، وحق التمتع بالعدالة، وحق التمتع

بالرفاهية، وسائر الحقوق الأساسية التي أعطاها الإسلام للإنسان قبل أن ينتبه لها المفكرون الغربيون.

إن علينا أن نعود الى الإسلام، وعلى المفكرين الإسلاميين الإضطلاع بمسؤولية البحث والدراسة في مجال حقوق الإنسان خاصة، والنظام الحقوقي بشكل عام، وهذا ما أخذه هذا المؤتمر على عاتقه والذي سيكون خطوة على هذا الطريق، وستستمر هذه الجهود إن شاء الله على مستوى عالٍ لتتمكن الشعوب من التمتع بهذه الحقوق، وطبيعي أن بإمكان الحكومات مساعدة شعوبها في هذا الأمر بشرط أن لا تراعي رغبات القوى الكبرى، وهذا ما لا نشاهده الآن بكل أسف، فأغلب الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية تقع تحت تأثير القوى الكبرى، وأغلبها تحت تأثير الغرب وأميركا، ولهذا فإن جميع مواقفها وقوانينها لا تتماشى مع الموازين والأحكام الإسلامية وإرادة شعوبها، وهذا المؤتمر الذي عقد في الكويت مثال بارز على ذلك، فقد رأيتم كيف أنه لم يبحث القضايا الأساسية والمصيرية للمسلمين، بل ذهب الى طرح قضية وإصدار البيان الختامي بشأنها وهي لا تتفق والإسلام، فبدلاً من أن يدينوا العراق ويطردوه من المؤتمر بسبب اعتدائه على إيران ووقوفه بوجه بلد مسلم، وبدلاً من كشف دور القوى الكبرى في تأجيج هذه الحرب، فإنهم أبدَوا رضاهم عن العراق باعتباره ـ حسب قولهم ـ يلبي نداء السلام ؛ متجاهلين بذلك واقع هذه القضية وحقيقتها، ومتناسين أن دفاع شعب عن حقوقه أحق أن يُشاد به، وامتثال نظام معين لرغبات الاستكبار العالمي في الوقوف بوجه ثورة شعبية إسلامية أحق أن يدان.

إن هذه البيانات والقرارات ووجهات النظر خاوية لا تستند الى المبادئ والقيم الإسلامية، كما أنها تفقد أية أهمية، فليس هناك شعب ينتظر ما ستتخذه قمة الكويت من قرارات لكي يفرح أو يحزن لها، أي أن هذه المؤتمرات وهذه القرارات بعيدة عن الواقع والأصالة الإسلامية وطموحات الشعوب لدرجة أنها تواجه بعدم اكتراث من قبل الشعوب، فليس هناك من شعب متعطش لما سيصدر عن القمة الإسلامية، ليحدد واجبه على غرارها. لماذا يصل تجمع يضم ستاً وأربعين دولة، على مستوى القمة، الى هذه الدرجة من الخواء والضعف؟ إن السبب يكمن في أن أغلب هؤلاء الرؤساء يقعون تحت تأثير القوى الكبرى، وما دام رعب هيمنة هذه القوى يسيطر على قلوبهم فلن تصلح حال المسلمين، ولو أردنا إصلاح هذه الحال التي نمر بها اليوم، لكان علينا أولاً طرد ما في القلوب من رعب من القوى الكبرى، وكما قال الباري عز وجل{فلا تخشَوا الناس واخشون} ، وإذا ما حدث ذلك فسينصلح حال الشعوب الإسلامية.

هنا أصل الى نهاية حديثي، وآمل أن يتمكن هذا المؤتمر من قطع خطوات مؤثرة في طريق معرفة الحقائق الإسلامية في مجال حقوق الإنسان، كما آمل أن يؤدي التقاء الإخوة المؤتمرين الى توضيح تجارب الثورة الإسلامية للإخوة غير الإيرانيين ليتسنى لهم دراستها والاستفادة منها ولشعوبها، الإطلاع على ثورة إخوانهم في إيران باعتبارها قدوة ونهجاً يمكن اتباعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

حقوق الإنسان لن يوفّرها إلا الدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين وصحبه المنتجبين المكرمين.

قال الله الحكيم في كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً}.

لابد أولاً وأن أرحب بالضيوف الأعزة، وعلى الأخص الضيوف الذين قدموا إلى هذا الوطن الإسلامي من دول أخرى، وأن أشكرهم على مشاركتهم إيانا في احتفال الجمهورية الإسلامية الكبير بعيدها، بل أكبر أعيادها التاريخية في الواقع. اليوم هو يوم 12 بهمن وبداية "عشرة الفجر"، يوم ورود إمامنا العزيز الجليل إلى البلد الإسلامي، ويوم تصاعد ثورتنا العظيمة. وإني لأرجو أن تكون المواضيع التي تطرح في هذا المؤتمر، والتي طرحت وشرحت في المؤتمرات السابقة، بشأن القضايا الإسلامية الرئيسية ـ وهي في الحقيقة كنز فكري ثمين لنا نحن المسلمين ـ منطلقاً للفكر والتأمل والتدبر، كما أرجو أن تلهم جميع المجتمعات الإسلامية السعي والعمل.

موضوع هذه السنة أيضاً هو قضية حقوق الإنسان، وهي بالطبع قضية مهمة، تتسع لكثير من البحوث الأصلية والكلية والمتفرعة عنها والتي بحث جانب منها في العام الماضي، وسوف يجري البحث هذا العام في جوانب أخر منها.

إنني اليوم إذ أبدأ هذه البحوث، سأتطرق إلى قضية مبدئية على صعيد حقوق الإنسان.

لقد طرحت قضية حقوق الإنسان ـ كما يعلم الإخوة ـ منذ القرن الثامن عشر في أوربا والعالم الغربي كمسألة يدور حولها الكثير من اللغط والكلام والجدل. لقد برزت قضية حقوق الإنسان، قبل الثورة الفرنسية الكبرى، في بعض البحوث الثانوية في كثير من الكتب والمحاضرات والمؤتمرات، ومازالت حتى اليوم من القضايا التي يوليها الغرب الكثير من اهتمامه، وطبيعي أن تبرز من خلال ذلك وجهات نظر جيدة ومفيدة وعميقة.

إننا ـ بالطبع ـ لا نرفض كل ما قاله الغرب بشأن حقوق الإنسان، كما إننا لا نتقبله كله، إذ إن هناك في البحوث الموجودة نقصاً مبدئياً موجوداً في جميع المساعي المبذولة في أرجاء العالم بخصوص حقوق الإنسان، وهو ما سأتناوله بالبحث اليوم. فعلى الرغم من كل الجهود المبذولة، ما زلنا نرى أن قضية حقوق الإنسان من القضايا التي لا حل لها في عالمنا اليوم. أقصد أن حقوق الإنسان ما زالت غير متوفرة حتى الآن.

إنك حيثما تلتفت بنظرك في العالم تجد المحاباة، والقيود، والفقر المفروض، وانعدام الثقافة الاجباري، بل تجد أن حقوق الإنسان تداس بالأقدام في بعض نقاط من العالم على الرغم من المساعي الكثيرة التي بذلت وتبذل في سبيل هذه القضية. فأين الخلل؟ وهذا سؤال مهم.

إنني عندما أشير إلى الغرب ونقص الثقافة الغربية، لا أعني أن الثقافات الأخرى الشائعة في العالم هي خير من تلك، بل أريد القول إن الثقافة الغربية هي ـ في الحقيقة ـ أم الثقافات الشائعة في العالم اليوم، بما فيها الثقافات الماركسية والاشتراكية في العالم الثالث.

من المؤسف أن نلاحظ أن ما يخطط له في الدول المتخلفة بهذا الخصوص يدور حول محور ما يقوله، ويزوقه مفكرو الغرب. بل إن الشعراء والمفكرين والفلاسفة والمصلحين في هذه الدول واقعون تحت تأثير أقوال أولئك المفكرين الغربيين وتزويقاتهم. وثقافة الكتلة الشرقية والفكر الماركسي أيضاً ـ كما قلنا ـ من منتجات الثقافة الغربية، ولذلك فهي واقعة أيضاً ـ وبشكل خاص ـ تحت تأثير تلك الثقافة نفسها. وحتى إذا ما ارتفعت فيها نغمة مضادة تماماً لما يرتفع في الغرب من نغمات، فإن الغرب هو الذي رفعها. كان لينين يقول:

"الحرية تعني ديكتاتورية البرجوازيين. إذن، في قبال تلك الديكتاتورية يجب أن يرتفع علم ديكتاتورية البروليتاريا" الديكتاتورية مرة أخرى. وهكذا ترون أن فكرة ديكتاتورية البروليتاريا لم تكن سوى انعكاس وتأثر بما كان يدور في ذهنه من الثقافة الغربية. وما جذور الثقافة الماركسية إلا نتائج الثقافة الغربية، وهذا أمر واضح لا لبس فيه.

إننا ـ إذن ـ عندما نشير إلى الغرب، فإنما نفعل ذلك بصفته نموذجاً بارزاً نستند إليه. على كل حال، هناك عيب أساس واحد يوجد في جميع ما يعرض اليوم في العالم باسم حقوق الإنسان، سواء أكان ذلك في المساعي العملية، كنشاط المؤسسات التي تبذل جهودها في هذا السبيل، أم في المساعي الفكرية، كالآراء التي يعرضها المفكرون على هذا الصعيد.

وعلى الرغم من الجهود الواسعة التي يبذلها عالم اليوم من أجل حقوق الإنسان ـ وبعض تلك الجهود مدفوع بدافع الإخلاص حقاً ـ فإنها تنطبق عليها الآية الكريمة التالية:

{قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً}.

هذا ـ في الحقيقة ـ يجسد المساعي التي تبذل في العالم من أجل حقوق الإنسان، وقد قلنا إن بعضاً منها مدفوع بدافع الإخلاص. إن المشكلة الرئيسية في نظرنا هي أن أهم حق من حقوق الإنسان قد أغفلته تلك المساعي. إنهم تجاهلوا الأصل وتمسكوا بالفروع. ذلك الأصل هو حق حرية الإنسان في عدم العبودية لغير الله، كالعبودية للقوة، والعبودية للذهب والفضة، والعبودية لمختلف النظم غير الإلهية، هذا هو أكبر حق من حقوق الإنسان، ولكنهم تجاهلوه.

والتوحيد هو ما لا يعثر عليه في كل هذه الجهود. تلك هي المنقصة الكبرى. لا نقصد بالتوحيد مجرد الذهنية المحضة فقط، بل التوحيد بصفته فكراً اجتماعياً، أو مشروعاً لبناء العالم وبناء المجتمعات البشرية.

أما التوحيد بمعنى أن الحكم الله على جميع شؤون حياة الإنسان، فهذا ما نجد مكانه خالياً في العالم. وحيثما لا يكون الحكم الله، يكون الحكم لغير الله. وحيثما لا يكون الإنسان عبداً الله، يكون عبداً لغير الله. وهذا تضييع لأكبر حق من حقوق الإنسان. إن المفكرين والفلاسفة والسياسيين، الصادقين في أقوالهم وفي أعمالهم ـ لا الكاذبين ـ الذين يريدون اليوم أن يضمنوا حقوق الإنسان، فيسعون للحصول على حقوق الأسرة، أو حقوق المرأة، أو حق التقاعد، البطالة، أو التأمين، ولكنهم لا يتجهون لضمان حق الإنسان الأصلي، أي حقه في الحرية الحقيقة. تلك هي عقدة المسألة. ولهذا فإننا نسيء الظن بالجهود التي بذلت منذ السابق وحتى الآن من أجل حقوق الإنسان. إننا لا ننكر وجود جهود مخلصة، بل ونكرر قولنا هذا، فنحن لا نشك في وجود مثل هذه المساعي، ولا يمكن أن نخطئ الذين كتبوا كتابات جيدة، وأبدوا آراء طيبة، وعرضوا مُثُلاً قبولة.

نعم، لا نشك في أن هناك جهوداً مخلصة، ولكننا نسيء الظن بقيادات الحركات الكبرى التي تجري في العالم باسم حقوق الإنسان. إننا نلحظ وجود أيدٍ غير مخلصة، طامعة في حياة الإنسان وراء تلك الحركات، ولهذا تجاهلت هذا الحق الأساس للإنسان ونبذته جانباً. وإلا. لو كانوا مخلصين حقاً في نظرتهم، لرأوا هذا الحق الأصلي للإنسان أمام أعينهم.

في القرن التاسع عشر كانت المبادرة بشأن الحرية الفردية في أيدي الانجليز، فهم الذين حملوا لواء تلك النهضة، ومن ذلك مكافحتهم الرق في العالم. كانوا يأتون إلى الأقطار الواقعة تحت سيطرتهم فيجبرونها على التوقيع على إلغاء الرق. ترى ماذا كان هدف بريطانيا ـ في القرن التاسع عشر ـ من مواصلة تتبع هذه المسألة؟ لقد كان الهدف هو السيطرة على الممرات المائية الحساسة في العالم وعلى المناطق المحيطة بتلك الممرات، إذ كانت بريطانيا، بقوتها البحرية المتميزة، قادرة على السيطرة عليها باسم ضبط الرقابة على السفن التي تمر من تلك الممرات المائية، وهي تحمل الرقيق.

وهكذا فرضت سيطرتها على التجارة في جميع المناطق التي تهمها، ومنها منطقة الخليج الفارسي، جاءوا إلى بلدان سواحل الخليج الفارسي، ومنها بلدنا الذي كان يومذاك تحت حكم ملوك ضعفاء فاسدين، فأجبروهم على التوقيع على أن يكون للانجليز الحق في مراقبة جميع السفن التي تعبر في الخليج الفارسي وبحر عمان وفي مياه المنطقة كلها، للتأكد من أنها لا تحمل عبيداً أرقاء. وبهذا الاسلوب أمسكوا بزمام التجارة في أيديهم، يمنعون السلع التي لم يكونوا يرغبون في خروجها، وأحياناً كانوا يضغطون على بعض السفن الراغبة في التجارة مع إيران، عند اقترابها من الموانئ الإيرانية فيوجهونها إلى موانئ الهند، وكانوا يشددون الضغط عليهم حتى يحملوهم على هجر التجارة مطلقاً، أو القبول برفع العلم البريطاني على سفنهم. وكان هذا الضغط يتكرر في مناطق أخرى من العالم، وفي البوسفور والدردنيل كانوا يضغطون على الامبراطورية العثمانية لتكرار القضية نفسها. ولعل لواء حرية الفرد الذي كان الانجليز يحملونه كان وسيلتهم في مناطق أخرى من العالم لتوسيع رقعة نفوذهم السياسي. أما لواء الحرية السياسية فقد كان في الغرب بيد الدول الغربية في أوربا وأمريكا.

كان هؤلاء يدافعون عن الديمقراطية والحرية الفردية، وكانوا يفخرون بذلك، ولطالما نعتوا دنياهم في قبال دنيا أعدائهم بأنها دنيا الحرية. ولكن هل هناك في عالم اليوم من لا يعلم أن الديمقراطية والحرية السياسية التي يحمل لواءها الغربيون والدول الغربية، لم تكن إلا مجرد ذريعة وواسطة لتسليط الشركات التجارية ـ التي بيدها وسائل الأعلام ـ على جميع الشؤون السياسية في الدول الأخرى؟ فيأتون بالحكومة التي يريدونها، ويشنون حملاتهم الاعلامية في الوقت المناسب، وينصبون رؤساء الجمهوريات الذين يرغبون فيهم، ويعزلون رؤساء الجمهوريات الذين لا يرغبون فيهم، ويفرضون عليهم سياساتهم، ويدخلون أتباعهم نواباً في المجالس النيابية، ويمررون القوانين طبقاً لمصالحهم، وفي الجو الذي يحس فيه الناس بالديمقراطية بصورتها المزيفة، يفرضون ديكتاتورية فظة وخطرة وظالمة على الناس.

وهذا هو ما يجري اليوم في أمريكا والدول الديمقراطية الغربية، حيث إن الحاكم الحقيقي المهيمن على سائر مصائر الناس هو ـ في الواقع ـ تلك الشركات التي تقبض بيدها على وسائل الإعلام، وتبذل الأموال، وعن طريق بذل المال، والإعلام الواسع الذي لا حدود له، يشكلون الحكومات، ويمرر القوانين في المجالس النيابية، وهم آمنون على أنفسهم من غضب الناس وثوراتهم الناجمة عن غضبهم، وتسمى بلدانهم بالبلدان المستقرة. إن استقرار الدول الغربية يعني أنه لم يعد هناك في تلك الدول من يثور من أجل الحرية والديمقراطية، لأنهم جميعاً واقعون تحت إحساس كاذب بالديمقراطية، دون أن يكون للديمقراطية أو للحرية وجود، لأن لواء الحرية السياسية والديمقراطية كان بيد هذه الدول.

لاحظوا مقدار التزوير الكامن في هذا! وفي هذه الأيام ترفع أمريكا لواء حقوق الإنسان، وعلى الرغم من كل شيء، فما يزال الأمريكيون يظنون أنهم المدافعون عن حقوق الإنسان. وعندما كان الديمقراطيون في الحكم كانوا أكثر من الجمهوريين تبجّحاً بدفاعهم عن حقوق الإنسان، ومن هم هؤلاء؟ هؤلاء هم الذين تجد لهم أصبعاً ملطخاً بالدماء في كل زاوية من زوايا العالم المتخلف. فها هو الخليج الفارسي، وتلك هي فلسطين المحتلة، وأفريقيا، وجنوب أفريقيا، ودول أمريكا اللاتينية، وفي كل مكان آخر في العالم كان هؤلاء هم الذين يحملون لواء حقوق الإنسان على امتداد سنوات طوال خلال القرنين الماضيين. بديهي أن هؤلاء، ليسوا على استعداد لضمان حق الإنسان الأصلي، أي التحرر من غير الله. إن التحرر من غير الله يعني التحرر من هذه القوى نفسها، يعني التحرر من شرور هذه الأنظمة ذاتها.

إنك لتجد اليوم أن أشد الأنظمة رجعية، وفساداً، وظلماً، في العالم تحظى بحماية الذين يدعون الدفاع عن حقوق الإنسان، أي نظام ترونه أنتم من أحطّ الأنظمة وأكثرها ظلماً وعنفاً؟ إسرائيل؟ حسناً، لو لم تسند أمريكا إسرائيل وتحميها لما كانت هذه قادرة على البقاء وإدامة الحياة. إنني أدعي مؤكداً بأنه لو أزيل إسناد أمريكا ودعم الدول الكبرى لإسرائيل، لاستطعنا نحن الدول الإسلامية ـ بكل تأكيد ـ أن نزيل إسرائيل وأن نمحو هذا الاغتصاب والظلم الكبير.

كذلك حكام الدول الإسلامية والعربية الذين يرتبطون بإسرائيل، إنما هم يفعلون ذلك استناداً إلى دعم أمريكا لهم وجلباً لمرضاتها.

هل تعتبرون أفريقيا الجنوبية نظاماً فظاً وظالماً؟ انظروا كيف أن أمريكا وبعض الدول الغربية ليست مستعدة للتوقيع على فرض حظر على أفريقيا الجنوبية هذه ذات النظام العنصري، بل إن الذين يملكون حق النقض ليسوا مستعدين للتخلي عن ممارسته في قرارات مجلس الأمن بهذا الخصوص.

هذه الأنظمة الرجعية المنتشرة في أرجاء العالم، عسكرية كانت أم غير عسكرية، هل تعتبرونها أنظمة عنيفة؟ إن يد امريكا وراءها في الأعم الأغلب.

هؤلاء يطالبون بحقوق الإنسان وحريته. ولكننا حيثما نظرنا على امتداد التاريخ هذه الشعلة وجدنا أن زمام الأمر في أيدٍ مشكوك فيها وذات نيات فاسدة. والذين تكلموا وفكروا أثناء ذلك لم يخرجوا عن إطارهم الفكري، ولم يعنوا بحرية الإنسان ؛ حريته الحقيقة من نير القوى التي لا تعرف الله. وهكذا هي ـ مع الأسف ـ حال المؤسسات غير الحكومية في العالم.

أرى من اللازم أن اخاطب مرة أخرى هذه المؤسسات والمنظمات غير الحكومية التي تقوم بنشاطاتها باسم حقوق الإنسان، فتنذر أحياناً حكومة، أو بلداً، أو مجتمعاً، أو تتهمه، أو تقدم له الوصايا، فأقول لها: إنها بأسلوبها هذا الذي تتبعه، تقطع أمل الجماهير في جميع هذه المؤسسات التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان، ويزداد يأسها منها. ولو كانت هذه المؤسسات تريد مخلصة أن تعمل لكان عليها أن لا تتجاهل حق شعب فلسطين المظلوم. قضية فلسطين ليست من القضايا التي يمكن أن نتجاوزها بسهولة. إنها اليوم أكبر قضايا دنيا الإسلام. إنها قضية شعب مظلوم في عقر داره، وغريب في قلب وطنه. انظروا اليوم، بعد أن نهض الفلسطينيون باسم الإسلام في الأرض المحتلة، كيف يعاملونهم بقسوة وبوحشية. ولكن المؤسسات التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان لا تقوم ـ مع الأسف ـ بواجبها ودورها، وهذا مما يدعو إلى الأسف الشديد. إنني أطلب منكم ـ أيها الإخوة وايتها الأخوات ـ ومن جميع الذين يستطيعون في بلدانهم أن يوصلوا أصواتهم إلى الآذان، أن تعلنوا هذه الحقيقة على الملأ وتبيّنوا أن منظمات حقوق الإنسان، والجمعيات التي تنشأ بهذا الاسم، لم تقم بأي عمل جاد لحماية أكبر حق من حقوق الإنسان من الضياع، وهو حق الشعب الفلسطيني، وهذا دليل على أن تلك السياسات مازالت تسير هذه المنظمات.

إن العلاج وطريق الحل الرئيسي هو العودة إلى الدين الخالص، أي التوحيد. إن ما يستطيع ضمان حقوق الإنسان هو العبودية الله. ففي ظل العبودية الله وحده يمكن دفع مفاسد العبودية للمال والقوة والأهواء النفسية والتحريف. إن على العالم أن يفكر مرة أخرى في الدين الخالص والتوحيد. ولئن أرادت المجتمعات البشرية أن تنجو من ضغوط القوى العظمى، فعليها أن تلجأ إلى قوة الله. إن الإيمان بالله وبالتوحيد الخالص يهب الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ من القوة ما لا تستطيع معها أية قوة مادية إخضاع ذلك الفرد الإنسان أو المجتمع الإنساني ولا تحطيمه. وهذا هو السر الكبير في انتصار ثورتنا. فقبل تسع سنوات، وفي مثل هذا اليوم الذي عاد فيه الإمام إلى البلاد بعد (15) سنة من البعد عن الوطن قام شعبنا ـ من دون أن يحمل أي سلاح، أو أن يتمتع بأي قوة

ظاهرة ـ بمقارعة واحدة من أقوى السلطات الحكومية والعسكرية في المنطقة، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تحمي تلك السلطة ؛ إذ الحماية التي تقدمها الآن أيضاً أمريكا لأنظمة مثل إسرائيل، كانت تقدمها لنظام الشاه وتجهّزه بالإمكانات وتشجعه على استعمال العنف والشدة. والناس ـ في قبال هذا الجبل من القوة الظاهرية سياسياً وعسكرياً ـ لم يكونوا يملكون شيئاً سوى الإيمان وسوى الاعتقاد بالتوحيد الذي كان نافذاً إلى أعماق شعبنا. كان الشعب يؤمن بأن عليه أن يتقبل العبودية الله، وأن يخرج من تحت نير العبودية لذاك النظام الفاسد، وهكذا قرر ونجح.

في تلك الأيام دخل نضالنا مرحلة جديدة ـ بالطبع ـ ولكنه لم ينته. إننا اليوم مازلنا في حالة نضال، فالقوى العظمى التي كانت تدعم نظام الشاه ما كانت لترفع يدها عنا بسهولة، ولا ترفعها الآن. وما الحرب التي فرضتها علينا بواسطة العراق إلاّ استمرار لتلك الضغوط نفسها. إن ما يجري علينا اليوم في العالم وفي السياسات المخالفة للإسلام إنما هو تابع لتلك الضغوط والمعارضات. إن دنيا القوة والمال ـ دنيا الاستكبار ـ قد استولى عليها الغضب من رؤية الإسلام ينال مثل هذا الانتصار العظيم. إن الاستكبار مرتبك ويسعى لجعل انتصارنا ناقصاً لا يصل إلى أهدافه، وكل هذه الضغوط التي يتحملها اليوم شعبنا ناجمة عن ذلك. ولكننا بالاعتماد على الله مازلنا صامدين، وهذه القوة جاءتنا من التوحيد ومن الإيمان بالله.

هنالك عوائل بين الناس قدمت عدة شهداء في سبيل الله، ولمعرفتهم بأن ذلك في سبيل الله ؛ لم ولن يعتورهم التعب. هذه هي القوة العظيمة التي ينالها الإنسان بخروجه من عبودية غير الله. فإذا ما تحقق هذا ؛ تحقق أيضاً سائر الحقوق الأخرى، وعندئذ سوف تحس الشعوب بالحرية، ويومها تذوق المجتمعات طعم حقوق الإنسان.

إن المجتمع الإسلامي يتكفل توفير جميع الحريات وجميع الحقوق الحقة للإنسان. إن المجتمع الإنساني، المجتمع المسلم ؛ يكفل الحرية والرفاه، والعدالة وحقوق الأسرة، والحقوق الفردية والجماعية. المجتمع الإسلامي لا يضيع فيه حتى أتفه الحقوق، والأمثلة على ذلك يجب أن نبحث عنها في صدر الإسلام.

بل إن في مجتمعنا أمثلة غير متكاملة على ذلك، إذ اننا مازلنا في منتصف الطريق إلى المجتمع الإسلامي المتكامل، ولكننا نسير في ذلك الاتجاه. علينا أن نشاهد الصورة الكاملة والدفاع الجميل عن حقوق الإنسان، جميع حقوق الإنسان، في صدر الإسلام، في حياة الرسول الكريم، في أدوار الحكم الحقيقي للإسلام والقرآن على المجتمع. إنه لم يغفل عن أي حق ـ مهما صغر ـ فجميع حقوق أفراد المجتمع مضمونة. إن علينا أن نواصل السعي للوصول إلى ذلك اليوم. إن على مجتمعنا أن يستمر في النضال حتى يبلغ تلك النقطة، والطريق أمامه صعب. كذلك على المجتمعات الإسلامية الأخرى أن تسعى من أجل الحكم الحقيقي للإسلام، وعلى المجتمعات البشرية أيضاً أن تسعى من أجل التحكيم الحقيقي ـ للدين الخالص ـ على أنظمتها، وهذا هو وحده طريق ضمان حقوق الإنسان، فبغير هذا يكون كل شيء ناقصاً.

إن الإخوة الأعزاء والأخوات العزيزات سيسعون خلال أيام انعقاد هذا المؤتمر ؛ مؤتمر الفكر الإسلامي. لأن يدرسوا ـ إن شاء الله ـ مختلف جوانب الموضوع. ولكن الذي أرجوه هو أن يولوا هذا الحق الأساسي من حقوق الإنسان مزيداً من العناية، وأن تتناول البحوث حاجات هذا المبدأ والركن الأساسي.

في ختام كلمتي أرحب مرة أخرى بجميع الإخوة الأعزة الذين شاركوا في هذا المؤتمر، وعلى الأخص أولئك الإخوة والأخوات الذين شرفونا بالقدوم من الدول الأخرى، وأشكر لهم حضورهم.

أرجو أن يتمكنوا في هذا الاجتماع من بذل جهودهم المناسبة، وأن يكون هذا المؤتمر ـ إن شاء الله ـ كنزاً جديداً وثميناً آخر من الأفكار الإسلامية للمجتمعات الإسلامية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

التبليغ والإعلام في الإسلام

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين..
قال الله الحكيم في كتابه الكريم{بسم الله الرحمن الرحيم: الذين يبلّغون رسالات الله ويخشَونه ولا يخشَون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً}.
إنني لمسرور جداً لانعقاد هذا المؤتمر المبارك، مرة أخرى، بمشاركة العلماء الإيرانيين وغير الإيرانيين، الذين قدِموا من أنحاء العالم، وإنني لأبارك لإخوتنا الأعزاء في منظمة الإعلام الإسلامي وأهنئهم على تمكنهم ـ هذه المرة أيضاً، كما هو شأنهم في كل عام ـ من اختيار موضوع مهم وملفت للنظر لطرحه على مائدة الدراسة والبحث في هذا التجمع الكبير.
موضوع البحث في هذه الجلسة هو الإعلام والتبليغ، وهو من المواضيع المهمة والحيوية جداً بالنسبة للعالم الإسلامي. وإنني على يقين من أن الإخوة والأخوات المشاركين في هذا الاجتماع قد قاموا بإعداد بحوث ودراسات مهمة وآنية نافعة، لغرض تقديمها الى هذا المؤتمر، وسوف تُطرح تلك البحوث خلال أيام المؤتمر، وإنني سأطرح على مسامعكم اليوم الخطوط العريضة والنقاط التي أعتقد أن الانتباه إليها في هذا الاجتماع يعتبر أمراً على جانب كبير من الأهمية، وسأقوم بعرضها بشكل موجز.
أولاً ينبغي أن يكون واضحاً للعالم الإسلامي ولكل شعوب العالم، أننا حين نتحدث عن الإعلام والتبليغ ونخطط لهما فليس قصدنا من التبليغ هو ذلك المفهوم الشائع في العالم المادي اليوم والمتداول في جميع المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها..
إن التبليغ الإسلامي ـ من وجهة نظرنا ـ يعني إيصال كلمة الإسلام، ويعني إيصال رسالته الى القلوب، وبأي وسيلة أمكننا ذلك من الوسائل الشريفة والمتناسبة مع المضمون والمحتوى المقدس لهذا التبليغ، أي التوحيد والإسلام.. سواء كانت هذه الوسيلة عبارة عن القول أو العمل، وسواء تم ذلك عبر السكوت أو غيره من الوسائل.
مهما تكن وسيلة الإيصال فإن غرضنا من التبليغ والإعلام هو هذا الأمر، وليس مفهوم الـ (Propaganda) الشائع والمتداول في العالم الغربي، وفي جميع العالم المادي القائم على الخداع وإظهار غير الواقع الحقيقي للآخرين.
التبليغ والإعلام عبارة عن امتلاك القلوب واحتلالها لا العيون والآذان والجوارح، على العكس مما هو شائع في العالم البعيد كل البعد عن المعنويات، إذ أنهم يعتقدون أن الإعلام ـ في الحقيقية ـ هو شيء من قبيل احتلال العيون والآذان والجوارح، وإيجاد جو بجعل الإنسان لا يستطيع أن يدرك الحقيقة بفكره وقلبه ويلمسها.
إننا لا نعتبر هذا إعلاماً وتبليغاً بل نعتبره خداعاً ومكراً، أما إعلامنا فإنه يتم عبر الحكمة والموعظة الحسنة والأساليب الإلهية والإنسانية.
والأمر الآخر هو أن الإعلام ـ بهذا المعنى الذي قلناه ـ قد أصبحت له أهمية استثنائية في العالم المعاصر، إذ رغم أن مواجهة دعوة الحق والتصدي لها كانا قائمين على مر التاريخ وطوال دعوات الأنبياء، وبنفس الطرق والأساليب الموجودة هذا اليوم، إلا أن الوسائل والأدوات المستخدمة في مواجهة دعوة الحق هذا اليوم أصبحت في مستوى من القوة والهيمنة على حياة الناس بحيث أن الوسائل والأساليب التي كانت تؤثر على الإنسان ـ في ذلك الحين ـ بشكل محدود، وفي منطقة محدودة، أصبحت اليوم تملأ كافة أنحاء الحياة البشرية وفي كل مجالاتها وتغطيها، إذ أننا نجد اليوم أن نفس الأساليب التي استُخدمت في التاريخ لمواجهة دعوات الأنبياء (عليهم السلام) وفي مواجهة نبي الإسلام المكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كل تلك الأساليب تشاهد في هذا اليوم كذلك.
في ذلك الحين، كان الكفار ـ كما ينقل القرآن الكريم ـ يطلقون الأصوات العالية ويحدثون الضجيج ليحولوا دون وصول آيات القرآن، وهي رسالة الحق، الى أسماع الناس المتعطشين لها، وتمثل صيحاتهم المرتفعة وصرخاتهم العالية وأصواتهم المتصاعدة ضجة إعلامية هدفها التغطية على صوت الحق والحيلولة دون وصوله الى أسماع الناس.
يقول الله عز وجل{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون} (فصّلت،26) .
من أجل التغطية والتمويه على كلام رسول الله (ص) والحيلولة دون سماعه كان بعض الأشخاص يحدثون ضجة غوغائية مفتعلة، واليوم يتكرر الأمر ويحصل نفس ذلك الشيء الذي حصل آنذاك، ففي تلك الأيام كانوا يتهمون الدعاة الى الحق وينسبون إليهم أهدافاً وغايات باطلة وزائفة وهم منها براء.. كانوا يتهمونهم بالكذب والسحر وبالخداع والمكر وما شاكل ذلك..

واليوم أيضاً يحدث ما يشبه ذلك في العالم... كانوا يحرّضون الناس ضد الدعاة الى الحق آنذاك، ويجعلونهما وجهاً لوجه، ويتظاهرون بالدفاع عن الناس وحمايتهم.

وفي هذا اليوم يقوم الاستكبار العالمي بالعمل نفسه، وأنتم تشهدون هذه الأساليب الاستكبارية المعاصرة.

في ذلك الزمن كان فرعون يقول لشعبه، كما جاء في القرآن الكريم{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} يقصد بذلك موسى (ع) فيتظاهر بالاحتماء بموقع الدفاع عن حقوق الشعب ويحارب داعية الحق، ويزعم ـ كذباً ـ أنه ليس لديه من هدف أو غاية سوى خدمة ذلك الشعب.

وهكذا الأمر، في هذا الزمن، يحدث الأمر ذاته، وتمارس مؤسسات الإعلام الاستكبارية التصرفات الخبيثة والأعمال المؤذية نفسها، وبشكل واسع النطاق، في مواجهة الإسلام، وبشكل خاص في مواجهة الإسلام الثوري وفي مواجهة الجمهورية الإسلامية، وسألقي على مسامعكم ـ فيما بعد ـ إيضاحات في هذا الصدد.

ومن أجل أن تدركوا ضخامة الدعاية والإعلام المعادي الذي يمارسه عدو الإسلام ـ يعني الاستكبار العالمي بنوعَيه الشرقي والغربي ـ فسوف أشير إشارة عابرة فقط الى مسألة أن الفكر الإسلامي يواجه اليوم ـ باعتباره الإيديولوجية الثالثة، وباعتباره عقيدة ثورية في مقابل الشرق والغرب ـ حملة إعلامية كبرى وعظمى.

هذه الحملة الإعلامية الدعائية تنبعث عبر شتى الوسائل والقنوات، من قبيل محطات الإذاعة وشبكات التلفزة ووكالات الأنباء المختلفة، صباحاً ومساءاً، وفي كل أسبوع تنتشر بشكل شامل وواسع النطاق في كل أنحاء العالم.. الإسلام يواجه مثل هذا الكم العظيم من الدعاية المعادية.

لقد استصحبت إحصائية موجزة وقصيرة لأعرضها عليكم، وهناك ـ بالطبع ـ الكثير من أمثال هذه الإحصائيات على شتى الأصعدة وفي شتى مجالات الإعلام، ولكن هذه الإحصائية ليست سوى نموذج رأيت أن من المناسب ـ في الحقيقة ـ أن أعرضه عليكم.

يبلغ حجم الإعلام في العالم الغربي 7100 ساعة في كل أسبوع، وهي تشمل الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا الغربية وبريطانيا واليابان، وهي ذات الحصص الأكبر بالنسبة للحجم الكلي، إذ تبلغ حصة أميركا 2100 ساعة في كل أسبوع وبحوالى 60 لغة من اللغات العالمية، وحصة ألمانيا الغربية 950 ساعة في الأسبوع، أما بريطانيا فتبلغ ساعات إعلامها 850 ساعة وبحوالى 60 لغة من اللغات العالمية. ويبلغ المجموع الكلي ـ كما ذكرت ـ 7100 في الأسبوع.

أما العالم الشيوعي فيضم الإتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية والصين وألبانيا وبعض الدول الشرقية الأخرى.

ومن باب المصادفة أن يساوي حجم هذا الإعلام، حجم الإعلام في العالم الغربي ـ أي 7100 ساعة ـ في كل أسبوع، إذ تبلغ حصة الإتحاد السوفياتي منها 2300 ساعة من خلال حوالى 80 لغة من اللغات العالمية شائعة الاستعمال وكثيرة الانتشار في العالم واللغات المحلية، أما ألمانيا الشرقية فيبلغ عدد ساعات إعلامها 1600 ساعة، والصين 1500 ساعة... الى آخره..

هذه هي المجموعة الإعلامية التي يشهدها العالم كل أسبوع، والعالم الإسلامي يواجه مثل هذا الحجم العظيم من الإعلام، وبعضها مخصص لمواجهة الإسلام، وهي تتضمن: الخبر، والتحليل السياسي، والتقرير الخبري وشتى المضامين والمواضيع الإعلامية، التي يتم حشو أذهان الشعوب بها بشكل عام، والشعوب الإسلامية بالخصوص.

وبالطبع فإن هذا لا يشمل وسائل الإعلام المقروءة ـ أي المطبوعات ـ ولا الأفلام السينمائية ولا الكتب، وهي ـ في الواقع ـ مهمة جداً، وهو لا يتضمن بقية وسائل الدعاية والإعلام المستعملة في الوقت الحاضر ؛ إنها ليست سوى صنف واحد من صنوف الدعاية والإعلام وهي نموذج سلبي واحد.

إن ميدان الإعلام في العالم أصبح ـ حقاً ـ بمثابة ميدان الحرب، ويشبه المعارك العسكرية، فلقد صار للمعارك السياسية منظّروها الاستراتيجيون الماهرون والحاذقون، ولها الخبراء المتخصصون ذوو الفاعلية والتأثير، ولها غرف العمليات الخاصة بها، وفيها تجري أشكال وصنوف كثيرة من التعاون والتظافر، وتنفق في هذه المجالات أموال طائلة ومخصصات هائلة.

إن العالم الإسلامي يواجه كل هذا الكم الهائل والكيف من الأمواج المتلاطمة من الإعلام وكل هذه الوسائل والأدوات الإعلامية المتنوعة الكثيرة، باعتباره حاملاً لنظرية إيديولوجية معارضة لكلتا النظريتين القائمتين في الزمن المعاصر ومناقضة لهما.

ومن المناسب ـ حقاً ـ أن ينتبه علماء العالم الإسلامي ومفكروه لهذا الأمر، ويهتموا بهذا المجال وينهمكوا في العمل فيه، والتفكير ـ معاً ـ للارتقاء به، وحشد كل ما لديهم من الإمكانيات والطاقات وتسخيرها في هذا الصدد.

إن رأي الإسلام في موضوع الإعلام رأي صريح وواضح أيضاً، فالإسلام يعتبر أن التبليغ واجب وضروري، كما قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم {ومَن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين}. وقوله عز وجل {أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}. وقوله تبارك وتعالى {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتّبع أهواءهم}.

صحيح أن هذا الخطاب موجه للرسول الكريم (ص) لكنه موجه ـ في الحقيقة ـ الى كل المسلمين والمسلمات. وهناك آيات كثيرة في القرآن بهذا الشأن غير تلك التي تُليت عليكم الآن.

وفي الآية التي بدأت بها الحديث {الذين يبلّغون رسالات الله ويخشَونه ولا يخشَون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً} تندرج أيضاً في سياق الآيات القرآنية الكريمة التي تتطرق الى هذا الموضوع.

كل هذه الآيات هي دروس لنا وتفتح أمامنا سبلاً واضحة وطرقاً محددة من أجل التمكن من تحقيق هذا الواجب الكبير.

وهناك حديث مشهور عن رسول الله محمد (ص) جاء فيه: "لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت" وهو يوضح وظيفة المرء والواجب الملقى على عاتقه، إذ يعتبر هذا الحديث الشريف هداية إنسان ما أفضل وأسمى من كل الأعمال، وأن هداية إنسان واحد هي أفضل من كل ما تشرق عليه الشمس وتغرب.

وبناء على ذلك، فإن واجب الإنسان واضح ومعروف من وجهة نظر الإسلام، إذ أننا مكلفون بتبليغ الإسلام والحقيقة، ولا نستطيع أن نترك تبليغ الحق والدعوة الى الله تبارك وتعالى بأي حال من الأحوال وبأي عذر.

المسلمون مكلفون، فرداً فرداً، وفي جميع البلدان الإسلامية، وفي ظل كل الأوضاع والظروف وفي جميع الأحوال، بمهمة التبليغ.. ، ومن الطبيعي أن للعلماء والمفكرين والمثقفين والشخصيات البارزة في المجتمع وظائفهم وواجباتهم الخاصة في هذا المضمار، لكن هذا لا يعني أن أفراد الأمة الإسلامية ليسوا مكلفين بواجب التبليغ.

علينا إبلاغ هذا الأمر للمسلمين، فرداً فرداً، وينبغي إفهامهم بأن كل شخص مكلف بواجب يتحتم عليه أداؤه، وهو التبليغ للحق والدعوة الى الإسلام بالقدر الذي يطيقه ويمكنه القيام به.

النقطة الأخرى التي ينبغي أن أشير إليها هي أننا نواجه اليوم ـ على صعيد تبليغ الإسلام ـ العديد من الآفاق والمجالات، ويجب أن يتم تحديد أنواع التبليغ الإسلامي مع أهداف هذا التبليغ فمن أجل أي شيء نمارس التبليغ للإسلام؟ وما هي الغاية؟

هناك العديد من الأهداف المفترضة والمتصورة في هذا المضمار، وسوف أشير الى بعض منها، وكل تلك الأهداف ضرورية في حد ذاتها، وحسب الظروف القائمة، وأي واحد منها لا يمكنه أن يحل محل الآخر، رغم أنها ليست على حد سواء من حيث الأهمية.

أحد أهداف التبليغ يمكن أن يكون عبارة عن نشر الإسلام في قارات العالم، وبسط نفوذه وتوسيعه في دول العالم المختلفة، في مقابل الأديان الأخرى. كما هو الحال ـ اليوم ـ بالنسبة لبعض الأديان وخصوصاً المسيحية.

فالمسيحيون يقومون بذلك بإنفاق أموال ضخمة، وبذل جهود كبيرة، وعبر تنظيمات ومؤسسات واسعة النطاق.

إن الكثير من البلدان لديها الاستعداد الكامل لتقبل الإسلام، وشعبها جاهز لاعتناق الإسلام، وهذا الأمر يمكن اعتباره أحد أهداف عملية التبليغ الإسلامي، وهو ـ بالطبع ـ ذو مكانة خاصة، ويتطلب توفر ظروف معينة، ويحتاج الى تهيئة مقدمات خاصة.

والهدف الأخر للتبليغ الإسلامي هو عبارة عن نهوضنا بمهمة حراسة الإسلام وصيانته، في مقابل الإيديولوجيات المهاجمة التي بدأت بالزحف على الحياة الإنسانية، وملء شتى مجالات الحياة البشرية، والتسلل الى عقول أفراد البشر.. ؛ يجب علينا الدفاع عن الإسلام، أو أن يكون لنا موقف هجومي تجاه الإيديولوجيات والنظريات الجديدة ؛ وهذا الهدف هو الآخر ذو مكانة خاصة، ويتطلب ظروفاً مختلفة، ويتضمن مواجهة الماركسية والشيوعية والأومانية وباقي النظريات الأجنبية ذات المواصفات الجذابة والقوالب المختلفة، والتي دخلت عبرها الى ميدان الفكر البشري، والتي يجري العمل على نشرها والتبليغ لصالحها بشدة في العالم الإسلامي.

وثالثاً: إننا حين نريد التبليغ للإسلام ينبغي أن يكون تبليغنا بهذا الهدف وهو: أن نقدم الإسلام كنظرية وكمدرسة لتحرير الإنسان في مقابل الإلحاد والاستكبار والاستبداد والحكومات الظالمة. علينا أن نمارس التبليغ للإسلام بهذا العنوان.

وهذا الجانب ليس مأخوذاً بنظر الاعتبار إلا بشكل قليل في العصور الأخيرة.. بلى كان هذا الأمر ملحوظاً في مرحلة صدر الإسلام، وكان الاهتمام ينصب عليه بهذا العنوان، وهو أنه مبدأ ودين جاء لتحرير الإنسان، ويتم التبليغ له بهذه الصفة. وفي العصور الأخيرة كانت الصفة الغالبة على التبليغ للإسلام هي الصفة الدفاعية خلال القرون الأخيرة.

أما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران فقد أصبح التبليغ المطروح للإسلام ـ من جديد ـ هو ذلك النوع الذي كان مطروحاً في عصر صدر الإسلام.. صار التبليغ للإسلام يتم على أنه النظرية التي يمكنها إنقاذ البشرية والقضاء على هيمنة القوى الظالمة والغاصبة على الشعوب، وأن بإمكانه تعبئة الجنود من بين جماهير الشعب، وباستطاعته إقرار العدالة الاجتماعية ونشرها في صفوف الشعوب والمجاميع التي ترزح تحت نير الظلم والتمييز العنصري.. بهذا العنوان، وبهذه السمة أصبح الإسلام اليوم مطروحاً في العالم.

وطبعاً فإن التبليغ للإسلام بهذه الصفة وبهذا المنظار يستلزم ظروفه الخاصة ووسائله المحددة، ويتطلب وجود الأشخاص المناسبين وكذلك الأرضية اللازمة والظروف المساعدة للقيام بذلك.

لقد أصبح الفكر الإسلامي ـ بعد انتصار الثورة الإسلامية ـ هو النقطة التي تتمركز فيها الآمال الفكرية والمعنوية للشباب

المناضلين المؤمنين والمخلصين والمضحين، أينما التقوا حول بعضهم وأينما اجتمعوا وكلما أرادوا البدء بتحرك نضالي تحرري، وكانت نقطة الأمل تلك في الماضي هي الأفكار الإلحادية والمادية للنظرية الماركسية.

رابعاً: التبليغ للإسلام بهدف نشر الإسلام النقي الصافي الخالي من الشوائب، في مقابل الإسلام المزيف وغير الخالص والذي دست فيه الأفكار المتباينة والأذواق المتنوعة والتعصبات والجهالات والآراء المتحجرة والخرافات.

هذا ـ أيضاً ـ هدف من الأهداف السامية جداً للتبليغ للإسلام. إذ أن الإسلام ـ وكما نعلم ـ قد خرج عن صفائه وتألقه ونقائه الأول، عبر القرون المختلفة التي مرت عليه والتي كانت مليئة بأصناف الأذواق وأنواع الظروف الاجتماعية وبمختلف أشكال التدخلات وممارسة القوى الكبرى فرض هيمنتها ونفوذها، وبشتى أصناف النظرات الضيقة أو الأفكار الأجنبية الدخيلة المختلفة.

ولا شك في أن الإسلام النقي والصافي هو اليوم في متناول أيدينا، لأن القرآن بين ظهرانينا، ولأن السنّة المطهرة والنقية هي الآن في متناول أيدينا.

أما تلك الفئات والشخصيات وأولئك المفكرون، وخصوصاً الجماهير، الذين لم يحاولوا أن يعيدوا الإسلام الى مصادره الأصلية ويقارنوه بما هو موجود في القرآن الكريم والسنّة النبوية، ويفرزوا الغث من السمين، فإنهم قد ابتُلوا بأنواع الإنحرافات في مجال العقيدة والعمل بالإسلام.. وهذه حقيقة قائمة في هذا الزمن.

وقد ورد في حديث نبوي شريف عن رسول الله (ص) "لبس الإسلام (أو يلبس) لبس الفرو مقلوباً" صحيح أن الفرو الملبوس مقلوباً هو فرو أيضاً ولكنه عديم الجدوى وقبيح كذلك، أما الفرو الذي يلبسه الإنسان بشكل صحيح وليس مقلوباً فإنه جميل المنظر إضافة الى كونه يعطي الدفء في الوقت نفسه.

ولقد حدث هذا الأمر في المجتمعات الإسلامية، إذ ظهرت ـ مع الأسف ـ الأفكار المتحجرة والجامدة، والآراء ذات النظرة الضيقة والقصيرة المدى من ناحية، كما ظهرت في الجهة المقابلة بوادر أفكار القوى الأجنبية. وفي العقود الأخيرة حصل الخلط بين الإسلام والأفكار المادية الجديدة، أي أنه حين بدأ الفكر الماركسي أو الأوماني يظهر في المجتمع، وجد له عدداً من الأنصار والمؤيدين، وحظي برضى عدد من الناس، فانبرى بعض المحبين للإسلام والمتحمسين له ليقدموا ـ حسب ظنهم ـ خدمة للإسلام، وبادروا الى مطابقة الأفكار الإسلامية مع تلك الأفكار المادية والخارجة عن الجو والمضمار الديني... هذه أيضاً حقيقة قائمة هذا اليوم.

إذاً، فإن أحد أهداف التبليغ والدعوة الى الإسلام هو عرض الإسلام النقي الخالص والمصفّى من الشوائب والمنزّه عن هذه الأخلاط والأشياء الغريبة عنه والإضافات المدسوسة فيه.

وكل واحدة من هذه المهام لها متطلباتها ومستلزماتها، وإننا إذا شئنا أن نبلّغ للإسلام فينبغي أن لا ننظر الى الأمور من زاوية واحدة، أو بمنظار واحد.

بعض الناس يتصورون أن التبليغ للإسلام يمكن أن يتم عبر الذهاب الى الشعوب التي لم تطّلع على الإسلام بعد، وأن القضية لا تتعدى أن يقوموا بعرض الإسلام على تلك الشعوب وإطلاعهم على ما فيه، أو دعوتهم الى النطق بالشهادتين.

بلى، هذا هو الآخر تبليغ للإسلام، لكنه ليس الجانب الأهم فيه، إنما الجانب الأهم والجزء الأهم في التبليغ للإسلام هو ذلك التبليغ الذي يتم داخل المجتمعات الإسلامية بهدف تقديم الإسلام لهم نقياً صافياً، أو بهدف عرض الأفكار المحاربة للاستكبار، والمناوئة للاستبداد والمضادة للاستضعاف.

وبالطبع فإنني مع فكرة أن يتم التبليغ للإسلام لتحقيق الهدف الثاني ذاته، وبالهدف الأول كذلك، إلا أنه ينبغي أن لا تُنسى الأهداف الأخرى أيضاً.

بعض المبلّغين يُرسَلون من قبل بعض البلدان الإسلامية الى أنحاء العالم كأفريقيا وأقاصي آسيا والى مناطق أخرى، في سبيل أن يجعلوا الناس يؤمنون بـ "لا إله إلا الله"، هذا في الوقت الذي نرى أن كلمة "لا إله إلا الله" غير مطبّقة في تلك الدول ذاتها كما قال الشاعر: "طبيب يداوي الناس وهو عليل".

يجب عليهم أن يعودوا ليشرحوا لشعوبهم معنى الإسلام، وليصفّوا الإسلام لتلك الشعوب، ويوضحوا مفاهيمه وقيمه وأبعاده، وليفهموهم ماذا تعني كلمة "لا إله إلا الله".

ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق (ع) ما مضمونه: "إن بني أمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا لهم تعليم الشرك ـ أو تعليم الكفر ـ حتى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه" فهم يعلمون أنهم إذا علّموهم معنى الشرك وفحواه فإن الناس سيعرفون أن الوليد بن عبد الملك أو يزيد بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد هو نفسه الطاغوت وهو الوثن والصنم، الذي تجب عليهم محاربته ومواجهته. ومثل هذا يحدث في بعض البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر.

وحينما نريد ممارسة التبليغ للإسلام فإن هناك ـ أيها الإخوة وأيتها الأخوات ـ مواصفات للتبليغ ومواصفات للمبلّغ، وهذا ما سيتم بحثه ـ عادة ـ في مثل هذا الاجتماع، وآمل أن يتم بحثه في مؤتمركم هذا، فما هي صفات التبليغ الجيد؟ وما هي

المميزات التي ينبغي أن يتوفر عليها التبليغ الناجح؟ ومَن هو المبلّغ الجيد؟

إذا ما أردنا أن نبحث موضوع المبلّغ الجيد فذلك لا يعني أن مَن لا تتوفر فيهم هذه المميزات ينبغي أن لا يقوموا بأي عمل في مجال التبليغ.. ليس المراد هذا، فالتبليغ واجب ينبغي القيام به، وإنما المقصود هو أن على جميع الذين يشعرون بواجبهم في مضمار التبليغ، ويؤمنون أن عليهم أداء هذا التكليف الإلهي، السعي الى إيجاد تلك الميزات والخصائص فيهم.

إن أهم هذه المميزات والخصائص هي ذات الأمور الوارد ذكرها في الآيات القرآنية الكريمة، ومن بينها الآية القرآنية التي تلّيت مراراً {الذين يبلّغون رسالات الله ويخشَونه ولا يخشَون أحداً إلا الله.. } هذه هي الميزة الأولى في المبلّغ للإسلام، وهي الخشية من الله تبارك وتعالى وعدم الخوف ممن سواه. وهذه الخشية تتمخض عنها نتيجة محددة تطرقت إليها آية أخرى، وهي قوله جل وعلا {ومَن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً.. } (فصلت، 41) .

إن العمل الصالح ناتج عن نفس تلك الخشية من الله سبحانه. فشرط الدعوة هو العمل الصالح، والخشية هي شرط العمل الصالح وملازمة له..

ثم تقول الآية المباركة {ولا يخشَون أحداً إلا الله} وإلا فإن المجاملات والاحتياطات والمخاوف والمداهنات أو المساومات، سوف تشكل عقبات وموانع في طريق بيان الإسلام الصافي النقي.

وإننا اليوم ـ على الصعيد العالمي ـ نواجه عين هذه المخاوف والاحتياطات والمجاملات والمساومات والخشية من غير الله. فالكثير من العلماء والمفكرين والمثقفين يعلمون الحقائق المتعلقة بالإسلام، ويدركون ملابسات القضايا الراهنة في العالم الإسلامي، لكنهم يكتمونها، بينما يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّنّه للناس ولا تكتمونه} (آل عمران، 187) .

في الكثير من الأقطار الإسلامية لا يجري العمل بهذه الآية في الوقت الحاضر... فمسؤولو هذه البلدان لا يصرحون بما يعلمون ويكتمون الحقائق.

إذاً، فأحد الشروط الأصلية للدعوة والتبليغ ـ بل الشرط الأصلي لهما ـ هو عدم الخشية مما سوى الله.

أما الشرط الآخر من شروط التبليغ والمبلّغ فهو تناسب المقال مع مقتضى الحال ؛ وسوف أقوم بتسليط الضوء على هذه النقطة بعض الشيء.

لقد تعلّمنا في دراستنا للأدب العربي واللغة العربية أن البلاغة هي انسجام المقال مع مقتضى الحال ومطابقته، فإذا لم يتحلّ الكلام بهذه الصفة فقد خرج عن البلاغة، ولا يعتبر بليغاً ولا مبيّناً، ولا يَنفذ الى قلب المستمع أو يتغلغل في فكره وعقله.. هذا هو سبب تفسيرهم البلاغة بمطابقة مقتضى الحال، وإلا فإن البلاغة هي البلاغة وحسب، وهي من البلاغ والبلوغ، إن المطابقة مع مقتضى الحال هي ـ في الحقيقة ـ الميزة الرئيسية للكلام البليغ وشرطه الأساسي، الذي بفقدانه تنعدم صفة البلاغة عنه. إن المضمون الأساسي لحقيقة البلاغة والبلوغ ينبغي أن يكون المطابقة مع مقتضى الحال.

أريد أن أقول: إذا أردنا اليوم تحقيق المطابقة مع مقتضى الحال فماذا يجب أن نفعل؟ ماذا يوجد في العالم الآن كي ما نعمل طبقاً لمقتضاه؟

إذا شئنا أن نمارس التبليغ الجيد في العالم فينبغي أن ندرك ما هو القسم الذي يحتاج العالم بيانه من بين أقسام الإسلام؟! في بعض الأحيان تُطرح أمور الغرض منها التبليغ للإسلام على الصعيد العالمي، لكنها ليست إجابات كافية عن تساؤلات العالم. ينبغي أن نرى ما هي تساؤلات العالم منا حول الإسلام لنوضحها لهم. وهكذا الأمر على صعيد المجتمعات الإسلامية، فينبغي أولاً أن ننظر ما هي الأولويات؟ وما هي المتطلبات والاحتياجات؟ ومن أجل أن نعلم ما هي الاحتياجات الموجودة الآن ينبغي أن نعلم ما الذي يقال عن الإسلام في هذه الأيام؟!

إنني أوصي الإخوة العاملين في مجال الإعلام، وخصوصاً الإعلام على الصعيد العالمي، وحتى في ميدان الإعلام الداخلي المحلي، والمشرفين على شؤون الإعلام، وأؤكد عليهم، بأن يجتمعوا ليحددوا المحاور الرئيسية لهجمات عالم الكفر والجاهلية وغير المسلمين، ضد الإسلام وليرَوا من أي الجوانب تُشن الهجمات ضد الإسلام وضد أي الجوانب من الإسلام تتركز تلك الهجمات، وما هي السموم التي يبثها أعداء الإسلام ضده، وما هي الأكاذيب التي يلفقونها لتشويه صورته؟!

علينا أن نعرف ذلك أولاً لنقوم بمعالجته، فما لم يتم تشخيص المرض فلن يتسنى وصف الدواء له ومعالجته ؛ وفي ساحة المعركة ما لم تُعرف خطة العدو فإن الدفاع لن يتم بصورة صحيحة، وما لم نعرف من أين سيشن العدو هجومه لا يمكننا أن نشن الهجوم المضاد والمناسب.

وهكذا الأمر في مجال الإعلام، ينبغي أن ننظر من أين يريد العدو أن يهاجمنا؟!.. هذا أحد الموضوعات الضرورية جداً والتي ينبغي الاهتمام بها والعمل على طرحها ومعالجتها ؛ وربما سيتم العمل ـ إن شاء الله ـ في هذا الاتجاه خلال أيام هذا المؤتمر، والمبادرة الى بحث هذا الموضوع.

على سبيل المثال، تُطرح في الوقت الحاضر إدعاءات ومزاعم تقول: إن الإسلام ضد العلم!! وإن الإسلام يحتّم القضاء والقدر!! أي القول بمذهب الجبر لا التفويض وأن الإسلام لا يهتم بحقوق المرأة!! ـ وخصوصاً قضية تعدد الزوجات ـ وأن الإسلام يسبب أو يخلق الفقر!! وأن الإسلام عاجز عن إدارة الدولة وإعمارها!! وتبذل الجهود وتركز المساعي من قبل أعداء الإسلام على إبراز هذه الإدعاءات والمزاعم وتضخيمها.

قبل عامين تقريباً، أقيم معرض تحت عنوان "معرض الإسلام" وهو يعرض من أوله الى آخره فقر العالم الإسلامي وفاقته، بهدف التركيز على أن الإسلام ليس قادراً على توفير الرفاه المادي لأتباعه والمؤمنين به، وهذا هو أحد الأهداف الاستعمارية ضد الإسلام.

ومن بين ادعاءاتهم ومزاعمهم الأخرى: أن الإسلام ذو منهج خرافي وبعيد عن المنطق!! وهذا ما يتم الترويج له والتركيز عليه أيضاً، وخصوصاً من قبل مروّجي النظرية الاشتراكية.

وفي أعياد رأس السنة الميلادية لعام 1988 بالذات، عرض التلفزيون السوفياتي في قناته الرئيسية برنامجاً تضمّن تمثيلية مستهجنة وقبيحة، توجه إساءة وطعناً للإسلام ومفاهيمه السامية، بزعم أنها تعكس نموذجاً من العالم الإسلامي ومن الأفكار الإسلامية.

إن علينا أن نبذل جهودنا ونوجه اهتمامنا لكي نوضح للشعوب أن الأمور ليست كما يصورها أعداء الإسلام. وفي الحقيقة إن هجمات أعداء الإسلام هي التي تحدد لنا اتجاه تحركنا لتفنيدها وكشف زيفها.

إنني أعتقد أن هذه هي أولويات التبليغ في العالم الإسلامي، وبالطبع فإنني لا أدّعي أن أولويات التبليغ تقتصر عليها وحسب، ولا أحصر نطاقها في هذه الجوانب التي عرضتها عليكم، لكنني أعتقد أنها الأهم في هذا المضمار، لأنني أرى أن هذه هي الأمور المطروحة في الوقت الراهن.

ولا يفوتني ـ طبعاً ـ أن أشير الى نقطة أخرى، وهي أننا حين نواجه هجمات الأعداء ينبغي أن لا نتصرف من موضع رد الفعل إزاء هجمات العدو، وقد مارسنا في الماضي القريب أمثال هذه المواقف الدفاعية والإنفعالية، وكمثال على هذه الحقيقة: مسألة الجهاد. فلقد حاول الأوروبيون والغربيون ـ ولقرون عديدة ـ أن يصوروا الإسلام بأنه دين السيف وسفك الدماء، ويرسموا لرسول الله (ص) صورة رجل قاسٍ عنيف ذي حاجبين معقوفين متداخلين مع بعضهما، وهو يحمل سيفاً يقطر دماً... هكذا كانوا يرسمون صورة الرسول الأكرم (ص) .

وحين يقارن المرء هذه الصورة المزعومة للإسلام ورسوله بمزاعم المسيحية وتبليغها، المبنية في معظمها على مفاهيم الحب والسلام والمودة والرحمة بكل العالم والدعاء لكل المخلوقات والكائنات، بل وحتى للشيطان نفسه، وطلب الهداية، وحسن العاقبة حتى للأعداء، فإن نتيجة هذه المقارنة تكون عبارة عن ردود أفعال سيئة جداً في أذهان الرأي العام المسيحي.

فالمسيحية نفسها، لم تكن تصرح ـ علناً ـ بحقيقتها، وهي التي أشعلت نيران الحروب الصليبية، لمدة مئتي عام ضد الدول الإسلامية، وكم ارتكبت من الجرائم والمجازر في العالم الإسلامي ذاته.

هكذا إذاً هي الدعاية المسيحية، فالتبشير والإعلام الكنسي ـ وكما ذكرت قبل قليل ـ مبني على تلك المفاهيم والمزاعم، وهم لا يريدون أن يجهزوا بالحقائق ويصرحوا بها كما هي فعلاً.. إنهم يصورون النبي (ص) شخصية قاسية وعنيفة ومتعطشة للدماء!

وحين واجه المثقفون المسلمون الإعلام الأوروبي لأول مرة ـ وكان ذلك في بدايات القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر ـ بعد عدة قرون من بدء ذلك الإعلام، فإنهم قد أصيبوا بالدهشة إذ أنهم حينما طالعوا الكتب الأوروبية، وتسنى لهم الاتصال بأوروبا، وحصل العديد من الزيارات، وبمجرد أن شاهدوا في مصر والهند وفي البلدان الإسلامية المتقدمة أن العدو قد شن هجومه ضد الإسلام عن هذا الطريق، وركز على موضوع القسوة والغلظة والشدة في الإسلام والسيوف الإسلامية، بادروا الى اتخاذ ردود فعل إنفعالية ودفاعية. وهكذا فإنهم ـ حسب اعتقادي ـ أنكروا مبدأ الجهاد في الإسلام من الأساس، ونفَوا أن يكون هناك تحرك مسلح في الإسلام، ووصل الأمر بهم الى مرحلة أن بعضهم قال: إن جميع الحروب التي خاضها رسول الله (ص) كانت حروباً دفاعية ؛ إنني أنكر ذلك.

لقد كان الرسول يخوض الحروب "ليُخرج الناس من الظلمات الى النور" وهو الهدف الذي حدده الإسلام للجهاد.. الإسلام يريد بواسطة الجهاد أن يخرج الناس من ظلم الأديان الأخرى (المحرَّفة طبعاً) الى عدل الإسلام، وليحطم القيود والسلاسل التي تكبل أرجل الناس، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه بغير الجهاد ومواجهة ذوي القوة والهيمنة في العالم، وإزالة نفوذ مستكبري العالم وسيطرتهم. فهل يمكن تحقيق هذه الغاية بدون قوة السيف؟!

لقد كان الرسول الأكرم (ص) مضطراً لأن يخوض الحروب لأن طبيعة الدعوة تتطلب ذلك. مَن الذي يقول: إن معركة بدر كانت دفاعية؟! ومَن الذي يقول: إن الهجوم لفتح مكة كان دفاعياً؟! ومَن الذي يقول: إن معركة خيبر كانت دفاعية؟! ومَن الذي يقول: إن معركة حنين كانت دفاعية؟! لقد خطط الرسول الأكرم ونفذ ـ بمبادرة منه ـ أكثر من سبعين معركة وغزوة وسَرية وقادها بنفسه، فماذا يعني القول إنها دفاعية؟!

لقد أنكر المثقفون المسلمون الذي عاشوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ وهم معروفون في العالم الإسلامي ـ الجهاد بشكل كامل، من موضع الإنفعال في مقابل الهجمة الغربية، بدلاً من أن يقوموا بإيضاح معنى الجهاد في الإسلام، وبدلاً من أن يبيّنوا للناس أن الجهاد في الإسلام يستهدف خدمة الجماهير المحرومة، وأنهلصالح الشعوب المظلومة، وهو حرب على الحكومات الظالمة والسلاطين الجائرين وليس ضد الشعوب، وأن الحرب في الإسلام ليست من أجل احتلال الأراضي، وإنما هي حرب من أجل إنقاذ الناس وتحرير البلدان من هيمنة الأعداء.

إنهم، بدلاً من أن يقوموا بإيضاح هذه الحقائق، قد أنكروا ـ من الأساس ـ مبدأ كون الجهاد الإسلامي ابتدائياً وهجومياً، وكان موقفهم هذا إنفعالياً، ونحن لا نقر هذا الموقف ولا نوافق عليه، ولا ينبغي أن يكون الدفاع هكذا في مقابل الأعداء.

وكمثال آخر في هذا السياق، فإن الغرب يهاجم مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام، وهذا أمر موجود في الإسلام، وهو وارد في آيات القرآن الكريم بصراحة ولا يمكن المساس بهذا المبدأ.. لكن المثقفين المسلمين، وفي سبيل أن يكونوا بمنأى من هجمات الأعداء وليصونوا أنفسهم منها فإنهم أنكروا مبدأ تعدد الزوجات، في الوقت الذي كان بإمكانهم أن يوضحوا حقيقة هذا المبدأ وأبعاده، ويبيّنوا للناس ماذا يعني تعدد الزوجات؟ وأن الغرب الذي يعارض ـ في الظاهر ـ تعدد الزوجات فإنه هو الآخر يشهد تعدد الزوجات، وكل ما في الأمر أن الرجال الغربيين ينفذون ذلك على شكل علاقات غير مشروعة مع عدة نساء، من شتى الأشكال والأنواع، وقلما يوجد رجل في الغرب يبقى مصوناً من الوقوع في مثل هذه الخطايا والمزالق.

بينما الأمر يختلف في العالم الإسلامي، فإن الرجال والنساء فيه مصونون من التورط بمثل هذه الإنحرافات.

لا ينبغي التعامل بردود الفعل في مقابل هجوم الأعداء، يجب تشخيص العدو والتعرف على الثغرات التي يمكن أن يستغلها للتسلل ولشن الهجوم، وبالتالي ينبغي الوقوف بوجهه.

إنني أعتقد أن هذه أولويات التبليغ.. إنني أقول: إن علينا ـ أولاً ـ أن نرسم صورة شعبية للإسلام، الإسلام دين جاء لإنقاذ البشر، وهو دين بُعث نبيه من بين الطبقات الكادحة والمستضعفة، يجب أن لا نصوّر الإسلام للناس على أنه دين المترفين والطبقات المرفهة ودين السلاطين والزعماء والأقوياء.. الإسلام دين الناس المتعطشين والمتلهفين للعدالة.. هذه إحدى أولوياتنا الإعلامية.

إن الذين يتظاهرون بالإسلام ويتشدقون به وهم يرتدون الألبسة المذهّبة ويحيَون حياة التفرعن، ويدّعون أنهم ولاة أمر الإسلام وحماته يجب أن يعلموا أنهم يعملون للإضرار بالإسلام، وأنهم ـ بأعمالهم ـ يُسقطون الإسلام من أعين الجماهير ؛ فالإسلام دين البساطة والود والمحبة والأخوّة، وهذه هي الأخرى من الأولويات الحيوية في التبليغ الإسلامي.

الأمر الثاني الذي يُعتبر من أولويات التبليغ الإسلامي هو أن نزيل عن صفحة الإسلام مسألة فصل الدين عن السياسة... فالإسلام هو ذلك الدين الذي عبادته ليست منفصلة عن سياسته، وكل مَن يقول بذلك فإنه إما أن يكون مغرضاً وخائناً وإما أنه جاهل لا يعلم شيئاً.. فالإسلام هو الدين الذي كان نبيُّه والمبلّغ له حاكماً للناس، والإسلام هو الدين الذي وُضعت أحكامه من أجل إدارة حياة المجتمع. وليست السياسة إلا إدارة شؤون المجتمع، والإسلام هو الدين الذي تتركز معظم أحكامه في مجال حياة الناس وكيفية إدارة هذه الحياة.

كان بعض الأشخاص يريد أن يعزل الإسلام جانباً في المساجد، وهم الأشخاص الذين أرادوا أن يسيطروا على مجريات الحياة ومقاليد الأمور في البلدان الإسلامية، وفي سبيل أن يغتصبوا زمام الأمور لم يكن أمامهم سوى أن يطردوا الإسلام ويحصروه في زوايا المساجد ومحاريب المعابد ويمنعوه من الحضور الفعال في ميدان الحياة والمجتمع.

هؤلاء قاموا بفصل الدين عن السياسة، وقد راق ذلك لعدد من المسلمين وأعجبهم، وحين جربوا ذلك وجدوه جيداً، وكان ذلك يتضمن ربحاً مادياً لبعض الأشخاص، ويوفر الراحة لبعضهم الآخر.

إن فصل الدين عن السياسة تهمة كبيرة وجهت للإسلام، وإن من أهم الأولويات في مجال التبليغ الإسلامي هو وضع حد لفصل الدين عن السياسة وإنهاؤه بشكل كامل وحاسم.

ومن جملة أولويات التبليغ الإسلامي إيضاح الصورة الحقيقية لعظماء الإسلام بأساليب فعالة وبصيغ عملية، ولكننا ـ ومع الأسف ـ لم نعمل إلا القليل في هذا المضمار وتأخرنا كثيراً في البدء بهذا النهج.

إن من الضروري والمهم رسم ملامح الصورة الحقيقية لشخصية النبي (ص) وأهل البيت (عليهم السلام) وأصحاب رسول الله، والقديسين والصالحين والصديقين في الإسلام، وتقديم صورتهم الحقيقية للعالم، عن طريق استخدام الوسائل والأدوات والأساليب الفنية لا بتأليف الكتب وحسب... فالكتاب ـ بمفرده ـ لا يؤدي الغرض المراد هنا.

لقد قام كاتب فنان مسيحي بكتابة رواية أدبية عن القديس المسيحي المعروف "سان فرانسيس"، بهدف لفت أنظار العالم المسيحي الى المعارف المسيحية، وقد سلّط الضوء في تلك الرواية الأدبية على شخصية "سان فرانسيس" وشرح ملامحها وأبعادها... هذا ما قام به كاتب روائي يوناني شهير، فلماذا نحن غافلون عن هذا الجانب؟ إننا لم نقم بعرض ملامح شخصية نبينا

الكريم (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) وصحابته وعظماء الإسلام عبر الأعمال الفنية الأخرى التي تخاطب العواطف الإنسانية وتؤثر في الوجدان. نحن لم نقم بكل ذلك.

ما قمنا به هو أننا ألفنا الكتب، وكتبنا التاريخ، وكل فرقة من الفرق الإسلامية كتبت الأشياء التي ترغب بكتابتها، حتى لو كانت تتعارض مع كتابات باقي الفرق الإسلامية وتنفيها... هذه إحدى أولويات الإعلام والتبليغ الإسلامي التي ينبغي إيلاؤها الكثير من الاهتمام.

بل إن من واجب الفنانين الإسلاميين أن يخوضوا هذه التجربة ويلجوا هذا المضمار، لماذا يقوم المسيحيون بانتاج فيلم عن حياة نبينا (ص) ؟ ـ لماذا لا يبادر المسلمون الى انتاج مثل هذا الفيلم؟! وأي فيلم؟! الفيلم الذي لا يتناول حياة الرسول ـ فهي أكبر من أن يتناولها فيلم واحد ـ وإنما الأحداث التاريخية التي شهدتها حياته الكريمة.

هناك الكثير من هذه الأحداث يمكن تناولها على شكل أفلام، من بينها مثلاً: معركة بدر، أو فتح مكة، أو صلح الحديبية، أو ليلة الهجرة النبوية المباركة من مكة الى المدينة، أو بيعة العقبة.. كل التاريخ الإسلامي يمكن إعداد أفلام عنه، وتسليط الضوء على تلك الأحداث وعرضها للناس، وهي تعكس وقائع الإسلام وملامحه ومعارفه، لأن حياة النبي الكريم تجسيد حي لمثل هذه الأمور.

لقد سئلت زوجة النبي عائشة عن خُلُق رسول الله (ص) فقالت: "كان خُلُقه القرآن". وكان رسول الله (ص) يجسّد قيم القرآن وآياته، فإذا ما سلّطنا الضوء على حياة النبي وقمنا بشرحها وإيضاح أبعادها فإننا نكون قد أوضحنا أبعاد القرآن وقيمه. هذه أيضاً إحدى أولويات الإعلام والتبليغ الإسلامي.

ثمة أمر آخر يعتبر من الأولويات الإعلامية والتبليغية، في الوقت الحاضر، وهو الدفاع عن الجمهورية الإسلامية ؛ وإنني أتوجه بالحديث الى المثقفين والمفكرين المسلمين غير الإيرانيين، إن عليهم ألا ينظروا الى الجمهورية الإسلامية على أنها كيان قائم في مكان ما من العالم أو ثورة انتصرت بإمكانهم أن يحبوها أو يبغضوها تبعاً لميولهم وعواطفهم!!!

لا ينبغي أن يحملوا مثل هذه الفكرة، ولا يجب أن ينظروا الى الجمهورية الإسلامية من هذا المنظار، فإقامة الجمهورية الإسلامية حدث سعى الاستعمار للحيلولة دون حصوله طيلة مئتي عام، لكي يبرهن على أن زمن الإسلام قد ولّى، وأن الإسلام غير قادر على إدارة المجتمع وإقامة النظام السياسي.

لقد فنّدت الجمهورية الإسلامية بحركة واحدة مزاعم الاستعمار ودعاياته التي بقي يرددها طوال مئتي عام وأذهبتها أدراج الرياح... تلك المزاعم والدعايات التي شارك فيها آلاف المفكرين، وأنفقت عليها المليارات من النقود، وكم حاولوا ـ جاهدين ـ نشر وترسيخ أفكارهم في العالم الإسلامي من أقصاه الى أقصاه.

ربما يكره بعض الفئات أو الأفراد هذه الجمهورية الإسلامية ولا يحبونها، أو أنهم لا يرتضون تصرف المسؤول الفلاني من مسؤولي الجمهورية الإسلامية، أو يكونوا مترددين في الرضى عنه، أو تكون لديهم تساؤلات وعلامات استفهام حوله ؛ كل هذا يمكن أن يكون صحيحاً وفي محله ومنطقياً ويمكن أن يحدث، ولكن الذي لا يمكن أن يكون منطقياً ولا يمكن الدفاع عنه وتأييده هو أن يحمل الشخص تساؤلات وشكوكاً حول الجمهورية الإسلامية، أو لا يدافع عنها ؛ هذا ما لا يمكن قبوله أو تبريره.

إن الجمهورية الإسلامية تعني حاكمية القرآن وحاكمية الإسلام، ومن واجب كل مسلم في أية بقعة من أرجاء العالم أن يدافع عن هذا الكيان، ليس لأنه يعود لنا أو متعلق بنا، وليس لأنه ملك لإيران.

نحن أنفسنا كنا نتصرف هكذا خلال فترة الجور والظلم الشاهنشاهي.. لم تكن آنذاك ثمة حكومة باسم الإسلام يصرح دستورها الرسمي أن أي حكم أو قانون لا يمكن أن يُطبَّق إلا أن يكون متطابقاً مع القرآن والإسلام... لم تكن قد قامت في تلك الفترة حكومة على رأسها فقيه وعارف وعالم بالإسلام ومفكر إسلامي كبير... لم تكن هناك حكومة في العالم تكون قيمها مبنية على المعروف، والأمور المخالفة للقيم بنظرها عبارة عن المنكرات، ولم يكن في ذلك الحين نظام تكافح فيه المنكرات والمعاصي والفجور والفحشاء وشتى أنواع الفساد التي يبثها أعداء الأمة وينشرونها في المجتمعات الإسلامية، ولم تحصل في أي نظام مكافحة تلك المفاسد والإنحرافات بجد ومثابرة ودأب حثيث... لم يكن هناك نظام في العالم قد اتحد الكفر والاستكبار كله لقمعه وضربه لا لشيء إلا لأنه إسلامي {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد}.

وفي نفس الوقت، كنا في فترة الظلم والجور الشاهنشاهي حين نشاهد تحركاً أو نهضة في مكان ما ينبض فيه عِرق إسلامي، فإننا نعتبر أنفسنا ملزمين بتأييده ودعمه، وهناك أمثلة على هذه الحقيقة.

إننا نعتقد أن الدفاع عن الجمهورية الإسلامية في الوقت الحاضر هو أحد أهم أولويات التبليغ للإسلام في العالم بل ويعد من أوائل تلك الأولويات.

ينبغي أن يقال لشعوب العالم: إن الإسلام يمكنه أن يجنّد الجماهير والشعوب، ويتم ـ من خلالهم وعلى أيديهم وبالاعتماد على إيمانهم ـ اكتساح حصون الاستكبار وقلاعه المنيعة، وإقامة نظام مبني على أساس الإسلام وعلى أساس القرآن، ويطبّق هذا

النظام حاكمية الإسلام والقرآن ويرسي سيادتهما رسمياً. وهو نفس ذلك الشيء الذي كان يطمح إليه ويأمل في إقامته ـ سنين طويلة ـ الإسلاميون المثقفون الواعون، منذ زمن السيد جمال الدين ومحمد عبده وبقية المفكرين المسلمين، وظل يراودهم هذا الحلم كل تلك السنين، وظلوا يتحرقون شوقاً الى تحقيقه... هذا أيضاً إحدى أولويات التبليغ والإعلام الإسلامي. هذا ما يخص التبليغ في الدول الأجنبية غير الإسلامية، وهي ذات الأولويات التي ينبغي السعي لتحقيقها في بلداننا نحن، أي في داخل بلدان العالم الإسلامي.

أضف الى ذلك، أن قضية الوحدة ـ الوحدة الإسلامية ـ تعتبر اليوم إحدى أهم الأولويات الإعلامية والتبليغية في العالم الإسلامي.

فبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران نشطت الدولارات النفطية والقروض الأميركية وغير الأميركية بشدة، للقضاء على وحدة العالم الإسلامي، وكان التركيز يتم ـ بشكل خاص ورئيسي ـ على قضية السنّة والشيعة.

وبما أن شعب إيران هم من الشيعة، فإن الاستكبار بذل كل ما في وسعه للحيلولة دون تمكن الثورة ـ التي قام بها هذا الشعب ـ من مد الجسور وإقامة الاتصالات مع بقية أنحاء العالم الإسلامي وبلدانه الأخر، وارتأوا أن منع حصول ذلك يمكن أن يتم عبر رفع حدة الخلاف وتصعيده بين الشيعة والسنّة، لذلك قاموا بتأليف العديد من الكتب في هذا المضمار (وطباعتها ونشرها على نطاق واسع) ... ويوجد لدي في مكتبتي الخاصة عدد كبير من الكتب التي ألفها المفكرون المتلبسون بزي رجال الدين وذوو الأقلام المأجورة، المنبثّون في العالم الإسلامي، مستهدفين تحريض الشعوب ضد الجمهورية الإسلامية وإيقاع العداوة والبغضاء بينهما، فوجدوا أن ذلك ممكن عن طريق تأجيج نيران الخلاف بين الشيعة والسنّة.

إنني حين أقرأ بعض تلك الكتب أتمتم مع نفسي: رباه! كم يخشى أعداء الإسلام والثورة على أنفسهم ومناصبهم من هذه الثورة ويتوجسون منها خيفة؟! وكم لهذه الثورة الإسلامية من العظمة والأهمية بحيث تجعلهم يتشبثون بكل الوسائل ويلجأون الى كل الأساليب لإيذائها؟ ويا عجباً من أن الذين كانوا ـ وما يزالون ـ يتحدثون باسم الدين ويتشدقون به وكذلك الذين يكتبون باسم الوعي والفكر ويتظاهرون بهما زيفاً، هؤلاء هم أيضاً لا يخجلون من أنفسهم وفي مقابل الحصول على الأموال والدولارات من أسيادهم يبذلون الجهود والمساعي الحثيثة من أجل تجريح الجسد الإسلامي. فالوحدة إذاً إحدى أولويات الإعلام والتبليغ اليوم.

أمر آخر يعتبر من أولويات التبليغ والإعلام في داخل المجتمعات الإسلامية، وهو الدعوة الى حكم الإسلام. إن الإسلام لا يقتصر على الأحوال الشخصية ـ بل وحتى هذا المجال أيضاً لم يبقَ بيد الإسلام وإنما تلاعب فيه حكام كثير من البلدان الإسلامية وأبعدوه عن متناول الإسلام ـ والإسلام ليس للعبادة وإحياء القلوب في زوايا المساجد والبيوت وحسب، وإنما جاء الإسلام في سبيل إدارة شؤون الحياة الإنسانية. الإسلام نظام للحياة ينبغي إيضاح هذا الأمر للشعوب كلها.

ومن ضمن الأولويات الإعلامية والتبليغية في العالم الإسلامي شرح وتوضيح الفرق بين الإسلام الأميركي والإسلام المحمدي الأصيل النقي. إن الإسلام الأميركي تعبير يرمز الى الإسلام الذي يخلو من المحتوى والمضمون ويقتصر على القالب والإطار... وهو الإسلام الذي "يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض" وهو أيضاً الإسلام الذي لا يوافق على أن {لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً}. إنه الإسلام الذي يرفض أن {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين} وهو الإسلام الذي لا يؤمن بـ {وما أرسلنا من نبي إلا ليُطاع بـإذن الله} والإسلام الذي يرفض حاكمية الإسلام، وبالتالي فهو الإسلام الذي يداهن أميركا وينسجم معها، ولكنه لا ينسجم مع الجمهورية الإسلامية ويوافق على أعمال أميركا وفساد الغرب وفسقه، إلا أنه يرفض الجمهورية الإسلامية وهي التي تملأ أجواءها الآيات الإلهية.

هذا هو الإسلام الأميركي... إنه الإسلام الخليط الهجين، وإسلام التكبر والزهوّ، وإسلام القوى الظالمة.

أما الإسلام النقي الخالص، فهو الإسلام الذي ينطق به القرآن وتصدع به آياته، وهو الإسلام الذي يحمل الخصائص والمميزات التي عرضتها أثناء حديثي.

ينبغي إيضاح هذه الحقائق لكي تتبين ما هي حقيقة الإسلام الذي ندعو إليه ودعا إليه رسول الله (ص) وينبغي ـ طبعاً ـ أن نقول: إنه وبالإضافة الى الإعلام والدعاية المعادية للإسلام من قبل الأعداء فإن من المؤسف أن تجري مساعدة أعداء الإسلام ودعمهم ـ في الوقت الحاضر ـ من داخل المسلمين ومن بين صفوفهم، وأن المندسين من عملاء العدو موجودون في صفوف المجتمع الإسلامي، إضافة الى أن الأذواق المنحرفة والنظرات الضيقة وذات الأفق المحدود هي الأخرى تساعد العدو وتمكنه من الإضرار بمصلحة الإسلام وإلحاق الأذى به.

هناك في العالم الإسلامي ـ كما أشرت قبل قليل ـ مَن يعمل ويبذل الأموال الطائلة والجهود الواسعة للإضرار بمصالح الجمهورية الإسلامية والتبليغ ضدها، بدلاً من إنفاق تلك الأموال وتوظيف الجهود للتبليغ ضد الصهيونية والإمبريالية والشيوعية.

وإذا سلّمنا بوجود مثل هؤلاء في العالم، فكم سيكون من المناسب والضروري أن يطلع العالم الإسلامي على أعمالهم ويعرف مَن هم، ويفهم أبعاد هذه القضية.

وطبعاً من أجل ألا يكون للإعلام والتبليغ الإسلامي أثره وبريقه في العالم، فقد بادر أعداء الإسلام الى عمل آخر من أعمالهم الخبيثة، وهو دعم التيارات غير الإسلامية وتشجيعها على الانتشار في البلدان الإسلامية لكي تصبح نداً منافساً للإسلام، كالعصبيات القومية المختلفة.

إنهم يقومون بإذكاء نار الشعور القومي لدى القوميات المختلفة في البلاد بحيث تؤول الأمور الى وضع يولي فيه المواطن المسلم في البلد الفلاني مصالح قوميته الدرجة الأولى من الاهتمام، وبعد ذلك يأتي الإسلام. هذا أيضاً من ضمن الأساليب والممارسات المعادية التي تؤدى وتمارس بدعم من الأعداء.

أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، نحن في الجمهورية الإسلامية كنا طوال السنوات العشر الماضية هدفاً للإعلام المعادي والدعاية العالمية، وقلما حصل مثل هذا الحجم من الإعلام المعادي ضد شخص أو فئة مثلما كان نصيب الجمهورية الإسلامية من أعدائها لسنوات طويلة. لقد مارسوا التبليغ ضدنا بمستوى فريد من نوعه، حتى أن كل وكالات الأنباء الكبرى في العالم ـ أي الوكالات الأربع المعروفة التي تبث 90 % من الأخبار العالمية، والتي تدار معظمها من الصهاينة ـ وجميع الإذاعات العالمية المعروفة التي تتم تغذيتها من قبل الدول الغربية والشرقية، كانت معظم دعاياتها وإعلامها تتركز ـ خلال هذه السنوات الماضية ـ ضد الجمهورية الإسلامية، وبأساليب ووسائل حديثة جداً.

وإننا، نحن الذين استهدَفنا ذلك الإعلام المعادي وكانت حراب عدائه وحقده مشرعة في وجوهنا، نبدي إعجابنا بهذه القدرات الإعلامية والتبليغية التي تمثلت في أساليب وصيغ شتى ضد الثورة الإسلامية. وإن الإنسان ليعجب ـ حقاً ـ وهو يرى كم من العقول وُظّفت، وكم من الأفكار طُرحت، وكم من الأوقات صُرفت في هذا الاتجاه، وكم كُرّست جهود أشخاص متخصصين ودارسين لإدارة مثل هذه الحملة الإعلامية والدعائية المعادية لنا وتنظيمها.

خلال السنوات العشر الماضية، لم نخطُ خطوة ولم نقم بعمل ما إلا وكان الإعلام العالمي لنا بالمرصاد، وليقوم بكتابة المقالات المختلفة وبشكل مستمر ضدنا، وأحد تلك المواضيع هو موضوع حقوق الإنسان.

كثيراً ما زعموا وتمشدقوا في الإعلام العالمي بأن حقوق الإنسان يجري انتهاكها وسحقها في الجمهورية الإسلامية.. ترى مَن الذين رددوا ذلك وزعموه؟! إن أكثر الأصوات علواً في هذا المجال هي أصوات الذين ينقضون أبسط حقوق الإنسان بشكل سافر وعلني. بل ويفتخرون بذلك أيضاً.. إنهم نفس أولئك الذين استخدموا القنبلة الذرية ـ ولأول مرة في العالم ـ ضد المدنيين العزّل وألقوها على كل من هيروشيما وناكازاكي، وأزهقوا بذلك أرواح عدد كبير من الناس، صغاراً وكباراً، في لحظة واحدة، فيما بقي الألوف الآخرون معاقين ومقعدين حتى الموت.

إنهم نفس أولئك الذين شنوا على رؤوس الأشهاد، وفي وضح النهار، هجوماً سافراً ضد دولة أخرى (ليبيا) وبالتحديد على عاصمة تلك الدولة ؛ وهم نفس أولئك الذين هاجموا وأسقطوا طائرة الركاب المدنية العائدة للجمهورية الإسلامية، وحاولوا في البداية أن ينكروا قيامهم بذلك، لكنهم رأوا أن عملهم غير قابل للإنكار فاعترفوا بإسقاطهم تلك الطائرة التي كان على متنها ما يربو على الـ 300 من المسافرين الإيرانيين وغير الإيرانيين، صغاراً وكباراً، نساءاً ورجالاً وأطفالاً، لكنهم لم يعبأوا بكل ذلك فأطلقوا عليها صاروخاً من إحدى سفنهم وأسقطوها في البحر، مما أدى الى مصرع ركابها جميعاً.

هؤلاء الذين ينقضون حقوق الإنسان بكل تلك الوقاحة والصراحة هم أنفسهم الذين يدّعون كذباً ويزعمون أن حقوق الإنسان تُنقض في الجمهورية الإسلامية، ويركزون حملاتهم أكثر من الباقين على الجمهورية الإسلامية بالذات.

هؤلاء هم الذين يهاجمون البلدان الأخر ويسقطون حكوماتها وهم الذين دبروا في بلدنا بالذات ـ ومنذ بداية انتصار الثورة الإسلامية ـ شتى أنواع المؤامرات والأعمال المعادية. وهؤلاء هم أنفسهم أسياد أعداء الثورة الإرهابيين الذين استُشهد على أيديهم في السنتين أو الثلاث الأولى من قيام الجمهورية الإسلامية الكثير من أبرز الشخصيات البارزة في الثورة، وكان من بين أولئك الشهداء العظام: رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ورئيس السلطة القضائية، وعدد من أعضاء مجلس الشورى الإسلامي وعدد من الوزراء، وكان عددهم يربو على 70 أو 80 شخصاً، وفي الأعم الأغلب قاموا باغتيال مثل هذه الشخصيات فضلاً عن أئمة الجمعة والعلماء الكبار.

هؤلاء القتلة الإرهابيون هربوا خارج البلاد، ولجأوا الى تلك البلدان التي تدّعي حكوماتها ـ اليوم ـ زيفاً وتتمشدق بحقوق الإنسان، وأصبحوا يتمتعون بحمايتهم.

ألا تسأل أميركا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وبقية الدول التي ترفع عقيرتها بالدفاع عن حقوق الإنسان كذباً، ألا تسأل أنفسها: أنه لو كنا حقاً دعاة حقوق الإنسان فكيف احتضنا هؤلاء الإرهابيين المتوحشين القتلة الخبثاء القساة، وكيف نوفر لهم الحماية وندافع عنهم في نفس الوقت الذي ندّعي فيه الدفاع عن حقوق الإنسان؟!

إننا نعلن أنه لا يمكن رعاية حقوق الإنسان وتطبيقها إلا في ظل الإسلام والأحكام الإسلامية، وإننا نحن الذين نقوم الآن بتطبيق تلك الحقوق ورعايتها، وطبعاً فنحن لا ندّعي أننا تمكنا من تطبيق أحكام الإسلام بشكل كامل، ولكننا قد سرنا في هذا الطريق

وخطونا خطوات كبيرة في هذا المضمار، وما زلنا نسير فيه الى الأمام.

إن حقوق الإنسان تخصنا نحن أولاً، وهذه إحدى التهم والافتراءات التي وجهت إلينا. واتهموا الجمهورية الإسلامية كذلك بالإرهاب، في الوقت الذي يقومون فيه هم بتشجيع الإرهاب ورعايته، فهم الذين يسقطون طائرة الركاب المدنية والطائرات العسكرية ويهاجمون بيوت الناس الآمنين، ويقومون بغزو غرينادا، ويقدّمون الدعم والمساندة لأعداء الثورات التقدمية ومعارضي الحكومات الثورية ويساعدونهم، ويوفرون الدعم المادي والمعنوي للأشخاص المنحطين والخبثاء، وهم يمارسون أشد أنواع الظلم والجور وأكثرها فظاعة ضد الطبقات المحرومة في بلدانهم، وخصوصاً ضد الزنوج، ويستخدمون في كل حين كل وسيلة ممكنة ضد أعدائهم، ويقومون بتصفيتهم جسدياً، وهم ـ رغم كل ذلك ـ لا يعتبرون تلك الأعمال أعمالاً إرهابية.

أما حينما تقوم الجمهورية الإسلامية بالدفاع عن مسلمي لبنان المظلومين، فإنهم يطلقون على ذلك اسم حماية الإرهاب، وعندما ندافع عن ثوار فلسطين المظلومين والذين لا ناصر لهم، يتهموننا بالدفاع عن الإرهاب.. وحين ندافع عن أولئك الذين يعانون بشدة في عقر دارهم من ظلم عملاء أميركا وأذنابها، فإنهم يتهموننا بحماية الإرهاب.

لقد ذهبوا بعيداً في ممارسة الإعلام والدعاية ضدنا في العالم، بأن الجمهورية الإسلامية تؤيد الإرهاب وتدافع عنه، بحيث أنهم يكررون القول ويعيدونه مراراً حتى يصبح ذلك من الحقائق التي تصدقها كثير من الشعوب، ويظنون ـ فعلاً ـ أن هذه الإدعاءات صادقة وحقيقية.

وفيما يخص الحرب، ينبغي القول: إنه ما من خطوة كنا نخطوها في السنوات الثماني من الحرب التي فُرضت علينا إلا ويجعلونها مادة إعلامية ضدنا ويبثونها عبر وسائل إعلامهم.

وبعد أن وافقنا على قرار مجلس الأمن المرقم 598 فإنهم استمروا أيضاً في ممارسة الدعاية والتضليل وكتبوا المقالات المعادية لنا، وأذاعوها عبر كل الإذاعات، وبثوها من خلال وكالات الأنباء. إتهموا الجمهورية الإسلامية بأن لها علاقات مع "إسرائيل" وأميركا، ولديها ارتباط خفي معهما، وردَّدت هذه المزاعم نفس الإذاعات المرتبطة بأميركا وإسرائيل، ويكفيهم خزياً وصفاقة وقبحاً أنهم حين يريدون تشويه سمعة شعب أو حكومة ثورية فإنهم يتهمونها بأن لها علاقة مع الصهاينة وأميركا.

وحتى بالنسبة لحكومة جنوب أفريقيا العنصرية، كنا أولى الدول التي عملت بحزم في مواجهة ذلك النظام وقطعت حكومة الجمهورية الإسلامية كل العلاقات مع أفريقيا الجنوبية في اللحظات العنصرية القائمة هناك، وقطعنا تصدير نفطنا الذي كان النظام الشاهنشاهي المقبور يصدّره إليهم بكميات كبيرة.

وفي أحد المؤتمرات العالمية التي عقدت لمناقشة شؤون النفط ـ وكانت قد عقدت مؤتمرات لمناقشة التمييز العنصري ـ كانت الجمهورية الإسلامية مشاركة في ذلك المؤتمر، قام عملاء الحكومات العميلة لأميركا والاستكبار العالمي ـ الذين يقدّمون هم أنفسهم الدعم والإسناد لنظام جنوب أفريقيا ـ بإعداد قائمة بأسماء الدول التي باعت النفط لنظام جنوب أفريقيا، ومن بين الأسماء التي كتبت في تلك القائمة اسم الجمهورية الإسلامية! ووضعوا في القائمة رقماً لسفينة زعموا أنها قامت بنقل النفط الإيراني الى جنوب أفريقيا، وقد وُزّعت أعداد كبيرة من تلك القائمة في المؤتمر.

ولما أُحِطت علماً بمثل هذا الأمر، كتبت الرقم المذكور وبرفقته كل المعلومات المذكورة عن السفينة، وكلفت مجموعة من الأشخاص بمتابعة هذه القضية وإبلاغي النتيجة ؛ وكانت نتيجة البحث والاستقصاء هي أن ما ذكر في هذا الصدد كان كذباً محضاً ولا صحة له، ولم تذهب تلك السفينة مطلقاً الى منطقة أفريقيا عموماً وأفريقيا الجنوبية خصوصاً، وكان معروفاً من أين حـمّلت بالنفط وأين بيع ذلك النفط ولمن تم بيعه.

هكذا أوردوا ادعاءاً مختلفاً وعارياً عن الصحة بكل وقاحة وصلف وقاموا بنشره وبثه بشكل واسع، من أجل تشويه سمعة الجمهورية الإسلامية والمساس بها.

بل إن "إسرائيل" نفسها، بالإضافة الى حلفائها، يحاولون الإيحاء عبر شتى أساليبهم ووسائل إعلامهم ـ وبخبث واضح ـ بفكرة أن لدى الجمهورية الإسلامية علاقات وصفقات شراء أسلحة مع "إسرائيل". في الوقت الذي نعلم أن هذا ليس سوى مجرد افتراء وكذب 100 % وليست لدينا أية علاقة مع الصهاينة أعداء العالم الإسلامي، لا على صعيد صفقات الأسلحة ولا في مجالات السياسة أو الاقتصاد ولا في أي مجال آخر.

بل إن لإيران ديوناً مترتبة على "إسرائيل" كانت قد بقيت في ذمة الصهاينة منذ زمن الشاه المقبور، لم تقدم حكومة الجمهورية الإسلامية ولو طلباً واحداً بتسديدها، لأن ذلك يتطلب ـ بالتالي ـ ترتيب اتصالات وإجراءات معينة لتسليم وتسلّم هذه المبالغ من الكيان الصهيوني الغاصب، ولم تشأ الجمهورية الإسلامية أن يكون لديها حتى مثل هذه الدرجة من العلاقة أو الاتصال. بينما نعرف أن أشد الشعور عداءاً للصهاينة هو شعبنا، وأكثر الحكومات إعلاناً وتصريحاً بمعاداتها للصهاينة وأكثرها جدية في ذلك هي حكومة الجمهورية الإسلامية، ومع ذلك فإن الإعلام العالمي يوجه إليها مثل تلك التهم والافتراءات، وصوروا الأمر وكأن لدى إيران علاقات ما مع الصهاينة أو أميركا، بينما الواقع يشهد أن ذلك محض اختلاق وكذب ليس إلا.

هكذا يجري توجيه الإعلام ضدنا..
لقد أشاعوا أن الجمهورية الإسلامية قد تخلت عن أهدافها الأولية وتراجعت عنها، بعد عشر سنوات من قيامها، وربطوا بين هذا الزعم والإدعاء، ونهاية الحرب، بينما ـ في الحقيقة ـ كان هذا كذباً محضاً.
فالأصول والمبادئ الإسلامية هي النور الذي يضيء الطريق لنا، ونحن ما زلنا نواصل السير في ظل تلك المبادئ والأصول..
والأصول والمبادئ التي تؤمن بها وتطبقها الجمهورية الإسلامية هي: مبدأ الاستقلال الكامل ومبدأ "لا شرقية ولا غربية" وهو ما نطبقه في الوقت الحاضر بنفس القوة التي كنا نطبقه بها فيما مضى، ومبدأ الاستناد الى رأي الشعب، وهذا الأمر يوجد في إيران اليوم بصيغة من أفضل الصيغ الموجودة في العالم ـ ولا أقول إنها الأفضل في العالم كله ـ سواء من حيث كيفية ارتباط أفراد الشعب بالنظام والحكومة والوزارة، أو تأثير هذا الارتباط.
العلاقة بين أفراد الشعب والحكومة هنا تمثل إحدى أفضل صيغ تدخل الشعب في قضايا البلاد وأمورها وفي تقرير مصيرهم.
ومن بين مبادئ الجمهورية الإسلامية وأصولها مبدأ تطبيق الإسلام والتقيد بأحكامه، فهل من الممكن مس هذا الجانب بسوء؟!
إن في دستور الدولة مبدأً ثابتاً ينص على أن أي قرار أو قانون يتم اتخاذه في الجمهورية الإسلامية يعتبر باطلاً وساقطاً عن الاعتبار بشكل كامل إذا كان مخالفاً للإسلام وغير منسجم والأحكام الإسلامية، وقد ذكر في سياق ذلك المبدأ أن هذا المبدأ يعتبر ساري المفعول ومقدماً على كل المبادئ والقوانين الأخر الموجودة في الجمهورية الإسلامية فلو تعارض هذا المبدأ مع أي مبدأ أو قانون آخر ـ حتى لو كان ذلك المبدأ أحد مبادئ الدستور ـ فإن الأولوية والاعتبار سيكونان لهذا المبدأ الأساس.
فهل من الممكن أن تنفصل الجمهورية الإسلامية عن الإسلام أو تتخلى عنه ولو للحظة واحدة؟! إننا إذا أحسسنا يوماً ما أن طريق هذا النظام الجمهوري الإسلامي يحيد عن الإسلام وينفصل عنه ـ لا سمح الله ـ فإننا نحن أنفسنا سنرفض ذلك. إن مبرر وجودنا ووجود هذا النظام رهين بالإسلام، والإسلام هو كل شيء بالنسبة لنا وهو الهوية الحقيقية لهذا النظام وروح هذا النظام.
إنني أعتذر عن إطالة الحديث بعض الشيء، وكنت قد كتبت أموراً أخر أحببت أن أطرحها في هذا المؤتمر ولكنني أعتقد أنني لو أردت أن أطرحها فسوف تطول هذه الجلسة كثيراً، ولقد أتعبكم حديثي، وآمل أن يكون هذا الاجتماع اجتماعاً مباركاً، وأن تقوموا ـ أيها الإخوة الأعزاء، الإيرانيون وغير الإيرانيين، المشاركون في هذا المؤتمر ـ ببحث القضايا المطروحة في جدول الأعمال بشكل جدي إن شاء الله، وأن تقوموا بالتعمق في ذلك وتحديد القضايا المهمة لتبليغ الإسلام، وإيضاحها، وتُقدّموا إن شاء الله للمجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية ثمرة ونتيجة فكرية قيّمة من وراء انعقاد هذا المؤتمر الكبير.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

ضَرورة العَودة إلى القرآن

آية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم
{كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد}.
قال رسول الله (ص) : "إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفّع وماحل مصدق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليُجِل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره ينجُ من عطب ويتخلص من نشب".
وقال علي (ع) : "واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان في عمى".
إن من الضرورة بمكان أن تركز الأمة الإسلامية اليوم على هذا التعريف الذي قدّمه نبي الإسلام للقرآن.
إن البيئة المعاشية للمسلمين لم تلوّث إلى هذا الحد الذي تلوثت به اليوم من سحب سوداء متراكمة وقطع الليل المظلم.
صحيح أننا نجد القرآن ـ ومنذ الخطوات الأولى التي تلت تحوّل الخلافة الإسلامية إلى السلطنة الطاغوتية ـ وقد تحوّل في الواقع إلى زائدة كمالية، وخرج بشكل رسمي ـ وإن لم يكن ذلك بشكل اسمي ـ عن المجال الحياتي للمسلمين، إلا أن ما حدث في جاهلية القرن العشرين من خلال عمل الأجهزة السياسية والإعلامية المعقدة، يعدّ أخطر من ذلك بمراتب وأكثر بعثاً على القلق بلا ريب.
ولكي يُعزل الإسلام عن الحياة، فإن أكبر وسيلة وأكثرها أثراً هي إخراج القرآن عن المجال الذهني والقلبي والعملي للأمة الإسلامية. وهذا بالتأكيد ما عمل له المتسلطون الأجانب والعملاء في الداخل، سالكين هذه السبيل عبر الاستعانة بشتى الأنماط والوسائل.
إن القرآن وهو (حسب تعبيره هو) الكتاب المقدس، والنور، والهدى، والفرقان بين الحق والباطل، والحياة، والميزان، والشفاء والذكر ؛ لا تتم هذه الخصال ـ بشكل عملي ـ إلا إذا تم قبل كل شيء استيعابه فهماً وتطبيقه عملاً.
لقد كان القرآن في عصر الحكم الإسلامي في الصدر الأول، هو القول الفصل والكلمة الأخيرة، وحتى كلام الرسول (ص) فإنه يجب أن يعرض عليه ؛ وكان حَمَلة القرآن يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع بعد أن كان الرسول (ص) قد أعطى الأمة التعليم القائل: "أشراف أمتي أصحاب الليل وحَمَلة القرآن".
لقد كان استيعاب القرآن علماً وعملاً يشكل قيمة واقعية، فللعثور على حل لكل مشكلة حياتية يجب الرجوع إلى القرآن. ولقد كان القرآن ملاك قبول أي حديث أو أسلوب أو مدّعى، ومعياره. كان عليهم أن يعرفوا الحق والباطل من وجهة نظر القرآن ليشخّصوا نماذجهما ومصاديقهما في ميدان الحياة.
ومنذ فقدت القوى الحاكمة على المجتمعات المسلمة القيم الإسلامية واغتربت عنها ورأت في القرآن ـ وهو الناطق بالحق وفرقان الحق والباطل ـ عقبة في سبيلها، بدأ السعي الحثيث لإبعاد كلام الله عن ميدان الحياة، ووجد عقيب ذلك الفصل بين الدين والحياة الاجتماعية، والتفريق بين الدنيا والآخرة، والتقابل بين المتدينين الواقعيين وأهل الدنيا المقتدرين، وأُبعد الإسلام عن مركز إدارة مجالات الحياة الاجتماعية للمجتمعات المسلمة، ليقتصر على المساجد والمعابد والبيوت وزوايا القلوب، وهكذا وجد الفصل بين الدين والحياة بكل ما عاد به من خسارة على المدى الطويل.
ومن الطبيعي أن القرآن قبل أن يتم الهجوم الواسع للمتسلطين الغربيين ـ الصليبيين والصهاينة ـ وإن لم يكن موجوداً في

المجال الحياتي بالمعنى الحقيقي إلا أنه كان يحتل مكانه في أذهان المسلمين وقلوبهم ـ على تفاوت بينهم في ذلك ـ غير أن الهجوم الصليبي ـ الصهيوني في القرن التاسع عشر، لم يستطع أن يتحمل حتى هذا القدر أيضاً. إنهم لا يستطيعون أن يتحملوا وجود القرآن الذي يصدر بكل وضوح أمر {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}، ويصدح بقول {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً}، القرآن الذي يريد للمؤمنين أن يكونوا أخوة فيما بينهم، أشداء غضاباً على أعدائهم، مثل هذا القرآن لا يمكن أن يتحمله المتسلطون الساعون للسيطرة على أزمّة أمور المسلمين، ونهب كل شيء لديهم.

إن هؤلاء المتسلطين أدركوا ـ بكل وضوح ـ أن القرآن رغم هذا الحضور غير الكامل في حياة الأمة، لن يسمح لتسلطهم ونفوذهم أن يسلكا سبيلهما المنشودين، لذا فقد وضعوا خطة حذف القرآن بشكل كامل، وطبيعي أن لا تمتلك ولن تمتلك هذه الخطة تطبيقاً عملياً، ذلك أن الله تعالى قد وعد الأمة الإسلامية بحفظ القرآن دائماً على أننا لا نستطيع أن نغض النظر عن نتائج ذلك السعي الواسع الأبعاد الذي تم من قبلهم بهذا الصدد.

القوا اليوم نظرة على ميدان حياة المسلمين، فأين تجدون القرآن؟ هل تجدونه في أجهزة الحكومات؟ أو في النظم الاقتصادية؟ أو في تنظيم العلاقات والمناسبات بين الناس بعضهم مع البعض الآخر؟ في المدارس والجامعات؟ في السياسة الخارجية والعلاقات بين الدول؟ في تقسيم الثروات الوطنية بين فئات الشعب؟ في أخلاقية المسؤولين في المجتمعات الإسلامية وكل فئات الشعوب التي تتأثر بهم ـ قليلاً أو كثيراً ـ؟ في السلوك الفردي للحكام المسلمين؟ في العلاقات بين الرجل والمرأة؟ في الأرصدة المصرفية؟ في أنماط المعاشرة؟ في أي مكان من الحركة العامة والاجتماعية للناس؟ ولنستثن من كل هذه الميادين الحياتية المساجد والمآذن وأحياناً بعض البرامج ـ التي لا تعدّ شيئاً ـ من الإذاعات رياءً وخداعاً لعامة الناس. ولكن هل جاء القرآن لهذا فقط؟ لقد كان السيد جمال قبل مائة سنة يبكي ويُبكي لهذا الأمر، حيث عاد القرآن يقتصر على الإهداء والتزيين والتلاوة في المقابر والوضع على الرفوف.. ولكن ماذا حدث في المائة سنة هذه؟ ترى ألا يبعث وضع القرآن لدى الأمة الإسلامية على القلق؟

إن الحديث كله يتركز على أن القرآن، كتاب حياة الإنسان، إنسان اللانهاية، الإنسان المتكامل، الإنسان ذي الأبعاد، الإنسان الذي لا حد لتكامله ؛ إن هذا الهادي والمعلم للإنسان قادر على أن يرعاه في كل العصور، وإن نظام الحياة اللائق بالإنسان، إنما يتعلمه الإنسان من القرآن لا غير، وإن الأساليب التي يجب أن يتبعها ليرفع عن كاهله أنواع الظلم والتفرقة، والفساد، والجهل، والطغيان، والانحراف والدناءة والخيانة التي ابتُلي بها خلال تاريخه الطويل فكانت عقبة في سبيل رشده وتعاليه ؛ كل هذه الأساليب إنما يمكن أن تكون عملية في ظل الهداية القرآنية والمخطط الذي طرحه الكتاب السماوي للحياة الإنسانية.

إن العودة إلى القرآن، هي عودة إلى الحياة التي تليق بالإنسان، وهي المهمة الملقاة على عاتق المؤمنين بالقرآن، وفي طليعتهم العارفون به، والعلماء والمبلّغون الدينيون.

وإن العودة إلى القرآن، شعار لو يطرح بشكل حقيق وجدي، لاستطاع أن يقدّم الفارق بين الحق والباطل. كما يجب أن لا تتحمل الشعوب الإسلامية وجود تلك القوى التي لا تريد أن تقبل مسألة العودة إلى القرآن.

إخواني المسلمين، أخواتي المسلمات!

إننا بعد أن ابتُلينا ـ كذلك ـ بالبعد عن القرآن وأُصبنا بآثار التآمر ضد القرآن من قبل الأعداء العالميين، قد ذقنا طعم العودة إلى القرآن. وإن انتصار الثورة الإسلامية العظيمة في إيران، وإقامة نظام الجمهورية الإسلامية ليعدّان من الآثار المباركة الكبرى لهذه العودة.

إن هذا الشعب ليشاهد اليوم في أفق حياته، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي شكل حكومته ومحتواها، وفي مناقبية قادته، وفي سياسته الخارجية، وفي نظام التعليم والتربية لديه، يشاهد في كل ذلك لمعات من التعليم القرآني... إن الذي هب علينا لحد الآن إنما هو نسيم من جنة القرآن.. إلا أن الطريق أمام السعي والحركة ما زال مفتوحاً للوصول إلى بحبوحة هذه الجنة الواقعية.

إن مؤتمر الفكر الإسلامي ليؤدي رسالة سامية، إذ يعرض قائمة بالمعارف القرآنية، ويقوم بخطوة على سبيل طرح المعرفة القرآنية من جديد.

إن البحث في الموضوعات التي جاءت في جدول أعمال هذا المؤتمر، يجب أن يمتلك القدرة على منح الأذهان المستعدة الإذعان بأن كل ما تتطلبه إدارة حياة اجتماعية لائقة متوفر في القرآن، وذلك من المعرفة الذهنية إلى الأساليب العملية، ومن العقيدة الهادية المحفّزة والمعبّئة للنفوس إلى النظم المتنوعة التي تشكل أقساماً مختلفة للحياة الاجتماعية، ومن تحليل ماضي التاريخ البشري إلى التنبؤ بمستقبل الإنسان.

إننا نجد الفلسفات والإيديولوجيات المادية المتنوعة قد وصلت إلى طرق مسدودة، وذلك على الصعيد الذهني والعملي، فعجزت بالتالي عن اجتذاب القوى الإنسانية وتعبئتها.

والدور الآن للحاكمية القرآنية، لتقوم بسد الفراغ الموجود في الأذهان والأعمال الإنسانية، وتبشر بتحقق الوعد القرآني، {ليظهره على الدين كله}.

وعليكم انتم أخوتي وأخواتي أن تواصلوا ممارساتكم حول محور القرآن من مجالات المعرفة إلى ساحات العمل، ومن القراءة إلى التفسير، ومن القبول الذهني إلى التحقق الخارجي. احملوا شعار العودة إلى القرآن إلى أقطاركم، وانشروه بين شعوبكم، وشجعوهم وقربوهم من تحقيق هذا الشعار. وإني لآمل أن تعينكم وتهديكم روح القرآن وباطنه في هذا المسعى المبارك.

بسم الله الرحمن الرحيم

"في يومنا هذا تتشابه الظروف مع ظروف حكومة أمير المؤمنين "عليه السلام" ؛ فالعصر إذاً هو عصر نهج البلاغة. ولهذا ينبغي أن ننظر إلى وقائع العالم والمجتمع من المنظار الدقيق والناقد لأمير المؤمنين "عليه السلام" للإطلاع على الكثير من الحقائق، ومعرفة طرق حل المشاكل والمعضلات. فنحن هنا نرى أن حاجتنا اليوم إلى نهج البلاغة أكثر من أي وقت آخر".
الإمام الخامنئي (دام ظله)

مقدمة

بين يديك أخي القارئ كتاب صغير في الحجم كبير في المحتوى، هو عبارة عن ثلاث محاضرات قيِّمة، ألقاها سماحة الإمام الخامنئي (دام ظله) في مناسبات عدة، اجتمعت حول نهج البلاغة، هذا الكتاب الذي عُرف كأعظم كتاب بعد القرآن الكريم في التراث الإسلامي الأصيل.
لقد قام مركز بقية الله الأعظم للدراسات بتعريب المحاضرات الفارسية، دون أي تصرف، مع المحافظة التامَّة على الصياغة الإلقائية في المحاضرة الشفهية، وذلك ضمن سلسلة مؤلفات سماحة الإمام الخامنئي التي أشرف المركز على إنهاء ترجمتها كاملة.
يقف المتابع لفكر هذا القائد الحكيم عند ظاهرة، ربما ليس لها مثيل بعد الإمام الخميني "قدس سره الشريف". هذه الظاهرة التي تحتاج إلى مدة زمنية علمها عند الله لتكتشف على حقيقتها، وهي ما يتعلق بالفكر الاجتماعي للإمام الخامنئي (دام ظله) .
وفي محاولة الاقتراب من هذه الظاهرة العظيمة التي من شأنها أن تكون فتحاً كبيراً في الفكر الإسلامي، نجد أن مسألة المجتمع وقضاياه المصيرية كانت شبه غائبة عن مسرح الأبحاث العلمية لعلمائنا الكبار. وإذا وجد من يتناولها انطلاقاً من موقعيته الدينية، ففي أغلب الأحيان يكون العرض بشكل كلي دون الدخول في عمق التعاليم الإسلامي والنصوص الشريفة واستنباط أبعاد وقوانين الفكر الاجتماعي منها. هنا نشاهد فكراً جديداً يترعرع في رحاب روح جيَّاشة ثابتة في أرض الأصالة متفرعة إلى سماء شؤون الحياة بأبعادها المصيرية، ليبثَّ في أجواء العالم الإسلامي، الغارق في وحول القرون الماضية للغربة التامة عن التعاليم الاجتماعية للإسلام، روحاً جديدة ستثمر في المستقبل نهضة كبرى بإذن الله.
لعل هذه الإشارة نفسها لن تكون واضحة ما لم نبيِّن أصول هذا الفكر الاجتماعي ولو بشكل موجز يتناسب مع هذه المقدمة.
فالأصل الأول في هذا المجال هو مركزية الحكومة والمسؤولية الاجتماعية ــ الشرعية تجاه الحكم. ويتفرع من هذا الأصل تحليل أحداث التاريخ على هذا الأساس ورؤية جميع الأنشطة والتحركات ضمن حركة الحكم، التي هي رؤية واقعية نافذة لا تقف عند ظواهر الأحداث. وينبع من هذه الرؤية أيضاً اعتبار تشكُّل الثقافة الواقعية للشعب من خلال نظام الحكم.
إن كل واحدة من هذه القضايا تحتاج إلى بحث مفصل وعميق. وما يظهر من كلمات سماحة الإمام الخامنئي (دام ظله) أنه يرسم الرؤية الشاملة لهذا الأصل، بحيث يمكن القول ان الحكومة تمثل محور فكره كله. ولقد قال الإمام الخميني في كتاب البيع ــ مبحث ولاية الفقيه: "إن الإسلام هو الحكومة". مختصراً هذا الدين برؤيته الكونية ونظامه السلوكي بهذه القضية الرئيسية.
ومن مظاهر هذه المحورية، تبيان وشرح التعاليم الأخلاقية والوظائف الشرعية الفردية وفق هذه الرؤية الاجتماعية بحيث يصل المتتبِّع لفكر سماحته إلى الاعتقاد بما قاله إمامنا الراحل سابقاً "إن الأخلاقَ كلَّها سياسة"، أو قوله "قدس سره الشريف": "إن الفلسفة العلمية لكلّ الفقه بكل أبعادها هي الحكومة".
الأصل الثاني في هذا الفكر الاستنهاضي هو الشعب. فإننا إذا طالعنا جميع ما كتب من قبل عملاء الإسلام منذ القرن الأول وإلى يومنا هذا من مؤلفات في شتى الميادين لا نستطيع أن نعثر على هذا الأصل. حتى ان هذا البعد الاجتماعي لم يتشكل يوماً كما أراد الله تعالى من خلال مفهوم الأمة الواحدة في القرآن الكريم، لأنه سرعان ما حكمت العقلية العشائرية والقبلية بعد وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" ووصلت إلى ذروتها على عهد معاوية حيث جعل الحكم ملكاً عضوضاً. ولم تنفع المساعي الكبرى لأئمة المسلمين الصالحين للقضاء على هذا الانحطاط الكبير الذي أصاب المجتمع الإسلامي بأسره.

هنا نجد الإمام الخامنئي ــ وبرؤيته الاستراتيجية للأمور ــ يغوص في أحداث التاريخ ويدرس المجتمع الإسلامي من زاوية الناس أو الشعب ؛ فهو يسعى للبحث عن هذا البعد الذي ضاع في كتابات العلماء وبعد أن يجده يعطينا على أساسة تفسيراً عميقاً للتاريخ، يصلُح بكل جوانبه أن يكون درساً استراتيجياً للحاضر والمستقبل.

وكما أشرت في طيّات الكلام، من الصعب الآن أن ندرك هذا الامتياز الذي حققه سماحته مما يجعله من الفاتحين الكبار في مجال الفكر الإسلامي.

ما نحتاجه أولاً هو المطالعة الشاملة لفكره ومقارنته بفكر عظماء العلماء، بالإضافة إلى امتلاك الحس السياسي والهم الاجتماعي الذي يعني البحث الدائم عن اكتشاف أمراض المجتمع الإسلامي وأسباب انحطاطه ووسائل وبرامج علاجها.

آمل أن يهتدي القراء الأعزاء إلى هذا الكنز العظيم.

قم المقدسة ــ 14 شوال 1420هـ

الحكومة في نهج البلاغة

محاضرة في مؤتمر ألفية نهج البلاغة

طهران ــ مدرسة الشهيد مطهري ــ رجب 1401هـ

الحكومة في نهج البلاغة

إن قضية الحكومة في نهج البلاغة قد طرحت ــ كعشرات القضايا المهمة في الحياة ــ في هذا الكتاب العظيم بأسلوب مغاير لأساليب المحققين والمؤلفين. فلم يفرد أمير المؤمنين "عليه السلام" فصلاً مستقلاً حول الحكومة يرتب فيه المقدمات للوصول إلى النتائج. فإن أسلوبه في تناول هذا الباب المهم، كغيره من الأبواب الأخرى كان أسلوب الحكمة، أي عبور المقدمات والتأمل والتركيز على النتيجة. فإن نظر أمير المؤمنين "عليه السلام" إلى قضية الحكومة هو نظر حكيم عظيم له ارتباط قريب بمنبع الوحي.
كذلك فإن هذه القضية في نهج البلاغة لم تطرح بصورة بحث مجرد (تجريدي) . فإن الإمام علي "عليه السلام" كان على تماس مباشر بأمر الحكومة، وكان يتحدث كحاكم يمارس إدارة الدولة الإسلامية مع كل ما فيها من مشاكل ومصائب وآلام، ويتابع جوانبها المتعددة. وإن التفاتنا إلى هذا الأمر، ونحن نعيش في ظروف وأوضاع مشابهة لظروف أمير المؤمنين "عليه السلام" ملهم ومفيد جداً، وسوف أتعرض هنا، من خلال جولة قصيرة في نهج البلاغة، إلى قضايا قد دونتها وهي تمثل رؤوس المطالب.
والقضية الأساسية التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال:

1ــ معنى الحكومة
في البداية ينبغي أن نرى هل ان "الحكومة" عند الإمام "عليه السلام" هي بالمعنى المتداول في ثقافة العالم القديم والعالم المعاصر؟ أي تلك الحكومة التي تعني التسلط والتحكم، وأحياناً تعامل الحاكم مع المحكومين من واقع التمايز في الحياة؟ أم لا، ان "الحكومة"، في ثقافة نهج البلاغة لها مفهوم آخر؟
في هذا المجال نستخلص من نهج البلاغة عدة مصطلحات تشير إلى الحاكم بعنوان "الإمام" و"الوالي" و"ولي الأمر" وتشير إلى الشعب بعنوان "الرعية"

2ــ ضرورة الحكومة
المطلب التالي، هو قضية ضرورة الحكومة. فمن الأبحاث التي تدور في هذا المجال هو هل يعد وجود القيادة والحكومة أمراً ضرورياً للمجتمع الإنساني أم لا؟ والاستنتاج الذي نخرج به من هذا البحث هو الالتزام بلوازم في الحياة الاجتماعية، ولا ينحصر الأمر بمجرد قبول ضرورة الحكومة للمجتمع بل نتيجة بحثنا سترسم الخطوط الخاصة لنهج القيادة والحكومة وإدارة المجتمع.

3ــ منشأ الحكومة
ما هو منشأ الحكومة في نهج البلاغة؟
هل هو الأمر الطبيعي، العرق، العشيرة، النسب، القوة والاقتدار (سواء الطبيعي أم المكتسب) ؟ أم لا، وإن منشأ الحكومة، وما يعطي الشرعية لحكم الفرد أو الجماعة هو أمر إلهي أم أمر شعبي؟

4ــ الحكومة حق أم تكليف؟

المسألة الرابعة هي هل ان الحكم هو حق أم تكليف؟ وهل ان الحاكم يمتلك حق الحكومة أم هو مكلف بالحكم؟ ومن هو الذي يمكنه أو ينبغي له أن يحكم؟ في نهج البلاغة، تعد الحكومة حق وتكليف أيضاً. وبالنسبة للذي يتمتع بشروط ومعايير ومواصفات الحاكم، يجب عليه أن يقبل الحكومة في بعض الشرائط والظروف، ولا ينبغي له أن يلقي هذا الحمل عن عاتقه.

5ـ الحكومة هدف أم وسيلة؟

المسألة الخامسة، هل أن الحكم يعد ـ للفرد أو للجماعة الحاكمة ـ هدفاً أم وسيلة؟ وإذا كان وسيلة، فلأي هدف؟ وما هو الهدف الذي يريد الحاكم الوصول إليه من خلال الحكومة وإيصال المجتمع إليه أيضاً؟

6ـ الحاكم والرعية

المسألة السادسة، هي ما يتعلق بقضية حساسة حول علاقة الحاكمة بالرعية، وما هي المباني والأسس التي تقوم عليها هذه العلاقة؟ فهل هي حق من طرف واحد يمتطي الحاكم من خلاله رقاب الناس؟ أم أنه حق متقابل؟ إن من أكثر الأبحاث المتعلقة بالحكومة في نهج البلاغة من حيث التأسيس والمعنى والنتيجة هي هذه القضية.

7ـ الشعب والحكومة

المسألة السابعة، ما يرتبط بدور الشعب في الحكومة. ويجب أن ننظر إلى ثقافة نهج البلاغة ونرى دور الشعب في الحكومة. هل هو مصيري؟ أم ابتدائي؟ كامل الصلاحيات؟ أم مجرد من الدور؟ فأي شيء هو؟

فمثل هذه الأمور تعد من أكثر المسائل دقة في نهج البلاغة. وإن الثقافات الحاكمة في عصرنا الحالي على أذهان الناس في الأجنحة والتيارات السياسية المختلفة، لا ينطبق أي واحد منها على ثقافة نهج البلاغة.

8ـ كيفية التعامل مع الناس

المسألة الثامنة والتي تعد من الناحية الأصولية مسألة ثانوية، ولكن من الناحية العملية مسألة مهمة جداً وحساسة، هي كيفية تعامل الجهاز الإداري مع الشعب. فكيف ينبغي أن يتعامل أعضاء الحكومة مع الناس؟ فهل هم مدينون لهم أم العكس؟ وكيف ينبغي أن تكون أخلاق الجهاز الحاكم في تعامله مع الشعب؟

9ـ سلوك الحاكم مع نفسه

المسألة التاسعة والتي هي أيضاً من المسائل الملفتة جداً هي ما يتعلق بسلوك الحاكم مع نفسه. فهل يوجد حدود معينة لسلوك الحاكم في المجتمع؟ وهل يمكن الرضى والاكتفاء بحسن سلوكه مع الشعب؟ أم لا، فإن هناك ما يفوق هذا الارتباط والعلاقة، وهو علاقة الحاكم بنفسه؟ فكيف ينبغي أن تكون حياته الشخصية، وما هو المطروح في نهج البلاغة حول هذا الأمر؟

10ـ شروط الحاكم ومواصفاته

المسألة العاشرة هي صفات الحاكم. فكيف يمكن للإنسان أن يحكم المجتمع البشري بناءً على أحكام نهج البلاغة؟

فهذه عناوين القضايا التي وردت في نهج البلاغة، ونحن نستطيع أن نتعرض لها بالبحث.

مفهوم الحكومة

المسألة الأولى تدور حول مفهوم الحكومة.
في التعابير المستعملة في اللغة العربية للحاكم يوجد هذه العبارات والعناوين: السلطان والملك. وتتضمن كلمة السلطان في باطنها مفهوم السلطة في الحاكم. أي أن ذلك المسمى بالحاكم ينظر إليه ها هنا من بُعْد السلطة, حيث لا يحق للآخرين التدخل في شؤون الناس وأمورهم، بينما يحق له ذلك.
أما الملك، والملوكية والمالكية فإنها تتضمن مفهوم تملك الناس أو امتلاك مصيرهم. وفي نهج البلاغة لا نجد هذين التعبيرين (الملك أو السلطان) قد استخدما في مجال الإشارة إلى الحاكم على المجتمع الإسلامي. بل التعابير الواردة في نهج البلاغة هي الإمام الذي هو القائد. ومفهوم القائد يختلف عن مفهوم المرشد. فالقائد هو ذلك الإنسان الذي يتقدم الجماعة أو الأمة التي يقودها. كما أننا نجد في كلمة الإمام مفهوم الحركة والتبعية والتقدم في تحرك الناس وفق مسار ما.
التعبير الآخر هو الوالي. وقد أخذ هذا التعبير من كلمة الولاية أو الوَلاية. وبالالتفات إلى مشتقات هذه الكلمة يمكن الوصول إلى البعد المنظور فيها. والولاية في أصل معناها اللغوي تدل على ارتباط شيئين. فاللغة تقول إن الولاية تعني اتصال شيئين معاً، بحيث لا يبقى أي شيء فاصلاً بينهما. وبالطبع فهناك معاني أخرى للولاية، كالمحبة والإشراف والقومية. والولاية بمعنى تحرير العبد، أو بمعنى العبودية أو السيادة على العبد.
يبدو أن طبيعة العلاقات التي ذكرت في معنى الولاية كلها مصاديق ذلك الارتباط والاتصال. فوالي الأمة أو الرعية هو الذي يتحمل أمور الناس وهو مرتبط بهم. ونفس هذا المعنى يوضح بعداً خاصاً من مفهوم الحكومة في نهج البلاغة وعند أمير المؤمنين "عليه السلام": فولي الأمر هو المتصدي لهذا العمل. ولا يوجد أي امتياز يختفي في كلمة المتصدي لهذا العمل. فالمجتمع الإسلامي يشبه مصنعاً ضخماً يتألف من أقسام، وآلات ومفاصل وأجزاء صغيرة وكبيرة تتفاوت في تأثيرها. وأحد هذه الأقسام هو الذي يشغله مدير المجتمع، مثل بقية الأقسام، فهو مثل بقية الأجزاء والعناصر المشكلة لهذه المجموعة.
ولي الأمر هو المتصدي لهذا العمل، والمتصدي لا يطلب ولا ينتظر الحصول على أي امتياز ومن الناحية العملية ليس له أي امتياز من ناحية وضعه المعيشي أو شؤوناته المادية. فإذا كان يقدر على أداء تكليفه بشكل صحيح، فإنه بمقدار ما يؤدي هذا التكليف ينال الشأنية المعنوية، ولا غير. فهذا حاق وجوهر مفهوم الحكومة في نهج البلاغة.
وهكذا، فالحكومة في نهج البلاغة ليس فيها أية إشارة أو علامة على السلطة. وليس فيها أي مبرر لنيل الامتياز. ومن هنا، يكون الناس بحسب تعبير نهج البلاغة رعية، والرعية هم الجماعة التي تقع مسؤولية رعايتها والسهر عليها وحراستها على عاتق ولي الأمر. ولا شك أن مفهوم الرعاية والمحافظة يتفاوت من الجماد إلى الحيوان.
وأحياناً تكون الحراسة والمحافظة على الناس، فهنا نأخذ الإنسان بجميع أبعاد شخصيته ووجوده وحريته وسعيه الدائم للكمال والسمو ورقيه المعنوي، وأهدافه العليا، ويجب رعاية هذه الأبعاد والشؤون مجتمعة.
فهذا الأمر هو الذي أشير إليه في الثقافة الإسلامية عبر العصور. يقول كميت الأسدي:
"ساسة لا كمن يرى الناس سواء ورعيه الأنعام".
السياسيون هم الذين لا يرون رعية الناس مثل رعية الحيوانات بيد أن الإنسان يجب مراعاة إنسانيته، وهذا هو مفهوم الرعية التي تعبّر عن الشعوب في نهج البلاغة.
وباختصار، عندما نكون بصدد البحث عن مفهوم الحكومة في نهج البلاغة، نشاهد من جانب أن رأس الحكومة هو الوالي أو ولي الأمر يتصدى لأعمال الناس وهو موظف ومكلف بتكليف مهم، يتحمل على أساسه مسؤولية ثقيلة وكبيرة. ومن جانب آخر، نرى الشعب بكل قيمه وأهدافه والعناصر المشكلة لهويته يقع مورد الرعاية. فهذا هو مفهوم الحكومة، وهو لا يدل على تسلط أو قهر أو سعي إلى المزيد من الامتيازات.
ويشير أمير المؤمنين "عليه السلام" في مواضع مهمة من نهج البلاغة إلى أبعاد الحكومة. ولعلنا نجد عشرات الجمل في هذا الكتاب مما يدل على مفهوم الحكومة عند الإمام علي (عليه السلام) ، منها ما ورد في بداية عهده لمالك الأشتر حيث يقول:
"جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها" فهذا معنى الحكومة. وإذا عُيِّن مالك الأشتر كوالٍ وحاكم على مصر، فليس لأجل أن يحصل على سلطة وموقعية لنفسه، أو نيل امتيازات ومنافع مادية، بل لأجل أداء هذه الأعمال: إدارة الأمور

المالية للبلاد، ومحاربة أعداء الشعب والحفاظ عليه منهم، وإصلاح الناس (وهذا الصلاح بأبعاده المادية والمعنوية الواسعة قد طرح في نهج البلاغة) ، وعمارة المدن مما هو واقع ضمن نطاق حكومته. وباختصار: القيام ببناء الناس والبلاد ورفع مستواهم المعنوي وقيمهم الأخلاقية.

ضرورة الحكومة

المسألة الأخرى هي مسألة ضرورة الحكومة. وهذا البحث كان يطرح في نهج البلاغة مقابل تيار خاص، واستمر كذلك. أي مقابل التيارات السلطوية. ففي كل مجتمع، يوجد أفراد يريدون تحصيل الشأنية والقدرة الفردية، ويرون الوضع الجاري في المجتمع غير مناسب لهم، فيتحركون لأجل التحرر من الضرورات التي تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس، والعقود الاجتماعية السائدة. ولقد وجدت مثل هذه الدوافع في المجتمعات السابقة، ولا زالت، وستبقى ما دامت الأخلاق الإنسانية غير كاملة وصحيحة. مثل هؤلاء كمثل الذين ركبوا سفينة مع غيرهم وأرادوا أن يخرقوا المكان الذي جلسوا فيه. أو ركبوا قطاراً، وأرادوا أن يوقفوا عربتهم التي تقلهم في مكان يحلو لهم، حتى لو أوقفوا كل القطار. إن هؤلاء لا يلتزمون بالضرورات التي تفرضها الحياة الاجتماعية ــ الموافقة للطبيعة الاجتماعية الإنسانية ــ على الإنسان.

ولو وجدت هذه الدوافع التسلطية في المجتمع مجالاً لها للبروز، فإن الأمر سينتهي إلى الهرج والمرج . ومن هنا كان الإمام علي "عليه السلام" يقول رداً على هذه التيارات: "لابد للناس من أمير". ولقد نطق الإمام علي "عليه السلام" بهذا الكلام في الرد على تيار خاص ينفي ضرورة الحكومة. وهو في باطنه يريد الهيمنة والتسلط، لكنه يتظاهر بمقولة فلسفية. وهؤلاء هم الخوارج الذين كانوا يقولون: "لا حكم إلا الله". وكان قسم منهم يقول ذلك عن اعتقاد خاطئ وقسم آخر كان مغرضاً، وهم يريدون أن ينفوا لزوم وجود الحكومة في المجتمع.

وهنا وقف أمير المؤمنين "عليه السلام" موضحاً معنى "لا حكم إلا الله"، ومبيناً خطأهم. ونحن لا نصدق أبداً أن الأشعث بن قيس الذي كان زعيم الخوارج قد وقع في الخطأ والشبهة، وكذلك لا نصدق بأن الأيادي التابعة للسياسيين المتربصين بالإمام علي "عليه السلام" لم تكن وراء مثل هذا التيار المتظاهر بالتوحيد وحماية الألوهية. فقد كانوا يقولون إن الحكومة مختصة بالله، ونحن لا نريد الحكومة. أما قصدهم الواقعي فقد كان رفض حكومة الإمام علي "عليه السلام". ولو سلّم الإمام علي "عليه السلام" في ذلك الوقت لهذه المغالطة الواضحة، أو تنازل لصالح هذه الاضطرابات الاجتماعية، أو للناس الذين كانوا ينطقون بهذه الأقوال الباطلة بسذاجة واعتزل الميدان فإن نفس أولئك الذين كانوا يتفوهون بهذه الشعارات كانوا ليصبحوا أدعياء وطلاب الحكومة.

فيقول أمير المؤمنين "عليه السلام": كلا، فإن الحكومة لازمة للمجتمع: "كلمة حق يراد بها الباطل". فهذا الكلام حق، وهو بيان القرآن: {إن الحكم إلا الله}، ولكن ليس بمعنى أن المجتمع لا يحتاج إلى مدير: "نعم، إنه لا حكم إلا الله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا الله"، مما يعني أن يبقى المجتمع بدون مدير: "وإنه لابد للناس من أمير بر وفاجر". فإن هذه ضرورة اجتماعية، وضرورة طبيعية وإنسانية تفرض لزوم المدير للمجتمع، سواء كان مديراً سيئاً أم جيداً. فإن ضرورة حياة البشر تفرض وجود مدير. أما قولهم "لا حكم إلا الله" فأرادوا به إسقاط حكومة الإمام علي "عليه السلام"، وهو في الحقيقة يعني نفي الأنداد الله، نفي أية حاكمية مقابل حاكمية الله. أما حاكمية الإمام علي "عليه السلام" فلم تكن في عرض حاكمية الله. بل كانت ذائبة في حكم الله وفي طوله، ونابعة منه. وكان أمير المؤمنين "عليه السلام" يوضح هذه القضية.

فإذا وجدت مثل هذه الحكومة ــ التي منشؤها الحاكمية الإلهية في المجتمع، فإن أي حركة دالة على هذا المفهوم الانحرافي "لا حكم... "، هي حركة معادية الله، ولهذا واجه أمير المؤمنين "عليه السلام" في ذلك الوقت تيار الخوارج بقوة وقضى عليهم بشدة.

منشأ الحكومة

المسألة الثالثة تتعلق بمنشأ الحكومة. ففي الثقافة الإنسانية الرائجة في الماضي والحاضر، كان منشأ الحكومة هو القوة والسلطة. وكانت جميع الفتوحات العسكرية لهذا الغرض. وجميع الأسر الحاكمة التي حلت مكان أسر حاكمة أخرى، جاءت إلى الحكم بهذه الطريقة. فالاسكندر الذي فتح إيران، والمغول الذين اجتاحوا هذه المناطق، لم يكونوا سوى تعبير عن هذه الحالة.

فالمنطق السائد كان أننا طالما نقدر على التقدم والسيطرة فلنتقدم ولنقتل. وفي مسيرة التاريخ كانت التحركات التي تصنع تاريخ الحكومات تدل على هذه الثقافة. فقد كان رأي الحكام وكذلك المحكومين أن ملاك ومنشأ الحكومة هو القدرة والسيطرة. وبالطبع في ذلك الوقت الذي كان الملك يريد تولي العرش لم يكن يصرح بأن القوة والقهر هي منشأ حكومته. حتى جنكيز خان المغولي، فإنه عندما اجتاح إيران، كان هذا الأمر بالنسبة لأنصاره وأتباعه أمراً معقولاً.

وفي عصرنا الحالي، نجد القوى العظمى أيضاً تتبع نفس ذلك المنطق. فأولئك الذين يسوقون الدول بالقهر والقوة، وأولئك الذين يدخلون إلى بيوت الشعوب التي تبعد عنهم آلاف الكيلومترات، وأولئك الذين يتحكمون بمصائر الشعب ويسلبونها الإرادة والحرية، وإن كانوا لا يتفوهون بأن منشأ حاكميتهم هو القوة، إلا أنهم يطبقون ذلك عملياً. وهذه الثقافة، وإن كان هي الغالبة، إلا أنه يوجد إلى جانبها آراء أخرى. فأفلاطون كان يرى أن ملاك الحكم والحكومة هو الفضل والفضيلة، أي يقول "بحكومة الأفاضل" أو الصالحين. ولكن هذا الرأي كان حبراً على ورق وبحثاً للمدارس فقط.

وفي عالمنا المعاصر، تعد الديمقراطية التي هي إرادة الأكثرية، ملاك ومنشأ الحكومة. ولكن من هو الذي لا يعلم أن عشرات الأساليب الرذيلة هي التي تستخدم من أجل سوق إرادة الناس باتجاه إرادة المتسلطين والمقتدرين. لهذا يمكن في جملة واحدة القول ان في ثقافة البشر السائدة، من البداية وحتى اليوم وحتى تحكم الثقافة العلوية وثقافة نهج البلاغة حياة البشر، فإن منشأ الحاكمية هو القوة والتسلط، وسيبقى ولا غير.

وفي نهج البلاغة، نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" لا يعتبر ما مر منشأ الحكومة، والأهم أنه "عليه السلام" قد أثبت ذلك عملياً. فعند الإمام علي "عليه السلام" المنشأ الأساسي للحكومة، هو مجموعة من القيم المعنوية.

فالذي ينبغي أن يحكم الناس ويتولى أمورهم ينبغي أن يتمتع بخصائص معينة. فانظروا في كتبه ورسائله إلى معاوية وطلحة والزبير وعماله وأهل الكوفة ومصر. فقد كان يعتبر الحكومة والولاية على الناس ناشئة من القيم المعنوية. ولكن هذه القيم المعنوية لا تكفي لوحدها ليصبح الإنسان في الواقع حاكماً ووليا، بل إن للناس هنا دوراً حيث تعتبر "البيعة" مظهراً له.

ولأمير المؤمنين "عليه السلام" تصريحات عديدة فيما يتعلق بالمسألتين، منها ما كتبه للمعارضين لحكومته وأشرنا إلى ذلك سابقاً، ومنها في خطبه التي ذكر فيها أهل البيت وبيّن فيها القيم المعنوية التي تمثل ملاك الحكومة. ولكن هذه القيم ــ كما قلنا ــ لا تكون سبباً لتحقق الحكومة، بل أن بيعة الناس في ذلك شرط:

"إنه بايعني القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك الله رضى".

الحكومة حق أم تكليف؟

إن المسألة الأخرى التي تحوز على أهمية فائقة من نهج البلاغة هي هل ان الحكومة حق أم تكليف؟ وقد بين أمير المؤمنين "عليه السلام" في كلام مختصر ووجيز أن الحكومة حق وتكليف أيضاً. فليس كل ما توفرت له ظروف تولي أمور الناس. واستطاع أن يحصل على مقام واه، بشكل أو بآخر ــ كالاعلام أو الأساليب التي يرفعها طلاب الزعامة جيداً، ويستطيعون من خلالها جذب الناس إليهم ــ فإنه يحق له الحكم. فعندما تكون الحكومة حكومة الحق، فهذا يعني أن هذا الحق متعلق بالأشخاص محددين، ولا يعني ذلك طبعاً أن هناك طبقة متميزة. لأن الجميع في المجتمع الإسلامي يمكنهم أن يكسبوا تلك الفضائل. نعم، في العصر الذي تلى وفاة النبي الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" كانت المرحلة استثنائية. أما نهج البلاغة فإنه يبين القضية بصورتها العامة، ويشير إلى هذا الحق مرات عديدة. ويقول الإمام "عليه السلام" في أول خلافته وحكمه في الخطبة المعروفة بالشقشقية: "وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير".

وحول ذلك اليوم الذي شكلت فيه شورى الستة قبل بيعة عثمان، يقول "عليه السلام": "لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري".

فالإمام يعتبر أن الحكومة حق. هذا الأمر واضح في نهج البلاغة. ولكن الإمام يقول بعدها مباشرة:

"ووالله لأسلّمن ما سلِمت أمر المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة".

ونفس هذا البيان قد صدر حول بداية حكومة أبي بكر وفي ذلك الوقت، حيث يقول "عليه السلام":

"فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام".

أي أنني أول الأمر لم أسلّم ولم أبايع، ولكن عندما رأيت تلك الحوادث التي كادت تجر على الإسلام والمسلمين المصائب العظمى، لم يكن الأمر قابلاً للتحمل بالنسبة لي، فتركت حقي بالولاية. إذاً، فإن أمير المؤمنين "عليه السلام" يرى الولاية حقاً، وهذا ما لا يمكن إنكاره.

من المناسب أن ينظر جميع المسلمين إلى هذه القضية بعين واقعية. فهذا الأمر ليس له دخل بالجدال الذي يحصل أحياناً بين الشيعة والسنة. فنحن اليوم نعتقد أن على الشيعة والسنة أن يكونوا معاً، ويعيشوا معاً، وأن يعتبروا الأخوة الإسلامية أهم من كل شيء، وهذا أمر حقيقي. إن التفاهم والاتحاد يعد اليوم تكليفاً، ولقد كان دوماً كذلك. أما البحث العلمي والاعتقادي في نهج البلاغة فإنه يدلنا على هذه الحقيقة، ونحن لا نستطيع أن نغمض أعيننا ولا نرى ما يظهر في نهج البلاغة بوضوح. فهذا ما يراه أمير المؤمنين "عليه السلام" حقاً، وكذلك كان يعده تكليفاً. ففي ذلك اليوم الذي أحاط الناس بالإمام علي "عليه السلام" حتى:

"فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطى الحسنان وشق عطفاي".

فالناس اندفعوا بشوق ولهفة إلى الإمام علي "عليه السلام" يريدونه أن يكون لهم. ولم يكن أمير المؤمنين "عليه السلام" يرى للحكم شأناً واقعاً. فالحكومة عنده ليست هدفاً، كما سيتضح في البحث الثاني. ولكن مع كل ذلك، قبل الحكم بعنوان التكليف الإلهي، ووقف ودافع عنه:

"لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ... لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها".

ولقد كان يقول مؤكداً:

"دعوني والتمسوا غيري".

ولكنه عندما رأى أن الأمر أصبح تكليفاً، وأن الأرضية مستعدة، وهو قادر على القيام بهذا الدور العظيم والأساسي، قبل ... فهل كانت الحكومة عند الإمام علي "عليه السلام" هدفاً أم وسيلة؟ إن الخط الأساسي الفاصل بين حكومة الإمام علي "عليه السلام" وحكومة الآخرين هو أن علياً "عليه السلام" لم يكن يرى الحكومة هدفاً، بل وسيلة لأجل الوصول إلى الأهداف المعنوية.

على المحققين، أن يلتفتوا إلى قدر نهج البلاغة بالنسبة لهذا الزمان. ونحن في الحقيقة إذا كنا اليوم نحتفل بألفية نهج البلاغة (مرور ألف عام على نهج البلاغة) ، ينبغي أن نعلم أن هذا الكتاب العزيز كان من هذه الألف سنة على الأقل تسعمائة وخمسين سنة في عزلة وانزواء. فغير العلماء والخواص، لم يكن أحد يعمل عنه سوى الاسم. وأول ترجمة ظهرت على يد مترجم عالم محترم جعل هذا الكتاب بمتناول أفهام الجميع وهو السيد علي نقي فيض الإسلام. وإنني أكن له تقديراً خاصاً واعتبر عمله عملاً مهماً.

وشيئاً فشيئاً، نزل هذا الكتاب إلى ميدان الحياة، ووصل إلى أيدي الناس. ولم يكن الناس يعرفون نهج البلاغة، وإنما كانوا يسمعون منه بعض الكلمات، وأكثرها في ذم الدنيا وقسم قليل في الأخلاق والباقي لا شيء. ومن بعدها أصبح في متناول الأيدي وصنفت حوله الشروح، والتحليلات بعنوان الشروح. وكل ذلك مورد تقدير، ولكن في مقابل العظمة التي لهذا الكتاب فلا يوجد شيء يذكر.

علينا اليوم أن نرجع إلى نهج البلاغة، وعلى الفضلاء والعلماء أن يقوموا بما يلزم، ولكن لا ينبغي للشباب أن يقفوا منتظرين للأساتذة والفضلاء وأهل العلم والأدب.

يجب أن يؤخذ "نهج البلاغة" بأبعاده المختلفة، ولهذا علينا أن نقيم الاجتماعات واللقاءات.

نظرة إلى خصائص عصر حكومة علي (عليه السلام)

محاضرة في مؤتمر نهج البلاغة

طهران ـ حسينية الارشاد / رجب 1404 هـ

عصر حكومة علي (عليه السلام)

بعد فترة طويلة من الركود وعدم الاعتناء، يعاد اليوم عرض هذا الكتاب القيم والبنّاء للإنسان والمجتمع، والذي لا نظير له، ويتم إحياؤه. وإنني أشكر من أعماق قلبي جميع الأخوة والأخوات الذين جاؤوا من داخل البلاد وخارجها للمشاركة في هذه المراسم.
لقد كان الأمر بهيجاً بالنسبة لي، أن أوفق مثلكم للمشاركة الفاعلة في هذا المؤتمر المهم، وأن أتناول "نهج البلاغة"، هذا المحيط العظيم بالبحث من أعماقه، وأشارك في الأيام التالية في بقية اللقاءات التي تدور حول هذا الكتاب الذي يعد قبلةً لآمالنا وتطلعاتنا الفكرية، ومن موقعه الأساسي يمكن أن نملأ الكثير من أوقاتنا بمطالعته ودراسته وتدريسه في مجامعنا العلمية.
ولكن، وللأسف فبسبب عدم وجود هذه الفرصة وهذا الفراغ، أجد من اللازم أن أذكر ببعض الأمور حول هذا الكتاب القيّم والأثر الخالد لكم أيها الأخوة والأخوات، وأيضاً للذين لم يحضروا هذا المؤتمر، ولكنهم جعلوا قلوبهم منوطة بهداية "نهج البلاغة" والإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.
نهج البلاغة هو تلك المقتطفات التي جُمعت بهمّة وسعي السيد العظيم الشريف الرضي، وبحمد الله كان حتى يومنا هذا مرجعاً للخواص وللعلماء، وليس مجرد محور للمعرفة والثقافة العامة للناس. ولعله منذ أن جمع هذا الكتاب وأعد لم يوجد عصر مثل عصرنا الحالي، من حيث الحاجة اليه وفيما يتناسب وأوضاع هذا الزمان والمكان. ولا شك أن أهمية "نهج البلاغة" ترجع إلى جهات عدة. ولعله يمكن القول ان "نهج البلاغة" بما يتضمنه يعتبر من أكثر المباحث والمعارف الإسلامية عمدة، فكل ما يلزم الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي موجود في "نهج البلاغة": من التوحيد والعقائد الإسلامية وأصول الدين إلى الأخلاق والتهذيب وتزكية النفس، فالسياسة والإدارة وقيادة المجالات الواسعة للنشاطات الاجتماعية إلى تنظيم الروابط الأخلاقية والعائلية، إلى الحرب والحكمة والعلم و ...
فمطالب هذا الكتاب التي تشكل بمجموعها دروس الحياة الاجتماعية للمسلمين لم تطرح بصورة بعيدة عن الحياة، فصاحبها هو رئيس دولة وحاكم كبير كانت سلطته مبسوطة على بلاد واسعة جداً. هذا الإنسان العظيم الذي كان يحمل على عاتقه مسؤولية الحكم والقيادة، نطق بهذه الكلمات انطلاقاً من شعوره بهذه المسؤولية الكبرى. "نهج البلاغة" ليس مثل كتب الحكماء الذين يجلسون بعيداً عن ضوضاء الحياة وضجيج واقعياتها وقضاياها المختلفة، ليبيّنوا المعارف الإسلامية، بل هو كلام إنسان عميق الغور في معرفة الدين حمل هموم قيادة مجتمع كبير، وهو يمتلك بصيرة بكل المعارف الإسلامية والقرآنية، يضج قلبه بالمعرفة وهو في مقام المسؤولية، يتعاطى مع الشعب ويخاطبه ويجيبه عن أسئلته واستفهاماته.
هذه هي الأرضية التي صدر منها "نهج البلاغة"، ومن هذه الجهة يفترق جميع الروايات التي لدينا عن الأئمة المعصومين "عليه السلام". فالأئمة الأطهار "عليه السلام" لم يعيشوا في عصر حكومة يرتضونها، بل كانوا في ظل أزمنة القمع والتنكيل. ولم تكن القضايا تجري على ألسنتهم من موقع الحاكم والمسؤول عن إدارة دولة. أما أمير المؤمنين "عليه السلام" فلقد كان يتحدث بعنوان الحاكم الإسلامي متوجهاً إلى مجتمع يعيش تحت إشرافه وحاكميته، وهذا ما يمثل القسم الأعظم من "نهج البلاغة". وما بقي هو نذر يسير مما صدر منه "عليه السلام" قبل عصر حكومته.
نحن اليوم نعيش في مثل تلك الظروف، ومجتمعنا يمر بمثل تلك الظروف. ومن الواضح أن نهج البلاغة ليس مختصّاً ببلدنا، بل هو لكل العالم الإسلامي. هذا العالم الذي يتجه اليوم نحو صحوة وحياة إسلامية جديدة.
وفي بلدنا ومجتمعنا، وصلت هذه الثورة إلى شاطئ النصر والفلاح في ظل تعاليم أمير المؤمنين "عليه السلام" وبالاعتماد والرجوع إلى القرآن ونهج البلاغة. واليوم قد تم تشكيل مجتمع قريب من في أكثر أبعاد مجتمعنا وحكومتنا. فاليوم هو يوم الاستفادة بكل ما أمكن من "نهج البلاغة"، وفي هذا المجال سأقدم المزيد من التوضيح.
إن الظروف التي كانت محيطة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، تتفاوت وتختلف عن ظروف عصر حكومة أمير المؤمنين "عليه السلام". ففي عصر رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً من جميع الأبعاد، أي أن توجهه كان توجهاً إسلامياً بالكامل. ولكن الخصوصية التي طبعت هذا العصر طيلة السنوات العشر الأخيرة من عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ــ في الحكومة الإسلامية ــ هي أن الصفوف كانت واضحة. وكانت الشعارات الإسلامية شعارات مشخصة وواضحة ومحدّدة. كان الصف الذي يقف مع النبي صلى الله عليه وسلم وآله علنياً ومشخّصاً. وكان كل من العدو والصديق معروفاً. حتى حركة النفاق التي ظهرت في المجتمع الإسلامي منذ بداية تشكيل الحكومة الإسلامية، وفي الحد الأدنى في مرحلة

تواجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، فإنها لم تستطع أن تجعل المجتمع تحت تأثير ما يمكن أن تؤدي إليه حركة النفاق، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حاضراً. وكانت الآيات التي تشير إلى المنافقين وتفضح تحركاتهم تنزل تباعاً، تهددهم وتفضحهم . والكثير منهم قد فضحوا وانكشفوا من خلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان الآخرون يتعرفون إليهم. نعم، كان للنفاق تحرك ونشاط مؤذٍ، ولكن بشكل عام، كان الجو العام الغالب على المجتمع الإسلامي هو جو الصراحة والكشف. وأولئك الذين شاركوا في الحروب ضد النبي صلى الله عليه وآله، كانت عداوتهم وأبعادها معروفة، كذلك كان مدى قربهم وبعدهم عن الإسلام معلوماً. لقد كان واضحاً مقدار مخالفة اليهود وقريش والقبائل الأخرى. ومن البديهي أن المسلمين حينها لم يكونوا حيارى فيما يتعلق بكيفية مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين.

خاصية الزمان

أما عصر أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم يكن فيه هذه الخصوصية، وكان ذلك أحد أكبر المشكلات والمعضلات لتلك الحكومة القصيرة، أي خلال أقل من خمس سنوات. ففي عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" عندما كان الصفان أو الجيشان يلتقيان، كان كلاً منهما يؤدي الصلاة. وإذا حل شهر رمضان كان الكل يصوم. وكانت أصوات وأصداء تلاوة القرآن الكريم تسمع من المعسكرين. كان المسلمون في الجانبين عندما يتواجهون لا يشعرون بنفس الوضوح والصراحة وراحة البال التي وجدت وسادت في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله. لهذا، وفي معركة صفين كانت الأسئلة والشبهات والتردد والحيرة تبرز من حين إلى آخر.
وكان أولئك الذين أسلموا قديماً، وعاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ولادة الحكومة الإسلامية ــ كعمار بن ياسر ــ حلالاً للمشاكل والعقد. ولكن الكثير كان حائراً أو مشوشاً. ففي الحوادث التي جرت في عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" لم يكن اختلاف وتباين الصفوف واضحاً. ولقد كان الاشتراك في الشعارات يملأ الأجواء إلى الدرجة التي جعلت أمير المؤمنين "عليه السلام" يكرر مراراً: "لا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر."[1] فالمقاومة لا تكفي لوحدها بل يلزم الوعي والذكاء وحدة البصر.
هذه هي خصوصية عصر أمير المؤمنين "عليه السلام"، وآلام هذا الأمير وأوجاعه (صلوات الله عليه) .
نحن نعيش اليوم في عالم كبير مليء بالشعارات الجميلة والبراقة التي تخلب الأبصار، تقريباً مثل ذلك العصر. ونواجه كذلك هذه الواقعية في عالمنا الإسلامي الذي تتفاوت فيه الرؤية الإسلامية والوعي الإسلامي كما يتفاوت الإيمان عن الكفر.
اليوم، نجد أن أوضح وأجلى الحقائق الإسلامية يتمّ التغاضي عنها وإهمالها من قبل بعض مدّعي الإسلام في البلاد الإسلامية.
اليوم هو نفس ذلك اليوم الذي كانت الشعارات فيه متشابهة ولكن التوجهات متغايرة بشكل تام. اليوم تتشابه الظروف مع ظروف حكومة عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" . فالعصر إذاً ، عصر نهج البلاغة. واليوم يمكن أن نبصر الوقائع العالمية والظروف الاجتماعية من خلال النظر الدقيق والنافذ لأمير المؤمنين "عليه السلام" وندرك الكثير من الحقائق ونتعرف إلى علاج الآلام والمشاكل.
هذا الذي يجعلنا محتاجين اليوم إلى "نهج البلاغة" أكثر من أي وقت آخر.
كانت هذه إحدى الجهات التي تبين لنا ضرورة العودة إلى نهج البلاغة، وإلى هذه الباقة التي جرت على لسان أمير المؤمنين ومولى المتقين "عليه السلام" . واليوم إن كل ما يضاف من العمل عليه وحوله ــ من إعداد المقدمات التي تجعلنا أكثر قدرة على فهمه والاستفادة منه ــ هو أكثر ضرورة ولزوماً من أي وقت آخر.
الحقيقة الأخرى التي تطرح نفسها وتجعلنا اليوم أكثر احتياجاً إلى نهج البلاغة وأشد رغبة به، هي أننا كنا طوال التاريخ، وللأسف نعاني من التحريف فيما يتعلق بالمعارف الإسلامية التي هي بين أيدينا بسبب اعوجاج الفهم والجهالة من جانب، وبسبب الأغراض السيئة للأعداء من جانب آخر.
فطوال تاريخ الإسلام، كان الجهل موجوداً، وكذلك الرؤى الضيّقة والأهواء التي كانت تؤدي إلى عدم التعرف الصحيح إلى الحقائق والمعارف الإسلامية، بالإضافة إلى الأغراض والمآرب والخيانات وتعمّد تحريف الإسلام منذ بداية عصر ظهور الإسلام من قبل المتجبرين والأشخاص الذين كانوا يرون في صفاء الإسلام ووضوحه خطراً على مصالحهم.
وكنا طوال تلك الفترات محتاجين إلى الينابيع الخالصة والأفكار الإسلامية الصافية والنظام الفكري الذي يمكن الاعتماد عليه.
ولحسن الحظ كان القرآن الكريم موجوداً دائماً في أيدي المسلمين، وإن لعبت بفهمه تلك الأيادي السوداء والأنظار المعوجة والمآرب السيئة، ولكن بحمد الله بقي متن القرآن سالماً وبعيداً عن أي تدخل وتصرف مغرض أو جاهل. ولكن هذا لا يعني عدم ضرورة الإبقاء على سلامة ومتانة الينابيع الأخرى الصافية للمعرفة عند المسلمين كما هو حال القرآن عندهم. فمع اتّساع نطاق الثقافة الإنسانية وتعمق المعرفة الحاكمة على الناس، فإن هذا العصر هو عصر يوجب على البعض أن يعملوا على جمع تلك المعارف التي يمكن أن تزيد من طمأنينة الإنسان وإيمانه والتي لم تتعرض للتحريف وبقيت خالصة وسالمة، وأن يضعوها بين أيدي أهل الاستنباط والاجتهاد والمفكرين والخبراء، خصوصاً بعد مرور زمان طويل يفصلنا عن صدر الإسلام.
هذا العمل الذي كان ينبغي أن ينجز بالنسبة لما يتعلق بالأحاديث، قد قطعه نهج البلاغة. فهذا الكتاب قد قطع هذه المسافة الزمانية الطويلة التي فصلتنا عن صدر الإسلام في أقرب مدة وأسلم رؤية بالنسبة للمعارف الإسلامية.
ولو قمنا بالتحقيق حول نهج البلاغة، وجمعنا ذلك المقدار من خطب أمير المؤمنين "عليه السلام" التي لم تذكر في نهج

البلاغة، وعملنا على التحقيق في سندها والخصائص التي تجعلها معتبرة ومسلّمة وقطعية، وأوصلنا نهج البلاغة إلى مجموع الخطب الخمسمائة التي ثقلت عن أمير المؤمنين "عليه السلام"، نكون بذلك قد قدّمنا خدمة كبرى للمعارف الإسلامية في القرن الهجري الخامس عشر، ونكون أيضاً قد قدمنا للمسلمين مع مرور هذه الفترة المديدة عن صدر الإسلام، نبعاً غنياً لا ينضب، وهو مورد قبول جميع المؤمنين بالإسلام. وهذه المجموعة المطلوبة ستمدنا بفهم صحيح للإسلام، وما أعلى ما سترتقيه افهامنا فيما يتعلق بالمعارف الإسلامية حينها. وهذا العمل ممكن، خصوصاً في ظل نظام الجمهورية الإسلامية التي قامت على أساس القرآن و"نهج البلاغة". إن هذا العمل ينبغي أن يحصل حتماً، وأملنا بمساعي الأخوة الأعزاء في مؤسسة "نهج البلاغة" وكل الذين يساعدونهم أن يعملوا على تحقيق هذه الخدمة الكبرى لعالم الإسلام.

[1] نهج البلاغة.

تصوير شخصية علي (عليه السلام) في نهج البلاغة

بعدٌ آخر من الأبعاد القيمة والمهمة لنهج البلاغة هو ما يرتبط بتصوير شخصية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، والذي نحن بأمسّ الحاجة إليه في أيامنا هذه.
فأمير المؤمنين (عليه السلام) ، هذه الصورة المجهولة، وهذا الإنسان السامي والنموذج الإسلامي الكامل الذي أراد الإسلام صناعة البشر على أسامه، يمكن التعرف إليه من بين سطور وأوراق نهج البلاغة بشكل كامل. فنهج البلاغة في الحقيقة هو كتاب معرفة علي بن أبي طالب "عليه السلام". فهل يمكن أن يوجد شخص يصف ويبيّن بهذه الروعة والجمال تلك الأسرار والآفاق العجيبة للمعرفة الموجودة في نهج البلاغة وهو غير واصل إليها. في نهج البلاغة نجد جميع أبعاد الشخصية الإنسانية الكاملة: من المعرفة والأخلاق، والخصال الخاصة للإنسان التي هي من مختصات تعاليم الإسلام، نجدها مجسدة في إنسان كامل هو أمير المؤمنين "عليه السلام"، وليس هذا الأمر مهماً من جهة التعرف إلى شخصية أمير المؤمنين فحسب، بل من جهة التعرف إلى الإسلام، وبرامجه في صناعة مثل هذا الإنسان. اليوم تسألنا البشرية المعاصرة لنا: "ما هو الإنسان الذي يعدّه ويبنيه هذا الإسلام الذي تتحدثون عنه وتعتقدون أن رسالته عالمية". ولأجل الإجابة، ينبغي أن نسأل أنفسنا من هو الشخص الذي يمكن إظهاره وهو أفضل وأعظم وأعلى وأكثر جامعية من علي بي أني طالب "عليه السلام"، كما ينبغي أن نعتقد بأن شخصية علي بن أبي طالب "عليه السلام" ليست بارزة في أي مكان آخر مثل "نهج البلاغة".
لقد قيل الكلام الكثير والعميق حول عظمة هذا الكتاب وكلماته وخطبه، ويمكن إضافة الكثير أيضاً. وأنا أتحدث هنا من باب الإشارة لأشكر من صميم قلبي أولئك الذين أقاموا هذا المؤتمر وسابقه وهذا النشاط الذي يهدف إلى التعرف على نهج البلاغة.
فرغم أنه قد مضت فترة طويلة نسبياً خرج فيها نهج البلاغة من عالم الإهمال ووصل إلى أسماع الناس وصار منتشراً بينهم، إلا أنني ما زلت أرى ضرورة القيام بالتحقيقات العلمية والشاملة حول "نهج البلاغة". والأعمال التي أنجزت بهذا الصدد وذكرت في الكتاب عن نهج البالغة، كلها مورد تقديرنا وشكرنا.

تبويب مطالب نهج البلاغة وشرح الأجزاء الأساسية

لعل الكثير من الأعمال التي أنجزت على مدى أكثر من ألف سنة من تدوين هذا الكتاب الشريف، ما زالت في المكتبات بصورة مخطوطات، وينبغي البحث عن هذه الأعمال القيّمة. وربما قد تعرَّض بعضها للتلف نتيجة حوادث الزمان.

إحدى الأعمال التي ينبغي أن ينجزها هذا المؤتمر إعداد فهرس لأهم التحقيقات التي ينبغي إعدادها حول نهج البلاغة وعرضها على العلماء. ولعله يمكن تعداد عشرات الأعمال اللازمة التي يحتاجها هذا الكتاب، ما ينبغي القيام به فردياً أو جماعياً. وبهذه الطريقة يعلم العلماء والمؤلفون وأصحاب الرأي والمشغوفون بنهج البلاغة ما هي الأولويات في هذا المجال. وهنا سوف أشير إلى عدة أعمال تحوز على أهمية وضرورة مبرمة.

ترجمة نهج البلاغة إلى الفارسية

إنني بالطبع مطّلع تقريباً على ما أنجز، ولا أريد ــ لا سمح الله ــ أن أنظر إلى الجهود الكبيرة في مجال نقل نهج البلاغة إلى الفارسية نظرة عدم تقدير. ففي المؤتمر الذي عقد قبل ثلاث سنوات ووفقت للمشاركة فيه أعربت عن شكري للعالم الجليل فيض الإسلام الذي ترجم نهج البلاغة لأول مرة إلى اللغة الفارسية وجعله بمتناولة الناطقين بها.

وأنا اليوم أعرب عن تقديري مرة أخرى. وكذلك أشكر كل الذين ترجموا هذا الكتاب ضمن ترجمات منتخبة أو حرة، بصورة بيان المعنى. لكن أريد أن أقول أن مكان الترجمة الكاملة والشاملة لنهج البلاغة، كما هو مكان الترجمة الكاملة الواضحة والمناسبة للقرآن، ما زال خالياً في مجتمعنا، وبرأيي فإن القصور والغفلة التي ما زالت لحد الآن هي سبب التقاعص عن هذا الأمر.

إنني أرجو من مؤسسة نهج البلاغة أن تتابع هذه القضية بصورة عاجلة وجدية، وكذلك أكرر طلبي ورجائي للذين يمكنهم أن يعدوا ترجمة جيدة للقرآن الكريم. لقد تأخرت الجمهورية الإسلامية بعد خمس سنوات شيئاً ما في هذا المجال. وينبغي الإسراع فيه، وكلما مرّ الوقت ازداد التأخر. وأعتقد أنه لا إشكال في أن يبدأ عدة أشخاص بترجمة هذين الأثرين المقدسين ويسعوا جهدهم لإنجازهما. وعلى كل حال لن يكون هناك ترجمة كاملة تماماً، حتى إذا سمعنا أن شخصاً يعمل على ترجمة "نهج البلاغة" أو القرآن فنسحب أيدينا من هذا العمل. فليبدأ كل من يجد في نفسه الشوق والرغبة بهذا العمل. ولو كان لدينا عشر ترجمات جيدة جداً لهذين الكتابين الشريفين فليس هذا بالأمر الزائد. ولا يوجد أي إشكال في وجود سلائق وأذواق متعددة وآراء مختلفة، كل واحد منها يبيّن الآية أو الجملة من زاوية أو بعد خاص ويُقرّب القارئ إلى المعاني الواقعية. وعليه، أرى أن هذا العمل يتمتع بالأولوية في أيامنا هذه.[1]

[1] ما يلزم ذكره هنا أنه بعد عدة سنوات من هذه المحاضرة القيّمة لسماحة الإمام القائد أنجزت مجموعة من الأعمال في هذا المجال، ونشرت مجموعة من الترجمات إلى اللغة الفارسية.

تبويب نهج البلاغة

من الأعمال الأخرى الضرورية في مورد نهج البلاغة، هو التبويب ضمن عناوين، أي التصنيف الموضوعي. طبعاً، هناك أعمال أنجزت في هذا المجال، وبعض المحققين والعلماء الكبار في زماننا قام بمثل هذا العمل، وطبع له عدة مجلدات وهو في مقامه قيّم. ولكن تحت العناوين الكلية ــ التي أظن أنها قد بلغت عنده ثلاثين عنواناً ــ يمكن التفريع إلى عشرات العناوين الأخرى.[1]
وهذا العمل أيضاً مكانه بالنسبة للقرآن ما زال خالياً ولم ينجز بعد. يجب أن نكتب تفصيلاً للآيات يشمل معظم المواضيع التي أشير إليها في القرآن والتي لم نتمكن إلى اليوم من الوصول إليها. أما في مورد نهج البلاغة، فإن إعداداً مفصلاً لمطالبه وموضوعاته له أهمية قصوى. فهذا الكتاب هو حقاً محيط عميق لا متناهٍ، ولا يوفق الجميع للسير فيه كما هو أهل له، أو يتحقق لهم الغور فيه.
في حين أن الكثير من مطالب ومعارف هذا الكتاب مما هو ضروري وممكن لعامة الناس، الذي ينبغي أن نحقق هذه الإمكانية لهم وللباحثين والمحبين لكي يصلوا على ما يبحثون عنه بسهولة.

[1] خلال السنوات الماضية ظهر على العلن مجموعة من الأعمال في هذا المجال منها: تصنيف نهج البلاغة لِلبيب بيضون. والفهرسة الموضوعية لنهج البلاغة من قبل المؤسسة. والهادي إلى نهج البلاغة لآية الله المشكيني. والدليل إلى موضوعات نهج البلاغة لعلي أنصاريان، والمعجم الموضوعي لنهج البلاغة، إعداد أويس كريم محمد.

التبويب بلحاظ اعتبار السند

من الأعمال الأخرى التي من المناسب القيام بها في نهج البلاغة، هو التبويب بلحاظ اعتبار السند. ولا شك أن بعض نهج البلاغة يتمتع بمستوى عالٍ من الاعتبار والوثوق الروائي. وبعضه ليس بهذا المستوى. وحول أسانيد نهج البلاغة أنجزت بعض الأعمال وطبعت عدّة كتب، اثنان أو ثلاثة أو أكثر. ولعله وجد عند القدماء مثل هذا العمل مما لم يطّلع عليه الكثير. ولكنه يلزم القيام بإعداد تبويب ترتيبي بلحاظ السند واعتباره، بحيث إذا رجعنا إلى إحدى الخطب أو الكلمات أو الرسائل، نعلم مدى اعتبارها بلحاظ السند وإلى أي مدى يمكن الاعتماد عليها. وبالطبع يمكن إعمال جميع الشواهد والقرائن في هذا المجال. وهذا الأمر وإن لم يكن مورد حاجة لعامة الناس، ولكنه حتماً يحوز على أهمية عند المحققين والعلماء والمهتمين بهذا الحقل.

ترجمة مفردات نهج البلاغة

وعمل آخر ينبغي القيام به هو ترجمة مفردات نهج البلاغة للناطقين بالفارسية، وكذلك للناطقين بالعربية. وطبعاً، يوجد في هوامش بعض طبعات نهج البلاغة من قام بهذا العمل مثل المرحوم محمد عبده وغيره، ولكن هذا ليس كافياً. إنّ هذه المفردات المنتشرة في هذا الكتاب بثقلها الأدبي وأصولها الفنية وفصاحتها وبلاغتها الخارقة تحتاج إلى عمل مستقل، أوسع من شرحها الأولي. وخلاصة الأمر أنه ينبغي إعداد تفسير كامل وعميق لمفردات نهج البلاغة.

ربط الأجزاء المتفرقة للخطبة الواحدة

وإحدى الأعمال التي كنت أشعر بأهميتها منذ فترات، هو القيام بوصل الأجزاء المتفرقة لبعض الخطب التي كان السيد الرضي رحمة الله عليه قد فصلها. لقد لاحظتم في بعض الخطب أنه في وسطها يقول "ومنها". ولا شك أنه قد أسقط شيئاً من الخطبة وإلا لم يلزم أن يقول "ومنها". وفي بعضها أن الخطبة لم تنتهِ ولعلنا نستطيع أن نجد الضائع أو المفقود منها في نفس نهج البلاغة، وحتماً الكثير منها يمكن العثور عليه في كتب الحديث المختلفة.

على أية حال، قد نجد قسمين من خطبة واحدة في غاية الأهمية، ولكن يوجد بينهما فراغ. لهذا ينبغي على أصحاب الهمم أن يعملوا على متابعة هذا الأمر والعثور على هذه الفراغات لتعبئتها، حتى نصل قدر الإمكان أجزاء الخطبة المتفرقة ببعضها البعض.

وأنا أعتقد أن المرحوم السيد الرضي رضوان الله عليه، قد صنّف هذا الكتاب وهو ناظر إلى الفصاحة والبلاغة والجماليات الفنية أكثر من أي شيء آخر، والعنوان الذي أطلقه على الكتاب يؤيد هذه الفكرة. واليوم فإن مسألة البلاغة في هذا الكتاب ليست في الدرجة الأولى من اهتمام شعبنا، بل المضمون والمحتوى. إننا بحاجة للمضامين والمعاني.

وفي الأساس أكثر الناس لا يفهمون شيئاً من جمال هذه الكلمات، فنحن نتكلم بالفارسية. ولعلّ الكثير من الناطقين بالعربية أيضاً، ومع مرور أكثر من ألف وثلاثمئة سنة على صدور هذه الكلمات، وبسبب التحول والتبدل الذي طرأ على اللغة بشكل طبيعي، لا يتمكنون من إدراك الشيء الكثير من فصاحة وبلاغة وجماليات ما ورد فيه. لهذا، ينبغي أن نعدل عن تلك الرؤية التي حكمت تدوين هذه المجموعة من باب البلاغة والفصاحة والقيم الفنية. ولا أقول أن نغضّ النظر عنها كلياً، لأن هذا الوجه من الناحية الأدبية والفنية يتمتع بمزايا خارقة. ومعروف أن القيم والمزايا الفنية تساهم كثيراً في بقاء أي نص وفي تأثيره العميق وانتشاره الواسع. فهذا مما لا شك فيه، إلا أن الأمر الذي يحوز على الدرجات الأولى من الأهمية بالنسبة لنا اليوم هو المضامين.

وفي هذا المجال يوجد الكثير من الأعمال التي يمكن القيام بها. وكما ذكرتُ فإنني أكرر اقتراحي الأول:

أعدّوا فهرساً لكل الأعمال الضرورية واللازمة في نهج البلاغة، لكي يتضح ما هي الأمور المناسبة.

ولا يوجد أدنى شك أن هذا سيوجد الرغبات والحوافز والابتكارات والمجالات الجديدة.

إنني أشكر مرة أخرى جميع الأخوة المسؤولين والعاملين، على هذا الاهتمام الذي أبدوه لنهج البلاغة، وللاهتمام بهذا المؤتمر، وأرجو أن يكون علوّ هممهم سبباً لإيجاد هذه الخدمة العظيمة لأمة الإسلام، ويكون "نهج البلاغة" مورداً للمزيد من الاستفادة، ويكون ذلك قدوة لجميع المسلمين الذين لم يطلع أكثرهم على نهج البالغة أبداً.

ضرورة نشر تعاليم نهج البلاغة في عالم الإسلام

محاضرة في المؤتمر الخامس لنهج البلاغة

طهران ـ حسينية الإرشاد / رجب 1405هـ

ضرورة نشر تعاليم نهج البلاغة في عالم الإسلام

إنه لباعث على فائق السرور أن نشاهد عقد مؤتمر آخر حول نهج البلاغة بفضل همّة الأخوة الأعزاء في المؤسسة. وإنني باعتباري فرداً مسلماً، وكوني قضيت مدة من حياتي الفكرية ومطالعاتي في مجال أبحاث نهج البلاغة، وباعتبار أنني أحد المسؤولين في نظام الجمهورية الإسلامية، أعتبر هذا التحرك مباركاً وضرورياً ويؤدي إلى نتائج حسنة. كذلك أعتبر هذه المرحلة الحالية مرحلة ابتدائية باتجاه الوصول إلى المراحل النهائية.

تحوز همّة الأخوة على تقدير عالٍ، وعلينا أن لا نقنع بما وصلنا إليه، بل أن نعتبر خدمة "نهج البلاغة" عملاً دائماً ومستمراً.

وبالطبع في المدة التي مرّت بين المؤتمر السابق وهذا المؤتمر، أنجزت أعمال وجرت مساعٍ عديدة في مجالات عدّة حيث تم إطلاعي على بعضها. ولكن أريد أن أؤكد على أن تكون هذه الاجتماعات مقدّمة لأعمال عظيمة وكبرى. لقد طوينا زمناً طويلاً بعيدين عن الارتباط بنهج البلاغة. وعلينا أن نغتنم فرص اليوم لجبران تلك النقائص.

وممّا لا شك فيه أن الذين عملوا في نهج البلاغة ليسوا قلّة، سواء في إيران أو بعض البلدان الإسلامية الأخرى، ولكن الأعمال الأساسية التي يمكن أن تنشر مدرسة نهج البلاغة في أجواء العالم الإسلامي كلّه ما زالت تنتظر دورها، وإن كانت مقدّمات هذه الأعمال تأخذ طريقها تدريجياً إلى حيّز التحقق. إنّ "نهج البلاغة" في الواقع كنز عظيم لا يمكن بهذه السهولة الوصول إلى حقيقته، أو فهمه، وإذا فهمناه أتى دور العمل الأساسي وهو الاستفادة والتطبيق. وإننا ولحد الآن لم ندرك هذه الحقيقة، وهذا الأمر مشترك مع الكثير من المصادر الإسلامية الثرية. ولكن "نهج البلاغة" له وضع استثنائي بما يتمتع به من رتبة ومقام عال، ويجب التعامل معه على أساس أنّه كنز استثنائي.

عندما أتأمّل أجد أن الأمل الذي كنا نعيشه وما زلنا هو أن يصل مجتمعنا إلى حالة الألفة والأنس بهذا الكتاب العزيز. وبالنسبة لمن هو مثلي لا يتوقع منه أن يقوم بالأعمال التحقيقية، إلا إذا وفقنا الله تعالى للرجوع ذات يوم إلى حجرتنا الدراسية والاشتغال بمثل هذه الأعمال. وأريد هنا أن أطلق تحذيراً فيما يتعلق بالتوجه الذي نحمله حول "نهج البلاغة". إننا لا نحمل هذا التوجه بالشكل المطلوب، وكأننا لا نعلم أي كنز للمعرفة اللامتناهية قد أودع في هذا الكتاب، أو كأنه لم يتضح إلى الآن وبشكل كامل بالنسبة لشعبنا وحتى بالنسبة لمجتمعنا أهمية الرجوع إلى هذا النبع العظيم الموجود في هذا الكتاب الذي لا نظير له.

أهمية قِدَم نهج البلاغة

أولاً إن هذا الكتاب يُعدّ من الكتب الإسلامية الأولى. وفي هذه الظروف التاريخية حيث يفصلنا عن صدور الإسلام حوالي 1400 سنة، تتمتع المصادر ذات الأول والأصيل بأهمية خاصة وذلك لأنّ مع مرور الزمن يزداد الميل إلى التأويل وتزداد التوجهات المأوّلة، وهذا الأمر يعدّ أحد آفات الفكر الإلهي (الإلهيات ؛ الأبحاث في مجال ما وراء الطبيعة) . فعندما يقطع الزمان شوطاً بعيداً عن نشوء الدين، فإن الأذهان، والابتكارات والميول الباطنية للأشخاص الأذكياء تسوقهم نحو الاستنباط الذي نراه أكثر ما يعتمد على السلائق. وهذا هو السبب اللامرئي وراء تحريف الأديان. فالأديان السابقة التي حُرِّفت، كان أحد أهم آفاتها أن متونها الأساسية الأولى لم تبقَ سالمة بشكل كامل.

نحن بالطبع عندنا القرآن المصون من التحريف، وهذا بنفسه امتياز كبير جداً، وهو كان عاملاً لوجود محور للاستنباطات الإسلامية المختلفة مع تلك الوفرة الكبيرة في السلائق المتعددة. أي أنّ الأمر في النهاية كان يرجع إلى نقطة تعتمد عليها كل الآراء والعقائد المختلفة، وهي القرآن. لكن هذا لم يكن كافياً لمنع التأويل واتبّاع الآراء والسلائق والأهواء والبدع. وهنا نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول لعبدالله بن عباس: "لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه"[1] (مشيراً إلى الخوارج) . حقاً، فإن أولئك الذين طبقوا قوله تعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله}[2] ــ الذي نزل بحق علي "عليه السلام" ــ على ابن ملجم. كيف هو ذهنهم، وهل يمكن معهم الاستناد والرجوع إلى القرآن؟

وقد شاهدنا هذه الحقيقة في أيامنا هذه، أشخاص يعتمدون على آيات القرآن مستخدمين وسائل التأويل.. في مثل هذه الظروف كلّما كانت النصوص والمتون الإسلامية أقرب إلى صدر الإسلام، كانت إمكانية الاستنباط الصحيح بالنسبة للمحققين أكبر.

[1] نهج البلاغة.

[2] سورة البقرة، الآية 207.

أهل التأويل والالتقاط

في الماضي شاهدنا بأنفسنا كيف كان المؤلّة، أو بعبارة أخرى الالتقاطيون لا يعتنون أبداً بالروايات والأحاديث. فبمجرد أن نقول "حديث" يقولون: "ألا تؤمنون بالقرآن؟". وكأنه يوجد تعارض بين الاعتقاد بالقرآن والاعتماد على الحديث!.

في البداية كنا نتعجب، ولم نكن ملتفتين كثيراً. وعندما شاهدنا كيف يتصرفون بالقرآن وكيف يردون الحديث الصريح والصحيح، فهمنا حينها سبب مخالفتهم للحديث. وفي ذلك الموضع نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول لابن عباس: "ولكن حاججهم بالسنّة لأنها لا تقبل التأويل". ونحن لو استطعنا في مثل هذه الظروف الحالية للعالم الإسلامي ــ حيث يمثل المسلمون نسبة كبيرة من السكان ويشغلون مناطق واسعة من العالم، وتحكمهم الآراء والعقائد والمذاهب المختلفة ــ أن نحيي متون صدر الإسلام فإننا نساهم كثيراً في إيجاد محور أساسي لهذه الاجتهادات.

فانظروا إلى نهج البلاغة من هذه الزاوية. لأنه لا مجال لمقارنة أي كتاب روائي لفلان الصحابي أو التابعي ــ الذي جاء بعد خمسين أو مئة سنة من الهجرة ــ بنهج البلاغة. إن نهج البلاغة هو كلام أول من آمن بالوحي المحمدّي، وهو كلام خليفة الرسول الذي اتفق جميع المسلمين على خلافته، وكلام إمام هو باعتقاد الشيعة والكثير من أهل السنة أفضل الصحابة. إنسان في هذا المستوى من العظمة والأهمية، وقد بقي عين كلامه، وخطبه. ويمكن أن يكون مظهراً لمتن عظيم وأصيل المعارف الإسلامية. ففيه الأخلاق، والزهد والقيادة في المجتمع، والنظام السياسي، والنظام الاجتماعي والعرفان. ونحن قادرون على أن نجد الأصول الاعتقادية الكاملة والجامعة للإسلام في هذا الكتاب.

القرآن ونهج البلاغة

إن هذا الكتاب عندما يوضع إلى جانب القرآن، فإنه يعد تالي القرآن. فليس لدينا كتاباً آخر له هذا المستوى من الاعتبار والجامعية والأقدمية. لهذا فإن إحياء نهج البلاغة ليس وظيفتنا نحن الشيعة فقط، بل هو وظيفة جميع المسلمون. أي أنّ كل من يقبل بعلي بن أبي طالب "عليه السلام" وهو مسلم ــ لأنه لا يوجد من المسلمين من لا يقبل هذا العظيم ــ فعليه أن يحي نهج البلاغة بعنوان كونه تراثاً لا نظير له في الإسلام. وليس هذا الإحياء في كثرة طباعته، فقد حصل هذا، بل بمعنى العمل والتحقيق في مجاله، كما حصل هذا الأمر في مجال القرآن الكريم، حيث أُعدّت التفاسير الكثيرة، وكذلك في علوم القرآن. ومثلما يُقرأ القرآن ينبغي أن نقرأ نهج البلاغة، لأنه تالي القرآن. ومثلما يعتبر المسلمون أنفسهم مكلّفين بإيجاد رابطة عميقة مع القرآن، ويعدوّن الجهل به منقصة، كذلك ينبغي عدّ الجهل بنهج البلاغة نقصاً.

النقطة الأخرى الفائقة الأهمية، وهي برأيي تكليف على الجميع، أن نتعرف جيداً على موقع صدور هذه الكلمات وأحوال قائلها، وأن نعلم أنّ هذه المعرفة والوعي هما علاج شاف وسريع بالنسبة للكثير من أمراض مجتمعنا. لأننا عندما نطالع في حال قائل هذه الكلمات، نجد أنه ليس إنساناً عادياً، بل له خاصيتان تجعل كلامه من هذا المنطلق كلاماً استثنائياً. إحدى هاتين الخاصيتين هي حكمته، والأخرى حاكميته. فهو "عليه السلام" أولاً حكيم ومن الذين {يؤتي الحكمة من يشاء}.[1] فقد أوتي الحكمة الإلهية حيث عرف العالم والإنسان وحقائق الخلقة ودقائق الوجود. فهو الحكيم، الذي له اطلاع على حقائق الوجود. وهذا الاطلاع ــ عند من يعتقد بأنه إمام معصوم ــ قد حصل بالإلهام الإلهي، وباعتقاد الذين لا يرون عصمته قد حصل عليه بتعليم الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" ومن الإسلام. وعلى كل حال فلا يشك أحد بأنه إنسان بصير وحكيم استفاد من حكمة الأنبياء واطلع على حقائق الخلق وخزائن الله. فهذه هي الخاصية الأولى له. والخاصية الثانية هي أنه كان "عليه السلام" في زمان خاص حاكم المجتمع الإسلامي ويتحمل مسؤولية الحكومة. ومن هاتين الخاصيتين كان الكلام ينبعث ليفوق الحكمة العادية، ويجعله متميزاً ببعد إضافي.

ولكن حقاً، ما هو كلامه؟ وماذا كان يقول في كلماته؟ بماذا نطق هذا الأمير الحكيم الذي حكم المجتمع الإسلامي؟ من البديهي أن حديثه سيكون مطابقاً للحاجات، وأنه سيقول ما يمثل حاجة قطعية في تلك المرحلة من تاريخ الإسلام. وليس من الممكن أن يقول غير ذلك. ليس من المتصوَّر أن يصف هذا الطبيب الحاذق المشفق علاجاً ودواءً لا يحتاج إليه المريض. لهذا سنجد في هذه الوصفة الطبية لأمير المؤمنين "عليه السلام" شيئاً آخر. فما هو؟ إنه وضع المجتمع الإسلامي في ذلك الزمان.

ولن نجد تأويلاً وتفسيراً ناطقاً بهذا القدر. ولن يكون هناك تقرير دقيق بهذا المستوى، بحيث يبيّن لنا أوضاع وظروف المجتمع في ذلك الزمان، كما بيّنه لنا علي بن أبي طالب "عليه السلام". إننا نعيش اليوم في عصر نميل إلى تشبيهه بعصر صدر الإسلام، أي الولادة الجديدة للإسلام. فذلك العصر هو الولادة الأولى، وهذا العصر هو الولادة الثانية. وفي ذلك العصر كانت أحكام الإسلام تطبّق، ونحن اليوم نتّجه نحو تطبيق هذه الأحكام. وفي ذلك الزمان كان أعداء الإسلام أي أعداء هذه المعارف والأحكام مخالفين للمجتمع النبوي، وهؤلاء الذين يخالفون الثورة الإسلامية ليسوا مخالفين للجمهورية الإسلامية، بل للإسلام وليس الإسلام بالاسم، بل روحه وواقعيته. وليس هذا بالأمر البسيط. ومن الطبيعي أن يخالفوا، لأنهم مستكبرون ومتسلطون ومستغلون وعنصريون ومحقّرون للقيم الإنسانية ومتآمرون على القيم الإنسانية، ينفون القيم الإلهية. فلو لم يخافوا من الإسلام لكنّا تعجبنا. لأنهما ضدان. وهذه الخصوصية كانت موجودة في ذلك الزمان أيضاً.

[1] سورة البقرة، الآية 269.

بيان الأمراض وعلاجها

ونحن شعب إيران الذي حملنا أركان هذا النظام على عاتقنا لو راجعنا اليوم "نهج البلاغة" لوجدنا فيه شيئاً ملفتاً. فالأمراض والآفات التي تهددنا في هذه المرحلة وكذلك علاج هذه الأمراض الذي يعدّ بالنسبة لنا أمراً مصيرياً، موجودة فيه. ولا أريد أن أقول إن جميع الحوادث التي حصلت في عصر صدر الإسلام تحدث اليوم كما هي. كلا، ولكن التوجهات واحدة. فقلوب المؤمنين في العصرين وآمالهم، وكذلك تردد المنافقين وضعاف الإيمان في العصرين أيضاً شيء واحد. وتعاون المخالفين والمتآمرين يتشابه في العصرين. ومحورية نظامنا اليوم مثل محورية نظام صدر الإسلام، جماهيرية النظامين كذلك وقبول القرآن كسند أساسي ووصفة كاملة ومجسّمة للأهداف والتطلعات هي شيء واحد في العصرين. فمن الطبيعي إذاً، إذا كنا نواجه أمراضاً مشابهة لأمراض ذلك العصر، وتعرفنا عليها مسبقاً، فإننا نصبح مستعدين لمواجهتها. ونهج البلاغة يعرفنا على تلك الأمراض واحداً واحداً. مع أنه بحسب الظاهر ليس كتاباً لتقرير التاريخ، ولكن كلام أمير المؤمنين يمثل تقريراً للتاريخ. وبالطبع، لو أردت أن أذكر شاهداً على ما أقول، وكيف أن أمير المؤمنين "عليه السلام" قد رسم لنا معالم المجتمع الذي عاصره مع ذكر أمراضه وأدوائه، لو أردنا شرح ذلك وبيان كيف عالج "عليه السلام" كل مرض وقدم له وصفته العلاجية لاحتجنا إلى رسالة مستقلة. وللأسف، كما قلت لكم لا ينبغي أن تنظروا من أمثالي هذا العمل وعلى الأخوة الذين لديهم وقت أن يقوموا به. ولكن أقول أيضاً إن تتبع هذا الأمر في "نهج البلاغة" لا يتطلب جهداً كبيراً. فتّشوا، وبمجرد تصفح صفحاته سيبرز لكم ذلك.

حب الدنيا (الدنيوية)

أذكر كنموذج عدة فقرات من أمراض ذلك العصر، والتي كان أمير المؤمنين "عليه السلام" بصدد معالجتها. وأحد هذه الأمراض هو حب الدنيا. في "نهج البلاغة" ما أكثر ما نجد ذم الدنيا والانخداع بها والتحذير منها ومن مخاطرها. وأحد الأقسام المهمة في نهج البلاغة هو ما يتعلق بالزهد. فلماذا كان الحديث عن الزهد؟ وما هو الواقع الذي يظهر من هذا الحديث؟ أين أصبح ذلك الزمان الذي كان رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" يقول فيه: "الفقر فخري"، وكان أصحابه يفتخرون بأنهم لم يتلوثوا بمال الدنيا، أمثال أبي ذر وسلمان وعبدالله بن مسعود وأصحاب الصفة الذين كانوا من أشراف أمة النبي، ولم يعتنوا بالدنيا ولا بذهبها وزخارفها. وكان شرف المال لا يساوي شيئاً أمام الشرف الآخر الذي عبّر عنه رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" قائلاً: "أشراف أمتي أصحاب الليل وحملة القرآن". ماذا حدث بعدها في المجتمع الإسلامي بحيث نجد أن نصف كلمات أمير المؤمنين "عليه السلام" تقريباً تدور حول الزهد. لماذا امتلأ "نهج البلاغة" بالزهد والترغيب به، وعلى أي شيء يدل هذا الأمر؟ نعم، إنه يدل على مرض، كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يصف علاجه متحدّثاً بهذا المقدار عن حب الدنيا والتعلق بها، لأن الناس قد فتنوا بها. فبعد ثلاث وعشرين سنة من وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" أُسِرَ الناس في الدنيا، وكان سعي أمير المؤمنين "عليه السلام" لتحريرهم منها.

في "نهج البلاغة" عندما نصل إلى موضع ذكر الدنيا نلاحظ شيئاً بارزاً، ونشعر أنّ في كلام أمير المؤمنين هنا لهجة ولوناً آخر. لم أقدر على عدم ذكر هذا المقطع من كلماته التي تبلغ المئات من شدة جماله، "فإنَ الدنيا رَنِقٌ مَشربُها رَدِعٌ مشرعُها يُونِقُ منظرُها، ويُوبِقُ مخبَرُها، غرورٌ حائِل، وضوءٌ آفِل، وظلٌ زائل، وسِنادٌ مائل، حتى إذا أنِسَ نافِرُها، واطمأنّ ناكِرُها، قمَصت بأرجلُها وقنَصت بأحبُلِها، وأقصَدَت بأسهُمِها، وأعلقتِ المرءَ أوهاقَ المنيَّة قائدةً له إلى ضَنْكِ المضجَع ووحْشَةِ المرجِع".[1]

فانظروا كم هو جميل هذا الكلام. إنه غير قابل للترجمة. ينبغي أن يقوم البلغاء والشعراء بدراسة كل كلمة على حدة قبل ترجمتها. وما يلفت نظر الإنسان، وما لفت نظري هو أنه عندما يتحدث عن الدنيا يقول: "غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل"، ثم يذكر نقطة من بعدها: "حتى إذا أنِسَ نافرُها". فالدنيا بكل مظاهرها وخدعها تظهر لأولئك الذين كانوا قد فروا واستوحشوا منها بحيث تجعلهم بعد ذلك يأنسون بها "واطمأنَ ناكرُها" وأولئك الذين لم يكونوا مستعدين لمدّ أيديهم إليها، تراهم بعدها يشعرون بالطمأنينة إلى جانبها.

هذا هو المرض، فأولئك الذين كانوا مع رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" وقد تركوا أموالهم وعيالهم وأوطانهم وتجارتهم في سبيل الإسلام وهاجروا إلى المدينة مع الرسول، وطووا على الجوع والمخمصة والشدة، نراهم بعد عشرين، ثلاثين سنة من وفاة رسول "صلى الله عليه وآله وسلم" عندما يتوفون يحتاج ورثتهم إلى الفؤوس ليقسّموا الذهب الذي تركوه. هؤلاء هم مصداق قوله "عليه السلام": "حتى إذا أنِسَ نافرَها واطمأنّ ناكرُها". فهذا أوج كلام أمير المؤمنين "عليه السلام"، وهو نموذج من كلماته "عليه السلام" في مورد الدنيا.

ومن المواضيع الأخرى التي تكرر ذكرها في نهج البلاغة التكبر، الذي هو المحور الأساسي للخطبة "القاصعة". وبالطبع لم يرد فقط في هذه الخطبة، بل تكرر في مواضع كثيرة.

قضية التكبر التي تعني اعتبار النفس أفضل من الآخرين، هي تلك الآفة التي أدّت إلى تحريف الإسلام والنظام السياسي الإسلامي، وأبدلت الخلافة إلى سلطنة، وقضت تقريباً على جميع إنجازات النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" في برهة قصيرة من الزمان. ولهذا كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يولي هذا الموضوع اهتماماً كبيراً كما نرى في "نهج البلاغة". ففي هذه الخطبة القاصعة التي تعرفونها، ما أجمل وأروع ما يبيّنه الإمام "عليه السلام" حول هذا الأمر محذراً منه بشدة. أنقل لكم الآن قسماً منه: "فالله الله في كِبْر الحَميَّة، وفخر الجاهلية، فإنه ملاقحُ الشنآن، ومنافخُ الشيطان التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا في حنادِس جهالته ومهاوي ضلالته ذُلُلا عن سِياقه، سُلُساً في قياده... ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا على حَسَبِهم وترفّعوا فوق نسبهم".[2] هذا هو تحذير أمير المؤمنين "عليه السلام".

إنه يحذر أفراد المجتمع بشدة من شيئين: الأول التكبّر والاستعلاء، والثاني من قبول هذا التوجه الخاطئ من الآخرين. فلا ينبغي أن تعتبروا أنفسكم أفضل من الآخرين، ولا ينبغي أن تتقبلوا مثل هذا التصور الخاطئ من غيركم. فأمير المؤمنين "عليه السلام" يؤكد على عدم قبول التكبّر من الآخرين، وهو "عليه السلام" لا يتكبّر ولا يقبل ذلك من أحد. فهذان ضامنان لتطبيق الأخلاق

الإسلامية بين الناس وبين مسؤولي المجتمع الإسلامي.

وهذا يحكي عن وجود هذا المرض أو هذين المرضين. وإذا أردتم المزيد من التأكد اذهبوا وطالعوا التاريخ. وأولئك الذين لهم اطلاع على ذلك العصر يعلمون أنّ أسوأ الأمراض في ذلك الوقت أمران: الأول أنّ مجموعة من الناس كانت تعتبر نفسها أفضل من الآخرين، قريش من غير قريش، وأتباع هذه القبيلة من أتباع هذه القبيلة. وللأسف، فإننا نلاحظ أنّ هذا المرض قد انتشر بسرعة بعد وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، ولهذا كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول: "فإنه ملاقح الشنآن... "، أي أنه محل بروز وتولد الاختلاف والنزاع، وعندما تتأملون في كلمات أمير المؤمنين ستلاحظون هذه النقاط التي ذكرت.

[١] نهج البلاغة، الخطبة الغراء.

[٢] نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

محاربة قبول التكبّر

ثم كان مرض قبول المتكبّر حيث تقبل تلك الجماعة المستحقرة هذا الواقع. والآن اذهبوا وطالعوا في تاريخ ذلك العصر، فستلاحظون علائم قبول الظلم والتكبّر والعنصرية في حياة الناس بشكل يبعث على الأسى. وأولئك الذين كانوا يرفعون رؤوسهم ولا يقبلون بهذا الواقع، كانوا دائماً يتعرضون للمضايقة، وكان من هذه من خصوصيات أهل العراق الثابتة. نعم، ينقل عن أهل الكوفة أنّهم لم يكونوا أوفياء، وهذه الخصلة ناشئة من أمور كثيرة. ولكن أهل العراق في ذلك الوقت، كانوا مترفّعين لا يقبلون حكام الشام. وأظن أن أحد أسباب هذه القضية هو حضور أمير المؤمنين "عليه السلام" بينهم، فقد تعلّموا هذا الخلق الإسلامي في برهة قصيرة منه.

على كل حال، نشاهد طوال الحكم الأموي والعباسي الذي دام حوالي 600 سنة. أنّ المقتل الأساسي هي هذه المسألة، التي منها حصل الفساد ودخل. لهذا نجد في الكثير من الموارد في تعاليم أمير المؤمنين "عليه السلام" ما يتناول دحض روح التكبّر والاستعلاء والتبعيض.

المسألة الأخرى ترتبط بالفتنة، وهنا نجد كلاماً عجيباً لأمير المؤمنين "عليه السلام". إنّ من يتأمل في هذا الكلام العميق، الجميل والجامع يصاب بالحيرة والاندهاش.. ما هي الفتنة؟ إنها تعني الشبهة واختلاط الصفوف، أي اختلاط الحق والباطل: "ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان! فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه".[1] وفي هذه القضية حين يخلط الحق والباطل، يستفاد من شعارات الحق لمآرب أهل الباطل، لأجل إحكام قواعد وأسس الباطل. وهذا مرض وبلاء كان مستفحلاً في عصر أمير المؤمنين "عليه السلام"، ولهذا كان "عليه السلام" يكشف عنه ويفضحه.

في باب الفتنة نجد نوعين من الكلام لأمير المؤمنين "عليه السلام" في "نهج البلاغة ". أحدهما ما يدور حول الفتنة بشكل عام. وقد دوَّنتُ في هذا المجال عدة جمل. ففي الخطبة الثانية، يتحدّث عن الأوضاع التي كانت سائدة حين بعث الله تعالى نبيّه الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" فيقول: "في فتنٍ داستهم باخفافِها، ووطئتهم باظلافِها وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران، نومهم سُهُود وكحلهم دموع".[2]

وهذا المقطع أيضاً غير قابل للترجمة. ويحتاج إلى الشعراء وأهل الذوق لكي يجدوا معادلاً دقيقاً لكل كلمة ولكل تركيب.. إنه حديث عن الفتن السائدة في المجتمعات قبل ظهور الأنبياء، وهو يريد أن يبيّن الأوضاع التي آل إليها المجتمع والناس في زمانه.

والمورد الآخر من كلام أمير المؤمنين "عليه السلام" عندما يذكر فتنة محددة، كما في جميع المواضع التي ذكر فيها مخالفيه الذين شنّوا الحروب والمعارك ضده كمعاوية وطلحة والزبير وعائشة وغيرهم وكذلك الخوارج.

[1] نهج البلاغة.
[2] نهج البلاغة، الخطبة 2

أهمية الإفشاء

هذا النوع الثاني في الواقع هو الإفشاء. فأمير المؤمنين "عليه السلام" كان يكشف عن الوجوه لأجل وأد الفتن. فهذا أفضل طريق لذلك. لأن الفتنة تنشأ في ظل مواجهة بين فئتين متصارعتين ينبعث من صراعهما الغبار فلا تُعرف عندها الوجوه في الحقيقة. ولعلّه قد يحمل الأخ السيف على أخيه، أو يطعنه، أو يعتمد على عدوه ويلجأ إليه. فهذه هي الفتنة. وما هو علاجها؟

علاجها الإفشاء، ولا يوجد مثل هذا العلاج للفتن. وكان أمير المؤمنين "عليه السلام" يمارس هذا العلاج، وهذا ما يدل على وجود المرض في ذلك الزمان.

في بحثي هذا تعرضت لثلاث نقاط هي: الدنيا، الكبر والفتنة. ويمكنكم أن تجدوا في "نهج البلاغة" مئة أمثالها، لم أحصها لأقول مئة ولكن أحدس بذلك وأتصور أنّنا ربما نجد أكثر منها. كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يشير إلى العلاج ومنه يعلم بوجود المرض. ولو لم يكن المرض موجوداً، لم يكن هذا الحكيم الذي يتحمل مسؤولية مضاعفة تجاه المجتمع ليتحدّث عن ذلك، ولكان يتطرق إلى أشياء أخرى. فهذا الكلام يدل على حجم ابتلاء الناس بتلك الأمراض ويعرض طرق الخروج منها. وإنّنا اليوم بعد مرور أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، ما زلنا بحاجة إلى تلك الوصفات العلاجية، لنتعرّف على العلاج ولنتعرّف أيضاً على نوع الأمراض التي تهددنا.

نحن نعيش في هذه الأيام ظروفاً تشبه تلك الظروف السابقة ؛ فحب الدنيا والانكباب عليها يهددنا، ويحدق بنا مرض الكبر وحب النفس والتبعيض، كذلك نجد طوفان الفتن الاجتماعية تهددنا بالسقوط.

وعليه فإننا بحاجة في تلك العلاجات، وأكثر من أي وقت مضى إلى "نهج البلاغة"، وخصوصاً من خلال هذه الرؤية.

ومن جانبي فأنا لم أرَ أحداً يسلك هذا المنهج مع "نهج البلاغة". وكما تعلمون، يوجد أعمال كثيرة حول "نهج البلاغة"، ولكن هذه الرؤية جديدة، وتحتاج بأن ننظر بواسطة مرآة هذا الكتاب إلى الأوضاع ونشاهد الوقائع والأمراض والأخطار المحدقة، ونتعرّف بعدها إلى أساليب المعالجة. ففي عصرنا الحالي نحن بحاجة ماسّة إلى تفسير وشرح "نهج البلاغة" من هذه الجهة.

وفي الختام، أشكر أولاً الأخوة الأعزاء الذين نهضوا في سبيل إحياء "نهج البلاغة"، وأضفوا على الأبحاث الدائرة حول هذا الكتاب أبعاداً علمية جدية، وأولوها الاهتمام وثابروا عليها، فأخرجوه من تحت ركام النسيان والإهمال.

وأشكر المحققين في هذا المجال من الشرّاح والمترجمين والجهود الأخرى القيّمة. ولكنني أرجو أن نأخذ قضية "نهج البلاغة" على محمل المزيد من الجدية.

ففي عصرنا هذا يتمتع هذا الكتاب بوضع خاص. ولقد ذكرت في لقائنا هذا بعدين ويوجد غيرهما الكثير. وأؤكد على أن هذا الكتاب يمثل كنزاً لا نظير له ولا انتهاء، وأنّ شعبنا ومجتمعنا يحتاجان إليه أكثر من أي وقت مضى. إننا بحاجة إلى هذا الكتاب اليوم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

روح التوحيد رفض عبودية غير الله

آية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم
يوم نهض نبي الإسلام لحمل رسالة تحرير الإنسان، وأعلن شعار "لا إله إلا الله" واجه معارضة حادة ومقاومة عنيفة ؛ وكان في مقدمة هذه الجبهة المضادة رؤساء القبائل ووجهاؤها، وكان بقية المعارضين تابعين ومطيعين لهؤلاء السادة والكبراء.
هؤلاء واجهوا الرسول، واجهوا الفئة المؤمنة ـ في البداية ـ بأبسط الأسلحة العدوانية، بالهمز واللمز والاستهزاء، ثم عمدوا إلى أسلحة أشد وأفتك كلما ازدادت الحركة التوحيدية قوة وبلورة. وهكذا كررت هذه الجبهة المضادة خلال الأعوام الثلاثة عشر قبل الهجرة تلك المشاهد المخزية في تاريخ الصراع بين الحق والباطل.
هذه الحقيقة التاريخية تستحق مزيداً من الدقة والإمعان لأنها تشكل مؤشراً هاماً للتعمق في فهم الإسلام، وفي فهم التوحيد الذي يشكل العمود الفقري للإسلام.
إنه لمؤسف جداً، بل إنها لمأساة، لكل دعاة تحرير الإنسان أن نشهد انحراف مفهوم التوحيد في عصرنا، فهذا المفهوم يشكل أعمق أسس محتوى الأديان، ولا يناظره مفهوم آخر في عمق اتجاهه نحو تحرير الإنسان وإنقاذ البشرية المعذبة على مسرح التاريخ.
الرسالات الإلهية عامة عملت خلال التاريخ ـ على ما نعلم ـ على تغيير المجتمع، ودفعه في اتجاه يخدم مصالح الإنسان وينقذ المستضعفين والمسحوقين، ويقضي على كل مظاهر الظلم والتمييز والعدوان. المحتوى الأخلاقي لكل الأديان الكبرى، كما يقول "أريش فروم"، يتكون من التطلع نحو: العلم، والحب الأخوي، والتخفيف من الآلام، والاستقلال، والشعور بالمسؤولية (وهناك طبعاً تطلعات سامية شريفة أخرى لا نتوقع من باحث مادي أن يدركها) .
كل هذه التطلعات والآمال تتلخص في مبدأ التوحيد. والأنبياء كانوا يطرحون كل أهدافهم من خلال شعار التوحيد، كما كانوا يحققون تلك الأهداف أو يمهدون لتحقيقها في أعقاب كفاح ينشب تحت راية هذا الشعار.
إنه لمؤسف حقاً، لا للموحدين فحسب بل كل المتبنّين لهذه الآمال والأهداف، أن يبقى محتوى التوحيد مجهولاً أو محرَّفاً أو سطحياً لا يتجاوز الإطار الذهني، خاصة في عصر تتصاعد فيه ضرورة الاتجاه نحو تلك الأهداف أكثر من أي وقت مضى.
ذكرنا أن المجابهات التي شهدها عصر فجر الإسلام تستطيع أن توضّح حقيقة هامة بشأن مفهوم التوحيد.
هذه الحقيقة هي أن شعار "لا إله إلا الله" اتجه أولاً لمقارعة أولئك الذين حاربوه وعادَوه، وهم: أفراد الطبقة المسيطرة المقتدرة في المجتمع.
رد الفعل الذي يبديه خصوم كل حركة في المجتمع يعـبّر دوماً بوضوح عن الاتجاهات الاجتماعية لتلك الحركة، ومدى عمق تأثير هذه الاتجاهات ؛ كما يمكن فهم الاتجاه الطبقي والاجتماعي للحركة من خلال دراسة طبيعة أعدائها وانتماءاتهم الطبقية، ويمكن قياس عمق تأثيرها عن طريق فهم مدى تصلّب الأعداء تجاهها.
من هنا، فإن دراسة جبهة أتباع الدعوات الإلهية وجبهة أعدائها، واحدةٌ من الطرق الموثوقة في فهم هذه الدعوات بشكل صحيح.
حين تشاهد أن الفئات المقتدرة كانت دوماً سبّاقة في محاربة الرسالات الإلهية، نفهم بوضوح أن هذه الرسالات تعارض بطبيعتها هذه الفئات، تعارض تجـبّرها وترفها، بل تعارض أساساً هذه الطبقية التي جعلت هذه الفئات متميزة عن غيرها.
قبل أن ندرس التوحيد من هذا المنظار، منظار مقارعته لكل ألوان السيطرة الاجتماعية، لابد من الإشارة أولاً إلى أن التوحيد لا ينحصر في إطار نظرية فلسفية ذهنية ـ كما هو شائع ـ بل هو نظرية أساسية حول الإنسان والعالم، ومنهج اجتماعي واقتصادي وسياسي للحياة.
يندر أن نجد في قواميس الألفاظ، الدينية وغير الدينية، لفظة مثل لفظة "التوحيد" في استيعابها للمفاهيم الثورية البنّاءة، ولأبعاد الحياة الاجتماعية والتاريخية للإنسان، لم يكن من الصدفة أن تبدأ كل الدعوات والحركات الإلهية في التاريخ بـإعلان توحيد الله وحصر الربوبية والألوهية به.

أبعاد محتوى التوحيد نلخصها فيما يلي:

أ/ التوحيد على صعيد التصور (النظرة العامة للكون والحياة) :
يعني وحدة جميع العالم وانسجامه وائتلاف أجزائه وعناصره
مبدأ الخلقة واحد، وجميع المخلوقات من ذلك المبدأ الواحد، وليس هناك آلهة متعددة في خلق العالم وإدارته، وهذا يستتبع وحدة جميع أجزاء العالم في التكوين والاتجاه.
{ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} (المُلك:3) .
{أوَ لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى} (الروم:8) .
العالم المتحرك ـ انطلاقاً من هذا التصور ـ قافلة متصلة الأجزاء، كاتصال حلقات السلسلة الواحدة، وكارتباط أجزاء الجهاز الواحد العاملة في اتجاه واحد، وكل جزء من هذه الأجزاء يكتسب معناه الواقعي ويتضح واجبه من خلال فهم مكانته في مجموع هذا التركيب، كل الأجزاء يعاون بعضها الآخر، ويكمّل بعضها الآخر في هذا السير التكاملي الحثيث، وكل واحد منها آلة ضرورية في هذه المجموعة، وكل توقف وفساد وركود وانحراف في أي واحد من هذه الأجزاء يؤدي إلى بطء وفساد وانحراف في جميع الجهاز، وبهذا الشكل ترتبط جميع الذرات مع بعضها برباط معنوي عميق.
ويعني أن للعالم هدفاً ويقوم على أساس حساب وانضباط دقيق، وأن لكل واحد من الأجزاء روحاً ومعنى
العالم له خالق حكيم، وبناءاً على هذا فإن لأصل الوجود ـ كما لكثير من أجزائه ـ حكمة وغاية واتجاه وهدف.
{وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين... } (الأنبياء:16) .
العالم بمجموعه ـ انطلاقاً من هذا التصور ـ ليس بالحائر العابث، بل هو مثل ماكينة مصنوعة ومرصودة للعمل من أجل هدف معيّن، يمكن السؤال عن هدفه ولا يمكن السؤال عن أصل هذا الهدف. إنه قصيدة ذات مضمون ينبغي التأمل والتدبر فيها لفهم مضمونها، ولا يمكن اعتبارها إطلاقاً صوتاً منطلقاً من حركة عشوائية.
ويعني أبعد من ذلك خضوع كل عناصر العالم وكل الأشياء الله
فلا يوجد بين هذه المجموعة عنصر شاذ متمرد، كل قوانين الطبيعة وكل ما يخضع لسيطرة هذه القوانين منصاع الله وعبد له.
فوجود القوانين التكوينية والطبيعية على ساحة الكون لا يعني نفي ربوبية الله ومبدئيته.
{إن كل مَن السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً} (مريم:93) .
{بل له ما في السماوات والأرض كلٌ له قانتون} (البقرة:117) .
{وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} (الزمر:67) .

ب/ التوحيد على صعيد فهم الإنسان:
يعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في ارتباطهم بالله
إنه رب جميع الناس، وليس لأحد ـ بسبب طبيعته الإنسانية ـ علاقة خاصة متميزة به، ولا لأحد معه قرابة، ليس إله شعب خاص أو قبيلة معيّنة، ولم يختر شعباً معيّناً ليكون ذلك الشعب سيداً والباقي مَسُودين. كل الناس أمام الله سواسية، وليس لأحد عند الله كرامة خاصة، إلا بالعمل الصالح، أي بالسعي والمثابرة على طريق خدمة الناس والعمل بأحكام الله المؤدية إلى سمو الإنسان.
{وقالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون} (البقرة:117) .
{فمَن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} (الأنبياء:94) .
{يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (الحجرات:13) .
ويعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في الخلقة والتكوين الإنساني.
الإنسانية عنصر واحد يسري في جميع أفراد النوع البشري بشكل متساوٍ، ليس هناك آلهة متعددة خلقت فئات بشرية متعددة. ولذلك فلا توجد ثمة اختلافات وفواصل منيعة في الخلقة، كما أن إله الطبقة الاجتماعية العليا ليس بأقوى من إله الطبقة الاجتماعية السفلى. كل الناس مخلوقات الإله الواحد الأحد، وكلهم متشابهون في جوهر خلقتهم.
{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة} (النساء:1) .
ويعني تساوي أبناء البشر في الإمكانات المتاحة لهم من أجل السمو والتكامل.
البشر متشابهون في جوهرهم الإنساني وطبيعتهم الإنسانية، وهذه الطبيعة الإنسانية جُبِلت بيد بارئ حكيم ؛ فليس هناك إذاً فرد عاجز ذاتياً عن ارتقاء مدارج الصراط المستقيم نحو السمو والتكامل.

من هنا، فدعوة الله دعوة عامة ولا تختص بشعب معيّن أو فئة خاصة.
الظروف المختلفة لها آثارها المختلفة على الإنسان، لكن هذه الظروف الطارئة لم تستطع أن تصنع من الإنسان بشكل دائم شيطاناً أو ملَكاً، وتغلّ يديه، وتسلب اختياره، وتسدّ الطريق أمام انتخابه وتغيّره.
{وما أرسلناك إلا كافة للناس} (سبأ:28) .
{وأرسلناك للناس رسولاً} (النساء:79) .
{يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيُدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً} (النساء:174ـ175) .
ويعني حرية جميع الناس من قيود الأسر ومن قيود العبودية لغير الله وهو تعبير آخر عن ضرورة العبودية لله
أفراد البشر الراضخون بشكل من الأشكال تحت سيطرة غير الله (سيطرة فكرية وثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية) هم مستعبدون لعباد من أمثالهم بالمفهوم الواسع للعبادة. هؤلاء قد اتخذوا لله أنداداً. والتوحيد يرفض هذا الشكل من الحياة، ويعتبر الإنسان عبداً لله فقط، ويحرره من العبودية والرضوخ لكل نظام، بل لكل عامل مسيطر يضع نفسه مكان الله. فالتوحيد يعني التسليم لله وحده، ويستتبع ذلك رفض كل سلطة غير سلطة الله مهما كان شكلها ونوعها.
{إن الحكم إلا لله، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم} (يوسف:40) .
{وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه} (الإسراء:23) .
والتوحيد بالمعنى المتقدم يعني تكريم الإنسان وتثمينه.
فالعنصر الإنساني السامي أعظم من أن يخضع ويرضخ لأحد غير الله ؛ فالوجود المطلق والجمال المطلق هو وحده الذي يستحق عبادة الإنسان وثناءه وتعشّقه. وهذا النزوع المتسامي هو درجة من درجات السمو.
لا شيء ـ غير ذات الله تعالى ـ يتمتع بمنزلة يستحق فيها عبادة الإنسان ودعاءه. كل الأصنام الجامدة والمتحركة التي فرضت نفسها على فكر الإنسان وقلبه وجسمه، واغتصبت حاكمية الله في حياة إنسان هي رجس وأوثان تُبعد الكائن البشري عن طهره ونقائه الفطري، وتذلّه وتصدّه عن حركته. ولابد للإنسان ـ إن أراد استعادة مكانته السامية ـ أن يجتنب هذه الأوثان ويغسل عن وجوده عار التلوث بعبوديتها.
{فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومَن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح من مكان سحيق} (الحج:30 ـ31) .
{لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً} (الإسراء:22) .
{ولا تجعل مع الله إلهاً آخر، فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً} (الإسراء:39) .
يعني وحدة وانسجام حياة الإنسان ووجوده.
حياة الإنسان مركبة من الذهن والواقع، من الفكر والعمل ؛ وإذا خضع واحد من هذين الجانبين ـ بأجمعه أو بقسم منه ـ لأعداء الله، أي إذا أصبح الذهن إلهياً والواقع غير إلهي، أو أصبح الواقع إلهياً والذهن بعيداً عن الله.
الإنسان في مثل هذه الحالة كمؤشر مغناطيسي ظهر في مجاله المغناطيسي عنصر غريب. المؤشر عندئذ إما أن ينحرف عن اتجاهه الطبيعي انحرافاً تاماً، أو يبقى يتأرجح يمنة ويسرة. أي سوف ينحرف الإنسان عن الصراط المستقيم المتناسب مع طبيعته الإنسانية، ينحرف عن الله.
{أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء مَن يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردّون إلى أشد العذاب.. } (البقرة:58) .
ويعني انسجام الإنسان مع العالم المحيط به.
الساحة الكونية الفسيحة تزخر بقوانين الخليقة، ولا تغرب أدنى ظاهرة طبيعية عن إطار هذه القوانين. وبانسجام هذه القوانين وتعاضدها والتقائها ينتظم شكل الكون ويسود في العالم هذا النظام الرائع المشهود. الإنسان جزء من هذه المجموعة وتتحكم فيه قوانينها العامة، إضافة إلى قوانين خاصة. غير أن هذه القوانين الخاصة متناسبة ومنسجمة أيضاً مع قوانين الظواهر الأخرى.
أما الإنسان، خلافاً لسائر الظواهر الأخرى المسخّرة للحركة على طريقها الطبيعي الفطري، يتمتع بقوة إرادة وقدرة اختيار. وعليه أن يطوي طريقه الفطري الطبيعي عن اختيار، لأنه طريق سموّه وكماله. وهذا يعني أنه قادر على الانحراف عن هذا الطريق الطبيعي.
{فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر} (الكهف:29) .
التوحيد يدعو الإنسان إلى السير على طريقه الطبيعي الفطري المنسجم مع كل الكون، وبذلك يربط الكائن البشري ـ باعتباره عضواً أصلياً من أعضاء هذا الكون ـ في عمله وسعيه بسائر أجزاء الكون، ويخلق بذلك وحدة وانسجاماً تامّين.
{أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون} (آل عمران:78) .

{ألم تر أن الله يسجد له مَن في السموات ومَن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} (الحج:18) .

ج/ التوحيد على صعيد المناهج الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية...) :
يسلب من كل مصدر غير الله صلاحية الانفراد بوضع مناهج مستقلة لشؤون الحياة والإنسان.
فالله خالق الإنسان والكون والمصمم لهذا النظام الكوني المنسجم، والعالم بـإمكانات الإنسان واحتياجاته.
الله يعلم بما ينطوي عليه الكائن البشري من ذخائر دفينة وطاقات مكنوزة، وبما ينطوي عليه الكون من كنوز وإمكانات، ويعلم ميزان وأبعاد استثمار هذه الكنوز والإمكانات، ويعلم كيف تلتقي هذه جميعاً مع بعضها.
من هنا فهو وحده القادر على وضع منهج لطريقة الحياة، ولعلاقات الإنسان، ومنهج حركته في إطار نظام التكوين. وهو وحده القادر على وضع قوانين الحياة وتعيين شكل النظام الاجتماعي.
اختصاص هذا الأمر بالله نتيجة طبيعية ومنطقية للخالقية والألوهية. فكل تدخل من الآخرين ـ إذاً ـ لتعيين المسيرة العملية للبشرية هو تدخل في حاكمية الله، وادّعاءٌ للألوهية، وباعثٌ على الشرك.
{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً} (النساء:65) .
{وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ومَن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً} (الأحزاب:36) .
يسلب حق الولاية على المجتمع وحياة الإنسان من غير الله.
ولاية الإنسان على الإنسان لو قامت على أساس حق مستقل وبدون مسؤولية، لاستلزمت الظلم والطغيان والعدوان. الفرد الحاكم والجهاز الحاكم لا يستطيع أن يتخلص من الانحراف والطغيان والإفراط إلا إذا كانت زمام الأمور معطاة بيد هذا الفرد أو هذا الجهاز من قبل سلطة عليا ضمن إطار مسؤوليات متناسبة. وهذه السلطة العليا في المدرسة الدينية هي الله المحيط بكل شيء علماً.
{لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض} (سبأ:3) .
{ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين} (الحاقة:44) .
هذه السلطة العليا لا تنطلي عليها خدعة كما قد تنطلي على الجماهير، ولا يمكن اتخاذها وسيلة للسيطرة والتجبّر كما تتخذ الأحزاب، ولا يمكن المساومة معها كما يمكن مع علّية القوم وزعمائهم.
وبنظرة أعمق: لو استلزم نظم الحياة انتهاء كل أجهزة الحياة الاجتماعية بنقطة واحدة، وتفرد قوة مسيطرة بمسك زمام جميع الأمور، لما كانت تلك القوة المسيطرة سوى خالق الكون والإنسان.
فالحكم حق خاص بالله، ينفّذه مَن عيّنهم الله، أي أولئك الذين تتجسّد فيهم أكثر من غيرهم تلك المعايير والخصال المحددة في الإيديولوجية الإلهية. وهؤلاء منفّذون وحفَظة للقوانين الإلهية.
{قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إني أُمرت أن أكون أول مَن أسلم ولا تكونن من المشركين} (الأنعام:14) .
{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} (المائدة:55) .
{قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس} (الناس:1ـ 4) .
ويعني اختصاص المُلكية المطلقة الأصلية لكل نِعَم الكون وذخائره بالله.
ليس لأحد أن يملك ويتصرف مباشرة ومستقلاً ؛ كل شيء أمانة بيد الإنسان لاستثماره والاستعانة به على طريق السمو والتكامل.
ليس للإنسان المنعَّم أن يفسد ويتلف نِعَم هذا العالم التي هي ثمرة سعي آلاف الظواهر والعناصر في هذا العالم، أو أن يهمل هذه النِعَم أو يستثمرها في طريق غير طريق السمو الإنساني. ما في يد الإنسان، وإن كان ملكاً له، فهو عطاء إلهي. من هنا، ينبغي أن يتجه استثمار هذا العطاء على الطريق الذي عيّنه الله، أي في طريقه الطبيعي الأساسي، في الطريق الذي خُلِق من أجله في الحقيقة. واستثمار هذا العطاء الإلهي في غير هذا الطريق انحراف عن اتجاهه الطبيعي، إنه الفساد.
دور الإنسان إزاء هذه النِعَم الإلهية المتنوعة هو استثمارها بشكل صحيح، وفتح مغاليق كنوزها، وقبل ذلك إحياؤها والبلوغ بها إلى درجة الكمال طبعاً.
{قل لمن الأرض ومَن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون} (المؤمنون:86 ـ87) .
{هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً} (البقرة:29) .
{اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} (هود:61) .
{والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصَل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة} (الرعد:28) .

ويعني أن أفراد البشر متساوون في حق استثمار نِعَم الحياة.
الإمكانات والفرص متكافئة أمام جميع البشر ليستثمر كلٌ منهم هذه النِعَم قدر حاجاته وضمن إطار سعيه وعمله. هذه الساحة الكونية لا توجد فيها منطقة خصوصية محصورة بفئة معيّنة. الجميع يستطيعون أن يستثمروا نِعَم الحياة المتنوعة قدر همّتهم وإرادتهم، دون تمايز بينهم في العنصر أو الموقع الجغرافي والتاريخي، بل وحتى في الانتماء الإيديولوجي.
{هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً}.
{والأنعام خلقها لكم}.
{لكم فيها جمال}.
{تحمل أثقالكم}.
{أنزل من السماء ماءاً لكم}.
{ينبت لكم به الزرع}.
{وما ذرأ لكم في الأرض}.
{لتركبوها}.
{لتأكلوا منه}.
وكل هذه الآيات، من مطلع سورة "النحل" تخاطب جميع البشر دون أن تتجه في خطابها إلى فئة خاصة أو طائفة خاصة، وهي جاءت في سياق آيات أخرى تخاطب جميع البشر أيضاً مثل:
{ولو شاء الله لهداكم أجمعين}.
{وإلهكم إله واحد}.
هذا جانب من المحتوى العميق الواسع للتوحيد. ومن خلال هذا الاستعراض السريع يتضح بجلاء أن التوحيد ليس بالنظرية الفلسفية الذهنية غير العملية المعزولة عن الحياة وعما يرتبط بحركة المجموعات البشرية وبحركة الفرد ونشاطه. التوحيد لا يكتفي باستبدال معتقد بمعتقد آخر..
بل إنه من جهة: نظرة عامة للكون والحياة، تشتمل على مفهوم خاص للعالم وللإنسان ولمكانة الإنسان بين ظواهر العالم ومكانته في التاريخ، ولإمكاناته واحتياجاته ومتطلباته الذاتية، ولاتجاهه ومراحل سموّه وكماله.
ومن جهة أخرى: منهج اجتماعي شامل متناسب مع طبيعة الإنسان، ويستطيع الكائن البشري في إطاره أن يسمو على مدارج كماله بسهولة وسرعة. إنه أطروحة خاصة للمجتمع تتضح فيها الخطوط العامة والأساسية للكيان الاجتماعي.
من هنا، حين يرتفع نداء التوحيد في المجتمعات الجاهلية (المجتمعات القائمة على أساس الجهل بحقيقة الإنسان) والمجتمعات الطاغوتية (القائمة على أساس المعاداة للقيم الإنسانية الحقة) فإنه يحدث تغييراً شاملاً، ينير القلوب المظلمة، ويحيي النفوس الهامدة، ويبعث هزة في جسد المجتمع الراكد، وينظم الشؤون المبعثرة المتناقضة لذلك المجتمع. يحدث التوحيد تغييراً في المحتوى النفسي، والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية، وفي القيم الأخلاقية والإنسانية.
وبعبارة قصيرة: يهاجم التوحيد الوضع الجاهلي القائم، والسلطة التي تحمي هذا الوضع، والجو الذي يغذي هذا الوضع ويمدّه بالحياة.
التوحيد ـ إذاً ـ ليس فقط أطروحة ترتبط بمسألة نظرية محضة أو مسألة ذات إطار عملي محدود، بل إنه أيضاً طريق جديد أمام الإنسان، يستهدف تقديم أسلوب آخر للعمل والحياة، وإن استند إلى تحليل ذهني ونظري.
انطلاقاً من هذا الفهم لمحتوى التوحيد، نعتقد أن هذا الأصل يشكل حجر البناء في صرح الدين، ومحتواه الأساس، والقاعدة التي يقوم عليها. فهم التوحيد على أنه نظرة لما وراء الطبيعة، أو أنه على أحسن الأحوال أطروحة أخلاقية عرفانية، هذا الفهم لا يتناسب إطلاقاً مع الإيديولوجية الإسلامية الحية التي تنطوي على أطروحة كاملة للحياة الاجتماعية.
كان هناك على مر التاريخ طبعاً أفراد ـ مع إيمانهم بالله وبالتوحيد ـ غفلوا أو تغافلوا عن المحتوى العيني والعملي ـ وخاصة الاجتماعي ـ لهذه العقيدة. هؤلاء وطنوا أنفسهم على المعيشة في كل زمان ومع كل الظروف بحيث لا تكاد تميّزهم عن الكافر بالتوحيد ؛ أي أن هذه العقيدة لم تبعث فيهم شعور التعارض مع الوضع غير التوحيدي القائم، ولم يثقل كاهلهم عبء الشرك المستفحل في مجتمعهم.
في مطلع الإسلام، كان هناك مجموعة من الحنفاء يعيشون في مكة مركز الوثنية وعاصمة أصنام العرب الكبرى. لكن وجودهم لم يكن له أدنى تأثير على الجو الفكري والاجتماعي، لأن مفهوم هؤلاء الحنفاء عن التوحيد لم يتعدّ أذهانهم وقلوبهم وإطار حياتهم الخاصة، ولم يكن له أدنى تواجد في تلك المتاهات الجاهلية، ولا أقلّ تأثيراً على الحياة المؤسفة القائمة هناك. هؤلاء الذين يُسمَّون بـ"الموحدين" كانوا يعيشون مع غيرهم على ساحة واحدة ويطوون مسيرة تلك الحياة بنفس طريقة غيرهم دون أن

يزعجهم شيء. هذا الفهم الذهني للتوحيد يتميز بهذه الصفة من الخمول والانعزال عن الحياة، وخاصة الحياة الاجتماعية.
في مثل هذه الأجواء، أعلن الإسلام مفهوم التوحيد باعتباره عقيدة ملتزمة وتنظيماً للحياة وأطروحة جديدة للمجتمع. وبهذا الشكل أعلن هويته باعتباره دعوة انقلابية لكل مخاطبيه، المؤمنين منهم والكافرين، فكل مَن سمع نداء الإسلام علم أنه نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي جديد لا يتلاءم إطلاقاً مع الأوضاع التي كانت قائمة في العالم آنذاك، بل إنه يستهدف إزالة الوضع القائم وإبداله بوضع آخر.
بسبب هذه الأطروحة، اندفع المؤمنون صوب الدعوة باشتياق ولهفة وولع شديد وأسلموا لها، ولهذا السبب أيضاً هبّ المعارضون والكافرون ليقاوموا نداء التوحيد بوحشية وضراوة، وليصعّدوا عداءهم يوماً بعد يوم.
هذه الحقيقة التاريخية، بمقدورها أن تكون معياراً لتقييم صحة أو عدم صحة ادّعاء التوحيد في كل زمان ومكان. من الصعب أن نصدّق وجود التوحيد في نفوس قوم يشبهون موحدي مكة قبل ظهور الإسلام.
التوحيد المهادن.. التوحيد المداهن مع كل الأنداد والآلهة المزيفة.. التوحيد الذي لا يعدو أن يكون فرضية ذهنية، ليس إلا نسخة ممسوخة لتوحيد الأنبياء.. ومن الطبيعي أن يخلو مثل هذا التوحيد من ديناميكية دعوة الأنبياء.
من خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم سبب انتشار نور الإسلام وتقدّمه في العصور المتقدمة، وسبب تراجعه وتقهقره وضعفه في العصور المتأخرة.
إسلام رسول الله (ص) كان يضع التوحيد أمام الناس باعتباره طريقاً ومسلكاً، وإسلام العصور التالية طرح التوحيد باعتباره نظرية يدور حولها البحث والجدل في المجالس والمحافل. كان الكلام هناك يدور حول تصور جديد للعالم ونظرية جديدة لحركة الحياة، وهنا الكلام يدور حول مسائل كلامية فرعية خالية من كل عطاء حي. كان التوحيد هناك يشكل الهيكل العظمي للنظام القائم، والمحور لكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ وهنا يتمثل في لوحة فنية جميلة معلقة في صالة، الهدف منها إكمال مظاهر الزينة في الصالة. وأي دور فعال يمكن أن نتوقعه من مثل هذه الظاهرة الكمالية؟!
مما تقدّم يتضح أن التوحيد من منظار عملي أطروحة للمجتمع ومنهج للحياة وقاعدة للنظام الذي اعتبره الإسلام متناسباً مع طبيعة الإنسان ونموّه وسموّه ؛ وهو من منظار نظري يشكل القاعدة الفكرية الفلسفية لذلك النظام.
بعد هذه التمهيدات، نستطيع أن نعود إلى بداية المقال، وندرس المسألة من الزاوية الخاصة التي استهدفناها فيه.
قلنا: إن المجابهات الأولى التي واجهها نداء التوحيد انطلقت من ذوي القدرة والسلطة في المجتمع، وهذا مؤشر يثبت أن الضربة التي وجهها هذا الشعار اتجهت أول ما اتجهت وأكثر ما اتجهت نحو تلك الفئة المقتدرة المسلّطة، أو نحو الفئة المستكبرة على حد التعبير القرآني.
وقلنا: إن الدعوات التوحيدية في مختلف عصور التاريخ، ما أن انطلقت في المجتمع حتى اتخذت موقفها الواضح من المستكبرين. وعلى أثر هذا الموقف، انقسم المجتمع إلى فئتين متناقضتين: الفئة المعارضة المستكبرة والفئة المؤمنة المستضعفة.
وقلنا أخيراً: إن رد الفعل الذي تبديه هاتان الفئتان تجاه رسالة التوحيد هي الخاصة التي تميّز التوحيد الحقيقي الأصيل. أي أن التوحيد ـ متى ما أعلن بمفهومه الأصيل وبشكله الصحيح ـ يواجه هذه المجابهات وردود الفعل الاجتماعية.
والآن علينا أن نتفحص أبعاد التوحيد لنرى أي بُعد من هذه الأبعاد يتعارض مباشرة مع مصالح الطبقة المستكبرة ويصطدم مع وجودها. بعبارة أخرى: علينا أن نفهم تلك النظرة التوحيدية التي تستثير المستكبرين وتدفعهم إلى اتخاذ موقف المجابهة الحادة.
تفهّم شخصية المستكبر في القرآن الكريم تعيننا كثيراً على فهم هذا الموضوع.
القرآن الكريم يعطي في أكثر من أربعين موضعاً صورة عن المستكبر، وخصائصه النفسية، ومكانته الاجتماعية، وأهدافه، وأطماعه التوسعية الاستئثارية. وبشكل عام نجد القرآن يحدد للمستكبر الخصائص التالية:
يرفض الله بالمفهوم الذي تعبّر عنه عبارة "لا إله إلا الله" (أي حصر الحاكمية والمالكية المطلقة به تعالى) ، وإن لم يرفض الله كحقيقة ذهنية تشريفاتية محدودة الإطار.
{إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} (الصافات:35) .
{فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا مَن أشد منا قوة} (فصّلت:15) .
{وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم} (لقمان:7) .
ويتخذ موقف الجاحد والمكذب تجاه دعوة النبي التغييرية التحررية، ويجابهها بحجة أنه أقدر من غيره على فهم الطريق الصحيح، وبحجة أن الله ينبغي أن يخاطبه مباشرة.
{وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه} (الأحقاف:11) .
{وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله} (الأنعام:124) .

ويتهم المستكبرون صاحب الدعوة بأنه يستهدف الحصول على الجاه والمنزلة، كما يتذرعون بالتقاليد البالية السائدة لنظامهم المسيطر للحد من انتشار الدعوة في المجتمع.

{قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين} (يونس: 78) .

ويستعينون بالقوة والتزوير وبمختلف سبل الخداع والتضليل لإبقاء الناس تحت سيطرتهم وعبوديتهم، ويدفعونهم إلى مجابهة كل دعوة تحررية.

{وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا} (الأحزاب:67) .

{فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مُغْنون عنا نصيباً من النار} (المؤمن:47) .

{قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون} (الأعراف:108ـ109) .

وأخيراً يعرّضون النبي وأتباعه، الثائرين على النظام المسيطر وعلى الاتجاه الفكري السائد، لأقسى الحملات وأشد أنواع التعذيب والأذى والتنكيل.

{قُتِل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود... } (البروج:3ـ7) .

{وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد} (غافر:46) .

هذه هي باختصار الخصائص التي يذكرها القرآن الكريم للمستكبرين. وهناك مواضع أخرى تجاوز فيها القرآن رسم الصورة إلى وضع الإصبع على أفراد مشخّصين ينتمون إلى اتجاهات معيّنة.

{ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون ومَلَئه بآياتنا فاستكبروا.. } (يونس:75) .

{وقارون وفرعون وهامان، ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض} (العنكبوت:39) .

فرعون معروف، وهامان مستشار فرعون الخاص والشخصية الأولى في جهاز فرعون. طبعاً و"ملأ فرعون" هم علّية القوم في هذا الجهاز، والسائرون في ركاب فرعون، ومشاوروه ومساعدوه (راجع الآية 126 من سورة "الأعراف") . وقارون هو صاحب الثروات الطائلة والكنوز التي {مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة}.

وباستعراض عشرات الآيات من كلام الله العزيز بشأن الاستكبار، نستطيع أن نفهم المستكبر على النحو التالي: الجناح المسيطر في المجتمع الجاهلي، الماسك ـ دون استحقاق ـ بزمام السلطة السياسية والاقتصادية. واستمراراً لاستثماره وتسلّطه الجائر، يمسك أيضاً بزمام الأفكار والمعتقدات المسيطرة على الأذهان، ويعمل بأساليب متنوعة على ملء الأذهان بأفكار تدفع الأفراد إلى الاستسلام له وإلى الانسجام مع الأوضاع القائمة. وهذا المستكبر يهبّ لمقارعة كل دعوة إلى التوعية، فما بالك إذا كانت الدعوة انقلابية تغييرية!! حفاظاً على مصالحه بل على وجوده.

والآن نعود إلى موضوعنا الأساسي: كيف عرض الأنبياء عقيدة التوحيد؟

الجواب على هذا السؤال يوضح مواضع الحساسية التي تستثير المستكبر في هذه العقيدة، وسبب حساسيته من هذه المواضع، وسبب عدم قدرة المستكبر على تحمّل عقيدة التوحيد حين تطرح بهذه الكيفية. وجدير بالذكر أن الجواب على هذا السؤال يوضح لنا من جانب آخر أهمية التوحيد باعتباره القاعدة الأساس التي تقوم عليها الرسالة.

نعلم أن شعار التوحيد هو أول نداء يرفعه النبي في المجتمع. النبي الخاتم رفع في مكة شعار: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا".

والقرآن الكريم نقل عن أنبياء كرام مثل: نوح وهود وصالح وشعيب و... خطابهم لأممهم، وكان الخطاب يدور حول محور التوحيد.

{يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} (الأعراف:59) .

هذه الشعارات ـ كما ترى ـ تستند بالدرجة الأولى إلى رفض كل عبودية لغير الله. النبي بهذه الشعارات يهيب بالجهَلة، الغافلين المنغمسين في أوحال النظام الجاهلي الطاغوتي، أن يكفّوا عن عبودية كل قطب وقدرة غير الله. وهذا يعني أن النبي يبدأ دعوته بـإعلان الحرب على كل الذين يجعلون من أنفسهم آلهة من دون الله.

مَن هم أدعياء الألوهية في المجتمع؟ وما معنى إعلان الحرب على الآلهة المزيفة؟ وما هو الوضع الذي تريد دعوة الأنبياء أن توجده في المجتمع؟

عبارة "أدعياء الألوهية" توحي إلى الأذهان عادة أولئك الذين جعلوا من أنفسهم "إلهاً"، أي أولئك الذين ادّعَوا لأنفسهم تلك القدرة الخارقة التي كان البشر يؤمن بها على مر التاريخ بشكل من الأشكال. وهذا فهم سطحي للعبارة.

كان هناك طبعاً في التاريخ مجرمون تافهون استغلّوا قدرتهم السياسية والاجتماعية، فأوحَوا إلى أفراد أتفه منهم أنهم آلهة، بالمعنى المتقدم، أو أنهم يحملون جانباً من روح الإله ؛ ولكن لو ألقينا نظرة على المعنى الواسع لألفاظ "العبادة" و"الربوبية" و"الألوهية" في القرآن، لاستنتجنا أن إطار مفهوم "أدعياء الألوهية" أوسع من ذلك الفهم بكثير.

استعمال مادة "العبادة" في القرآن الكريم يفيد أن العبادة تعني التسليم والطاعة المطلقة تجاه إنسان أو أي موجود آخر. حين

نستسلم استسلاماً أعمى لشخص، ونتحرك وفقاً لرغباته وأهوائه وأوامره فقد عبدناه ؛ وكل قوة تستطيع أن تخضعنا لها، وتسيطر على أجسامنا ونفوسنا، وتسخّر طاقاتنا وفقاً لرغباتها، فإنها تصيّرنا عبيداً لها سواء كانت هذه القوة داخل أنفسنا، أم في محيطنا الخارجي. ومن أمثلة هذه الاستعمالات القرآنية:

موسى يخاطب فرعون في بداية دعوته معاتباً يقول:

{وتلك نعمة تمـنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل} (الشعراء:22) .

فرعون وبطانته يخاطب بعضهم بعضاً فيقولون:

{أنؤمن لبشرَين مثلنا وقومهما لنا عابدون} (المؤمنون:49) .

إبراهيم يخاطب أباه قائلاً:

{يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً} (مريم:44) .

رب العالمين يخاطب البشرية:

{ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنـه لكـم عــدو مبين} (يس:60) .

الله تعالى يَعِدُ عباده الصالحين:

{والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابـوا إلى الله لهـم البشـرى} (الزمر:17) .

وحول أولئك الذين يعيبون على المؤمنين إيمانهم يقول تعالى:

{مَن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القِرَدة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل} (المائدة:65) .

هذه الآيات عـبّرت عن الطاعة لفرعون ولبطانته وللطاغوت وللشيطان بكلمة "عبادة". ومن خلال دراسة جميع آيات القرآن في هذا المجال نخلص إلى أن العبادة في المفهوم القرآني هي: الاتباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعية أو وهمية، طوعاً ورغبة أو كرهاً وإلزاماً، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوي أو بدونه.. هذه القدرة هي "المعبود" وهذا المطيع هو "العبد" و"العابد".

من خلال الإطار العام للمفاهيم المتقدمة يتضح معنى لفظة "الألوهية" ولفظة "الله" باعتبارهما تعبيراً آخر عن كلمة "المعبود":

في النظام الجاهلي المنحرف المنقسم إلى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة، أي المنقسم إلى طبقة مسيطرة ماسكة بزمام جميع الأمور، ومترفة طبعاً، وطبقة مهملة مسخّرة ومحرومة لزاماً، وأبرز مظاهر الألوهية والعبودية هي هذه العلاقة غير المتعادلة بين الطبقتين.

من العبث أن نبحث وراء موجود مقدس بشري أو حيواني أو جامد، في دراسة آلهة المجتمعات الجاهلية على مر التاريخ. فأبرز مظهر للمعبود والإله في هـذه المجتمعـات، هـو تلـك الفئـة الـتي تمـارس ـ اعتماداً على ارتباطها بالطبقة المستكبرة ـ عملية إخضاع وارضاخ الجماهير المستضعفة، ودفعها على طريق إشباع نهمها وجشعها.

الدين الواقعي في هذه المجتمعات هو "الشرك"، لأن الآلهة فيها متعددة بتعدد مراكز القوة المسيطرة التي تستثمر الناس على طريق أهوائها.

الشرك هو تأليه أفراد إلى جانب الله أو بدلاً من الله. وبتعبير آخر وهو: إيكال أمور الحياة إلى غير الله. وهو الاستسلام أمام كل قدرة غير الله، والاتجاه نحو هذه القدرة لدى الحاجة، والسير على طريقها.

التوحيد يقع في النقطة المقابلة للشرك تماماً: يرفض كل هذه الآلهة، ويرفض التسليم لها، ويقاوم سيطرتها، ويحصّن القلوب من الركون إليها، ويدفع إلى إزالتها وطردها، ويشد الكائن الإنساني بكل وجوده إلى الله.

أول شعار رفعه رسل الله هو ذلك الرفض وهذا التسليم:

{ولقد بعثنا في كل أمّـة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (النحل:36) .

{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (الأنبياء:25) .

الأنبياء إذاً أعلنوا زوال النظام الجاهلي الفاسد المنحط بهذا الشعار. وبهذا الشعار أيضاً دَعَوا إلى كفاح مرير للطواغيت، أي لحماة هذا النظام وللمستهينين بالقيم الإنسانية الأصيلة ولأصحاب تلك القيم التافهة المساندة للظلم والظالمين.

رفض الشرك هو في الواقع رفض لكل الكيانات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المقوّمة للمجتمع الجاهلي، والمتخذة من مذهب الشرك غطاءاً وتبريراً لوضع المجتمع المهزوز.

رفض الآلهة المزيفة، يعني طرد كل الذين دأبوا على استضعاف الجماهير، واستغلالها عن طريق القوة والتزوير، من أجل إشباع غرائزهم وأهوائهم الجامحة.

موسى اتجه إلى حرب فرعون بهذا الشعار.. نعم لقد تردد على ألسن بطانة فرعون مسألة رفض موسى لآلهتهم التقليدية:

{وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك} (الأعراف:127) .

غير أن فرعون ومَن لفّ لفّه كانوا يعلمون جيداً أن تلك "الآلهة"، أي الأصنام الجامدة ليست إلا غطاءاً وتبريراً لألوهية فرعون وأتباعه. الصنم الجامد كان في الحقيقة تبريراً لتأليه الأصنام الحية، لذا كان من المنطقي تماماً أن يقف فرعون من دعوة موسى، أي من الدعوة إلى الله الواحد الأحد بارئ السماوات والأرض، موقف المهدد بالسجن وبقتل مَن آمن به وتعذيبهم:

{قال لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين} (الشعراء:29) .

{قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} (الأعراف:126) .

{لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلّبنّكم أجمعين} (الأعراف:123) .

كل هذا التعنت والتصلب أمام اسم "الله" ودعوة التوحيد، يعود إلى أن هذا النداء لا يعني إلا:

الإيمان بحاكمية الله وحدها على الحياة...

ورفض الآلهة المزيفة...

والارتباط به وحده وتمزيق كل قيود العبودية الأخرى...

وهذه هي روح التوحيد وأبعاده البنّاءة النابضة بالحياة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دروس وعبر من حياة أمير المؤمنين (عليه السلام)

بحث لسماحة ولي أمر المسلمين (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم
... ليس علي بن أبي طالب بالشخصية التاريخية فحسب، وإنما هو أمير المؤمنين، أي بالنسبة لنا الأسوة والقدوة والنموذج، ونموذج للحكومة التي ينبغي على حكامها وقادتها أن يقتدوا بسلوكه ومنهجه، وعلى الإسلاميين أن يتخذوا سلوك ومنهج علي بن أبي طالب قدوة ونموذجاً لهم. واليوم حيث أنعم الله علينا بقيام الجمهورية الإسلامية والتي أثبتت جديتها في العالم وذلك بفضل جهود المسلمين والتضحيات الجسام التي بذلت، على الأشخاص الذين يمسكون زمام أمور الحكومة الآن والذين سوف يتولون ذلك في المستقبل أن يعملوا وأن يخططوا لأجل تحقيق هذا النموذج ؛ فالقدوة في المجتمع هي لأجل صنع وإحياء الفرد المسلم، وهذا ما كنا نفتقده طوال زمان النظام الشاهنشاهي المشؤوم الذي لم يتح مجالاً لهذا العمل، بحيث نحيا حياة إسلامية ونبقى مسلمين، أما اليوم فعلينا أن نغتنم هذه الفرصة في ظل وجود نظام الجمهورية الإسلامية.
إن شخصية علي (ع) مؤهلة لأن تكون القدوة لصنع وإحياء الفرد المسلم، وكذلك لنعلم كيف يحيا المسلم، وبناء على هذا فإذا أردنا أن نتحدث عن أمير المؤمنين لا ينبغي أن يكون للتيمن والتبرك بذكره فقط، بل للتعلم منه والاستفادة من مشعل نوره لحل المشكلات ولإزالة العوائق التي تمس الآن بالجمهورية الإسلامية، حيث الآن تواجه مشكلة في مواجهتها للقوى الاستكبارية في الشرق والغرب وعدم انسجامها مع الأطماع الإمبريالية والاشتراكية.
إن كل المتتبعين والعارفين بالمسائل والأحداث السياسية في العالم يعرفون أن الثورة تبتلى بمشاكل وتواجه صعوبات، هذا أمر طبيعي، لكن على كل الأحوال يجب علينا في مقابل هذه المشاكل أن نجد طريق الحل، فعندها يصبح للمشاكل نهاية وللعقد حلول ميسرة. ولكي نهتدي إلى سبيل النجاة نرجع إلى حياة أمير المؤمنين التي سوف تفتح لنا باب الحل.
أتعرض هنا إلى ما يتعلق بجوانب شخصية أمير المؤمنين، إلى شكل حكومته وقيادته، ثم علينا فيما بعد أن نطابق حياتنا ومنهجنا في العيش مع علي (ع) . والآن إذا أردنا أن نقف على المحطات البارزة واللامعة في حياة مولى المتقين وأن نتعرف على شخصيته وحكومته، أظن أنه علينا أن ندرس نقطتين أساسيتين وحساستين، وأتصور أن شخصية أمير المؤمنين (ع) بعنوان أنه الحاكم وخليفة رسول الله (ص) تدخل في صلب هذه النقاط. طبعاً لن نتعرض في هذا البحث إلى شخصية علي (ع) المعنوية والعرفانية، تلك الشخصية التي كانت دائماً مرتبطة بالفيض واللطف الدائم الله سبحانه، بل سنتحدث عن علي (ع) كحاكم إسلامي حكم الأمة الإسلامية لفترة من الزمن ؛ ولكي نتعرف على شخصية وأسلوب هذا الحاكم بشكل واقعي سأتحدث اولاً بشكل كلي ومجمل، أشرع بالتفصيل.
النقطة الأولى: البارز في حياة أمير المؤمنين كحاكم هو التزامه وتعبده الكامل بما جاء به الإسلام وما ورد في شريعته ؛ فأمير المؤمنين تربى في كنف الإسلام، وفي الوقت الذي كان الرسول يتولى الحكومة ويتحمل الأذى والمصاعب في سبيل الإسلام كان علي (ع) الشاب المقاتل المقدام الذي لم يجلس في بيته وينتظر وقوع الحوادث، بل كان حاضراً في كل المواجهات والتحديات ؛ فلقد سخر كل إمكاناته وكمالاته الإنسانية في خدمة الإسلام، حيث شارك في كل الحروب والغزوات التي جرت في زمن رسول الله (ص) باستثناء حرب واحدة لم يشارك فيها بناءً على طلب الرسول، حيث طلب منه البقاء في المدينة. فقدم حياته للإسلام، وكان حاضراً دائماً ليضحي بروحه دفاعاً عن الإسلام.
وفي ذلك اليوم الذي اجتمع فيه المسلمون على شخص غير علي (ع) ليسلموه الإمرة والخلافة، حيث اتبع جمع الناس مجموعة صغيرة انسلخت لتبايع غير علي (ع) ؛ وعلي الذي كان يرى ويعلم بأن الخلافة من حقه وهو اللائق بها، وكان يستطيع إن أراد أن يواجه أولئك ويقوم بدعوة الناس وتحريضهم، لم يقم بذلك وضحى لمصلحة الإسلام. وكذلك فَعَلَ أيضاً بعد وفاة الخليفة الثاني، حيث قال له أعضاء الشورى الستة اقبل بالعمل طبق سنة النبي وسيرة الشيخين حتى نبايعك، ولكنه (ع) رفض ذلك ؛

فهذا مخالف لما يؤمن به ويتعارض مع تكليفه والتزامه. وأدى هذا الرفض به إلى أن يتأخر عن تسنّم الخلافة 12 عاماً أخرى. وطوال فترة حياته التي سبقت تسنّمه الخلافة كان دائماً يجاهد ويتحرك في سبيل خدمة الإسلام والشريعة، لذا فمن الطبيعي أن يعمل على تطبيق الأحكام الإسلامية حين تسنمه للخلافة وعلى تحكيم الثوابت الإسلامية، وهذه الخصوصية الأولى للأمير (ع) . وأنتم إذا أردتم أن تقارنوا بين علي وبين الأشخاص الذين وقفوا في وجهه، ستجدون فرقاً أساسياً ؛ فعلي (ع) لم يكن حاضراً إلا ليتحرك ويعمل لأجل الإسلام الذي قد عرفه وآمن به.

النقطة الثانية: ـ والتي أتمنى أن تلتفتوا لها جيداً وقد كررتها مراراً ـ هي أننا اليوم بحاجة أكثر من أي يوم مضى لمعرفة المباني الإسلامية والقرآنية والدينية. فنحن علينا جميعاً اليوم أن نتعلم ونفهم الإسلام ماذا يريد وكيف يطرح فكره في كل الميادين والمجالات. إن المسألة الأساسية اليوم هي التعرف على الإسلام، وإحدى الطرق التي نفهم من خلالها الإسلام ونستطيع أن ندرك ما يريده منا هي معرفة سيرة ومنهج الإلهيين ومن جملتهم أمير المؤمنين (ع) ، لذا نتحدث اليوم عن أمير المؤمنين لا لنبين مزايا هذه الشخصية التاريخية الإسلامية فقط، بل لأجل معرفة وبيان الإسلام، فإننا نعرف الإسلام من خلال علي (ع) .

ننتقل الآن إلى النقطة الثانية في شخصية أمير المؤمنين والتي ترتبط بكونه حاكماً إسلامياً ؛ فعلي الحاكم لم يكن مستعداً على الإطلاق أن يهادن ويصالح الأشخاص الذين لم يكونوا يتحركون في ضمن خطه ومسيرته، أي الذين لم يتحركوا في خط الإسلام وفي سبيل الله، وحياة علي تشير إلى ذلك ؛ فعلي ـ تلميذ النبي ـ لم يكن مستعداً للمسايرة، كالنبي نفسه، الذي كان يتحرك في سبيل تحقيق الأهداف المقدسة. وحياة النبي كلها شاهدة على رفض المهادنة والأهواء والأنانيات، ولو كان أمير المؤمنين (4) مستعداً أن يهادن لكان استطاع أن يحد من نفوذ القادة والشخصيات المعادية له والبارزة في وسط الناس والتي تتمتع بقدر من الاحترام لديهم، وأن يخرس ألسنه الذين انتقدوه، ولو كان أيضاً مستعداً أن يخفف من مواجهته لأعداء الإسلام والحكومة الإسلامية، فمن المؤكد لم تكن لتواجهه كل هذه المشاكل والمصاعب. وهنا كان امتياز علي (ع) الحاكم، عن غيره من الحكام، فأولئك كانوا مستعدين أن يتخالفوا مع أي طرف ضد عدوهم ؛ فنرى معاوية وعمرو بن العاص المتنافسين والمتخالفين مع بعضهما، يقفان جنباً إلى جنب لمواجهة علي (ع) . وكذلك إذا نظرنا إلى طلحة والزبير من جهة وإلى معاوية من جهة أخرى، فلقد كانوا متعادين، لكنهم كانوا مستعدين أن يتحدوا وأن يقفوا جنباً إلى جنب لمحاربة علي بن أبي طالب (ع) ، بينما رفض علي (ع) أن يتحالف مع طلحة والزبير ضد معاوية. فبالنسبة لأمير المؤمنين هذا التحالف مخالف للنهج الإسلامي، معاوية عدو ومخالف وبنفس الدليل فطلحة والزبير أعداء لا يمكن مسايرتهم والتحالف معهم. هذه أيضاً من خصوصيات علي (ع) .

قال أمير المؤمنين (ع) :

"فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم"! وفي مكان آخر يقول: "والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما آخذ الله على العلماء من أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت أخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز".

إن علينا اليوم أن نأخذ الدروس والعبر من سيرة أولئك المعلمين للبشرية، الأئمة بالحق (ع) ، ننهل من كلماتهم الهادية والمضيئة دروس الحياة والإخلاص والتضحية كي يعم عدل الإسلام في هذا العالم.

ما أريد أن أتناوله هنا هو خطبة أمير المؤمنين التي ذكرتها في المقدمة والمسماة بالخطبة الشقشقية، لكن قبل ذلك أود أن أنقل حادثة، ولعلكم سمعتموها عن أمير المؤمنين (ع) ؛ ففي إحدى الحروب التي خاضها (ع) وفي وقت هدنة قصيرة، جلس (ع) في خيمته مشغولاً بتجهيز نفسه للهجوم المقبل، فدخل عليه ابن عباس فوجده منهمكاً بخصف نعله، فالنعل يجب أن يكون محكماً بشدة للتحرك بسهولة وسرعة في الحرب، وأمير المؤمنين (ع) كان قد انتهز هذه الفرصة كي يصلح نعله المقطع، مع العلم بأنه كان حينها حاكماً للبلاد الإسلامية المترامية الأطراف والقائد العام للجيش الإسلامي الكبير. هذا الحاكم الذي كانت تحت ولايته إيران وأفغانستان والعراق ومصر واليمن، ما عدا الشام، هذا الإمام كان منشغلاً بخصف نعله! تأمل ابن عباس ملياً في المشهد الذي يحمل لشخصٍ متيقظ القلب مثله الكثير من الدلالات والمعاني.

التفت الإمام (ع) إلى ابن عباس ليسأله: ما قيمة هذه النعل؟ وبالطبع لم يكن لها قيمة وهي جديدة، فكيف وهي بالية، يصلحها من لا شأن له بهذه المصلحة (الأسكافية) ؟! أجاب ابن عباس: لا قيمة لها.

فعندها قال أمير المؤمنين (ع) :

"والله لهي أحب إليَّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقاً وأدفع باطلاً".

فما معنى هذا؟! إنه يعني أنها إمرةٌ وولاية ذات هدف، هي حكومة الدين ؛ فالإمام يقصد أني لست مولعاً بالرئاسة ولا أريدها، ولكن هذا القبول بمقام الخلافة والإمارة لا أتركه كوني بواسطته أرتقي بالمجتمع الإسلامي وأديره لأقيم فيه الحق وأدفع الباطل... وهكذا كان...

فلنعد الآن إلى الخطبة الشقشقية التي يبين فيها الأمير (ع) مجرى الأحداث المتعلقة بالخلافة منذ وفاة النبي (ص) ، إلى أن وصلت هذه الخلافة إليه (ع) ، فيقول:

"وما راعني إلا والناس... حتى وطئ الحسنان..."

يعني كان إلحاح الناس واحتشادهم علي، رغبة بي، إلى هذا الحد، وذلك كي يقبل بالخلافة، ويقبل أخيراً، ولكن لماذا؟

يوضح الإمام علي (ع) هدفه الذي قبل لأجله حيث يقول:

"والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها...".

فالحكومة بحسب الرؤية الإسلامية ليست سوى عبادة في هدفها ومنطلقاتها ؛ فأمير المؤمنين (ع) قبل بالخلافة لعدة أمور:

أولاً: طلب الشعب وإصراره على ذلك. وهو عامل أساسي ومصيري في تسنّم الخلافة.

ثانياً: قيام الحجة بوجود الناصر، فهو (ع) يرى دعماً ومساندة يستطيع بواسطتها أن يحقق أهدافه، ولو لم ير ذلك لما قبل.

ثالثاً: ما أخذ الله على العلماء ؛ فأمير المؤمنين لكونه عالماً فهو مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى أن لا يرضى بالظلم وأن ينصر المظلوم.

تلك هي المعايير التي جعلت أمير المؤمنين (ع) يقبل بتولي الخلافة.. واليوم فإن من لا يؤمن بالله ولا يقبل بالإسلام كبرنامج للحياة وتكون أفكاره وآراؤه مستوردة من الأفكار القومية أو المادية الإلحادية أو ما يمكن تسميته بالإسلام الالتقاطي، مثل هكذا شخص ممن ليس لديه فكر إسلامي إلهي لن يكون قادراً على تشكيل حكومة إلهية، والتي إن لم توجد فلن يوجد مجتمع إسلامي أبداً. هنا أطلب منكم أن تتحلوا بالوعي واليقظة في النظر للأمور، فأنتم اليوم عندما تنظرون عن بعد إلى تاريخ صدر الإسلام تشاهدون بأم العين علي بن أبي طالب كرجل عظيم وصاحب حق، بينما معاوية يظهر كشخص وضيع... أما في تلك الأيام التي جرت فيها الحرب بين أمير المؤمنين (ع) ومعاوية فقد كان هناك أشخاص من صحابة النبي (ص) ممن لايزال يقاتل مع معاوية، ولعل بعضهم كان من المؤمنين. من كان يظن بأنه يقوم بعمل جيد وصالح بحيث كان يقول: معاوية خال المؤمنين! ففي ذلك الوقت كان الوعي والدقة أمراً مطلوباً بشدة، فمن كان يملك الوعي؟

عمار بن ياسر نموذج من أولئك الذين تمتعوا بالوعي ؛ فقد جمع بعض الذين اشتبهت عليهم الأمور فقال لهم: "أقسم بالله أني رأيت هذه الراية، نفسها التي يقف تحتها اليوم معاوية ضد علي (ع) ، في معركة بدر حيث كانت يومها مع أبي سفيان". فإن الوعي والدقة ما يلزمنا دائماً.

إن روح تاريخنا إنما هي في ذكر سيرة أئمتنا، فلو لم يكن في تاريخ التشيع هذه الشخصيات العظيمة كأمير المؤمنين والحسنين والزهراء (ع) ، لما بقي أثر للتشيع يذكر في أيامنا هذه، بل ولا أثرٌ للإسلام نفسه، اللهم إلا في طيات بعض الكتب.. هذا الإسلام، إنما حُفظ لنا بذكر علي، وبجهاد هؤلاء العظام وشهادتهم (ع) .

وكما تعلمون فإن مشاعر الناس وأحاسيسهم المنبعثة من حبهم لأهل بيت النبوة (ع) تتفجرلتصل إلى ذروتها ذكرى أفراح أو أحزان آل محمد (ص) ، ويُصادف اليوم الذكرى الدامية لضرب الرأس الشريف لأمير المؤمنين، هذه الليلة الحزينة.. المظلمة في الكوفة، لن تتصوروا كيف كانت هذه المدينة في تلك الليلة ؛ كل الناس كانوا أصحاب العزاء فقد رحل المواسي، المؤنس، كان علي هو من يعزيهم في الماضي، ذاك الذي كتب يوماً إلى أحد ولاته "... أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر". كان الإمام شريك الناس في كل الآمهم وهمومهم، مذكراً في وصيته "الله الله في الأيتام". كان (ع) السباق في رعاية الأيتام ؛ فاليتيم أشد حاجة للعطف والحنان، محروم من تلك البسمة الأبوية العامرة بالمحبة، محروم من مداعبة أبيه له، فمن يملأ هذا الفراغ؟

علي (ع) ، يسير ليلاً بين تلك المنازل التي كان يعرفها ويعرف أحوال أهلها، حاملاً إليهم الطحين والأرز والزيت، ومساعداً لهم، بإشعال التنور أحياناً.. ملاطفاً الأيتام ؛ يجلسهم في حضنه، يلاعبهم كي لا يشعروا بالحزن والكآبة. عظمة علي معروفة ومشهورة في الحرب وساعات الوغى، لكن الأهم والأعظم مواساته وخدمته للأيتام والمحرومين، في دموعه المليئة عطفاً وحناناً.

في تلك الليلة.. في ليلة العشرين من شهر رمضان، انتظره الأطفال الذين كان يجلسهم على ركبته ويمسح على رؤوسهم بكل لطف، يطعمهم بيده.. انتظروا ذلك الرجل.. لكنه لم يأت... في تلك الليلة عرفوا من هو... ولعلكم سمعتم بما جرى عندما طلب الطبيب المعالج للأمير (ع) إحضار الحليب لعله يدفع أثر السم كيف أن عشرات الأطفال الأيتام أتوا من كل أنحاء الكوفة يحمل كل منهم كوباً فيه حليب واندفعوا نحو منزل الإمام يريدون رد الجميل وشكره على محبته ورعايته وحنانه... ولعلكم سمعتم أيضاً عن ذلك العجوز الأعمى الذي كان في تلك الليلة يئن من الوحدة وألم الجوع فسأله بعضهم: فكيف كنت تصنع في الأيام السابقة؟! فذكر لهم أن رجلاً كان يأتي إليه يواسيه ويطعمه بيده.. وأخبرهم بمواصفات ذاك الرجل.. الذي ما كان سوى علي (ع) ... هذا الإنسان المتعدد الأبعاد، والذي كان حقاً كما وصفه الرسول الأكرم "ياعلي أنت فاروق الحق والباطل" ؛ فكان الملجأ والحامي

لكل من يشعر بالضعف والحاجة الوحشة ؛ هذا الإنسان الذي كان يقع مغشياً عليه في محراب العبادة من خشية الله، هو نفسه الحاكم الذي لم يتحمل وجود والٍ ظالم كمعاوية، وهو نفسه من وبخ أحد الولاة وكان من أصحابه، لأنه أسرع في تلبية دعوة أحد الأشراف إلى الضيافة والولائم.

وهو الحافظ لبيت المال، بحيث أنه وفي الليلة الأولى لاستلامه الخلافة يطفئ المصباح كي لا يصرف من بيت مال المسلمين، وكي ينبه بعض الصحابة المدعين ويحذرهم من سوء أعمالهم.

هذا الإمام كان مظهراً للدفاع عن البشر وحقوق الإنسان واحترامه، وهذا هو الإسلام الذي يتجلى بالتوحيد بكل أبعاده وإكرام الإنسان وعزته، وبالمساواة وروح الأخوة بين جميع الناس.

ومن يخرج عن هذا النهج فلا يعدّ مسلماً حقاً وإن لم يخرج ظاهراً، فإن قلبه لم يؤمن بعد بالله والقرآن إيماناً كاملاً.

ومن يكن أسيراً للآمال والأهواء والانجذاب نحو حياة الترف والوجاهة المليئة بالزبارج والزخارف ويطلب من المسؤولية والسلطة المال فقط ويرغب في المظاهر الفارغة (سيارة من طراز السنة...) وإظهار القوة والقدرة... مثل هكذا شخص لا يمكن أن يدعي بأنه خليفة لعلي (ع) .. يجب علينا جميعاً أن نحفظ هذا المعيار دائماً كوننا ننادي بعلي ونبحث عن نهجه.

كان هذا كلامنا وخطابنا وقد سمعتوه مثا منذ عشرين أو ثلاثين سنة، لم يتبدل ولم يتغير.. والآن يظهر جلياً أنه لم يكن ادعاءً أو شعارات فارغة، وما زلنا أمام امتحان واختبار، ونحن الذين حتى الأمس القريب كنا نقول لكم أظهروا ما تعتقدون به وتعلّموا واعلموا بكل هذا في ساحة حياتكم الفردية ؛ فاليوم أيضاً نعيد نفس الكلام ونذكركم بنفس المطالب كي يصبح مجتمعنا مقتدياً بمثال علي بن أبي طالب (ع) . فهذا ذكر علي (ع) ومن عنده نبدأ ونتقدم، فالإسلام إنما ينبع منه (ع) .

ذلك اليوم الذي كنا نعيش فيه تحت ظل الحكم الطاغوتي، لم تكن الأعمال ذات الطابع الفردي ذات تأثير أو أن تأثيرها في تغيير الأوضاع كان ضعيفاً، وقد كنا حينها (أنا وكثير من العلماء المنسجمين بالمنهج والفكر) على هذا الاعتقاد وهو أن لا نحدث الناس ولا ندعوهم بدون وعي إلى الأخلاق بل إلى الأخلاق التي تدفع الناس إلى حمل السيف لمقاتلة أسرة بهلوي. فالأخلاق هي ذلك الشيء الذي يدفع الناس للجهاد والمواجهة وتحفيزهم للقيام ولاقتلاع غدة الفساد. وهذا الوضع يشبه الجسم، حيث إذا بقي جهازه الهضمي مريضاً فإن كل ما يتناوله من غذاء أو أدويه لا ينفع ولا يجدي، فلا بد من العمل الجراحي مهما رافقه من ألم ونزيف ومعاناة. فإن النهاية سيعقبها الصحة والعافية والسلامة، وما لم يقم الإنسان بهذه العملية فصحيح بأنه لن يتألم من العملية، ولكنه في الحقيقة سوف يتجه نحو الضعف الكلي والموت. بهذا المنطق كنا نعمل ونتكلم، والآن هذا التوجه نفسه ما زلنا ندعو إليه.. فقد أجريت العملية وزال وجعها وحان وقت تناول الغذاء المفيد والأدوية المقوية لجسم مجتمعنا، في ذاك الوقت كنا نطلب منكم الجهاد والمواجهة الثورية، واليوم بعد أن هزمتم الطاغوت الحاكم، صارت ساحة جهادكم هي الساحة الأخلاقية والاهتمام بتقوية العبادات والفرائض والاطلاع على المعارف الإسلامية ؛ مجتمعنا اليوم بحاجة ماسة للجانب الأخلاقي (وهذا لا يعني إهمال الشأن السياسي) بل ان العمل السياسي يبقى واجباً، ولكن عليكم عدم الاكتفاء بهذا وعدم الغفلة عن الاهتمام بالأخلاق والعبادة وتعلم القرآن والمعارف الإسلامية، وإحياء مثل هذه الليالي (من شهر رمضان) بأدعية أبي حمزة الثمالي ودعاء الافتتاح.

إذن فاليوم هو يوم الاهتمام والتوجه لمثل هذه الأمور ؛ ففي مجتمعنا الآن مشاكل كثيرة في سلوك الناس، إحداها أن الآباء والأمهات لا يلتفتون إلى مسألة إعطاء القيمة والتشجيع لأبنائهم الشباب والفتيان...

ونقول لهؤلاء الأهل دعوا أولادكم، ليتعلموا المعارف الإسلامية وليشاركوا في الأنشطة الإسلامية، فالمئات من الشباب وخاصة من الفتيات كتبوا إليَّ يشكون من أن أهاليهم أنهم لا يسمحون لهم بالذهاب إلى صلاة الجمعة! مع أن هذه الصلاة هي مناسبة لتلاحم ووحدة هذه الأمة وليس عبثاً تأكيد الإمام المتكرر على ضرورة المشاركة فيها، بحيث إن المؤمنين الصادقين كانوا يأتون إليها ويفرشون سجادات الصلاة على الثلج في الشوارع شتاءً، وعلى الإسفلت الحار صيفاً، ولا يتركون هذه الصلاة بأي حال.

إذن دعوا شبابكم ليأتوا ويتعلموا، وإن رغبوا مثلاً بالانضمام إلى قوات الحرس الثوري، دعوهم واسمحوا لهم ليلتحقوا بالحرس ويكونوا في خدمة الإسلام.

هذا واجب الأهل، ولكن ما هو واجب الأبناء؟ ان عليهم احترام آبائهم وأمهاتهم، ولأهمية هذه المسألة نلاحظ كيف أن كثيراً من التفاصيل في المسائل الأخلاقية لم تذكر في القرآن، أما مسألة احترام الأهل فقد ذكرت مراراً وهذا يدل على مدى أهميتها...

لذا نوصي الشباب: أن احترموا أهاليكم، وإن رأيتم أن مستوى فهمكم للأمور أعلى من مستواهم فلا تغتروا بذلك، لأن هذا الفهم والوعي الذي لديكم الآن لم يكن ليحصل لولا التحولات التي أوجدتها الثورة، وكونوا على ثقة بأن أولادكم أنتم سوف يصيرون أيضاً أفضل منكم وأكثر وعياً ولن تكونوا حينها في مستوى فهمهم، وسوف ترون اللامبالاة والفتور تجاهكم.

فيجب أن يكون هناك التفاهم والانسجام سائداً بين الأهل والأبناء... فالأبناء يعاملون أهلهم بالحسنى، والأهل بدورهم يفسحون المجال أمام أبنائهم للتكامل والنضج، وأود أن ألفت النظر في هذا المجال أن خاطفي الأولاد من أهلهم اليوم كثر،

وطبعاً لا أعني الخطف والسرقة للأطفال الصغار، وإنما أعني أولئك الذين يسلبون عقول وقلوب شبابكم.

واليوم أيضاً نرى في مجتمعنا بعض الوقاحات التي زادت، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن ينالوا من مقام إمام هذه الأمة وقلب العالم الإسلامي النابض وأعظم ثوريي في هذا العصر رغم ادعائهم الثورية.. أولئك هم سارقو عقول وقلوب شبابكم فاحذروهم وراقبوهم. أريد أن أسال من هو ذاك الذي كان يقاتل في كردستان؟ هو نفسه الذي كان يتكلم اللهجة الطهرانية أو الأصفهانية أو المشهدية ثم يرمي القنابل والقذائف الصاروخية على قوات الحرس، من أين أتى هذا الشاب؟! من بيتي ومن بيوتكم!! ومن الذي جعله ينفر من الإسلام؟! من الذي أبعده عن الإسلام وإيران والاستقلال والثورة والجمهورية الإسلامية؟! دققوا وابحثوا كي تعرفوا من. وإن لم تعرفوا فالإمام قد عرفه لنا... هو عبارة عن تلك المجموعات من المنافقين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "مجاهدي خلق"، فكونوا على حذر منهم وراقبوهم كي تبعدوا أولادكم عنهم، وهذا لا يكون بإخفاء الأولاد وإبعادهم عن الساحة، أو بمنعهم عن المطالعة وقراءة الكتب ؛ فهذه الأساليب غير ناجحة.. بل اسعوا لتعرفوا أبناءكم وبناتكم ولترشدوهم إلى النهج الحقيقي والصحيح للفكر الإسلامي والقرآني، إلى التيار المتعمق والمتخصص بذلك الفكر، أصحاب الفهم العميق بالقرآن والإسلام، أولئك الذين أمضوا أعمارهم في البحث والتدقيق والدراسة، هم الذين يستطيعون أن يمنعوا سارقي العقول من أن يعبثوا بأفكار أبنائكم ويحرروهم منهم، فهؤلاء المدعون لا يطرحون سوى "إسلام" التقاطي مقطع أربعين قطعة وكالأكلة المخبوصة، مؤلف من أفكار ملتقطة من كل مدرسة في هذا العالم أو تيار في الدنيا.

ولهذا ترون أن هذه المجموعات الفاسدة والمنحرفة أشد عداوة للتيار العلمائي ولا تواجه فئة بالقدر الذي تواجه فيه فئة العلماء. واليوم في إيران فإن بعض العملاء والخونة والجناة يقولون انهم يريدون اقتلاع العلماء من الجذور! وأكثر من هذا فإن بعض الشباب الذين قاموا لمواجهة أمريكا والشاه، أيضاً فإنهم صاروا يتفوهون بنفس هذا المنطق! فما السبب الذي جعل هؤلاء يشنون الحملات على العلماء ويوهنون مقام "العالم"؟! السبب هو أن العالم العارف بالهداية ونشر الأصالة الإسلامية يستطيع بسرعة أن يفضح هؤلاء ويكف أيديهم وتأثيرهم فيقول لذلك الشاب ويؤكد له أن ما تسمونه "توحيد" مثلاً وتعتقدون أنه صحيح يشبه كل شيء إلا التوحيد! وإن ما ابتدعتموه من فلسفة وأفكار لا شأن لها بالإسلام. لذلك كله فإن هؤلاء العملاء يشوهون صورة العالم في أعين الناس.

وهنا أشير إلى مسألة بخصوص العلماء ويعرفها الذين سمعوا خطاباتي وعرفوا أفكاري منذ سنوات عديدة، بأنني كنت من أوائل المنتقدين لبعض العلماء وأساليبهم الخاطئة وللمتظاهرين بذلك، وقد رفعت صوت النقد لهم في قلب الحوزة العلمية في مشهد أمام مئات الطلبة والفضلاء والمدرسين، ففي درس التفسير ذكرت هذا كي أؤكد بأني لا أريد أن أدعم وأروج بشكل مطلق لكل من وضع على رأسه العمامة، لكني أشعر بخطر كبير، هذا الخطر نفسه الذي ذكره الإمام وقلب الأمة الناطق الذي لا يرد عليه أحد. وقد أكد مراراً كثيرة هذا المطلب، وأنتم تعلمون أن هذه الثورة قد اشتعلت شراراتها الأولى على يد العلماء الذين هم محل ثقة الشعب، وانتشرت من مركز الحوزات العلمية إلى سائر أنحاء إيران. وهؤلاء العلماء هم الذين حفظوا فكر الثورة وحماسة الناس وثوريتهم ونهوضهم. إن فراشات شمعة هذه الثورة هي نفسها الخطب النارية التي أرشدت الشباب وحركتهم وانطلقت بهذه المسيرة فكانت محرك الثورة، كان هؤلاء العلماء يعبئون الجماهير ويشعلون حماسهم بآيات القرآن وخطب نهج البلاغة وبيانات الإمام، وكما تعلمون فإنه وبعد انتصار الثورة قد استلم بعض العلماء مسؤوليات ومهام حكومية بأمر من الإمام، وانطلقوا ليأخذوا المواقف الصلبة في مواجهة أمريكا وروسيا والتيارات الرجعية الوافدة إلينا من الخارج. ولو لم يؤد هؤلاء العلماء المجاهدون تكليفهم في هذه المواقع لما رأينا اليوم كيفية النظر إلى مسألة رهائن السفارة الأمريكية مثلاً بهذا النحو، وكذا مسألة التعاطي مع أمريكا. لو لم يتصد العلماء لرأيتم اليوم المستشارين الأمريكيين يتجولون في الشوارع عندكم بحرية، هم وقتلة إخوانكم المظلومين، الذين مازالوا إلى الآن يتآمرون.

فعليه، من قاوم منذ البداية هو العالم، ومن صمد قبل الجميع هو العالم. ولا أتعرض هنا لأحد، ولكن أذكر أين كانت مواقع الآخرين في هذه المواجهة. ما أقصده أن العلماء في هذا المجال كان لهم الموقع الحساس والمصيري، والأعداء أنفسهم يعرفون هذا، لذلك يريدون القضاء على العلماء. هل تعرفون من أطلق على حكومة الجمهورية الإسلامية اسم حكومة الملالي؟!عملاء الـ C.I.A. وبعدها ،المختلفة التسمية هذه وضع من هم فهؤلاء ،وأمريكا أوربا في الإعلامية المحطات خلال من بذلك قاموا الذين هم رأينا هذا الكلام نفسه يتكرر على ألسنة عناصر المجموعات في الداخل التي تسمي نفسها "الشعب" وأحياناً "الشعب الإسلامي" فانظروا وانتبهوا إلى طريقة ارتباط هذه الظواهر ببعضها. فعلينا أن نملك الوعي، وعلينا هداية شبابنا كي يتجهوا لطلب العلم ومعرفة الدين ونهج القرآن الصحيح ومطالعة الكتب. كل الدعايات والحملات الإعلامية التي بدأت بعد شهرين من انتصار الثورة واستهدفت الشخصيات العلمائية والتجمعات المرتبطة بالعلماء، كانت لهذه الأسباب التي ذكرتها، فلو كان الحزب الجمهوري معادياً للعلماء، ولم يكن العلماء عاملين فيه، لما تم محاولة تشويه صورته والتهجم عليه بهذا الشكل.

أمام هذا الواقع، يجب على الآباء والأبناء والأمهات والبنات أن يعرفوا كيف يواجهون وكيف يتّحدون أمام هذه الأحداث

الجارية في حياتهم. في الماضي كان الخلاف سائداً بين هذين الجيلين، اليوم عليهم أن يتفقوا ويقفوا صفاً واحداً لمواجهة العدو بسلاح القرآن والإسلام. فعندما تضيعون الإسلام مثلاً (طبعاً هذه الأمة لن تفقد الإسلام على الإطلاق) عندها لن تكونوا قادرين على مقاومة أمريكا وقوتها، بل إن العدو يبدأ عندها بالنفوذ والغزو شيئاً فشيئاً، ولا يقول للأمة أنا أريد ظلمك وأن أكون دكتاتورياً عليك فاستعدي، بل ان ظلمه يتدرج بهدوء.. أنقل لكم، لأخذ العبرة، مقطعاً من تاريخ صدر الإسلام ؛ فبعد زمن خلافة أمير المؤمنين وخاصة بعد شهادة الإمام الحسن (ع) أصبحت مدينة الكوفة دائماً مركزاً للاضطرابات والفوضى بالنسبة للحكم الأموي، الذي عجز عن مواجهة الأمر (مثلما عجز نظام الشاه أمام مدينة قم، مدينة الدم والثورة) ، فكان بنو أمية كلما عينوا والياً لهم على الكوفة تمرد عليه الناس، فيجد نفسه مضطراً أن يعود للخليفة الأموي خالي الوفاض، كي يقول له لا أستطيع أن أنفذ سياستكم وأنا مضطر أن أتوافق مع زعماء الشيعة كي تهدأ الأحوال.. أمام هذا الواقع انبرى الحجاج بن يوسف سفاح بني أمية المشهور وطلب من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يوليه الكوفة، متعهداً له أن يحل المشاكل ويجعل الكوفة خالية آمنة من التوتر، فولاه الخليفة كما أراد، وكتب له كتاباً بذلك، فطلب الحجاج منه أن يخفي هذا الكتاب ولا يطلع عليه أحداً حتى يصل للكوفة ويرسله بذلك. فبقيت هذه المسألة سرية ولم ينتشر الخبر... رحل الحجاج إلى الكوفة مع عشرين فارساً مسلحاً من المحاربين الأشداء، دخلوا الكوفة خلسة قبل أذان الفجر، وتوجهوا إلى المسجد حيث كان الناس يتهيئون لصلاة الصبح وأكثرهم مشغول بالدعاء وقراءة القرآن، نشر الحجاج رجاله على أبواب المسجد ومداخله وطلب منهم أن يبقوا على استعداد دون أن يثيروا أي حركة.

أما الحجاج فقد وضع عمامة حمراء على رأسه وتلثم، ثم دخل المسجد بدون أن يعرفه أحد، واعتلى المنبر بهدوء وجلس بدون أن يتكلم شيئاً وانتظر حتى احتشد المسجد بالمصلين الذين انتبهوا فجأة إلى وجود هذا الرجل الملثم الذي لم يعرفوه، (ولو كان ظاهراً لعرفوا كونه سبق أن حكم الكوفة) ، فتوجهت الأنظار إليه بدهشة واستغراب، وغلامه واقف أسفل المنبر، وصاروا يتساءلون عن سر هذا الجالس الملثم الذي تدل علامات عينيه على القسوة والغضب، وكيف أنه يضع سيفه دون غمد على ركبتيه، ولم يكن إمام الجماعة قد وصل بعد... ولما رأى الحجاج أن الوقت صار مناسباً فالأنظار كلها متوجهة إليه باهتمام، رفع عمامته وأسدل اللثام عن وجهه وأنشد الشعر المشهور معرفاً بنفسه:

أنا ابن جلى وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فعرفه الناس في المسجد، وبدأ الرعب يدب في نفوسهم والأنفاس تتقطع.. أمر الحجاج عندها غلامه أن يقرأ على الملأ كتاب التنصيب للحجاج كوالٍ على الكوفة من قبل الخليفة.. بدايةً، الناس لم تأخذ هذه الرسالة على محمل الجد، فعاد الغلام ليصعد إلى الدرجة الأعلى من المنبر ويعيد القراءة مثبتاً التعيين ومعرفاً الناس على القرار... هكذا تسلل الحجاج بهدوء وتسلل هذا الدكتاتور شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى ما اراد.

واليوم على الأمة الإسلامية أن تنتبه وتفتح عينيها جيداً حتى لا تتكرر هذه الحوادث التاريخية مرة أخرى، فالديكتاتورية تأتي بالتدريج، وفي ذلك الزمان لو قاوم أهل الكوفة رجال الحجاج العشرين لمنعوا فيما بعد قتل آلاف الناس الأبرياء وزج الآلاف من الشيعة وذرية أمير المؤمنين في سجون الحجاج.

الآن ما هو الشيء الذي نقوم به لمنع عودة التسلط الأمريكي في بلادنا؟!

هل لدينا مناعة أو لقاح ضد هذا الميكروب كي لا يعود إلينا؟

ألم تشاهدوا ما جرى في الثورة الفرنسية الكبرى، فبعد انتصارها وتخلص الشعب من "سجن الباستيل" الذي كان رمز الظلم والاستبداد، وتحرر المعتقلون السياسيون وأعدام الملك والملكة الظالمين ومصاصي الدماء وأصبحت الحكومة بيد الشعب الفرنسي. ولكن لم تمض عدة سنوات حتى عادت الدكتاتورية مجدداً، ولكن بواسطة "نابليون بونابرت" الذي كان جنرالاً عسكرياً فحكم بالحكم العسكري القاسي بعد أن كانت فرنسا مهد الحرية، وبعد هزيمة "نابليون" عادة مرة أخرى حكومة متسلطة، فحكم أبناء لويس السادس عشر (الملك المخلوع والمقتول) لأربعين سنة.

هذا التاريخ أمامنا، احذروا ولو قليلاً أن يحدث ذلك معكم أيضاً؟ كونوا متيقظين، فما الذي يمنع ويضمن أن لا يتكرر هذا الأمر معنا؟! هناك عدة أشياء تستطيع أن تحفظنا، أهمها أن لا تضعوا في حسابكم إلا المقاييس والمعايير الإسلامية.

إن أردتم أن تمنعوا عودة الظلم والتسط إلى هذا البلد عليكم دوماً أن تراعوا وتحفظوا المعايير والضوابط الإسلامية، هذا أولاً. ثم عليكم أن تنهضوا وتتجهوا لفهم الإسلام ومعرفته وكذلك لمواجهة أعداء الثورة في جميع مجالات أعمالكم جماعة أو أفراداً، ثم التفطن والوعي العميق لكل ما يجري حولكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

علينا الاعتراف بأن حياة الأئمة (ع) لم تُعرف وتفهم بالشكل المطلوب والكامل، حتى أن مقامهم وموقعهم الجهادي في الحياة قد بقي مخفياً حتى عن الشيعة أنفسهم. وعلى رغم وجود آلاف الكتب الكبيرة والصغيرة، قديماً وحديثاً تتناول سيرة وحياة الأئمة (ع) ، فإن قسماً كبيراً ومهماً من سيرة أولئك العظام ما زال محجوباً بأستار الغموض والإجمال، كما أن الحياة السياسية لأبرز وجوه آل بيت النبوة التي امتدت لقرنين ونصف وكانت تشكل أهم مراحل تاريخ الإسلام ابتليت بكثير من المحققين والكتاب الذين كانوا ينطلقون في دراستهم من خلفيات مسبقة، أو من تقصير في التدقيق، أو أنهم أصلاً من ذوي الانحرافات، مع افتقارنا إلى التاريخ المدون والموثق لحياة الأئمة المليئة بالأحداث والتطورات.

إن حياة الإمام الثامن علي الرضا (ع) السياسية والتي استمرت عشرين سنة تقريباً من هذه الحقبة (القرنين ونصف) كإمام هي جديرة بالتحقيق والدراسة المعمقة وذلك لأنها كانت من جملة المحطات الحساسة والبارزة لتلك الحقبة.

والآن عندما ندقق النظر لنعرف ما هو أهم شيء لم تتم دارسته بالشكل المطلوب والمناسب في حياة الأئمة (ع) نجد أنه عنصر المواجهة السياسية القاسية والعنيفة ؛ فمنذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري وحيث تحولت الخلافة الإسلامية بشكل واضح وفاضح إلى سلطنة بكل معنى الكلمة في جميع الجوانب وتبدلت الحكومة (أمانة الله) إلى حكومة متسلطة (ملكية) كانت المواجهة السياسية لأهل البيت (ع) تشتد وتتطور بأسلوب يتناسب مع الأوضاع والظروف المستجدة. وهذه المواجهة كان هدفها الأساسي تشكيل النظام الإسلامي وبناء الحكومة على أساس مبدأ الإمامة، ومن دون شك كان أيضاً تبيين وشرح الدين من وجهة نظر أهل بيت الوحي، ورفع الشبهات ومواجهة الانحرافات، ونشر المعارف والأحكام الإسلامية، من جملة الأهداف المهمة لجهاد أهل البيت (ع) .

لكن بعد الاطلاع على حركة اهل البيت نرى قرائن لا تقبل الشك تدل على أن جهاد أهل البيت لم يكن محدوداً وناظراً فقط لتحقيق هذه الأمور، بل نرى أن الهدف الأسمى لذلك الجهاد لم يكن إلا تشكيل الحكومة العلوية وبناء النظام الإسلامي العادل ؛ فكل المصاعب والآلام والمرارات والتضحيات في حياة الأئمة وأصحابهم كانت في سبيل هذا الهدف. والأئمة، بدءاً من زمان الإمام السجاد، أي بعد حادثة عاشوراء، ووصولاً إلى آخرهم، كانوا ينهضون لأجل تهيئة الأرضية اللازمة لتصبح على المدى البعيد مستعدة لتحقيق هذا الهدف (الحكومة العلوية) . فعلى مدى الفترة الممتدة من حادثة عاشوراء إلى استلام الإمام الثامن (ع) ولاية العهد (140 سنة) كانت نشاطات أئمة اهل البيت والأحداث المتعلقة بهم دائماً من أخطر ما تواجهه أنظمة الخلافة المتعاقبة من خطر يهدد كيانها، وفي هذه المدة (140 سنة) تهيأت عدة فرص للتعبير عن أن جهاد التشيع ونضاله والذي يجب أن يطلق عليه اسم الثورة العلوية، اقترب من تحقيق انتصارات كبرى، لكن في كل مرة كانت تظهر موانع وعوائق تقف في طريق تحقيق الانتصار النهائي (إقامة الحكومة العلوية) ، بحيث أنه غالباً ما كانت تتلقى هذه الحركات ضربات قاسية ومميتة، وذلك من خلال الحصار والهجوم على المحور الأساسي والأصلي للثورة والذي يمثل شخص الإمام المعصوم (ع) .

فالإمام المعصوم في كل زمان غالباً ما كان يحاصر أو يزجّ به في السجن أو يقتل، وعندما يصل الدور إلى الإمام الذي يليه، كان يواجه جواً شديد القمع مليئاً بالضغوط والصعوبات إلى حد انه كان يحتاج إلى فترة طويلة لتهيئة الأرضية من جديد. والأئمة (ع) في هذا الخضم من المصاعب كانوا بفطنتهم وشجاعتهم يعبرون بالتشيع من هذه المحطات الصعبة والخطرة بسرعة وثبات، وبذلك لم يتمكن الخلفاء الأمويون والعباسيون من أن يقضوا على فكر الإمامة وتأثيره وفاعليته من خلال القضاء على شخص الإمام. فبقي هذا الفكر وهذا الجهاد جرحاً عميقاً في خاصرة النظام، ومصدر تهديد يسلب من هؤلاء الخلفاء الراحة، ولما استشهد الإمام موسى بن جعفر (ع) مسموماً بعد سنوات أمضاها في سجن هارون، ساد الجو من التوتر والضغط في جميع أرجاء السلطنة العباسية، وفي هذا الجو الضاغط يذكر أحد أصحاب الإمام علي بن موسى (ع) قائلاً: "في الوقت الذي كانت الدماء تقطر من سيف هارون كانت براعة الإمام المعصوم، حيث استطاع أن يحفظ ويصون شجرة التشيع من خطر الأحداث الجارفة، ويمنع تفرق أصحاب والده (ع) ويحافظ على حماستهم وروحيتهم"، وتمكن من خلال سلوك طريق التقية أن يحافظ على حياته التي كانت محوراً وروحاً لوحدة وتجمّع الشيعة، وكذلك استمرت المواجهات الأساسية والصلبة من قبل خط الإمامة رغم قوة ونفوذ الخلفاء العباسيين في تلك المرحلة التي نعم فيها النظام الحاكم بجو من الاستقرار والثبات النسبي، حيث كان الخليفة العباسي في تلك الفترة أقوى وأقدر من أسلافه، مع أن التاريخ لم يستطع أن يحدد لنا بشكل واضح حدود ومعالم تلك الفترة من العشر سنوات

لحياة الإمام الرضا (ع) في زمان هارون وما بعده من الخمس سنوات التي وقعت فيها حروب وتزاعات داخلية بين خراسان وبغداد ضمن السلطنة العباسية.

لكن عند التأمل والتدبر في تلك الفترة ندرك أن الإمام الثامن (ع) قام في تلك الفترة بنفس المواجهة الناظرة إلى المدى البعيد، والتي انتهجها أهل البيت في كل المراحل التي تلت حادثة عاشوراء ومضى للوصول إلى الأهداف نفسها. ولما فرغ المأمون في سنة 198هـ من حربه ضد أخيه الأمين واستولى على الخلافة من دون منازع، كان أول ما قام به وعمل عليه هو حل مشكلة العلويين وثورات التشيع، ولقد أخذ بعين الاعتبار تجارب أسلافة لتحقيق ذلك، وواقع هذه الحركة، والتي كانت تدل على صلابة هذه الثورة يوماً بعد يوم، وعلى عجز وضعف الأنظمة الحاكمة عن اقتلاع جذورها أو حتى تحجيمها وإيقافها عن التكامل والنمو.

فالمأمون رأى أن قوة نفوذ هارون وسطوته التي وصلت إلى حد أسر الإمام السابع وسجنه لتلك المدة الطويلة ومن ثم قتله بالسم، لم تُجد نفعاً ولم تمنع التحركات السياسية والعسكرية والإعلامية والفكرية لتيار التشيع، فكيف به إذا أراد أن ينتهج هذه الطريقة، وهو لم يكن يتمتع بما تمتع به أبوه! فهو، إضافة إلى الحروب الداخلية التي ابتلي بها بنو العباس وورث هو مخلفاتها وآثارها، كان يعاني من مشاكل كبرى تهدد السلطنة العباسية. ومن دون شك فقد كان من اللازم عليه أن ينظر بجدية إلى خطر ثورة العلويين، ولعل المأمون في تقييمه لخطر الشيعة على نظامه كان ينظر ببصيرة، لذا فهناك ظن كبير بأن الفترة الفاصلة والتي تقدر بخمسة عشر سنة، أي من بعد شهادة الإمام السابع حتى ذلك اليوم الذي جعلت فيه ولاية العهد للإمام الثامن (ع) ، بالأخص فرصة الخمس سنوات التي سادت فيها الحروب الداخلية، كان تيار التشيع أكثر جهوزية واقتداراً لرفع راية الحكومة العلوية. ولقد تنبه المأمون إلى هذا الوضع الخطر وهبّ لمواجهته من خلال ما كان يراه مناسباً بعد تقييمه لتجارب المواجهات السابقة ؛ فقام بدعوة الإمام الرضا (ع) إلى مدينة خراسان وعرض عليه عرضاً ملزماً بتسلم ولاية العهد، حيث لم يسبق في كل المراحل السابقة للإمامة أن حدث مثل هذا الأمر، وسنتحدث عنه بشيء من الاختصار، حيث إن ولاية العهد التي سُلمت للإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ع) والتي تعد تجربة تاريخية عظيمة كانت في حقيقة الأمر حرباً سياسية خفية بحيث كان الانتصار أو الهزيمة فيها يمكن أن يحدد مصير التشيع ؛ والطرف المقابل في هذه الحرب كان المأمون الذي تسلح بكل إمكاناته وقدراته.

فالمأمون بحنكته وتدبيره ودرايته للأمور التي لم يسبقه لها أحد من أقرانه فكر بأنه لو انتصر في هذه الحرب وتمكن من تحقيق مخططه إلى النهاية، لكان من المؤكد حقق الهدف الذي سعى وجهد الخلفاء الأمويون والعباسيون لتحقيقه من بعد شهادة علي بن أبي طالب (ع) ولم يتمكنوا من ذلك ؛ أي أنه كان استطاع أن يقتلع شجرة التشيع من جذورها، فهذا هو الهدف، ولكان استطاع أن يقلع تلك الشوكة التي كانت دائماً في عين الملوك الظالمين والطواغيت إلى الأبد، لكن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ع) وبالتدبير الإلهي استطاع أن يتغلب على المأمون الذي مُني بهزيمة نكراء، مع أنه هو الذي جهز نفسه وأعد العدة لهذه الحرب السياسية، وهو لم يفشل في أضعاف التشيع أو القضاء عليه فحسب، بل إن السنة التي تسنّم فيها الإمام ولاية الفقيه العهد (201هـ) كانت واحدة من أعظم البركات التاريخية على التشيع، حتى إنها نفخت روحاً جديدة في نضال وكفاح العلويين. وهذا كله كان من بركات التدبير الإلهي للإمام الثامن (ع) وأسلوبه الحكيم.

ولقد كان للمأمون اهداف أساسية من وراء دعوة الإمام إلى خراسان، أولها وأهمها تحويل ساحة المواجهات الثورية العنيفة للشيعة إلى ساحة التحرك السياسي الهادئ والذي لا يشكل خطراً، لأنه ـ وكما ذكرت ـ لم يكن الشيعة يعرفون التعب أو الملل في المواجهة ولم تكن ثورتهم لتقف عند حد. هذه المواجهات كان لها خاصيتين، الأولى: المظلومية، والثانية: القداسة، حيث كانتا تمثلان عنصر قوة يعتمد عليه الشيعة لإيصال الفكر الشيعي ـ الذي هو نفس شرح وبيان الإسلام من وجهة نظر أئمة أهل البيت (ع) ـ إلى عقل وقلب جمهورهم، بحيث ان كل شخص لديه أدنى استعداد كان إما أن يؤمن بهذا الفكر أو أنه يميل إليه. وبهذا الشكل صارت دائرة التشيع تزداد سعة وانتشاراً يوماً بعد يوم، وبنفس المظلومية والقداسة اللتين كانتا الداعم لحركات النهوض والتحرر من ظلم الخلافة.

كان المأمون يريد أن يواجه هذا الاستتار الشيعي العميق والمؤثر دفعة واحدة، فأراد أن يحيد الإمام من ساحة المواجهة الثورية وينقله إلى الميدان السياسي، وأن يقضي بهذه الوسيلة على فعالية الثورة الشيعية والتي كانت تتكامل يوماً بعد يوم بفعل العمل السري والمركز. وبهذه الطريقة يكون المأمون قد انتزع من الشيعة العلويين الخاصيتين: المظلومية والقداسة، اللتين تشكلان عامل نفوذ قوي لهم في الساحة ؛ وذلك لأن قائدهم ـ وهو الشخص العالي المقام عندهم ـ قد أصبح في صفوف جهاز الخلافة، فهو ولي العهد للملك المطلق العنان في التصرف في أمور البلاد ، إذن فهو لم يعد لا مظلوماً ولا مقدساً.

وهذا التكتيك الذي قام به المأمون كان يأمل بواسطته أن يحول الفكر الشيعي إلى فكر مشابه لبقية الأفكار والعقائد والتيارات التي لها مؤيدون في المجتمع، فيخفف من وهجه وإشراقه ويخرجه من كونه فكراً معارضاً للنظام الحاكم، وذلك لأن غالباً ما يكون مرفوضاً من الجهاز الحاكم ومخالفاً له يكون مرغوباً عند الناس المستضعفين ومورد اهتمامهم.

هذا هو الهدف الأول من وراء دعوة الإمام إلى خراسان ومن ثم تنصيبه لولاية العهد. أما الهدف الثاني فهو تخطئة الاعتقاد

الشيعي القائل بأن الخلافة قد غُصبت من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وإعطاء الشرعية لهذه الحكومات السابقة ؛ فالمأمون كان يرمي بتعيين الإمام ولياً للعهد إلى أن يثبت ـ وبالقوة ـ لكل الشيعة أن ادعاء هم بغصب الخلافة وعدم شرعية الخلفاء الحاكمين (هذا الادعاء الذي كان دائماً يعتبر من ضمن الأصول العقائدية للشيعة) بأنه كلام لا أساس له. وأنه قد نشأ نتيجة الضعف والإحساس بالاستحقار. فلو كانت الحكومات السابقة غير شرعية ومتسلطة فبالتالي خلافة المأمون الذي هو خليفة لأولئك السابقين غير شرعية وغاصبة أيضاً. فكيف يدخل علي بن موسى الرضا (ع) في صفوف هذا النظام الحاكم ويقبل بخلافة المأمون؟ فهذا يعني أنها قانونية وشرعية ويترتب على هذا أن تكون خلافة الحكام السابقين شرعية أيضاً وليست غاصبة. وهذا الأمر ينقض كل ادعاءات الشيعة، وبذلك لا يكون المأمون فقط قد حصل على الاعتراف بشرعية حكومته أسلافه. بل يكون قد قضى على أحد الأركان العقائدية للتشيع والذي يعتبر أساساً أن أصل الحكومات السابقة هو الظلم وغصب الخلافة. إضافة إلى نقض الفكرة السائدة والمعروفة عن زهد وعدم اهتمام الأئمة بزخارف الدنيا ومقاماتها، ويُظهر بأن الأئمة فقط في الظروف التي لا تصل فيها أيديهم إلى الدنيا ـ أي أنهم عندما يمنعون عنها ـ يلجأون إلى الزهد. بينما عندما تفتح أمامهم أبواب جنة الدنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعمون بالدنيا إن أقبلت عليهم.

والهدف الثالث للمأمون هو أن يجعل الإمام المعصوم الذي كان دوماً ركيزة المعارضة والمواجهة في جهازه الحاكم وكذلك بقية القادة والأبطال العلويين الذين يتبعون الإمام فيدخلون تحت سيطرة المأمون. وهذا النجاح لم يتمكن أحد على الإطلاق أن يتحققه لا من العباسيين ولا من الأمويين.

والهدف الرابع هو أن يجعل الإمام الذي يمتلك العنصر الشعبي ويعد قبلة الآمال ومرجع الناس في كل أسئلتها من ضمن صفوف أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد شيئاً فشيئاً الطابع الشعبي ويبني حاجزاً بينه وبين الناس حتى يضعف بالتالي الرابط العاطفي بينه بين الطبقة الشعبية.

الهدف الخامس للمأمون كان أن يكسب سمعة معنوية وصيتاً بالوقار والتقوى. فمن الطبيعي عندها أن يمدح الجميع ذلك الحاكم الذي اختار لولاية عهده ابن بنت النبي (ص) ، وهو شخص مقدس وذو مقام معنوي. وفي المقابل يحرم أخوته وأبنائه من هذا المنصب. والمعروف دائماً أن التقرب من الصالحين والمتدينين من قبل طلاب الدنيا يذهُب ماء وجه الصالحين ويزيد من ماء وجه اهل الدنيا.

الهدف السادس كان باعتقاد المأمون أن الإمام بتسلمه لولاية العهد ستحول إلى حامي ومرشد للنظام. فمن البديهي بأن شخصاً كالإمام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظير لها فهو في أعين الجميع من أبناء النبي (ص) ، وإذا قام بدور شرح وتبرير ما يقوم به جهاز الحكومة، فسوف يأمن النظام من أي صوت مخالف. وبذلك ايضاً لا يستطيع أحد أن ينكر شرعية تصرفات هذا النظام. فهذا الأمر كان عند المأمون حصانة ووقاية لحكمه. فمن خلال الإمام يستطيع أن يخفي كل أخطاء وعيوب نظامه وحكومته ولم يكن ليخطر ببال أحد سوى المأمون، هذا الدهاء السياسي والحنكة والمكر. حتى أن الأصدقاء والمقربين من المأمون لم يكن لديهم علم بأبعاد وجوانب هذه السياسة. ويظهر هذا الأمر من خلال بعض الوثائق التاريخية. حتى أن فضل بن سهل الوزير والقائد والذي هو من أقرب الأشخاص لجهاز الحكومة لم يكن يعلم حقيقة هذه السياسة. وذلك حتى لا تتعرض اهدافه في هذه الحركة الالتفافية إلى أن نكسة.

وحقاً يجب القول أن سياسة المأمون كانت تتمتع بتجربة وعمق لا نظير له. لكن الطرف الآخر الذي كان في ساحة الصراع مع المأمون هو الإمام علي بن موسى الرضا (ع) . وهو نفسه الذي كان يحول أعمال وخطط المأمون الذكية والممزوجة بالشيطنة إلى أعمال بدون فائدة ولا تأثير لها وإلى حركات صبيانية. بينما المأمون الذي بذل كل جهوده وتحمل المصاعب من اجل مشروعه هذا، لا أنه فقط لم يحقق أي شيء من الأهداف التي كان يسعى لها، بل أن سياسته التي اتبعها انقلبت عليه. فالسهم الذي كان يريد أن يرمي به مقام ومكانة وطروحات الإمام علي بن موسى الرضا (ع) أصاب المأمون بحيث أنه وبعد مضي فترة قصيرة أصبح مضطراً إلى أن يعتبر كل تدابيره وإجراءاته الماضية هباءاً منثوراً كأنّ شيئاً لم يكن منها.

وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الذي سلكه أسلافه من قبله وهو قتل الإمام. فالمأمون الذي قد سعى جاهداً لتكون صورته حسنة ومقدسة وليتصف بأنه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في الهوة التي قد سقط فيها كل الخلفاء السابقين له. أي انجر إلى الفساد والفحشاء ووسمت حياته بالظلم والقهر ويمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون خلال 15 عاماً بعد حادثة ولاة العهد تشكف ستار الخداع والتظاهر عند المأمون. فكان لديه قاضٍ للقضاة، فاسق وفاجر مثل يحيى بن الأكثم. وكان المأمون يحضر المغنيات أيضاً إلى قصره، وكان لديه مغنٍ خاص يدعى إبراهيم بن مهدي. وعاش مرفهاً مسرفاً حتى أن ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدارّ.

بعد هذا العرض لسياسة المأمون، نتعرض إلى السياسة والإجراءات التي قام بها الإمام علي بن موسى الرضا (ع) لمواجهة هذا الواقع... فعندما دعي الإمام لينتقل من المدينة إلى خراسان من قبل المأمون نشر في المدينة جواً يدل على انزعاجه وتضايقه من

هذه الخطوة بحيث أن كل شخص كان حول الإمام تيقن أن المأمون يضمر سوءاً للإمام من خلال ابعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكل الأساليب الممكنة، فقام بذلك عند توديع حرم النبي (ص) وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة، وبكلامه وسلوكه ودعائه وبكائه، كان واضحاً للجميع أن هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية حياته (ع) . وبناءً على ما كان يتصوره المأمون في أن يُنظر إليه نظرة حسنة، بينما يُنظر إلى الإمام الذي قبل بطلب المأمون نظرة سيئة، نرى أن قلوب الجميع ونتيجة لرد فعل الإمام الذي قام به في المدينة زادت حقداً على المأمون من اللحظة الأولى لسفر الإمام. فإمامهم العزيز (ع) قد أبعده المأمون عنهم بهذا الشكل الظالم ووجهه إلى مقتله... هذه الخطوة الأولى للإمام.

وعندما طرحت ولاية العهد على الإمام رفض الإمام هذا الطرح بشدة. ولقد انتشر في كل مكان رفض الإمام علي بن موسى الرضا (ع) لولاية العهد من قبل الخلافة، كما أن العاملين في الحكومة الذين لم يكونوا على علم بدقائق سياسة وتدابير المأمون قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام (ع) في كل مكان. حتى أن الفضل بن سهل صرح في جمع من العاملين في الحكومة أنه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلة، فالمأمون الذي هو أمير المؤمنين يقدم الخلافة أو لاية العهد لعلي بن موسى الرضا وهو يرفض ذلك. ولقد سعى الإمام (ع) في كل فرصة تتاح له أن يبين أنه مجبر على تسلم هذا المنصب (ولاية العهد) ودائماً كان يذكر أنه هُدد بالقتل حتى يقبل بولاية العهد. وكان من الطبيعي جداً أن يصير هذا الحديث الذي هو من أعجب الظواهر السياسية متناقلاً على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكل العالم الإسلامي في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أن شخصاً مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتى قتله لأجل أن يبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه على الرمح وطاف به من مدينة إلى مدينة. مثل هكذا شخص كان من الواضح أن أجبر الإمام الذي لم يكن مبالياً بولاية العهد.

على أن يقبل بها وإلا قتله. وعند المقارنة بين عمل المأمون والإمام المعصوم نرى أن كل ما جهد من أجل تحقيقه المأمون ووفر في سبيله كل ما لديه كانت نتيجته عكسية بالكامل. هذا هي الخطوة الثانية للإمام.

أما النقطة الثالثة في سياسته (ع) والتي واجه بها سياسة المأمون هي أنه مع كل الضغوطات والتهديدات التي مورست عليه، لم يقبل ولاية العهد إلا بشرط الموافقة على عدم تدخله في أي شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلح وعزل ونصب وتدبير وإشراف على الأمور. والمأمون الذي كان يعتقد أن هذا الشرط ممكن قبوله وتحمله في بداية الأمر. حيث يستطيع فيما بعد أن يجر الإمام إلى ساحة أعمال ونشاطات الحكومة. وافق على قبول شرط الإمام (ع) الذي ينص على عدم التدخل بأي شيء مهما كان. ومن الواضح أن قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه التي كان يرمي إلى تحقيقها من وراء هذه الخطوة (تسليم ولاية العهد للإمام) لم تتحقق من جراء موافقته على هذا الشرط. والإمام (ع) الذي كان يطلق عليه لقب ولي العهد ويتمتع بسبب موقعه من إمكانات جهاز الحكم كان دائماً يقدم نفسه على أنه مخالف وعلى خلاف معها. فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدى لأي مسؤولية ولا يقوم بأي عمل للسطلة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يقدم أي تبرير لأعمال النظام. لذا كان من الواضح أن هذا الشخص الذي يُعتبر عضواً في النظام الحاكم والذي أدخل إليه بالقوة وكان يتنحى عن كل المسؤوليات، لا يمكن أن يكون شخصاً محباً ومدافعاً عن هذا النظام. ولقد أدرك المأمون جيداً هذا الخلل والنقص. فحاول عدة مرات وباستخدام أكثر الحيل مكراً ليحمل الإمام على العمل خلافاً لما اشترطه سابقاً. فيجر بذلك الإمام إلى التدخل في إعمال الحكومة ويقضي أيضاً على سياسة الإمام المواجهة والرافضة. لكن الإمام كان في كل مرة يُحبط خطته بفطنته. وكنموذج على هذا الأمر يذكر معمر بن خلاد نقلاً عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) أن المأمون كان يقول للإمام أنه إذا أمكن أن تكتب شيئاً لأولئك الذين يسمعون كلامك ويطعنونك حتى يخففوا التوتر والأوضاع المضطربة في مناطق وجودهم، لكن الإمام (ع) رفض ذلك وذكره بشرطه السابق القاضي بعدم تدخله مطلقاً في أي من الأمور.

نموذج آخر مهم جداً وملفت وهو حادثة صلاة العيد حيث أن المأمون وبحجة أن الناس يعرفون قدر الإمام وقلوبهم تهفو حباً له . طب من الإمام أن يؤم الناس في صلاة العيد، رفض الإمام (ع) في البداية فكن بعد إصرار المأمون على طلبه وافق الإمام بشرط أن يخرج إلى الصلاة ويصلي بنفس طريقة النبي وعلي بن أبي طالب (ع) .

فلما استفاد الإمام من هذه المناسبة وانتهزها كفرصة جيدة لصالح مشروعه ندم المأمون الذي كان قد أصر على ذلك وأرجع الإمام من منتصف الطريق قبل أن يصلي، مضطراً بفعله هذا أن تتلقى سياسة نظامه المخادعة والمتملقة ضربة أخرى في صراعه مع الإمام (ع) .

النقطة الرابعة في سياسة الإمام (ع) ان استفادته الأساسية من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كل من ذكر، فبقبوله لولاية العهد استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمة (بعد انتهاء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سن 40 هجرية حتى آخر عهود الخلافة الإسلامية) ، ولقد تمثل ذلك بظهور ادعاء الإمامة الشيعية على مستوى كبير في عالم الإسلام وخرق ستار التقية الغليظ في ذاك الزمان، حيث تم إيصال نداء التشيع إلى كل المسلمين، فمنبر الخلافة العظيم الذي سمح للإمام باعتلائه مكنه من أن يحدث بما لم يكن يقال طوال فترة 150 سنة إلا إلى الخواص والأصحاب المقربين وذلك بالسر

والتقية، فخطب بالصوت العالي ليصل ذلك لجميع الناس، فاستفاد من هذه الفرصة ومن هذه الوسيلة (منبر الخلافة) التي لم تكن ميسرة في ذلك الزمان إلا للخلفاء أنفسهم أو المقربين من الدرجة الأولى. كذلك أيضاً مناظرات الإمام التي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون حيث بين أمتن الأدلة على مسألة الإمامة، وهناك أيضاً رسالة جوامع الشريعة التي كتبها الإمام للفضل بين سهل حيث ذكر فيها كل أمهات المطالب العقائدية والفقهية للتشيع، وأيضاً حديث الإمامة المعروف الذي قد ذكره الإمام في مرو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى كل ذلك القصائد الكثيرة التي نظمت في مدح الإمام بمناسبة تسليمه ولاية العهد وقسم منها مثل قصيدة دعبل وأبو نواس تعد من أهم القصائد المخلدة في الشعر العربي.

إن كل ما ذكرناه من الاستفادة الأساسية للإمام (ع) من مسألة قبوله بولاية العهد يدل على مدى النجاح العظيم الذي حققه الإمام في صراعه ضد سياسة المأمون. وفي خطبته التي ألقاها من علي منبر الحكومة أورد فضائل أهل البيت الذين ظلوا يشتمون علناً على المنابر لمدة 90 سنة. فلسنوات طويلة لم يكن شخص ليجرؤ على ذكر فضائلهم، فعاد في زمانه (ع) ذكر عظمة وفضائل أهل البيت في كل مكان، كما أن اصحابهم ازدادو جرأة وإقداماً من هذه الحادثة (ولاية العهد وخطبة الإمام الجريئة) وتعرف الأشخاص الذين كانوا يجهلون مقام أهل البيت (ع) عليهم وصاروا يحبونهم وأحس الأعداء الذين أخذو على عاتقهم محاربة أهل البيت بالضعف والهزيمة. فالمحدثون الشيعة أصبحوا ينشرون معارفهم ـ التي لم يكونوا ليجرؤوا قبلاً على ذكرها إلا في الخلوات ـ في حلقات دارسية كبيرة وفي المجامع العامة علناً.

النقطة الخامسة التي قام بها الإمام تظهر عندما رأى المأمون أنه من المفيد فصل الإمام عن الناس. فهذا الفصل والإبعاد هو في النهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنوية والعاطفية بين الإمام والناس. وهذا ما يريده المأمون... ولمواجهة هذه الخطوة لم يكن الإمام يترك أي فرصة تمكنه من الاتصال بالناس إلا يستفيد منها خلال تحركه ومسيره. مع أن المأمون كان قد حدد الطريق التي سيسلكها الإمام من المدينة وصولاً إلى مرو بحيث لا يمر على المدن المعروفة بحبها وولاءها لأهل البيت مثل قم والكوفة، لكن الإمام استفاد من كل فرصة في مسيره لإيجاد المودة ورابطة الحب بينه وبين أهل هذه المدن، فأظهر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفي البصرة التي لم يكن أهلها من محبي الإمام سابقاً جعلهم (ع) من محبيه ومريديه وفي نيشابور ذكر حديث السلسلة الذهبية ليبقى ذكرى خالدة، إضافة إلى ذلك الآيات والمعجزات التي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهداية وإرشاد الناس في سفره الطويل هذا. وعندما وصل إلى مرو التي هي مركز إقامة الخلافة كان (ع) كلما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم يسارع للحضور في جمع الناس. والإمام (ع) فضلاً عن أنه لم يحض ثوار التشيع على الهدوء أو الصلح مع جهاز الحكومة بل أن القرائن الموجودة تدل على أن الوضع الجديد للإمام المعصوم كان عاملاً محفزاً ومشجعاً لأولئك الذين أصبحوا بفعل حماية الإمام ومؤازرته لهم محل احترام وتقدير ليس فقط عند عامة الناس بل حتى عند العاملين وولاة الحكومة في مختلف المدن بعد أن كانوا ولفترات طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الصعبة والمناطق النائية البعيدة، فشخص مثل دعبل الخزاعي صاحب البيان الجريء لم يكن على الإطلاق يمدح أي خليفة أو وزير وأمير ولم يكن في خدمة الجهاز الحاكم، بل لم يسلم من هجائه ونقده أي شخص من حاشية الخلافة، وكان لأجل كل ذلك ملاحقاً دوماً من قبل الأجهزة الحكومية وظل لسنوات طوال مهاجراً ليس له موطن، فأصبح الآن يمكنه بوجود الإمام علي بن موسى الرضا أن يصل ويلتقي بمقتداه ومحبوبه بحرية، وأن يُوصل في فترة قصيرة شعره إلى كل أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهر وأبهى قصائده تلك التي تلاها للإمام (ع) حيث اشتهر بها، والتي تبين ادعاء الثورة الحسينية على الأنظمة الأموية الحاكمة.

حتى أنه وفي طريق عودته من عند الإمام سمع تلك القصيدة نفسها يرددها قطاع الطرق. وهذا يدل على الانتشار السريع لشعره.

والآن نعود لنلقي نظرة عامة على ساحة الصراع الخفي الذي بدأ المأمون بالإعداد له، ودخل فيه الإمام علي بن موسى الرضا للدوافع التي قد أشرنا إليها، والآن لنرى كيف كان الوضع بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد.

المأمون، وفي رسالة أمر تسليم الإمام ولاية العهد، وبعدة كلمات ومحطات كان قد مدح الإمام بالفضل والتقوى والإشارة إلى مقامه الرفيع والأصيل. بحيث أصبح الإمام خلال سنة بعد أن كان قسم من الناس لا يعرفون سوى اسمه (حتى ان مجموعة من الناس كانت قد ترعرعت على بغضه) يُعرف عند الناس بأنه شخصية تستحق التعظيم والإجلال واللياقة لاستلام الخلافة حيث أنه أكبر من الخليفة المأمون سناً وأغزر علماً وتقوى وأقرب إلى النبي (ص) وأعظم وأفضل وبعد مضي سنة لم يكن الوضع على أن المأمون لم يستطع أن يكسب ود ورضا الشيعة المعارضين بجلب الإمام إلى قربه فحسب، بل ان الإمام قد قام بدور أساسي في تقوية إيمان وعزيمة وروحية أولئك الشيعة الثائرين.

وعلى خلاف ما كان ينتظره المأمون، ففي المدينة ومكة وفي أهم الأقطار الإسلامية لم يقذف الإمام علي بن موسى الرضا (ع) بتهمة الحرص على الدنيا وحب الجاه والمنصب ولم يخبُ نجمه الساطع. بل على العكس من ذلك تماماً حيث ازداد احترام وتقدير مرتبته المعنوية لدرجة فتح الباب امام المادحين والشعراء بعد عشرات السنين ليذكروا فضل ومقام آبائه المعصومين المظلومين. وخلاصة ما نريد قوله أن المأمون في هذا الصراع فضلاً عن أنه لم يحصل على شيء فإنه فقد مكاسب كثيرة، وكان

على طريق خسارة ما تبقى لديه.

بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد، وأمام هذا الواقع الذي أشرنا إليه، شعر المأمون بالهزيمة والخسارة. ولكي يعوض عن هذه الهزيمة ويجبر أخطاء سياسته وجد نفسه مضطراً بعد أن أنفق كل ما لديه واستنفذ كل الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الذين لا يقبلون الصلح. أي أئمة أهل البيت (ع) ـ إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الذي لجأ إليه دوماً أسلافه الظالمون والغادرون، وهو اغتيال الإمام المعصوم. لكن كان من الواضح عند المأمون أن قتل الإمام الذي يتمتع بهذه الموقعية العالية والمرتبة الرفيعة ليس بالأمر السهل. والقرائن التاريخية تدل على أن المأمون قام بعدة إجراءات وأعمال قبل أن يصمم على قتل الإمام لعله من خلالها يسهل أمر قتل الإمام ويحد من خطورته وحساسيته. ولأجل ذلك لجأ إلى نشر الأقوال والأحاديث الكاذبة على لسان الإمام كواحدة من هذه التحضيرات. وهناك ظن كبير بأن نشر الشائعة التي تقول أن علي بن موسى الرضا (ع) يعتبر كل الناس عبيداً له بهذا الشكل المفاجئ في مرو، لم يكن ممكناً، لولا قيام عمال المأمون بنشر هذه الافتراءات. وحينما نقل أبو الصلت هذا الخبر للإمام قال (ع) ما معناه: لا الله يا خالق السموات والأرض أنت الشاهد على أنه لا أنا ولا أحد من آبائي قد قلنا مثل هذا. وهذا واحدة من المظالم التي تأتي إلينا من هؤلاء القوم.

إضافة إلى هذا الإجراء كان تشكيل مجالس المناظرات مع أي شخص عنده أقل أمل في أن يتفوق على الإمام واحدة من هذه الإجراءات التي مارسها المأمون. ولما كان الإمام (ع) يتفوق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافة البحوث كان يذيع صيته بالعالم والحجة القاطعة في كل مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكل متكلم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام لعل أحداً منهم يستطيع أن يغلب الإمام (ع) وكما تعلمون فإنه كلما كانت تكثر المناظرات وتطول كانت القدرة العلمية للإمام (ع) تزداد وضوحاً وجلاءاً. وفي النهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة. وحاول أن يتآمر لقتل الإمام كما تذكر الروايات من خلال حاشيته وخدم الخليفة، وفي أحدى المرات وضع الإمام في سجن سرخس (منطقة شمال شرق إيران) لكن هذا لم يكن نتيجته إلا إيمان الجلاوزة والسجانين انفسهم بالمقام المعنوي للإمام. وهنا لم يجد المأمون العاجز والغاضب أمامه في النهاية وسيلة إلا أن يسم الإمام وبنفسه من دون أن يكلف أي أحد وقام بذلك فعلاً.. ففي شهر صفر من سنة 202 هـ أي تقريباً بعد سنتين من خروج الإمام (ع) من المدينة إلى خراسان وبعد سنة أو أقل من تسلمه ولاية العهد قام المأمون بجريمته العظيمة التي لا تنسى وهي قتل الإمام (ع) .

إن ما ذكرناه من سيرة الأئمة هو مرور على إحدى المفاصل الأساسية للحياة السياسية للأئمة التي استمرت 250 عاماً وآمل أن ينهض المحققون والعلماء والباحثون في تاريخ القرون الأولى للإسلام بتنقيح وعرض ذلك أكثر. ومن المفيد أن تخصص الجامعة الرضوية الإسلامية التي تأسس اليوم ببركة الذكرى السنوية لولادة هذا الإمام العظيم علي بن موسى الرضا (ع) وتستضيء بأنوار فيوضات مرقده الطاهر والشريف، قسماً من جهودها وعملها في سبيل الإضاءة على هذا التاريخ المليء بالعبر والدروس، وأن توضح وترسم صورة لجيل اليوم والغد في العالم الإسلامي عن هذا التاريخ السياسي لحياة الأئمة مع التركيز على عامل الجهاد والمواجهة فهو المحور الأساسي لهذا التاريخ.

عنصر الجهاد في حياة الأئمة (ع)

بحث لسماحة ولي أمر المسلمين (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأشكره، ففي هذا الجمع المبارك تتحق إحدى الأمنيات القديمة المنسية وهي ذكر أهل البيت (ع) .

إن غربة الأئمة (ع) لم تقتصر على الفترة الزمنية التي عاشوها في حياتهم، وإنّها استمرت ولعصور متمادية من بعدهم، والسبب في ذلك يرجع الى إهمال الجوانب المهمة، بل والأساسية من حياتهم.

من المؤكد أن هناك كتباً ومؤلفات كثيرة قد حَظِيت بمكانة رفيعة وقديرة، وذلك لما حملته بين طياتها من روايات تصف حال الأئمة (ع) ، ولما نقلته للأجيال المتعاقبة من أخبار تصف سيرتهم، ولكن عنصر المواجهة والجهاد المرير والذي يمثل الخط الممتد للأئمة (ع) طوال 250 سنة من حياتهم كان قليل الذكر في هذه الروايات التي تضمنت فقط عناوين أخرى كالجوانب العلمية أو المعنوية من سيرتهم.

يجب علينا أن ننظر إلى حياة الأئمة (ع) كأسوة وقدوة نقتدي بها في حياتنا لا كمجرد ذكريات قيمة وعظيمة حدثت في التاريخ. وهذا لا يتحقق إلا بالاهتمام والتركيز على المنهج والأسلوب السياسي من سيرة هؤلاء العظماء (ع) .

أنا شخصياً عندي رغبة شديدة للاطلاع على هذا الجانب المهم من حياتهم، وأول مرة شعرت بأهمية هذه المسألة كان عام 1350هـ. ش (1971م) وهي مراحل المحنة التي سبقت الثورة. ومع أنني قبل تلك الفترة كنت أنظر إلى الأئمة (ع) بعنوان أنهم شخصيات مجاهدة ومكافحة لإعلاء كلمة التوحيد وإقامة الحكومة الإلهية، إلا أنّ النقطة المهمة التي وصلت إليها في تلك الفترة هي أنه وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري بين سيرهم (ع) (حتى إن البعض ليشعر بالاختلاف الشاسع والتناقض فيها) ، إلا أنها عبارة عن مسيرة واحدة وحياة واحدة استمرت 250 سنة ابتداءً من سنة 11هـ إلى 260هـ ؛ أي انتهت عام الغيبة الصغرى للإمام الحجة (عج) .

إذن فالأئمة عليهم السلام جميعهم عبارة عن شخصية واحدة لها هدف واحد، ولذلك فإننا وبدل أن ندرس حياة كل من الإمام الحسن (ع) والحسين (ع) والسجاد (ع) بصورة منفصلة عن الأخرى، أو حتى لا نقع في خطأ ما اعتقده الآخرون بوجود عنصر التناقض بين حياتهم (ع) ، فلندرس ذلك بصورة شمولية. فمن هذا المنظار تصبح كل حركات هذا الانسان العظيم المعصوم قابلة للفهم والإدراك.

إن أي إنسان يملك نوعاً من العقل والحكمة، ولا نقول يملك نوعاً من العصمة، تكون له خطط واختيارات موضوعية خاصة خلال حركته الطويلة المتتابعة. وقد يجد هذا الإنسان أنه من الضروري أن يُسرع في حركته مثلاً وأحياناً أخرى يُبطئ فيها، وحتى من الممكن أن يتراجع تراجعاً حكيماً في مواضع أخرى. والإنسان العاقل والحكيم والعارف سيرى ـ بالنظر لهدف هذا الإنسان ـ في هذا التراجع، حركة نحو الأمام وتقدماً.

من هذا المنظار تعتبر حركة الإمام أمير المؤمنين (ع) والإمام والمجتبى (ع) والإمام الحسين (ع) والأئمة الثمانية المعصومين (ع) من ولدهم حركة واحدة ومستمرة. فأنا ومن تلك السنة توصلت الى هذه الحقيقة التي ذكرتها، وبهذه النظرة نظرت إلى حياتهم (ع) ، وكلما تقدمت في مسيرتي هذه تأكدت عندي هذه النظرة والعقيدة.

وطبعاً لا يمكن أن نوسع الكلام في هذا الباب خلال هذا اللقاء القصير، ولكن يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن حياة هؤلاء المعصومين من عظماء آل الرسول (ص) هي حياة ذات طابع سياسي، ويجب أن يُخصص لهذا الجانب دراسة خاصة. وأنا اليوم سأتطرق إلى هذا الجانب من خلال بحثنا هذا.

لقد تحدثت السنة الماضية عن نضال الإمام الرضا (ع) ، وأود اليوم أن أبين هذا الموضوع بالتفصيل ؛ أولاً ماذا نقصد عندما ننسب المواجهة السياسية أو النضال السياسي للأئمة (ع) ؟ إن المقصود من هذا الكلام أن جهاد الأئمة (ع) لم يكن جهاداً علمياً من قبيل النزاعات التي تدور بين الكلاميين والتي نشاهدها عبر التاريخ، مثل النزاع بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلم يكن

هدف الأئمة (ع) من اجتماعاتهم العلمية وحلقات دروسهم والأحاديث نقل المعارف الإسلامية والأحكام فقط حتى يثبتوا مدرستهم الكلامية الفقهية، بل كان هدفهم يفوق هذا. وأيضاً لم تكن مواجهتهم مواجهة مسلحة كما كان في عهد زيد والذين جاؤوا من بعده أو كما كان في عهد بني الحسن وبعض آل جعفر وغيرهم من الذين عاصروا الأئمة (ع) . وأريد أن أشير إلى هذا موضوع الذي سأتطرق إليه بصورة مفصلة فيما بعد وهو أن الأئمة (ع) لم يستنكروا مواقف هؤلاء أو يحكموا على مثل هذه الحركات بالخطأ بصورة مطلقة، وحكمهم على البعض منها بالخطأ لم يكن بداعي كونها حركات مسلحة، بل لأسباب أخرى مختلفة. فنجد مواقف الأئمة (ع) أحياناً أخرى مؤيدة لهذه الحركات، بل وحتى قد اشتركوا في بعضها بصورة غير مباشرة عن طريق المساعدات التي كانوا يقدمونها للثورة. ومن الجدير الالتفات إلى حديث الإمام الصادق (ع) الذي يقول "لوددت أن الخارجي يخرج من آل محمد (ص) وعليَّ نفقة عياله".. إلا أن الأئمة (ع) لم يخوضوا مثل هذا الثورات المسلحة ولم يشتركوا فيها بشكل مباشر.

إن مواجهة الأئمة (ع) كانت مواجهة ذات هدف سياسي ؛ فما هو هذا الهدف إذن؟ الهدف هو عبارة عن تشكيل حكومة إسلامية، وبحسب تعبيرنا حكومة علوية. فكان سعي الأئمة (ع) ومنذ وفاة الرسول (ص) وحتى عام 260هـ هو إيجاد وتأسيس حكومة إلهية في المجتمع. ولا نستطيع أن نقول إن كل إمام كان بصدد تأسيس حكومة في زمانه وعصره، ولكن هدف كل إمام كان يتضمن تأسيس حكومة إسلامية مستقبلية، وقد يكون المستقبل البعيد أو القريب ؛ فمثلاً كان هدف الإمام المجتبى (ع) تأسيس حكومة إسلامية لمستقبل قريب، فقوله (ع) : "ما ندري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين" في جوابه للمسيب ابن نجيه ولآخرين عندما سألوه عن سبب سكوته هو خير دليل وإشارة إلى هذا المستقبل. وأما الإمام السجاد (ع) ، وحسب اعتقادي، كان يهدف لتأسيس الحكومة الإسلامية في المستقبل الآتي من بعده ؛ وفي هذا المجال لدينا شواهد سنذكرها فيما بعد. أما الإمام الباقر (ع) فقد سعى من أجل تأسيس حكومة إسلامية لمستقبل قريب منه، وفيما بعد الإمام الثامن (ع) كان كل إمام يهدف من تحركاته تأسيس الحكومة على المدى البعيد.

إذن هدف تأسيس الحكومة كان دائماً نصب أعين الأئمة (ع) ، لكن الزمن المنشود لتأسيسها وقيامها يختلف من إمام إلى آخر. إن كل الأعمال التي كان يقوم بها الأئمة (ع) ، بغض النظر عن الأمور المعنوية والروحية التي تهدف إلى تكامل ورقي النفس الإنسانية وقربها الى الله تعالى، كانت أعمالاً تهدف إلى تأسيس هذه الحكومة الإسلامية، فنشاطاتهم في نشر العلم والمناظرات التي كانوا يقومون بها ضد خصومهم في العلم والسياسة ومواقفهم إلى جانب جماعة ووقوفهم في وجه أخرى كلها تصب في هذا المجال، وهو تأسيس الحكومة الإسلامية.

إذن فنحن ندعي أن كل هذه الأمور كانت تأخذ منحى واحداً وتهدف إلى تأسيس الحكومة الإسلامية. وأقول ندعي لأنه، وكما قال السيد الطبسي، قد اختلف العلماء وسيختلفون في تفسيرهم لمواقف الأئمة (ع) . وأنا شخصياً لا أصر على صحة اعتقادي واستنباطي للأمور، ولكن أصر على أن هذه المواقف هي محطة يجب أن نتوقف عندها ونبدأ منها لنستطيع أن نراجع تاريخ حياة الأئمة (ع) .

خلال السنين الأخيرة سعينا للوصول إلى إدراك مدى علاقة هذا الموضوع (تأسيس الحكومة الإسلامية) بالأئمة (ع) ومدى ارتباطه بكل إمام منهم، محاولين الاعتماد في ذلك على أدلة منسدة، إضافة إلى أن هناك أدلة تعتبر أدلة كلية وعامة. فمثلاً ان إمامة الأمة هي النبوة، وأن النبي (ص) كان إماماً للأمة... ألخ كما جاء في حديث الإمام الصادق (ع) .

إذن فالرسول (ص) نهض من أجل تأسيس حكومة حقة حيث بُني النظام الإسلامي وتأسس آنذاك نتيجة نضال وجهاد الرسول (ص) . ومن بعدها جاهد الرسول (ص) أيضاً من أجل الحفاظ على هذا النظام واستمراره، ولا يُعقل أن يغفل الإمام الذي يأتي من أجل متابعة مسيرة الرسول (ص) عن مثل هذا الموضوع المهم. إذن فهذا دليل عام. وبالطبع فإن البحث الواسع والالتفات إلى النواحي المختلفة لهذا الدليل يجعلنا نفهمه أكثر، كذلك لدينا أدلة صادرة ونابعة من كلامهم (ع) أو مستنبطة من حياتهم العملية، إضافة إلى الظروف والأوضاع التي كانت حينها والتي تستطيع أن تبين لنا مواقف الأئمة، كأن نفهم ما تقصده هذه العبارات "السلام على المعذب في قعر السجون وظلم المطامير ذي الساق المرضوض بحلق القيود".

حول هذا الاتجاه سنتكلم اليوم، كما أريد أن أطرح بعض الاستنتاجات وما أفهمه في خصوص هذا الموضوع خلال اجتماعنا هذا.

إن المطلع على تاريخ الحركة العباسية في الفترة الزمنية من 100هـ إلى 132هـ ش بداية الحكم العباسي لربما يشبّه الحركة الجهادية والسياسية للأئمة (ع) بمثل الحركة التي قام بها بنو العباس، ولكننا نقول إن هذا التشبيه غير دقيق، لأنه ربما تشابه شكل الجهاد وخطته، لكن توجد فوارق جوهرية بين الحركتين: مثلاً هدف ومنهج بني العباس يختلف جوهرياً عن هدف ومنهج الأئمة (ع) ، وكذلك الاختلاف الجوهري يُلاحظ في الشخصيات المجاهدة، فنجد بني العباس تقارب دعوتهم وإعلامهم واعمالهم دعوة وإعلام آل علي (ع) ، فنجدهم يوحون في أعمالهم في بعض المناطق كالعراق والحجاز أنهم على خط آل علي (ع) فمثلاً

نسبوا سبب ارتدائهم السواد الذي اتخذوه شعاراً في بداية دعوتهم في خراسان إلى الحزن على آل علي (ع) وما جرى في كربلاء وعلى زيد ويحيى، حيث كانوا يقولون "هذا السواد حداد آل محمد (ص) وشهداء كربلاء وزيد ويحيى". وحيث كان يخيل للبعض وحتى لرؤسائهم أنهم يعملون لآل علي (ع) ، إلا أن الواقع لم يكن كذلك. إذن هناك ثلاثة فروق رئيسية بين الحركتين وهي: اختلاف الهدف واختلاف الوسيلة واختلاف الأشخاص.

الآن سوف أتطرق إلى الشكل العام لجهاد ونضال الأئمة (ع) ، ومن ثم أشير إلى أبرز الجوانب الجهادية في حياتهم (ع) ، إلا أن هذه الجوانب سأطوي الحديث عنها عند كل من الإمام علي (ع) والإمام الحسن (ع) والإمام الحسين (ع) ، لأنه جرت بحوث عديدة ووافية في هذا المجال ولا أعتقد بأن هناك أية شبهة تحيط هذا المجال في حياتهم.

سوف نبدأ حديثنا من زمن الإمام السجاد (ع) إلى عصر غيبة الإمام المهدي (عج) وهي الفترة التي تمتد من (61) هـ إلى (260هـ) ، يعني خلال مئتي سنة. هذه الفترة الزمنية تتضمن ثلاثة مراحل:

1 ـ المرحلة الأولى: من سنة 61هـ إلى سنة 135هـ (بداية حكم المنصور العباسي) : مع بداية هذه الفترة الزمنية تبدأ الحركة الجهادية من نقطة ثم تأخذ عمقاً وشمولاً لتصل إلى أوجها في سنة 135هـ، وهي السنة التي مات فيها السفاح واستلم الخلافة المنصور العباسي، حيث تغير الوضع وظهرت بعض المشاكل التي أدت إلى الحد من التطورات التي كانت آخذة في مسيرتها آنذاك. وقد شاهدنا مثل هذه الأمور والظروف خلال قيامنا وثورتنا وجهادنا.

2 ـ المرحلة الثانية: تبدأ من سنة 135هـ إلى سنة 203هـ أو إلى 202هـ أي سنة شهادة الإمام الرضا (ع) ؛ ففي هذه المرحلة وصلت المواجهة الجهادية إلى مرحلة أعمق وأوسع مما كانت عليه في سنة 61هـ. ولكنها تبدأ بمشكلات جديدة وتتوسع حتى تصل إلى أوجها متقدمة خطوات تجاه مرحلة النصر، حتى سنة شهادة الإمام الرضا (ع) حيث عادت لتتوقف عندها.

3 ـ المرحلة الثالثة: تبدأ من سنة 204هـ إلى سنة 260هـ السنة التي استشهد فيها الإمام العسكري (ع) وبدأت الغيبة الصغرى.. تبدأ المرحلة الثالثة بذهاب المأمون إلى بغداد سنة 204هـ،وفي بداية خلافته يبدأ فصل جديد في حياة الأئمة (ع) ، ويبدأ عصر المحنة للأئمة (ع) . ومع أن التشيع كان في وضع أفضل مما كان عليه في السابق، فقد أخذت مشكلات الأئمة تتفاقم وتتسع. وبرأيي ان هذه الفترة هي الفترة التي كان الجهاد والمواجهة فيها من أجل تأسيس حكومة إسلامية على المدى البعيد ؛ يعني أن الأئمة (ع) لم يكن جهادهم من أجل عصر ما قبل الغيبة وإنما إلى ما بعد الغيبة.

إن لكل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة مميزاتها الخاصة وأذكرها بصورة مختصرة:

1 ـ المرحلة الأولى وهي مرحلة الإمام السجاد (ع) والإمام الباقر (ع) وقسم من عصر الإمام الصادق (ع) ؛ فبداية هذه المرحلة كانت مؤلمة جداً حيث جرت حادثة كربلاء، التي لم تهز كيان الشيعة فقط وإنما هزت الأمة الإسلامية بأجمعها. ومع أن القتل والأسر والتعذيب كان شائعاً آنذاك ولكن قتل أولاد الرسول (ص) وأسر العائلة النبوية ووضع رؤوس آل محمد (ص) على الرماح والاستهانة بمن كان الرسول (ص) يقبل ثناياه، كل هذا قد زلزل العالم الإسلامي وأدهشه. فلم يكن أحد يتوقع أن الأمر سوف يصل إلى هذه المرحلة. ولا أدري مدى صحة الشعر المنسوب للسيدة زينب (ع) :

ما توهمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدراً مكتوباً

فهذا البيت يشير بلا شك إلى أن هذا الحدث كان غير متوقع آنذاك. فلهذا أخذ الهول والفزع ينتاب الأمة الإسلامية حيث شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقعه وتظنه من التنكيل والتعذيب.. لذا انتشر الخوف في كافة المناطق الإسلامية إلا الكوفة (وهذا بفضل التوابين والمختار وثورتهم) . أما المدينة وحتى مكة المكرمة فعاشت حالة الخوف هذه بسبب حادثة كربلاء المفجعة، وعلى الرغم من قيام ثورة عبد الله بن الزبير في مكة، فقد ظل الخوف يهدد هذه المدينة.

وأيضاً في الكوفة، وبالرغم من قيام التوابين في سنة 64و 65هـ (حيث كانت شهادة التوابين سنة 65هـ) وما أوجدته من جو "جديد" في البلاد، فإن ذلك لم يدم طويلاً حتى عاد الخوف ثانية بعدما استشهد كل التوابين حتى آخر شخص منهم.

بعد ذلك قاتل أعداء النظام الأموي بعضهم بعضاً ؛ فهذا المختار حارب مصعب بن الزبير ولم يستطع عبد الله بن الزبير أن يتحمل المختار الموالي لأهل البيت (ع) في الكوفة ولذلك قتِل المختار على يد مصعب! ومرة أخرى عم الرعب والفزع وخابت الآمال عند الناس. وعندها جاء عبد الملك بن مروان وتسلم سدة الحكم وبعد مدة قصيرة أصبح تمام العالم الإسلامي تحت سيطرة بني أمية وبقي عبد الملك بن مروان متسلطاً وفارضاً سلطته لمدة 21سنة. وهنا من الضروري الإشارة إلى واقعة (الحرة) التي جرت في سنة 64هـ وهي السنة التي هجم فيها مسلم بن عقبة على المدينة، مما أدى إلى زيادة الخوف والرعب في المدينة. واشتدت الغربة على أهل البيت (ع) آنذاك والحادثة هي كما يلي:

في سنة 62هـ عين يزيد أحد قواد الجيش الشباب حاكماً على المدينة، وكان شاباً فاقداً للتجربة، وقد دعا بعضاً من أهل المدينة لزيارة يزيد لعله يستطيع أن يحسن علاقتهم به (يزيد) . وهيأ يزيد جوائز تناهز الـ 50 ألف و 100 ألف درهم وأعطاها لهم. ولكن هؤلاء، وحيث كان من بينهم الصحابة، وأبناء الصحابة عندما شاهدوا جاه ومقام يزيد اشتد استياؤهم وغضبهم،

وعندما رجعوا إلى المدينة أعلن ابن عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) فصل المدينة عن الحكومة المركزية آنذاك. فأرسل يزيد مسلم بن عقبة لمعالجة الوضع، فحصلت الكارثة العظيمة، والتي تحدثت عنها كتب التاريخ وخصصت لها فصول تحكي الحوادث الدامية والكوارث المؤلمة التي حدثت آنذاك. هذه الحادثة أدت إلى زيادة الرعب والفزع بين الناس.

والعامل الثاني الذي زاد الرعب والفزع المنتشرين هو الانحطاط الفكري الذي كان يعم الناس في العالم الإسلامي، وهذا كان نتيجة للابتعاد عن التعاليم الدينية خلال عشرين سنة. ولشدة ضعف التعالم الدينية والإيمان والابتعاد عن الحقائق وتفسير القرآن عن لسان الرسول (ص) خلال العشرين سنة التي تلت عام 40 هـ ضعُف أساس الإيمان عند الناس وعم الخواء العقائدي في نفوسهم. فإذا وضع الإنسان حياة الناس في تلك الفترة تحت المجهر يجد ما ذكرناه واضحاً ويجده أيضاً من خلال قراءة التاريخ والروايات العديدة.

طبعاً كان للمجتمع آنذاك علماء وقرّاء ومحدثون، وسنذكر ما يتعلق بهم فيما بعد، ولكن عامة الناس كانوا يعانون من الاختلال العقائدي والضعف الإيماني، وقد وصل الوضع إلى أن بعض وجوه الخلافة قد ضعفوا من منزلة النبوة. وقد ذكر في الكتب أن خالد بن عبد الله القسري أحد علماء بني أمية كان يفضل الخلافة على النبوة حيث كان يقول: ان الخلافة أرفع من النبوة! وكان يستدل بقوله: "أيهما أفضل خليفة الرجل في أهله أو رسوله ألى أصحابه؟ وهل خليفتكم بين أهلكم أقرب إليكم أو رسولكم إليهم؟ طبعاً إن خليفتكم أقرب إليكم من الرسول. إذن خليفة الله أرفع من الرسول"! حيث كان يقول خليفة الله ولم يقل خليفة رسول الله.

وأيضاً إذا لاحظنا شعر شعراء الفترة الأموية وبني العباس نجد أنه ومن عهد خلافة عبد الملك استُعملت كلمة خليفة الله، حيث كرِرَت في الأشعار آنذاك، بحيث قد ينسى الإنسان أن هناك خليفة لرسول (ص) . واستمر استعمال وذكر هذا اللفظ إلى زمان بني العباس، وقد هجا الشاعر بن برد يعقوب بن داود والمنصور بهذا التعبير:

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرق والعبد

فنلاحظ أنهم عندما يريدون هجاء الخليفة يقولون خليفة الله. وقد تكرر هذا اللفظ في أشعار عدد من الشعراء المعروفين مثل الجرير والفرزدق ونصيب، والمئات من عظماء شعراء ذاك الزمان، حيث كانوا يذكرون كلمة خليفة الله في مدائحهم للخلفاء آنذاك.

هذا نموذج من بعض العقائد التي كانت لدى الناس ومستوى إيمانهم، ولم يضعف أساس الإيمان في نفوسهم وحسب، بل انهارت عندهم القيم الأخلاقية. ومن خلال مطالعتي لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وجدت أنه وفي حدود سنة 80 ـ 90هـ وإلى ما بعد 50 ـ 60سنة كان أعظم المطربين والعازفين والمترفين وعبيد الدنيا يتواجدون في مكة والمدينة، وكلما رغب الخليفة في الشام بسماع الغناء والعزف أو طلب مغنياً أو عازفاً يبعثون له بهم من مكة والمدينة، حيث كان مركز الغناء والطرب! فأسوأ أنواع الشعر وأكثره مجوناً كان في هاتين المدينتين اللتين كانتا مهبط الوحي ومسقط رأس الإسلام، واللتان تحولتا إلى مركز للفساد والمجون!

ومن المفيد أن نعرف هذه الحقائق المؤلمة والمرة لأن التاريخ والكتب التاريخية المتوفرة بين أيدينا فاقدة لمثل هذه الأخبار والحقائق.

لقد كان في مكة شاعر معروف بعمر بن أبي ربيعة، حيث كان يعتبر من شعراء الشعر الخلاعي الفارغ، حيث شهد التاريخ وشهدت المشاهد المقدسة كالطواف ورمي الجمرات وغيرها من المشاهد الأخرى عبثه ودناءته في الشعر حيث قال مرة:

بدا لي منها معصم حيث جمّرت وكفّ خضيب زُينت ببنان

فوالله ما أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمان

فالمعنى يبين تلك الأوضاع. وعندما مات عمر بن أبي ربيعة يُروى أنه عم العزاء في المدينة وكان الناس يبكون في أزقة المدينة وشوارعها، وأينما ذهبت تجد مجموعة من الشباب يبكون تأسفاً عليه. ويقول الراوي رأيت جارية ماضية في طلب حاجة وفي طريقها كانت تسكب الدموع من عينيها، حتى وصلت إلى مجموعة من الشباب سألوها عن سبب بكائها وذرفها للدموع، أجابت أبكي لأننا فقدنا عمر بن أبي ربيعة. فقال أحد الشباب اهدأي ولا تحزني، يُقال إن هناك شاعر آخر في مكة وهو الحارث بن خالد المخزومي يقول الشعر ويرويه مثل عمر بن أبي ربيعة وقرأ لها أحد أشعاره، وعندما سمعت الجارية بهذا الخبر مسحت دموعها وقالت "الحمد الله الذي لم يخل حرمه"! فهذا كان الوضع الأخلاقي في المدينة، حيث تسمعون الكثير من هذه القصص.

سهرات مكة والمدينة لم تقتصر على الطبقة الفاسدة في المجتمع، بل كانت تعم كل الناس كالجائع والفقير والمسكين مثل "أشعب" هذا الشاعر والمهرج المعروف وغيره من عامة الناس وساداتهم من قريش، وهذه الظاهرة عمت أيضاً بني هاشم ولا أحب أن أذكر أسماءهم.. إذن وجهاء قريش من الرجال والنساء غرقوا في الفحشاء الذي عم آنذاك.

يروى أن الحارث بن خالد كان يعشق عائشة بنت طلحة، ففي زمن إمارة الحارث كانت عائشة بنت طلحة في حالة طواف بيت الله الحرام وحان وقت الأذان فأمرت هذه المرأة أن لا يؤذن المؤذن إلا بعد انتهائها من الطواف، فأمر الحارث بتأخير وقت الأذان،

فاعترض الناس وانتقدوا الحارث لتأخيره وقت الصلاة لأجل شخص واحد فقال مجيباً: "فوالله لو طال طوافها إلى صباح الغد لأمرت بتأخير الأذان حتى الصباح"! هكذا كان وضع الفساد الفكري والأخلاقي السائد بين الناس.

العامل الآخر هو الفساد السياسي. فما ذكرنا كان وضع كبار الشخصيات الذين تشبثوا بفضلات الحياة المادية لرجال الحكومة آنذاك، وأمثال هؤلاء محمد بن شهاب الزهري ؛ فهذه الشخصية كانت تعتبر من العظماء ومن تلامذة الإمام السجاد (ع) فالإمام (ع) ، استطاع أن يفضح حقيقة هؤلاء من خلال رسالة كتبها لتكون حجة للتاريخ وتبين العلائق المادية التي كانوا يتمسكون بها.

وهناك الكثير من أمثال محمد بن شهاب، حيث نقل العلامة المجلسي عن بن أبي الحديد ما يثير ويهز المشاعر ؛ فقد نقل في البحار عن جابر أن الإمام السجاد (ع) قال: "ما تدري كيف نثق بالناس، إن حدثناهم بما سمعنا من رسول الله (ص) ضحكوا (فإنهم لا يكتفون بالرفض وإنما يضحكون استهزاءً) وإن سكتنا لا يسعنا". ومن ثم يذكر ابن أبي الحديد أسماء عدد من الشخصيات ورجال ذلك الزمان من الذين كانوا من أتباع أهل البيت (ع) ثم انحرفوا فيما بعد، وبعدها ينقل رواية عن الإمام السجاد (ع) : "ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبوننا"! هكذا كان الوضع في زمان الإمام السجاد (ع) .

وفي ظل هذه الظروف بدأ الإمام (ع) بعمله وبتحقيق هدفه العظيم، وهو ذات الوقت الذي أشار فيه الإمام الصادق (ع) قائلاً: "ارتد الناس بعد الحسين (ع) إلا ثلاثة، وهم: أبو خالد الكابلي ويحيى ابن أم طويل وجبير بن مطعم".

في ظل ذاك الوضع وعلى هذه الأرض الصحراوية بدأ الإمام السجاد (ع) بعمله. فماذا يجب على الإمام السجاد (ع) فعله ليحقق هدفه؟ كانت تقع على عاتق الإمام السجاد ثلاث مسؤوليات:

أولاً: يجب على الإمام (ع) أن يُعرف الناس على العلوم والمعارف الإسلامية التي لا يمكن بدونها أن نقيم حكومة إسلامية ؛ فعندما نعمل على تعريف الناس على المعارف الدينية يصح أن نأمل بإقامة مثل تلك الحكومة.

ثانياً: ان مسألة الإمامة كانت قد ابتعدت عن أذهان الناس، لذا كان من الضروري توضيحها لهم لتقبلها أذهانهم. فماذا تعني الإمامة؟ وما هي شروط الإمامة؟ إن توضيح هذا الأمر ضروري لأن الناس آنذاك كانوا يرون في عبد الملك بن مروان إماماً، حيث كان زعيم المجتمع.

وسأذكر لاحقاً وفي بحث (الإمام) أن استنباطنا وفهمنا لمعنى الإمام خلال القرون الأخيرة يختلف تماماً عن معنى ومفهوم الإمام الذي كان سائداً في صدر الإسلام وكما هو سائد الآن في ظل الجمهورية الاسلامية في إيران ؛ ففي ذلك الزمان (صدر الإسلام) كان كلا الموافقين والمخالفين للأئمة (ع) يقولون في الإمام أنه قائد الأمة، يعني حاكم الدين والدنيا، بينما لم يُفهم موقع الإمام كذلك خلال القرون الثلاثة الأخيرة، فقد كان حينها للجمتمع وللأمة فرد مسؤول عن جباية الأموال والحروب وتأمين الاستقرار وإدارة أمور الشعب ودوائر ومؤسسات الدولة، وهو الذي يشكل الحكومة ويدعى بالحاكم، وأيضاً لها (أي للأمة) شخص آخر يحل ويفصل في أمور الناس الدينية ويصحح عقائد الشعب ويعلمهم دينهم وصلاتهم وغيرها من قبيل هذه الأمور، وهو ما يسمى بالعالِم، وأصبح الإمام بمثابة العالم في المراحل القريبة. فالخليفة هو الذي يفصل بين الناس، والإمام هو الذي يصلح دينهم وأخلاقهم.. هكذا كان فهم الإمامة خلال القرون الأخيرة. ولكن هذا المعنى كان يختلف عن معناه خلال فترة صدر الإسلام ؛ فكان الإمام يعني قائد الأمة وزعيمها الديني والدنيوي، فبنو أمية ادعوا هذا المنصب وكذلك من بعدهم بنو العباس، حيث كانوا يدعون أن الإمامة لهم.

إذن فالأمة وفي زمن الإمام السجاد (ع) كان لها إمام وهو عبد الملك بن مروان، لذلك كان على الإمام السجاد (ع) آنذاك أن يُبين للناس معنى الإمامة وشروطها وجهتها، وما هي الأمور المفروض توفرها في الإمام، وما هي الأمور التي بفقدانها لا يمكن أن يكون الشخص إماماً.

ثالثاً: الذي يجب أن يفعله الإمام (ع) هو أن يعلن نفسه إماماً للأمة ؛ وقد انصب جهد الإمام وعمله على الأمر الأول، لأن الظروف لم تكن تسمح لإعلان الإمام السجاد (ع) إمامته. كان يجب أن يُصلح دين الأمة، ويجب أن تُهذب أخلاق الناس، ويجب أن يُخلص الشعب من الفساد الذي كان سائداً آنذاك، ويجب أن تُوجه الأمة معنوياً ليرجع أساس الدين إلى الأمة والمجتمع.. ولذا ترون أن أكثر الكلام المنقول عن الإمام السجاد (ع) في الزهد، وحتى في بداية كلامه وخطبه التي تتضمن معنى سياسياً، نجده يبدأها بالكلام حول الزهد، حيث يقول (ع) : "إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين عنها في الآخرة...إلخ". وفي كلام آخر يصف الدنيا قائلاً: "أولا حر يدع هذه اللماظة لأهلها، فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، ألا فلا تبيعوها بغيرها".

كلمات الإمام (ع) كلها كانت تحمل بين طياتها الزهد والمعارف الإسلامية وكان يطرح المعارف الإسلامية ويبينها من خلال الدعاء، وذلك لأن الظروف الصعبة والاختناق الذي كان مسيطراً على الشعب لم يكن يسمح للإمام السجاد (ع) أن يتكلم ويطرح آراء بصورة صريحة وواضحة، فليست السلطة وحدها كانت مانعة وإنما الناس أنفسهم كانوا يرفضون هذا ؛ المجتمع كان قد أصبح مجتمعاً ضائعاً وكان من الواجب إصلاحه.

من عام 61هـ إلى 95هـ كانت حياة الإمام السجاد (ع) على ما ذكرنا، وكلما كان يمضي الوقت كان الوضع يتحسن، حتى قال

الإمام الصادق (ع) ، كما ذكرناه سابقاً، "ارتد بعد الحسين..." إلى أن قال "ثم أن الناس لحقوا وكثروا".

وفي زمن الإمام الباقر كان الوضع قد تحسن عما كان عليه في زمن السجاد (ع) ، وهذا بفضل سعي الإمام السجاد خلال 35سنة.

كذلك نجد أن الإمام السجاد (ع) قد ذكر مسألة بناء الكوادر وتهيئتها خلال كلامه وأحاديثه ؛ ففي الكتاب الشريف (تحف العقول) نُقل حديث طويل عن الإمام السجاد (ع) حول هذا الموضوع ؛ أني آسف لأنني لم أستطع أن أبحث في بقية الكتب الأخرى حول الكلام الذي نقل عن الإمام (ع) وذلك لضيق الوقت، ولكني لا أعتقد أن هناك ذكر لغير هذا الحديث أو بمقدار طوله، نعم توجد كلمات قصار عنه أما أحاديث وخطب طويلة فلا أعتقد بوجودها، إلا التي نقلت في كتاب "تحف العقول".

إن مضمون الأحاديث وطريقة الخطاب (في هذا الكتاب) تبين ما كان يقصده ويفعله الإمام السجاد (ع) ، وسنرى من خلال هذه الأحاديث الثلاثة التي سأذكرها أن الإمام السجاد (ع) عندما كان يخاطب عامة الناس كان يبدأ بعبارة: "يا أيها الناس" ومن خلال حديثه كان يشير إلى جُملة من العلوم والمعارف الإسلامية (فقد ذكر فيها موت الإنسان والسؤال في القبر وعن الرب والإمام) في هذا الخطاب نوع من الرفق والرقة وهو يناسب عوام الناس المراد تبليغهم آنذاك. هناك حديث آخر يبدأ بنوع آخر من الألفاظ ويُفهم من مضمونه أن الخواص هم المقصودون فيه حيث بدأه (ع) بـ "كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبارين، لا يفتنكم الطواغيت"، فلا يخاطب الحديث هنا عامة الناس وإنما فئة خاصة من الناس. هناك نوع ثالث يبين أن المقصودين به هم خاصة الخواص من الناس وزبدتهم، ويمكن أن يكون المخاطبون هم الأصحاب المطلعين على أسرار الإمامة وهدف مساعي الإمام (ع) آنذاك ومن زمرة المحافظين على أسرار الإمامة، حيث يبدأ الخطاب بهذه الألفاظ: "إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريد ما يريدون". ويمكن أن نحتمل ونقدر أن الإمام السجاد (ع) وخلال هذه المدة كان له نوعان أو ثلاثة أنواع من الأحاديث التي تتضمن قيماً وتعاليم إسلامية ؛ ففي بعضها أشار إلى النظام الحاكم وطواغيت ذلك الزمان، وفي بعضها الآخر اكتفى بالإشارة إلى المسائل والمفاهيم الإسلامية ؛ هكذا كانت حياة الإمام السجاد (ع) حيث استطاع، وخلال 35 سنة، أن يخلص ويُنجي الناس الجهلة من براثن شهواتهم من جانب، ومن تسلط النظام الحاكم المتجبر وشباك علماء السوء وعملاء البلاط الحاكم من جانب آخر. واستطاع كذلك أن يوجد ثلة مؤمنة وصالحة تصلح لأن تكون قاعدة وأساساً للعمل في المستقبل. وطبعاً الجزئيات المتعلقة بحياة الإمام السجاد (ع) تحتاج إلى حديث يطول.

الآن يأتي دور الإمام الباقر (ع) ، حيث نجد في عهد الإمام الباقر (ع) الاستمرار على هذا الخط والمنهج، ولكن الوضع في زمن الإمام الباقر (ع) كان قد تحسن، وهنا أيضاً كان التركيز على المعارف الإسلامية وعلومها.

الناس في هذا العصر لم يعودوا متصفين بعدم الاكتراث وعدم الولاء لأهل البيت (ع) كما كانوا عليه ؛ فعندما كان يدخل الإمام الباقر (ع) إلى المسجد كان الناس يجلسون حوله ويحيطون به ليستفيدوا منه. ويروي الراوي قائلاً: "رأيت الإمام الباقر (ع) في مسجد المدينة وحوله أهل خراسان وغيرهم" ؛ يعني يحيط به أناس من أقصى البلاد كخراسان ومناطق أخرى، وهذا يدل على أن أمواج التبليغ كانت قد عمت العالم بأجمعه، وأصبحت قلوب الناس ومن أقصى العالم تقترب من أهل البيت (ع) . وفي رواية أخرى ذكر "احتوشه أهل خراسان" يعني جلسوا حوله وأحاطوه. وكان الإمام الباقر (ع) يعلمهم مسائل الحلال والحرام، حيث كان كبار العلماء يأتون إليه ويتلقون علومهم عنده، ومن بينهم عكرمة، الذي يعتبر شخصية معروفة ومن تلامذة ابن عباس ؛ فعندما أتى إلى الإمام الباقر (ع) أصابته رجفة وسقط في حضن الإمام (ع) وقال: "يا بن رسول الله، أصابني أمامك ما لم يصبني من قبل أمام أحد من الناس". فأجابه الإمام (ع) قائلاً: "ويحك يا عُبيد أهل الشام! إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه". وأيضاً شخص آخر مثل أبي حنيفة، والذي كان يعتبر من عظماء فقهاء ذاك الزمان، كان يأتي ويتلقى علومه على يد الإمام الباقر (ع) . وغيره من بقية العلماء كانوا يتلقون علومهم على يده (ع) ، حتى وصلت شهرته العلمية إلى كل أرجاء العالم وعُرف بباقر العلوم.

تلاحظون أن الوضع الاجتماعي والعاطفي واحترام الناس للأئمة (ع) قد تغير في عهد الإمام الباقر (ع) ، وبهذا نجد أن الحركة السياسية للإمام الباقر (ع) أصبحت أشد وضوحاً. وإننا لا نجد في خطاب الإمام السجاد (ع) لعبد الملك بن مروان ما يُشير صراحة وبشكل واضح إلى الاعتراض عليه، فعندما كان عبد الملك بن مروان يكتب الى الإمام السجاد (ع) عن موضوع معين كان الإمام (ع) يجيبه (طبعاً جواب ابن رسول الله دائماً قوي ومحكم) بطريقة لا تحتوي على العداء الصريح. أما الإمام الباقر (ع) فقد غير حركته لتغير الوضع آنذاك، بحيث أصبح هشام بن عبد الملك يحس بالرعب والفزع من وجوده (ع) ، وكان هشام يرى أنه من الضروري أن يضع الإمام (ع) تحت المراقبة، وكان ينوي أن ينقل الإمام (ع) إلى الشام. طبعاً، الإمام السجاد (ع) وفي عهد إمامته (بعد المرحلة الأولى التي بدأت من كربلاء) قُيّدَ بالأغلال وحُمِلَ إلى الشام! لذا فالوضع في زمن الإمام الباقر (ع) قد تغير، ونجد أن أسلوب الكلام أصبح أكثر حدة. رأيت عدة روايات تصف مباحثات الإمام الباقر مع أصحابه حول مسألة الخلافة والإمامة ويلاحظ فيها الأمل بالمستقبل ؛ وإحدى هذه الروايات هي رواية في بحار الأنوار مضمونها" كان منزل أبي جعفر (ع) مزدحماً بالناس

وجاء رجل مسنّ يستند بعصاه وسلم مظهراً محبته وجلس إلى جانب الإمام الباقر (ع) وقال: "فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم ؛ فوالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في الدنيا. وأنني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، فوالله ما أبغضه وأبرأ منه، لوتر كان بيني وبينه. والله إني لأحلّ حلالكم وأحرم حرامكم وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟". يعني هل تأمل أن يأتي يوم وأرى نصركم. فأنا منتظر أمركم، يعني منتظر وصول عصر حكومتكم وولايتكم؟

وتعبير "أمر، وهذا الأمر أمركم" إشارة إلى الحكومة، فالحكومة آنذاك كان يعبر عنها بالأمر، سواء في تعابير الأئمة (ع) وأصحابهم أو عند مخالفيهم ؛ فمثلاً في كلام هارون إلى المأمون جاء "والله لو تنازعت معي في هذا الأمر" تعبير هذا الأمر يعني الخلافة والإمامة.

أنتظر أمركم يعني أنتظر خلافتكم. وهنا يسأل هل تأملون أن أدرك ذاك اليوم؟ فأجابه أبو جعفر (ع) أي أي... حتى أقعده على جنبه ثم قال: "أيها الشيخ، إن علي بن الحسين (ع) أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه".

يعني سُئِل الإمام علي بن الحسين (ع) نفس هذا السؤال، ولكننا لا نجده خلال الروايات التي نقلت عنه، ونفهم من هذا أن الإمام (ع) لو كان قد قالها في جمع من الناس فهذا يعني أنه قد سمعها الآخرون، وكان لا بد أن تصلنا، لذا فالاحتمال القوي هو قولها سراً. وهنا يقول الإمام الباقر (ع) علناً: "إن تمُت ترد على رسول الله (ص) وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين يثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقر عينك وتستقبل الروح والريحان مع الكرام الكاتبين، وإن تعش ترى ما يقر الله به عينك وتكون معنا في السنام الأعلى".

إذاً، الإمام (ع) لا يُدخل اليأس على قلبه بل يقول: إذا مُت فسوف تُحشر مع الرسول (ص) وأوليائه وإذا بقيت تكون معنا. فهذا المعنى في كلام الإمام الباقر يعطي للشيعة الأمل بالمستقبل. وفي رواية أخرى بين فيها زمان النهضة، وهذا لشيء عجيب جداً ؛ فعن أبي الحمزة الثمالي وبسند قوي ـ كما جاء في الكافي ـ قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: "يا ثابت، إن الله تبارك وتعالى قد وقت هذا الأمر في السبعين، فلما أن قتل الحسين (ع) اشتد غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخره إلى أربعين ومائة، وحدثناكم الحديث فكشفتم قناع الستر، ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتاً عندنا، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب".

بعدها يقول أبو حمزة: فحدثت بذاك أبا عبد الله (ع) فقال: قد كان كذلك. وواقعاً لو لم تحدث تلك التحولات بعد سنة 135هـ وقد ذكرت أهميتها، ففي ذلك الوقت أتى المنصور على رأس الحكم، فلو لم تأتِ حادثة بني العباس، كأن التقديرات الإلهية كانت تكشف على أنه ستقام الحكومة الإلهية الإسلامية في سنة 140. وهناك بحث آخر وهو هل كان الأئمة فعلاً متوقعين حدوث هذا الأمر أم أنهم كانوا قد عرفوا أن القضاء الإلهي على خلاف ذلك؟ اللافت أن من خصوصيات زمان الإمام الباقر هي هذه الآمال والوعود.

وللتعرف على حياة الإمام الباقر (ع) نحتاج إلى ساعات طويلة متمادية لتكوين صورة عن حياته (ع) ، وأنا قد تطرقت إلى هذا الموضوع سابقاً وبصورة عامة.

إن عنصر الجهاد السياسي في حياة الإمام الباقر (ع) أكثر وضوحاً، ولا نقصد هنا الجهاد العنيف أو المسلح ؛ فعندما جاء زيد بن علي أخو الإمام الباقر (ع) وسأل الإمام الإذن بالنهوض والقيام، أمره الإمام الباقر (ع) بعدم القيام فأطاعه زيد بن علي. والبعض اتهموا زيداً ووجهوا له الإهانة لعدم إطاعته الإمام الباقر (ع) عندما قال له لا تنهض، فهذا اعتقاد وتصور خاطئ، لأن زيد أطاع الإمام (ع) في عدم نهوضه، ولكنه في عهد الإمام الصادق (ع) أستأذن زيد ثانية في قيامه ونهضته، ولم يمنعه الإمام الصادق (ع) آنذاك، بل شجعه عليه. وبعد شهادة زيد تمنى الإمام قائلاً: يا ليتني كنت من زمرة الذين قاموا ونهضوا مع زيد، لذا يجب أن لا يُلام زيد. في هذه الحالة.

نعم الإمام الباقر (ع) لم يرض بالجهاد المسلح في عهده، ولكن عنصر الجهاد السياسي كان واضحاً في عهده ؛ فعنصر الجهاد البارز في حياة الإمام الباقر (ع) لم نكن نراه في عهد الإمام السجاد (ع) ، وعند انتهاء عهد الإمام السجاد نجد أن الإمام الباقر استمر في جهاده، وذلك في إقامة مجالس العزاء في منى. وحتى إنه أوصى أن يقام له العزاء، ولمدة عشر سنوات في منى (تندبني النوادب بمنى عشر سنين) فهذا استمرار للنضال.

لماذا البكاء على الإمام الباقر في منى، وما هو الهدف منه؟ فمن خلال حياة الأئمة (ع) نلاحظ التأكيد والحث على مسألة البكاء، ولقد ظهر هذا التأكيد في الروايات التي ذكرت فضل وأهمية البكاء على ما جرى في حادثة كربلاء.

ولدينا روايات صحيحة ومعتبرة في هذا المجال، ولا أذكر أنه قد أكد على البكاء في حادثة اخرى غيرها، إلا في زمن الإمام الرضا (ع) ، عندما عزم الإمام الرضا (ع) على الرحيل واقتربت منيته قام بجمع أهله ليبكوا عليه، فهذه الحركة لها دلالة ومعنىً سياسياً يتعلق بالفترة التي سبقت سفره وشهادته (ع) . وفقط زمن الإمام الباقر (ع) أمَرَ بالبكاء وحتى إنه وصى به بعد شهادته، ووضع 800 درهم من ماله لإنجاز هذه الوصية في "منى". "فمنى" تختلف عن منطقة عرفات والمشعر وحتى مكة ؛ ففي مكة الناس متفرقون وكل واحد منهم مشغول بعمله، وعرفات لا يكون المكوث فيها إلا من الصباح حتى وقت (بعد الظهر) ، وعندما يأتي

الناس إلى عرفات يأتون بعجلة ويسرعون بالرحيل بعد الظهر أيضاً، وذلك ليلتحقوا بأعمالهم. وأما المشعر فلا يدوم المكوث فيه إلا عدة ساعات، فهو ليس إلا ممراً في طريق منى. أما في منى فالمكوث يدوم فيه ثلاث ليالٍ متتالية ؛ فقليل من الناس خلال هذه الليالي الثلاث من يذهب إلى مكة ويرجع ثانية، بل أكثر الناس يمكثون الأيام الثلاثة وبصورة مستمرة في منى، وخاصة في ذلك الزمان ومع بساطة الوسائل المتوفرة ؛ حيث يجتمع الآلاف من الناس الذين يأتون من جميع أنحاء العالم ويمكثون ثلاث ليال، وكل شخص يعلم أن هذا المكان هو الأنسب لإيصال أي نداء إلى العام، وخاصة في تلك الأيام، حيث تنعدم وسائل الإعلام كالراديو والتلفزيون والجرائد وغيرها من الوسائل الأخرى، فعندما يبكى جماعة على آل الرسول (ص) فمن المؤكد أن يسأل الجميع عن سبب البكاء ؛ فلا أحد (عادة) يبكي على ميت عادي وبعد مرور سنين طويلة. إذن فهل ظُلِمَ؟ أو قُتِلَ؟ ومَن الذي ظلمه؟ ولماذا ظُلِمَ؟ تُطرَح أسئلة كثيرة من هذا القبيل ؛ إذن فهذه حركة جهادية دقيقة ومخطط لها.

ولقد لفتت نظري نقطة في الحياة السياسية للإمام الباقر (ع) هي أن الأدلة والحجج التي جاءت على لسان أهل البيت (ع) في النصف الأول من القرن الهجري حول باب الخلافة هي نفسها التي كررها الإمام الباقر (ع) وهي إن العرب قد تفاخروا على العجم لأن النبي (ص) منهم، وتفاخرت قريش على غيرها لأن النبي منها، وإذا كان هذا صحيحاً، فأهل بيت النبي (ص) أولى بالتفاخر من الآخرين. ولكن هؤلاء يضعون كل ذلك جانباً ويرون أنفسهم ورثة الحكومة. فإذا كان النبي هو أساس التفاخر في قريش على غيرها وتفاخر العرب على العجم، فالأولى أن نتفاخر نحن آل الرسول (ص) على غيرنا.

فهذا الاستدلال ذُكر مراراً في الفترة الأولى من القرن الهجري من قبل أهل البيت (ع) ، فنجد أن الإمام الباقر (ع) وبين عام 95إلى 114هـ ـ فترة إمامته ـ يُبين هذه الكلمات، واحتجاج الإمام (ع) في ذلك العصر بشأن الخلافة شيء له دلالة كبيرة.

فعندما ينتهي عصر الإمام الباقر (ع) يبدأ عصر الإمام الصادق (ع) من عام 114 إلى عام 148هـ، والإمام الصادق عاصر مرحلتين في هذه الفترة: الأولى تمتد من عام 114هـ إلى 132 أو 135هـ ـ يعني إلى سنة انتصار بني العباس واستلام المنصور للخلافة ـ وكانت تعتبر مرحلة هدوء وسعة، وذلك بسبب النزاع الذي كان دائراً بين بني أمية وبني العباس، فوجد الإمام (ع) في تلك فرصة لنشر العلوم الإسلامية، ولم يمرّ الإمام الباقر (ع) بمثل هذه الظروف لأنها كانت خاصة بعصر الإمام الصادق (ع) ؛ ففي عهد الإمام الباقر (ع) كانت الفترة فترة غطرسة بني أمية، وكان حكم هشام بن عبد الملك الذي قيل فيه: "كان هشام رجلهم"، حيث كان أكبر شخصية بعد عبد الملك، وكانت فترة حكمه في عهد الإمام الباقر (ع) ، ولم يكن في عهده اختلاف أو قوى ليستطيع الاستفادة منها ؛ فالحروب الداخلية والاختلافات السياسية كانت في عهد الإمام الصادق (ع) وفي المرحلة الأولى من عهده (ع) ، ولكن بالتدريج اتسعت دعوة بني العباس، وفي نفس الوقت كانت الدعوة الشيعية في العالم الإسلامي قد وصلت إلى أوجها، وهذا مما لا نقف عنده الآن. وعندما بدأت مرحلة إمامة الإمام الصادق (ع) كانت الصدامات والحروب منتشرة في العالم الإسلامي كإفريقيا وخراسان وفارس وبلاد ما وراء النهر ونقاط أخرى من العالم الإسلامي، مما سبب مشكلات كثيرة لبني أمية. وهكذا استطاع الإمام الصادق (ع) في هذه المرحلة أن يستفيد من هذه الفرصة وقام بالتركيز على نفس النقاط الثلاث التي أشرنا إليها في حياة الإمام السجاد (ع) ، وهي: مسألة نشر العلوم الإسلامية، ومسألة الإمامة، وخاصة التأكيد على إمامة أهل البيت (ع) ؛ وعلى سبيل المثال: يروي عمر بن المقدام قائلاً: "رأيت أبا عبد الله يوم عرفة بالموقف وهو ينادي بأعلى صوته"، فكان يقول جملة ثم يلتفت إلى الطرف الآخر ويكررها ومن ثم إلى الطرف الآخر.. وهكذا إلى أربعة أطراف، وكل مرة يكررها ثلاثاً، والجملة هي" أيها الناس، إن رسول الله (ص) كان هو الإمام".

التفتوا إلى نفس استعمال كلمة إمام، كان هذا لأجل لفت انظار الناس إلى حقيقة الإمامة ولإشاعة هذه الفكرة حتى يُصار إلى التساؤل: هل هؤلاء الحكام المتسلطين على الحكم لائقون بالإمامة أم لا؟

فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه ولمن خلفه وعن يساره... اثنا عشر صوتاً: "أيها الناس، رسول الله كان هو الإمام، ومن بعده علي بن أبي طالب، وبعده الحسن، وبعده الحسين، ومن ثم علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وبعدها هاه".. ويكرر الكلمات اثنا عشر مرة.

يقول الراوي سألت ما معنى هاه. قال معناها في لغة (لهجة) بني فلان (أنا) كناية للإشارة عن نفسه (ع) ؛ يعني بعد محمد بن علي (ع) أنا الإمام.

ونشير إلى نموذج آخر، قال: قدم رجل من أهل الكوفة إلى خراسان فدعا الناس إلى ولاية جعفر بن محمد (ع) يعني إلى حكومته.

ونحن، حتى استطعنا أن ندعو لقيام "الجمهورية الإسلامية" خلال فترة جهادنا، فطوال سنوات الجهاد والكفاح لم نستطع أن نقول أكثر من رأي الإسلام في الحكومة وحدودها ؛ يعني استطعنا أن نحدد القواعد الأولى التي حددها الإسلام للحكومة والشروط التي وضعها للحكام. فهذه حدود ما استطعنا أن نبينه آنذاك، حيث لم يكن الوقت مناسباً أبداً للدعوة إلى الحكومة الإسلامية أو الإعلان عن شخص معين ليكون الولي ؛ ففي سنة 1357هـ. ش (1979م) أو في سنة 1356هـ. ش، وفي اجتماعاتنا الخاصة،

استطعنا أن ندعو إلى الحكومة الإسلامية وطبعاً من دون أن نذكر اسم قائدها.

بينما ترون أن رجلاً وفي زمن الإمام الصادق (ع) يذهب إلى أقصى نقاط العالم ويدعو الناس لحكومة الإمام الصادق (ع) ، ماذا يعني هذا؟ هل له معنى سوى حلول الزمان الموعود؟ فهذا هو عام 140هـ وهذا هو نفس الشيء الذي كان يتحرك لأجله الأئمة بشكل طبيعي، وهو الذي أدى إلى أن يقوم هذا الرجل بما فعل. فالنهوض الطبيعي للأئمة (ع) هو الذي أدى إلى هذا، كما أنه أعطى الأمل في تشكيل الحكومة الإسلامية في ذلك الزمان.

إذن، فقد كانت الدعوة للناس إلى حكومة وولاية الإمام جعفر بن محمد (ع) .. ونحن اليوم نفهم الولاية بمعناها الحقيقي والواقعي، ولكن سابقاً كانوا يفسرون الولاية بالمحبة ؛ وهذا يعني أنهم كانوا يدعون الناس إلى الولاية، أي إلى محبة الإمام جعفر بن محمد (ع) ، فهل يصح هذا؟! فهذا ليس من شؤون الدعوة، فالمحبة لفرد ليست هي بالشيء الذي يُدعى إليه المجتمع، إضافة إلى أنه إذا فسرنا الولاية بالمحبة لا يكون لبقية الحديث معنى، حيث قال (ع) : "ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وأنكرت ـ ومن الذي ينكر ويرد محبة أهل البيت في العالم الإسلامي ـ "وفرقة ورعت ووقفت". وإذا فسرت الولاية بالمحبة فلا تتناسب هنا مع مسألة التورع والتوقف. وهذا قرينة إلى أن الولاية لها معنى آخر غير المحبة، بل هي الحكومة. وبقية الحديث، يقول: "فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبد الله (ع) " فكانوا يأتون إلى الإمام ويتكلمون معه، حيث يرد على واحد من الذين تورعوا وتوقفوا كما يلي: "تورعت في هذا العمل، فلماذا لم تتورع عند النهر الفلاني في اليوم الفلاني حيث ارتكبت العمل المخالف الفلاني"؟ فهذا الكلام يبين بوضوح أن الشخص الذي ذهب إلى خراسان ودعا الناس لولاية الإمام قد قام بهذا برضا الإمام، ولعل الإمام (ع) هو الذي أرسله.

فهذا كله يتعلق بالمرحلة الأولى من حياة وعصر الإمام الصادق (ع) ، وتوجد حوادث أخرى من هذا القبيل في حياته (ع) ، وعلى الأكثر تتعلق هذه الحوادث بالمرحلة الأولى من حياته (ع) حتى وصول المنصور إلى سدة الحكم والخلافة، فتتبدل الأوضاع وتبدأ المشاكل والمصاعب في حياة الإمام الصادق (ع) . ولربما هذه الفترة من حياة الإمام الصادق (ع) تشبه الفترة التي مرت على الإمام الباقر (ع) ، حيث ساد جو القمع وممارسة الضغوط على الإمام حتى إنه (ع) أحضر ونُفي لعدة مرات إلى الحيرة وواسط والرميلة ومناطق أخرى. وكان الخليفة يخاطب الإمام الصادق (ع) بقساوة وغضب حيث قال له مرة: "قتلني الله إن لم أقتلك"! ومرة من المرات خاطب الخليفة والي المدينة قائلاً له: "أن أحرق على جعفر بن محمد داره"! وحينما أحرق داره أظهر الأمام الغربة والوحدة التي ألمّت به آنذاك وذلك خلال حركاته وسكناته وهو يعبر النار المضرمة، حيث قال: "أنا ابن أعراق الثرى، أنا ابن محمد المصطفى". وهذا مما أدى إلى زيادة سخط أعدائه أكثر.

إن معاملة المنصور للإمام الصادق (ع) كانت معاملة صعبة جداً وقاسية للغاية، ولطالما هدد المنصور الإمام (ع) . وهناك روايات تنقل أن الإمام (ع) كان يتذلل ويظهر الخضوع للمنصور! وبالتأكيد أن هذه الروايات لا أساس لها من الصحة ؛ فأنا بحثت حول هذه الروايات ولم يكن لأي منها أساس وسند صحيح ومعتبر، وغالباً من تنتهي في سندها إلى ربيع الحاجب هذا المقطوع بفسقه، الذي كان من المقربين للمنصور. ومن العجب أن البعض نقل أن الربيع كان يعتبر من الشيعة المحبين لأهل البيت (ع) ، فأين التشيع من ربيع؟!

إن الربيع كان يعتبر الخادم المطيع والمخلص لأوامر المنصور، ومنذ طفولته استطاع أن يجد طريقاً ومكاناً في الحكومة العباسية، وخدم بني العباس حتى أصبح حاجب المنصور، وقدم له الخدمات الكثيرة حتى استطاع أن يتسنّم الوزارة، ولو لم يكن الربيع موجوداً لخرجت الحكومة والخلافة من آل المنصور بعد موته، ولربما كان قد تسنّمها أعمامه من بعده، فعند احتضار المنصور لم يكن عنده سوى الربيع، تسنّم ولهذا كتب الوصية بنفسه عن المنصور زوراً وجعل الخلافة باسم المهدي بن المنصور.

والفضل بن ربيع الذي تسنّم الوزارة في عهد هارون والأمين هو ابن هذا الشخص، فهذه العائلة عرفت بوفائها لبني العباس، ولم يكن لهم أي ولاء لأهل البيت (ع) .. وما نُقل عن الربيع حول الإمام فهو كذب وبهتان، ولم يرد من كذبه هذا إلا أن يُظهر الإمام (ع) للمسلمين آنذاك الإنسان المتذلل والخاضع أمام الخليفة! حتى يعتبر الآخرون أن تكليفهم هو أيضاً مثل تكليف الإمام، أي التذلل والخضوع للخليفة!

وكما قلنا، فقد كانت معاملة المنصور للإمام الصادق (ع) معاملة قاسية جداً حتى انتهت بشهادة الإمام (ع) وذلك في عام 148هـ.

وبدأ عصر الإمام موسى الكاظم (ع) فكانت حياته مليئة بالأحداث المهمة والمثيرة وأعتقد أن الجهاد والمواجهة قد بلغا أوجهما في عهد هذا الإمام (ع) . ومع الأسف لا يوجد بين أيدينا تقرير ونص واضح وصريح حول حياة الإمام الكاظم (ع) ؛ مثلاً جاء في بعض الروايات أن الإمام بقي ولفترة مخفياً عن أنظار الحكومة آنذاك وكان هارون وأزلامه يبحثون عنه ولم يستطيعوا أن يجدوه، وكان الخليفة يقبض على بعض الأفراد ويعذبهم ليعترفوا ويخبروه عن مكان الإمام (ع) ! ولأول مرة يحدث مثل هذا الأمر في حياة الأئمة (ع) .

ونقل ابن شهر أشوب في المناقب ما يفيد ما ذكرناه حيث قال: "دخل موسى بن جعفر (ع) بعض قرى الشام متنكراً هارباً"! ولم يُنقل عن أي من الأئمة هذا الوضع.

وهذه الأحداث تعبير عن الشرارة والالتهاب الذي ميز حياة الإمام.. وسجن الإمام المؤبد هو خير دليل على الوضع الذي كان قائماً، مع أن هارون كان يعامل الإمام الكاظم (ع) معاملة جيدة وحسنة وذلك خلال المرحلة الأولى من تصديه الحكم.

والقصة التي ينقلها المأمون حول الإمام الكاظم (ع) معروفة ؛ وملخصها أن الإمام (ع) كان يمتطي دابة وجاء إلى المكان الذي كان يجلس في هارون، وأراد الإمام (ع) أن يترجل ولكن هارون لم يرضَ بذلك وأقسم عليه أن يبقى راكباً ويأتي بدابته إلى بساطه، وعندما جاء الإمام (ع) راكباً إلى بساط الخليفة احترمه هارون وبقيا مدة بتبادلان الحديث. فعندما عزم الإمام (ع) الرحيل طلب هارون مني (أي من المأمون) ومن الأمين أن نأخذ بركاب أبي الحسن، إلى آخر القصة. والشيء اللافت في هذه القصة هو ما نقله المأمون عن أن أبيه هارون أنه أعطى لجميع الذين كانوا حاضرين في المجلس 5 آلاف دينار و 10 آلاف دينار (أو درهم) كهدية وجائزة ولكن أعطى لموسى بن جعفر 200 دينار، علماً بأنه عندما كان الخليفة يسأل عن وضع الإمام (ع) كان الإمام (ع) يجيبه مبيناً له المشكلات والأوضاع المعيشية السيئة وكثرة العيال. فهذا الكلام من الإمام يحمل بين طياته معنى دقيقاً ؛ فأنا وبقية الذين عاشوا تجربة التقية في زمان مواجهة الشاه نستطيع أن نفهم وندرك لماذا ذكر الإمام (ع) ولمثل هارون وضعه المعيشة، فهذا الكلام لا يحتوي على التذلل، لأن الكثير منكم وفي عهد القمع والظلم قد فعلتم مثل ما فعل الإمام (ع) لأن الإنسان ومن خلال هذا الكلام يستطيع أن يبعد نظر العدو عن أعماله ونشاطاته.

وطبيعي أن هارون وبعد استماعه إلى مثل هذا الكلام كان ينبغي أن يعطي للإمام مبالغ طائلة مثلاً 50 ألف دينار (أو درهم) ، ولكنه رغم هذا كله لم يعطه أكثر من 200 دينار!

يقول المأمون سألت أبي عن سبب إعطائه القليل فأجابني إذا أعطيته ما في ذمتي من المبلغ لخرج، وبعد فترة وجيزة، مئة ألف فارس من الشيعة يقومون ضدي، فهذا كان استنتاج وفهم هارون، وحسب رأيي أن هارون كان صائباً في فهمه. والبعض يعتقد أن تصور هارون هذا كان نتيجة لما بُلغ به من سوء عن الإمام (ع) ، ولكنه واقع الأمر وحقيقته، لأنه لو كان الإمام (ع) يملك من الأموال الكافية في زمان جهاده ونضاله ضد هارون لاستطاع استقطاب الكثير ليحاربوا إلى جانبه. وهذا الوضع لاحظناه في زمان أبناء الأئمة (ع) . وبالتأكيد أن الأئمة لو كانوا يملكون المال الكافي لاستطاعوا جمع عدد أكبر من الناس حولهم. وعلى هذا نجد أن عهد الإمام الكاظم (ع) كان عهداً وصل فيه الجهاد والكفاح إلى أوجه حتى انتهى باعتقال الإمام (ع) وسجنه. وعندما جاء عهد الإمام الثامن (ع) بدأ الوضع يتحسن بالنسبة للأئمة (ع) وانتشر الشيعة في كل البقاع وتوفرت لهم الإمكانيات اللازمة حتى انتهى الأمر إلى ولاية العهد للإمام الرضا (ع) . وعاش الإمام الرضا في عهد هارون الرشيد مراعياً للتقية في حياته، يعني كان يسعى في حركته ونشاطاته بسرية وتقية ؛ فمثلاً دعبل الخزاعي الذي كان يتكلم بحق الإمام الرضا (ع) بهذا الشكل المعروف في زمن ولاية عهده (ع) لم يظهر إلى الوجود فجأة، فالمجتمع الذي يُربي مثل دعبل الخزاعي أو إبراهيم بن العباس الذي كان يعتبر من المادحين لعلي بن موسى الرضا (ع) أو غيره من الموالين، هذا المجتمع لا يُخرج مثل هؤلاء من لا شيء ؛ فهذا الولاء يجب أن يكون قد بدأ من سنين وله سابقة في ثقافة المجتمع، فليس من الممكن أن يحتفل الناس في خراسان وري ومناطق أخرى بمناسبة تعيين الإمام الرضا (ع) ولياً للعهد من دون أن يكون لهم في ولايتهم هذه سابقة وتاريخ.

وما حدث في عهد ولاية العهد للإمام الرضا (ع) دليل على مدى ولاء الناس ومحبتهم لأهل البيت (ع) .

وبعد ذلك ظهر الاختلاف بين الأمين والمأمون واستمر الخلاف والجدل بين خراسان وبغداد لمدة خمس سنوات، وهذا مما ساعد الإمام الرضا (ع) لأن يوسع من نشاطاته وحركته حتى انتهت إلى تعيينه ولياً للعهد. ولكن ـ ومع الأسف ـ انتهى الوضع بشهادته وبداية عهد جديد حاملاً بين طياته المحن والمشاكل لأهل البيت (ع) . وحسب رأيي أن المحن والمشكلات التي واجهت أهل البيت (ع) بلغت ذروتها في زمن الإمام الجواد (ع) وشملت عصور الأئمة الذين جاؤوا من بعده.

كان هذا شرحاً مجملاً ونظرة عامة إلى المحن والمشاكل التي واجهت الأئمة (ع) وتحليلاً مختصراً لحياتهم السياسة.

وكما ذكرت سابقاً أنني قد قسمت البحث إلى قسمين. القسم الأول هو عرض مجمل، وقد انتهى إلى هنا، والقسم الثاني هو التعرض إلى أبرز التحركات الجهادية في حياة الأئمة (ع) .

كل ما سأذكره هو بعض العناوين والتي استطعت خلال اليومين الماضيين أن استخرجها من بين ملاحظاتي التي كنت قد سجلتها قديماً، وطبعاً المواضيع التي يمكن البحث فيها لا تقتصر على التي سأذكرها، ولكن أذكر بعضاً منها ليستطيع من يريد البحث والدراسة أن يتخذها محوراً في بحثه.

من المسائل والمواضيع المهمة هي ادعاء الإمامة والدعوة إلى الإمامة.

وتعتبر هذه المسألة حركة جهادية في كل المراحل التي مرت بحياة الأئمة (ع) ، وذكرت حولها روايات في فصول واسعة، ومن جملتها روايات أن الأئمة "نور الله" التي وردت في الكافي، ورواية الإمام الثامن (ع) حول الإمامة، وروايات عديدة أيضاً حول حياة

الإمام الصادق (ع) ومحاورات ومناظرات أصحابه في ظروف مختلفة، وأيضاً روايات حول حياة الإمام الحسين (ع) عند دعوته لأهل العراق وروايات أخرى.

والمسألة الأخرى هي فهم وإدراك لما يقوم به الأئمة من أعمال وتبليغ ؛ فأنه ـ وكما تلاحظون ـ أن فهم الخلفاء لأهداف الأئمة (ع) متشابه من زمان عبد الملك بن مروان إلى زمان المتوكل ؛ أي كان فهمهم وإدراكهم لما يدور حولهم متشابهاً، فمعاملتهم للأئمة (ع) كانت تتشابه من حيث القهر والاضطهاد. فهذه مسألة مهمة لا يمكن أن نمر عليها بشكل عابر.

لماذا كانوا يفهمون ويدركون من حياة الأئمة (ع) هذا الفهم والإدراك؟!

فمثلاً جملة "خليفتان يجبى إليهما الخراج" حول الإمام موسى بن جعفر (ع) ، أو "هذا على ابنه قد تعدوا وادعى الأمر لنفسه" حول الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ، أو جملات أخرى مشابهة لهذه الجمل حول الأئمة (ع) .

والمسألة المهمة الأخرى هي أن الخلفاء كانوا يسعون لينسبوا الإمامة إليهم. توجد أمثلة كثيرة حول ما قلناه، ونذكر منها مثالاً ؛ فكثير هو شاعر بارز عاصر المرحلة الأولى من الخلافة الأموية ويعتبر من الموالين لأهل البيت (ع) ، وكان على على مستوى الفرزدق وجرير والأخطل وجميل ونصيب وغيرهم ؛ جاء يوماً من الأيام إلى الإمام الباقر (ع) حيث قال له الإمام (ع) معترضاً "امتدحت عبد الملك"! أجاب مضطرباً "يا بن رسول الله، ما قلت يا أمام الهدى، وإنما قلت له أسد والأسد كلب، ويا شمس والشمس جماد، ويا بحر والبحر موات) . يعني أراد الشاعر أن يبرر عمله. فتبسم الإمام (ع) ، وحينها قام الكميت الأسدي وأنشد هذه القصيدة:

من لقلبٍ متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام
حتى وصل إلى البيت
ساسة لا كمن يرى رعيه الناس سوا ورعيه الأنعام

فهذا يدل على أن الأئمة (ع) كانوا شديدي الحساسية من جهة مدح عبد الملك وأصحابه، وكانت اهتماماتهم وحساسيتهم في إطلاق كلمة إمام الهدى عليه، حيث قال: لم أقل له إمام الهدى. وهذا يدل على مدى رغبة الخليفة في إطلاق عبارة إمام الهدى عليه. وكانت هذه الرغبة أشد في زمن بني العباس.

ومروان بن أبي حفصة كان شاعراً أموياً وعميلاً للبلاط الأموي والعباسي (والعجب في هذا أنه كان شاعر البلاط الأموي في الخلافة الأموية، وبعد أن جاء بنو العباس إلى سدة الحكم أصبح شاعر البلاط العباسي، حيث كان شاعراً قوياً عذب البيان فاشتروه بالمال) ! وعندما كان يمتدح بني العباس لم يكن يكتفي بذكر كرمهم وشجاعتهم وبقية خصالهم، بل كان ينسبهم إلى رسول الله (ص) وينسب إليهم منزلته، حيث قال:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

يعني كيف يمكن أن يرث أبناء البنات ما ترك الأعمام؟ فعم رسول الله (ص) هو العباس وله وارث، فكيف يمكن أن يرث ما ترك العباس أبناء فاطمة (ع) !

إذن، فالدعوى حول الخلافة والحرب حرب ثقافية وسياسية، وفي مقابل هذا الشعر قال الشاعر الطائي الشيعي المعروف، يعني جعفر بن عفان الطائي:

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

يعني البنت ترث نصف مال أبيها والعم لا يرث من مال أخيه، إذن فليس لكم إرث لتطالبوا به!

فهذا من موقف أصحاب الأئمة (ع) مقابل ما يدعيه الخلفاء في الإمامة.

والمسألة الأخرى هي تأييد الأئمة (ع) وحمايتهم للحركات الثورية التي كانت آنذاك، فهذه من البحوث المثيرة من حياة الأئمة (ع) وتدل على منهجية الجهاد أيضاً، ككلام الإمام الصادق (ع) حول المعلى بن خنيس عندما قتل على يد داود بن علي، وكلماته حول زيد وحول الحسين بن علي شهيد فخ وغيرهم.

وقد رأيت رواية عجيبة في نور الثقلين عن علي بن عقبة حيث قال إن أبي قال : دخلت أنا والمعلى على أبي عبد الله (ع) فقال: "أبشروا، أنتم على إحدى الحسنيين، شفى الله صدوركم واذهب غيظ قلوبكم وأنالكم من عدوكم ـ وهو قول الله تعالى: {ويشف صدور قوم مؤمنين} ـ وإن قضيتم قبل أن تروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه (ص) ولعلي (ع) ".

هذه الرواية مهمة كونها تتحدث عن الجهاد والنصر "أبشروا، أنتم على إحدى الحسنين" وعن النيل من العدو والشهادة "وأنالكم من عدوكم... وإن قضيتم قبل أن تروا ذلك".

وتزيد الأهمية كون المخاطب في هذه الرواية هو المعلى بن خنيس الذي عرفنا كيف كان مصيره (التنكيل والقتل) ، ونلاحظ أن الإمام المعصوم في هذه الرواية بدأ بمخاطبة الصاحبين مباشرة دون أي مقدمة. ويستدل من خلال سياق الرواية أن الحديث

كان يتناول موضوعاً محدداً لكنه لم يُذكر، أما قوله (ع) : "شفى الله صدوركم" فمن الممكن أن يكون دعاءً، ولكن يوجد احتمال آخر، وهو أقوى، وهو إخباره عن أمر ما قد حصل أو أنجز، فهل كان الداخلان على الإمام قد عادا من عمل أو مواجهة ما؟ غير معلوم، أو أنهما مكلفان بمهمة معينة من قبل الإمام؟

لم تفصح الرواية عن شيء كهذا، لكن على كلا الاحتمالين فإن سياق الحديث يفصح عن مساندة وحماية الإمام (ع) للتحركات الثورية التي تحكي عنها الحياة اليومية لمعلى بن خنيس. ومن المهم في حديثنا عن هذا الصاحب أن نلتفت إلى أنه كان "باب" الإمام الصادق (بتعبير الروايات) ، ومن المهم أن نتعرض لهذا المصطلح بالبحث ؛ فالذين ذُكروا في أحاديث أهل البيت (ع) بعنوان "الباب" من كانوا؟ فإن أغلبهم قد قُتل أو هُدد بالقتل، أمثال يحيى ابن أم الطويل، ومعلى بن خنيس، وجابر بن يزيد الجعفي، وغيرهم..

بحث آخر في حياة الأئمة (ع) حول سجنهم ونفيهم وملاحقتهم...

وأرى أنه يجب أن نتتبع هذا البحث بدقة، وهناك الكثير من المسائل التي تحتاج إلى التدقيق والتحليل، منها أيضاً ما يتعلق بخطابات أهل البيت (ع) التي تميزت بالصراحة وبمواجهاتهم الحادة لحكام زمانهم. وهي نقطة ينبغي الوقوف عندها ملياً ؛ فهؤلاء العظام (ع) لو كانوا من الصنف المحافظ والمسالم المهادن لسلكوا نفس منهاج الزهاد والعلماء في ذلك العصر، من الذين لا تزعج خطاباتهم السلطة، ولا تقترب من المعارضة، وهؤلاء كانو كثر، حتى إن السلاطين والحكام كانوا على علاقة معهم ويحبون بعضهم، لدرجة ان هارون كان يقول بحق أحدهم:

كلكم يمشي رويداً كلكم يطلب صيداً

وهؤلاء الزهاد كانوا يعظون الحكام حتى إنهم كانوا يبكونهم أحياناً من الموعظة، لكن هؤلاء الزهاد يحرصون على أن لا ينطقوا بأي كلمة فيها تلميح إلى مثل الجبار والطاغية والغاصب والشيطان وأشباه هذه المعاني، بينما نجد أن الأئمة كانوا يصرحون بكل هذا وينشرون هذه الحقائق بين الناس، فلم تكن هيبة وسطوة الحكام لتجبرهم على السكوت.. وهناك بحث آخر متعلق بتحدي الأئمة (ع) للسلاطين وقد أشرنا إلى بعضه كالذي جرى بين المنصور والإمام الصادق (ع) أو بين هارون والإمام الكاظم (ع) .

بحث آخر أيضاً مهم جداً ويحتاج للمتابعة، وهو يتعلق بالموارد التي تدل على استراتيجية الإمامة، فأحياناً كانت كلمات الأئمة تطرح أموراً ليست بالبسيطة والعادية، بل تتعلق بهدف محدد ومشروع خاص كان هو نفسه استراتيجية الإمامة. ومن جملة هذه الموارد هو الحوار الذي دار بين الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) وهارون الرشيد حول ما يتعلق بمسألة "فدك" ؛ ففي أحد الأيام قال هارون للإمام الكاظم (ع) : "خُذ فدكاً حتى أردّها إليك"، وكان هدفه من وراء هذا العمل أن يسلب تأثير هذا الرمز "فدك" الذي كان أهل البيت (ع) يطرحونه دائماً كدليل وشاهد على مظلوميتهم التاريخية، فبإرجاعه "لفدك" يسحب هذا السلاح من أيديهم. ولعله أيضاً يصبح مميزاً، بنظر الشيعة عن أولئك السلاطين الذين استمروا بغصب "فدك". والإمام في البداية امتنع عن تنفيذ هذا الطلب، ولكن بعد إصرار هارون قال له الإمام (ع) :

"لا آخذها إلا بحدودها" فقبل هارون بذلك، فبدأ الإمام بذكر تلك الحدود قائلاً: "أما الحد الأول فعدن". فتغير وجه هارون، وقال" إيه"!!

تابع الإمام (ع) : "والحد الثاني سمر قند" ؛ أي الحدود الشرقية لأراضي حكومة هارون، فأربد وجهه.

فتابع الإمام (ع) وقال: "والحد الثالث إفريقيا" ويعني تونس، أي الحدود الغربية للبلاد.

يقول الراوي: فاسود وجه هارون وقال: "هيه"!!

عندها أنهى الإمام (ع) كلامه وقال: "والحد الرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينيا" أي الحدود الشمالية.

عندها قال هارون غاضباً مستهزئاً:

"فلم يبق لنا شيء، فتحول إلى المجلس"! (أي قم واستلم الخلافة) .

فقال الإمام (ع) : "قد أعلمتك أنني إن حددتها لن تردها". وكما جاء في نهاية هذه الرواية: "فعند ذلك عزم على قتله".

في هذا الحوار يظهر أهم مطلب للإمام موسى الكاظم (ع) والذي كان كافياً حتى يقرر هارون الرشيد قتله، وكذلك الأمر، فإن مطالب الأئمة (ع) واضحة في حياة الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا بحيث إنها لو جمعت فسترسم استراتيجية الإمامة.

من المباحث المهمة أيضاً والتي تحتاج إلى التحليل والتحقيق في شرح سيرة الأئمة هي معرفة مدى اطلاع الأئمة على أهدافهم ومشروعهم ومطالبهم (ع) ؛ طبعاً، فإن هؤلاء الأصحاب كانوا أقرب إليهم منا وكانوا أكثر اطلاعاً على مطالبهم وأهدافهم، لذا فإن معرفة وإدراك هؤلاء الأصحاب لحركة الإمامة أمر مهم، فنحن إذا نظرنا في الروايات، فهل نرى أنهم لم يكونوا منتظرين ومترقبين لقيام الأئمة بالثورة؟!

أنتم تعرفون قصة ذلك الرجل الذي أتى من خراسان للقاء الإمام الصادق (ع) وأخبره بأن هنالك الآلاف من الفرسان المقاتلين ينتظرون منك الإشارة حتى يثوروا، فأبدى الإمام شكه وتعجبه، وبالتدريج صار الخراساني يقلل من العدد. وبعدما أكد الإمام له

على نوعية هؤلاء الأفراد، قال الإمام (ع) :
"لو كان لديَّ اثنا عشر (أو خمسة عشر) صاحب لخرجت"! (على اختلاف الروايات) .
وكان هناك أشخاصاً يقومون بمراجعة الإمام (ع) ، ويطلبون منه الخروج (بحسب الروايات) . وبالطبع فإن بعضهم كان من جواسيس بني العباس، وهذا يعرف من خلال أجوبته (ع) . فلماذا كانت تتم مراجعة الإمام؟!
هذا لأنهم يعرفون أن هذا الأمر (أي الثورة) هو هدف أساسي وثابت عند الأئمة (ع) ؛ فمسألة الخروج والثورة لإقامة دولة الحق كانت مسألة أساسية في ثقافة الشيعة في ذلك الزمان، والأئمة كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للقيام بذلك. ولقد رأيت رواية لافتة في هذا المجال حيث يفهم منها مستوى إدراك وفهم الأصحاب المقربين مثل زرارة بن أعين، وهذه الرواية موجودة في رجال الكشي، وتذكر أن زرارة أتى يوماً إلى الإمام الصادق (ع) وقال: أصلحك الله، إن رجلاً من أصحابنا كان مختفياً من غرّامه ؛ فإن كان هذا الأمر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم وإن كان فيه تأخير صالح غرّامه! فقال له أبو عبد الله (ع) : يكون. فقال زرارة: يكون إلى سنة؟ فقال أبو عبد الله (ع) : يكون إن شاء الله. فقال زرارة: فيكون إلى سنتين؟ فقال أبو عبد الله: يكون إن شاء الله. فخرج زرارة موطناً نفسه على أن يكون على سنتين، فلم يكن.
وبالطبع فإن زرارة لم يكن بالشخص الساذج والبسيط من الأصحاب المقربين للإمامين الباقر والصادق (ع) ، فكيف يصل إلى هذه النتيجة التي تأكد له معها اقتراب موعد تشكيل الحكومة العلوية؟!
وفي رواية أخرى ينقل هشام بن سالم أن زرارة قال له: "لا ترى على أعوادها غير جعفر"، أي أنك لن ترى على رأس الخلافة إلا جعفر بن محمد (ع) ، وعندما يقول له هشام بعد استشهاد الإمام الصادق (ع) : تذكر الحديث الذي حدثني به؟ ويذكره، ويقول هشام: كنت أخاف أن يجحدنيه! فقال زرارة إني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأيي (منبهاً إياه بأنه لم يكن ينقل عن الإمام) .
وهناك روايات كثيرة في هذا المجال حول الخروج أو طلب ذلك من قبل الأصحاب، نفهم منها وبوضوح أن هدف الأئمة كان تشكيل الحكومة العلوية والسعي لأجل تحقيق ذلك، وأن الأمر كان متوقعاً وقريباً، وهذا من المسلّمات في اعتقاد الشيعة وأصحاب الأئمة المقربين. وهذه دلالة أساسية وواضحة على هدف ومشروع الأئمة (ع) .
يوجد بحث آخر يتعلق ببغض وعداء الحكام المتعاقبين للأئمة (ع) وخلفية هذا العداء ؛ هل هو الحسد فقط على المقام المعنوي وعلى حب الناس للأئمة؟ أم أن هناك عامل آخر؟ طبعاً ومن دون شك كان الأئمة محسودين من قبل هؤلاء الحكام وغيرهم، ففي تفسير آية {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله} ورد في الروايات "نحن المحسودون"، ولكن علينا أن ننظر على ماذا كان هذا الحسد؟! على علمهم وتقواهم؟!
فنحن نعرف أن العلماء والزهاد كانوا كثراً في ذلك الزمان وكانوا معروفين بين الناس بهذه الصفات وكان لهم الكثير من المحبين والأصحاب من أمثال: وأبو حنيفة، أبو يوسف، والحسن البصري، وسفيان الثوري، ومحمد بن شهاب والعشرات من أمثالهم، ممن كان لهم أتباعاً ومريدين. وفي الوقت نفسه لم يحسدهم الحكام والسلاطين، ولم يبغضوهم، بل ـ وكما ذكرنا ـ إن الحكام كانوا يحبون بعضهم. إذن فخلفية عداء هؤلاء لأهل البيت (ع) ، والتي انتهت إلى استشهادهم، هي شيء آخر بنظرنا، وهي ليست إلا مطالبة الأئمة بحقهم في الإمامة والخلافة/ وهذا ما لم يدّعه الآخرون. هذا بحث مطلوب.
ومن جملة الأبحاث المطلوبة أيضاً حول التحركات الثورية والمعارضة التي قادها أصحاب الأئمة ضد النظام الحاكم، ونستطيع أن نرى نماذج منها في كل المراحل التي عاشها الأئمة ؛ ففي زمان الإمام السجاد (ع) ، أي في ذروة الضغوط والقمع، نرى يحيى ابن أم الطويل وهو أحد حواري الإمام يأتي إلى المسجد مخاطباً الناس الذين رضخوا لرجال السلطة، قارئاً الآية التي خاطب بها النبي إبراهيم (ع) الكفار: {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء...}.
وكذلك كان يخطب في الناس في كناسة الكوفة (اسم موضع في الكوفة) معترضاً على الأوضاع السياسية الحاكمة منادياً الناس بصوت عال...
وكذلك فعل معلى بن خنيس حينما خرج لأداء صلاة العيد بمظهر حزين وكئيب وعليه آثار التفجع ؛ فصعد إلى المنبر مثل الخطيب وقال رافعاً يديه: "اللهم إن هذا مقام خلفائك وأصفيائك وموضع أمنائك.. ابتزوه" (يعني غصب الخلافة) . وللأسف فإن هذا الصحابي الجليل الذي لعن الإمام الصادق قاتليه، وكان (ع) يثني عليه، يشكك البعض في وثاقته، وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الافتراء هو الأيادي الخبيثة لبني العباس.
والمسألة الأخرى التي لها بحث واسع وعميق، هي مسألة "التقية" ؛ ولفهمها يلزم أن ننظر في كل الروايات التي تتحدث عن الكتمان والتستر، إضافة إلى التوجه لهدف الأئمة الذي سبق ذكره وهو إقامة الحكومة العلوية، والأخذ بعين الاعتبار بطش الحكام في مواجهة هذا المطلب. ومع هذه التحركات للأئمة (ع) وأصحابهم، وبالالتفات إلى كل هذه الأمور نفهم المعنى الحقيقي للتقية، بحث لا يبقى أي شك في أن التقية لا تعني التوقف عن العمل، بل هي إخفاء هذا العمل ؛ ويتوضح هذا بمراجعة الروايات.
هذا قسم من المباحث المهمة المرتبطة بسيرة أهل البيت (ع) ، وطبعاً فهنالك مباحث أخرى كثيرة تتعلق بالحياة السياسية

لأولئك العظام. ولا يتسع الوقت حتى لذكر فهرس لهذه المواضيع. ولقد كان لي عمل دؤوب في كل هذه المباحث، ولكن مع الأسف، فلا يوجد عندي اليوم فرصة للاستمرار ولتجميع هذه الملاحظات التي قد قمت بتدوينها سابقاً، فيا ليت من يكون من أصحاب الهمم العالية كي يتابع هذا العمل. فيجمع مباحث الحياة السياسية لأئمة أهل البيت كي يقدمها للناس، حتى نستطيع أن نجعلها درساً وقدوة لنا، وليس فقط كذكرى خالدة.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بما أن أحد الجوانب التأثيرية والمجبولة عليها النفس الإنسانية هو حب الجمال، ومن خلاله انطلق الإبداع الإنساني في الفنون المختلفة، وبما أن للفن والأدب خصوصية التأثير في طبع الإنسان بحكم انسجامه مع هذا الطبع، فكل فرع منهما مؤثر فيه، حتى لو لم يستطع ذلك الشخص تفسيره، فالفن والأدب يتركان أثراً في النفس الإنسانية، قد يغيّر القلب ويترك أثره على الروح، وكلما كان الجانب الفني أقل كلما كان التأثير أضعف. وفي امتداد الحياة البشرية الكثير من عشّاق الفنون الذين أبدعوا ـ بحسّهم المرهف المستمد من قيم السماء ـ أعمالاً تتناقل الأجيال الإكبار لهذه الأعمال.
ولضعف الإيمان في نفوس بعض، انجرفوا بعيداً عن الوازع الديني والإنساني، فحوّلوا الفن إلى وسيلة تخريبية لقيم المجتمع، وتدميرية للبناء الأخلاقي، فتحوّل ذلك الفن وبالاً على الإنسانية، عانت منه البشرية ولا تزال.
ومع انطلاقة الدين الإسلامي، أضفى على الفن بعداً جديداً، فانطلق الفنان والأديب المسلم في إبداع مميز، يدعمه الفكر الإسلامي، ويشدّ من أزره، ويأخذ به إلى هدى في عطائه، مستجلياً المفاهيم الإسلامية يترجمها من خلال نافذة إبداعه وفنّه.
وبما أن الإسلام يعتمد في إيصال أهدافه وتشريعاته ونشر تعاليمه على التبليغ، اعتبر الفن الإسلامي من أهم الوسائل التبليغية وأكثرها فاعلية، شريطة أن يتوفر عنصر بنّاء مأخوذ من الفكر الإسلامي، ومع عودة الإسلام من جديد إلى الواجهة يأخذ الفن الإسلامي بعداً جديداً، فبعد قيام الثورة الإسلامية المباركة لا ينبغي الشك في حاجتها إلى فن ملتزم، يحمل مفاهيم جديدة ـ بعد أن كان الإسلام مبعداً عن الساحة ـ تُرسّخ قيم ومعالم الإسلام، فناً مميزاً وتقدمياً، ينطلق إلى النفوس، تستشرف منه معاني الدين والكرامة.
ولترشيد هذه الانطلاقة الجديدة للفن الإسلامي نضع بين يدي القارئ والباحث ـ والفنان بالأخص ـ رؤية إسلامية معاصرة للفن هي رؤية قائد الثورة الإسلامية من خلال توجيهاته وآرائه وفتاويه، بما له من بُعد فقهي ونظر علمي ورعاية للأمة. آملين أن تكون وثيقة توجيهية يسترشد بها الفنان المسلم، ويسير على ضوئها، ويستشرف من خلالها رأي الإسلام للفن والأدب.
والكتاب، في فصوله الأربعة وملاحقه، وثيقة لم يسبق لأهل الفن والأدب الإطلاع عليها من خلال نظرة معاصرة لعلمائنا الأعلام.
نأمل أن نواصل تقديم ما هو جديد لأهل الحقيقة والإبداع، وأن يعمّ النفع بها لإحداث نقلة نوعية يأخذ المبدع فيها دوره ويستلهم من فنّه قيم السماء لتكون أبلغ وسيلة لإيصال رسالة السماء الخالدة.
والله نعم العون والنصير.

المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية في لبنان

أهمية دور الفن والأدب

أبلغ وسائل التبليغ:
... الوسائل الفنية هي ـ ولا شك ـ أبلغ الوسائل التبليغية وأكثرها فاعلية [1] .
الفن هو أسلوب للبيان والأداء، وهو أبلغ وأدق وأكثر تأثيراً وبقاءً من الأساليب التبليغية الأخرى ؛ والتدبر في كل واحدة من هذه الخصائص التي ذكرتها يعين في معرفة معنى الفن. وربما كان التقرير غير الفني ـ وإن كان علمياً وتحقيقاً ودقيقاً ـ فاقداً لخاصية البيان الفني.
لقد قلت مراراً أن لا حظ لأي رسالة ودعوة وثورة وحضارة وثقافة، من التأثير والانتشار والبقاء إذا لم يُطرح في شكل فني، ولا فرق في ذلك بين الدعوات المحقة والباطلة [2] .
لا ينبغي الشك في حاجة الثورة للفن، وحيث أن فن الثورة يحمل مفاهيم جديدة، لذا فطبيعي أن يكون غريباً، لكنه يجب أن يكون ممتازاً وفاخراً وتقدمياً، إذ من المؤكد أنه سيصطدم بأشكال المعارضة والعداء التي لا مناص لأي ثورة عن مواجهتها ؛ يضاف إلى ذلك أن عليه أن يرسخ في الأذهان المعارف الجديدة [3] .

البلاغ الخالد:
الشعر والأدب يشكلان أجمل صور إبلاغ الدعوات الجديدة ووسائل نشرها وإيصالها إلى أعماق القلوب والأرواح الإنسانية، وقد استطاع الشعراء والأدباء الواعدون رسم أسمى المعارف الإنسانية في صحائف الدهر بخطوط خالدة وإيصالها إلى الأجيال اللاحقة [4] .
إن من الضروري اليوم القيام بحركة جدية ودؤوبة لرفع المستوى الأدبي والفني على الصعيد الاجتماعي، فاشرعوا بها.. ويد الله وتأييد الشعب معكم، وإمكانات البلد تحت تصرفكم [5] .
إن الشاعر والأديب والفنان الملتزم لا يلبس حلل إبداعه سوى للقيم الأصيلة، وهذه هي المعرفة الصحيحة لأدق وألطف الخصائص للروح الإنسانية [6] .

دور ترسيخ رسالة الثورة:
إن لغة الشعر والأدب والفن هي القادرة على ترسيخ رسالة الثورة في أعماق المجتمع ؛ فعلى شعر الثورة أن يكون قادراً على عرض لبّ لباب الثورة ومحتواها الحقيقي بأفضل الأشكال الفنية ؛ وشعر اليوم هو مرآة المستقبل التي سيعرف أبناء العصور القادمة ما يجري اليوم في مجتمعنا.
وحقاً إن من الصعب تعريف الجيل القادم بعد خمسين سنة من أبناء مجتمعنا الذين لم يشهدوا الوقائع المعاصرة بمجريات وقائع الثورة في أيام الحرب المفروضة، وأيام أنت صار الثورة وعودة الإمام، وما جرى في هذه السنين العجيبة التي شهدت كل لحظة منها واقعة في هذا البلد... والوسيلة الوحيدة القادرة على تعريف الأجيال القادمة بذلك هي وسيلة الشعر والفن والأدب (7) .
يجب الاهتمام بالأديب والفنان، باعتباره صاحب أبلغ لغة في تبليغ الأفكار النبيلة، كما يجب اعتبار تشجيع الأدب والفنانين

الملتزمين، وتربية أمثالهم مهمة أساسية [8].

الانسجام مع الطبيعة الإنسانية:
... وللفن والأدب خصوصية التأثير في طبع الإنسان، بحكم انسجامه مع الطبع الإنساني، فكل فرع منهما مؤثر فيه حتى لو لم يستطع الشخص المتأثر به أن يفسّره، فالفن والأدب ينجز أثره في النفس، بمعنى أن يغيّر القلب ويترك أثره على الروح، وكلما كان الجانب الفني فيه أقل كلما كان تأثيره أضعف [9].

ينبغي تبليغ رسالة الثورة بلغة الشعر والأدب والفن، وهي أكثر أساليب البيان أصالة وتأثيراً، ويمكن تصدير الثورة بها بصورة أيسر وأكثر صدقاً من أية وسيلة أخرى [10].

---

(1) من كلمة القائد في مراسم ذكرى تأسيس منظمة الإعلام الإسلامي (22/6/1989م) .
(2) من حديث له مع أعضاء المؤتمر الثالث للشعر والأدب للطلبة الجامعيين في عموم إيران الذي ينظمه الجهاد الجامعي، بتاريخ (18/12/1986م) ، وسيأتي النص الكامل لهذا الحديث المهم كملحق للفصل الخاص بالفن الشعري.
(3) من رسالة القائد إلى المهرجان المسرحي الجامعي الثاني لجامعات إيران (5/11/1986م) .
(4) من رسالة القائد إلى المؤتمر الأول للشعر والأدب للجامعيين الإيرانيين بتاريخ (18/12/1984م) .
(5) من رسالة القائد إلى المؤتمر العام الرابع للشعر والأدب والفن (16/5/1984م) .
(6) من رسالة القائد إلى مؤتمر الشعر والأدب الذي أقامته نهضة مكافحة الأمية (30/9/1985م) .
(7) من كلمة القائد في المؤتمر الشعري الذي أقامته مؤسسة الشهيد (3/2/1987م) .
(8) من بيان القائد بمناسبة بدء السنة الرابعة من عمر حزب "الجمهورية الإسلامية" (18/2/1982م) .
(9) من كلمة القائد في جمع من شعراء مدينة مشهد المقدسة (24/3/1986م) .
(10) من رسالة القائد للمؤتمر العام الخامس للشعر والأدب (5/5/1985م) .

المحتوى وإسلامية الأعمال الفنية

معيار الإسلامية:
ترتبط إسلامية بعض الأعمال الفنية ـ كالقصة والتمثيلية ـ بمحتواها، فمثلاً ما هو تعريف القصة أو المقالة الإسلامية؟ إنها التي توضح المعايير والمفاهيم الإسلامية، وإذا لم تشتمل على المسائل الدينية بمعناها الخاص بل تشتمل على قضايا اجتماعية وسياسية وأمثالها، فيجب أن لا تكون معارضة للأصول الإسلامية ؛ فإذا التزمتم بهذه المواصفات فهذه المقالة إسلامية، أو على الأقل ليست مضادة للصبغة الإسلامية، ولا مغايرة لها [11].

لا إشكال فـي تطوير الأساليب الفنية:
لا يوجد في الجوانب الفنية في كتابة القصة شيء خاص يمكن اعتباره معياراً لإسلامية القصة أو عدم إسلاميتها، فكل ما يمكن به تحسين القصة أو تطوير شكلها الفني فلا إشكال فيه، بل هو أمر راجح، وكذلك الحال مع التمثيلية.
ولكن إذا كان فيها تربية وأفكار منحرفة وإغواء وبهتان وافتراء وفحش، فهي غير إسلامية [12].

تصور خاطئ:
من الطبيعي أن يكون العلم المسرحي والفنون المماثلة التي دخلت في بلدنا في العقود الخمسة الأخيرة ـ أي في فترة غربة القيم الإسلامية ونبذها والهجوم الشامل عليها ـ قد أقيمت على أسس غير إسلامية، بل إنها نمت في اتجاه مغاير، بل وحتى مضاد للمفاهيم الإسلامية.
فالمغتربون هم رواد هذه الفروع الفنية ـ بأساليبها الجديدة ـ وهم الذين عرضوها في بلدنا الإسلامي، وهؤلاء كانوا غرباء، بل ولعلهم معاندون للإسلام، ولذلك ولد تدريجياً في أذهان الجميع ـ ولا سيما الأجيال الفتيّة ـ تصور أن للمسرح والسينما طبيعة غير دينية، بل مضادة للدين، ولا يمكن ولا ينبغي الانتفاع منها لعرض المفاهيم الإسلامية [13].

مميزات أدب الثورة وفنها:
.... وأحد هذين النمطين من التفكير هو منهج الإسلام المعزول عن النزعات الثورية، لذا ترَون أشعاراً جيدة للغاية قيلت في مختلف المفاهيم الإسلامية، ولكن في المجالات الخالية من الجوانب الثورية.
إن رباعيات "جمال الدين عبد الرزاق" و"هاتف" وعدد من القصائد الأخرى، هي حقاً في درجة ممتازة من الزاوية الفنية، وبعضها في ذروة الإبداع الفني ؛ كما أن ما ورد في مقدمة "النظامي" أو في بعض الكتب العرفانية، أو قصائد "سعدي" في التوحيد والأخلاق تضم جميعاً مفاهيم إسلامية، لكنها وعلى الرغم من جودة بُعدها الفني، ليست شعر الثورة، وإن كان من الممكن للثورة الاستفادة منها كما سأتحدث عن ذلك لاحقاً، فهي إسلامية ويتوفر فيها الجانب الفني، لكنها ليست ثورية، حيث لا تلاحظ فيها الأبعاد الثورية للإسلام (14) .
الشكل وإسلامية العمل الفنـي:
وإضافة إلى المحتوى، يؤثر الشكل في تشخيص إسلامية أو عدم إسلامية الفن، فمثلاً في فنون الرسم وأمثاله يشخَّص الأمر من جهة المحتوى في كون اللوحة تشتمل على صورة امرأة عارية أو صورة مغرية، أو منظر كاذب واتهامي وغير ذلك ؛ أما الظاهر والشكل فهو أيضاً يمكن أن يكون معياراً لمعرفة إسلاميتها، أي نفس الشكل المنحوت، بغض النظر عن كونه نحتاً لإنسان عار أو

مستور، فأصل هذا النحت محرّم وفي بعض الفتاوى، فالبحث هنا هو عن شرعية أصل العمل وليس في كون مجسَّمة هذه المرأة عارية أم محجَّبة [15].

... في التمثيلية يمكن أن يكون نوع الأداء مؤثراً في معرفة إسلاميتها وعدم إسلاميتها، بغض النظر عن محتواها، فمثلاً ارتداء امرأة لزيّ الرجل وبالعكس محرّم شرعاً، سواء جاءت هذه المرأة لتقرأ آية من القرآن أو للتفوّه بكلمات مثيرة للشهوة [16].

تعريف الفن الإسلامي:

إن الفن الإسلامي غير فن المسلمين، وقد أشرت لذلك مراراً في أحاديثي لوقوع الخلط بينهما غالباً، فمثلاً عندما يقوم مسلم بـإعداد قطعة موسيقية أو إنتاج فيلم فهذا لا يعني أنهما إسلاميان حتماً.

الفن الإسلامي هو الذي يتوفر فيه عنصر بنّاء مأخوذ من الفكر الإسلامي... أي أن يتوفر في الشكل الفني وليس في المحتوى فقط شيء مأخوذ من الإسلام ومفاهيمه ؛ فابحثوا عن هذا الشيء لكي تستطيعوا العثور على منبع الفن الإسلامي (17) .

أفضل مضامين الفن الإسلامي المعاصر:

إن نداء هذه الدماء وقصة تضحيات المجاهدين في التاريخ الإسلامي هي أفضل موضوع وخير محتوى يمكن أن يحقق رسالة المسرح في الجمهورية الإسلامية بالمستوى المطلوب، وذلك بمساعـدة الفـن ووسائله وتقنيته المناسبة (18) .

إذا كانت قضية أن الفن للشعب وفي خدمته حقيقة وليست شعاراً مجرداً فمما لا شك فيه أن موضوع الحرب يجب أن يشكل أحد الموضوعات الأساسية لمحتوى الفن اليوم، وفي الحقيقة فإن هذه الحرب هي من أعظم الملاحم المليئة بالصور الفنية والقيم التي جسّدها شعبنا في هذا العصر [19].

حضور المرأة فـي العمل الفنـي:

أما فيما يتعلق بالسؤال الذي ورد عن إمكانية حضور المرأة في العمل السينمائي والمسرحي، فيجب القول في الجواب: إذا كان ظهور المرأة في الفيلم أو التمثيلية بشكل غير محرّم في غيرهما فهو أيضاً غير محرّم فيهما، وعليه فاشتراكها في التمثيل في الفيلم أو التمثيلية غير محرّم ؛ وغاية الأمر هو أنه يحدث أحياناً أن يحتضن رجل امرأة أجنبية، وهذا عمل محرّم في كل مكان وبضمها في الفيلم والتمثيلية، أو أن تظهر المرأة بحالة مثيرة للشهوة أو تتفوّه بكلمات أو تقوم بحركات مثيرة للشهوة، وهذا محرّم أيضاً. لذا فظهور المرأة في الفيلم أو على المسرح لا مانع منه أصلاً إذا خلا من موجبات الإشكال [20].

مظاهر الفن الإسلامي:

.... وعلى سبيل المثال فإن إيقاعات القرآن تشكل فناً إسلامياً ونمطاً كاملاً من الموسيقى، ويوجد في بعض البلدان العربية أفضل القراء ذوقاً وفناً في هذا المجال، والقرآن يجب أن يُقرأ بهذه الكيفية لكي يوصل مضمونه بصورة صحيحة.

قبل مدة قرأت مقالة لكاتب أجنبي أجاد كثيراً التشبيه في هذا الباب وأورد أمثلة عليه، منها أنه تحدث عن الفن الإسلامي في بناء المسجد وقال: إن قبة المسجد هي نموذج دقيق للفن الإسلامي، فهي تشير إلى قيام النظرة المعرفية للإسلام على محور التوحيد، بمعنى أن كل شيء فيها يتحرك حول محور واحد هو "الله"، وعندما يجلس الشخص تحت تلك القبة يشعر بأنه في مركز العالم ويرى نفسه مرتبطاً بجميع الكائنات.

والمحراب هو المكان الذي يقف فيه إمام الجماعة ويأخذ بيده ـ عادة ـ قرآناً أو كتاباً ليعلّم الناس شيئاً، لذا فهو في مكان يراه الناس، لذا يوضع حتماً فوقه قنديل، استبدل بمرور الأيام في المحاريب الجديدة بمصابيح وثريات جميلة، وحتى في المحاريب القديمة كان يوضع قنديل معلق بسلسلة، وفي ذلك تمثيل لمفهوم {الله نور السموات والأرض} حيث أن {مَثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة}.

أو أعمدة المساجد التي جرت العادة على بنائها بصورة تكون قاعدتها أعرض، في كيفية تعيد إلى الأذهان صورة نخيل مسجد الرسول الأكرم (ص) الذي أقيم على أعمدة من النخل، ونفس الأمر يصدق على مدلولات طراز المنائر وغيرها، فهي في شكلها

المعماري تعتبر من مظاهر الفن الإسلامي [21] .

(11) من حديث لسماحته مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (5/2/1980) .
(12) المصدر السابق.
(13) من رسالة للقائد وجّهها للمهرجان الثاني للمسرح الجامعي (5/11/1986م) .
(14) من حديث القائد مع المشاركين في المؤتمر الثالث للشعر والأدب للجامعيين الإيرانيين ـ الجهاد الجامعي (18/12/1986م) .
(15) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (5/2/1982م) .
(16) المصدر السابق.
(17) المصدر السابق.
(18) مقطع من رسالة للقائد وجهها لمهرجان 17 شهريور المسرحي المنعقد (8/9/1984م) .
(19) من كلمة القائد الافتتاحية لمجمع "الأدب والفن في خدمة الحرب" (21/9/1984م) .
(20) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (5/2/1982م) .
(21) المصدر السابق.

التعليم الفنـي:
لا ينتهي أمر العمل الفني بـإجادة محتواه فقط، فشكل الأداء الفني مهم أيضاً فالوعاء القبيح يصور ما فيه قبيحاً وإن كان جميلاً في الواقع. وفي العمل الفني لا تكفي الموهبة وحدها في صنع الإطار الجميل بل التعليم ضروري أيضاً وعلى الفنانين الذين يجدون في أنفسهم القدرة على تعليم الأصول الفنية أن يبادروا لمساعدة الشباب [22].

إن الشعر، وكذلك سائر الأساليب الفنية، هي مواهب إلهية، فيجب أن تجنَّد لخدمة خلق الله، وأن تكون حاملة للأهداف الإلهية السامية [23].

الإبداع والتجديد:
.... والأمر الآخر هو أن يتوفر عنصر الإبداع والتجديد في اللغة والتعبير والجمال ومحسّنات (العمل الأدبى) وكذلك في أسلوبه وشكله إذا اقتضى الأمر، وهناك ضروريات أخرى.. لا غنى عنها لتحقق الكمال المطلوب لشعر هذا العصر [24].

.... لقد أنشد هؤلاء الفتية نشيدهم مثل المنشدين المحترفين، فحركاتهم وأفعالهم تدل على ذلك، كما أن أصواتهم متناسبة، وهذا أمر مهم في الإنشاد المشترك، إذ أن عدم التناسب يؤدي إلى تخريب العمل ؛ أما أنت م فقد وجدتم الأصوات المتناسبة [25].

إذا صيغت أسمى المضامين في شكل شعري سيئ فلن تحقق تأثيرها المطلوب، وبالطبع فنحن لا نستطيع جعل الاهتمام بمضمون الشعر في الدرجة الثانية، بل يجب أن يستحوذ على الدرجة الأولى فيجب أن يكون المضمون جيداً، ولكن المحتوى الجيد لا فائدة منه إذا خلا من الإبداع الشعري الفني الجيد ولن يستطيع القيام بالمهمة الأساسية للفن وهي التبليغ [26].

.... إنني أخاطب الأشخاص القادرين على إنجاز الأعمال الفنية المؤثرة الذين يجتهدون في تبليغ رسالتهم الفنية، أن من الضروري أن يستفيدوا من الأساليب الفنية الجيدة والتقنية الصالحة والمؤثرة في كافة الفروع والمجالات الفنية والأدبية [27].

(22) مقطع من رسالة وجهها القائد للمؤتمر العام الرابع للأدب والفن والشعر (16/5/1984م) .
(23) مقطع من رسالة وجهها القائد للمؤتمر الأول للأدب الجامعي (18/12/1984م) .
(24) مقطع من كلمة القائد في المؤتمر الأدبي "شاهد" الذي أقامته مؤسسة الشهيد بتاريخ (3/2/1987م) .
(25) من حديث لسماحته بعد إجراء برنامج أناشيد في مقر محافظة شيراز (28/11/1987م) .
(26) من المقابلة الصحفية التي أجرتها مع سماحته معاونية وزارة الإرشاد الإسلامي الإيرانية (21/4/1985م) حول موضوع العمل السينمائي، ونشرتها مجلة "صحيفة" الصادرة في نيسان 1985.
(27) من كلمة القائد ألقاها في مراسم خاصة بمناسبة ذكرى تأسيس منظمة الإعلام الإسلامي (22/6/1987م) .

الفن فـي ظل الحكم الطاغوتي

مظلومية الفن:
كان الفن في العهد السابق مظلوماً، لأنهم عزلوه عن القيم والأهداف الإنسانية، فلقد أقاموا حكمهم على الترهيب والترغيب، وكانوا محتاجين لوسائل تعينهم على إبقاء عرشهم وسلطتهم ؛ وكان الفن مسخّراً لخدمة أهداف السلطويين والذين يكنزون الذهب (الأثرياء) ، فاستخدموه أداة لتسويغ مسلكهم وسلوكياتهم كلما احتاجوا لذلك وحرية ضد القيم الأصيلة ووسيلة للتخدير والتضليل على كل حال.
والحالة الوحيدة التي يكون فيها الفن في خدمة الأصول والقيم الحقيقية، هي أن يجتمع في الفنان الإيمان والجرأة، وهذه كانت حالة يندر تحققها واستمرارها [28] .

الثورة الإسلامية وتحرير الفن:
لقد حررت الثورة الإسلامية الفن من أغلال الظلم، ولكن إزالة سلاسل الثقافة الغربية المنحطة والغاوية عن أعناق الذين اصطبغوا وتعلّقوا بها أمر صعب، ومن قيود هؤلاء الفنانين الذين تربّوا في ظل نظام الظلم الملكي المنحط، لذا يجب اعتبار الفن الذي نما في بوتقة القيم الطاغوتية بأنه خطر مهدّد [29] .

استخدام الفن لمحاربة الإسلام:
في فترة أواخر الثلاثينات وعلى مدى عقد الأربعينات [30] ـ وهي الفترة التي شهدت توجه النشاط المسرحي والسينمائي إلى الامتزاج باتجاهات يسارية أيضاً ـ ازداد وضوح ظهور المشاهد المضادة للدين فيه. والجدير بالعلم هو أن السلطة المتجبّرة عمدت ـ بعد تأجج شعلة نهضة العلماء في سنة 1341 هـ. ش (1962م) ـ إلى تأييد أي تحرك مضاد للدين حتى لو كان يسارياً، وذلك بهدف استغلاله لمواجهة انتشار الإسلام الثوري بين جيل الشباب [31] .

غربـة الفـن:
على مدى الأعوام التي سبقت أنت صار الثورة كان الفن يعيش نوعاً من الغربة لأنه لم يكن في محله ومجراه الأصلي، ولا أقصد أننا لم يكن لدينا فن شعبي أصلاً، ففي كل حال يوجد مَن يُنفقون ما عندهم في محله الصحيح، ولكن الوضع العام للفن في المجتمع لم يكن كذلك بل كان في خدمة أصحاب السلطة والحكام... وكانت كافة وسائل وأدوات العمل الفني ومصادر الإبداع الفني لدى بني الإنسان وفي كل مكان ومن كل صنف ونوع تحت سيطرة السلطات [32] .
عندما وقعت الثورة تبدّل كل شيء وفي كل مجال، وبضمنها العمل الفني، ولنتجاوز عن تلك العدة من الفنانين، الذين ظلوا محجمين عن مواكبة حركة الشعب، والعمل في خدمته وإدراك أهدافه وآماله ومطالبه أولاً ثم الاستجابة لها ثانياً [33] .

الفن المعادي للشعب:
محفوظ للشعب دوماً حق مسائلة بعض الأدباء الأدعياء عن سر انفصالهم عنه في تلك الأيام التي لم يكن هناك أي حاجز بينهم

وبين هذا الشعب الرحيم والمقدّر للمبدعين في وطنه؟! ما هو نقصهم الذي جعلهم يحجمون عن قول شيء في تلك الأيام التي شهدت تلك التحركات الإنسانية العظيمة لأبناء جلدتهم والتي أجبرت العالم أجمع على الإعراب عن الإعجاب والتمجيد؟ وما الذي دعا بعض مدّعي الأدب إلى الخطابة والكتابة خلافاً لقناعات ومطالب شعبهم؟ [35].

لا ريب أن الشعر والأدب والفن قد استخدم ـ وكسائر مظاهر جمال الحياة ـ لخدمة الحكام والطواغيت، في ظل وساوس الترهيب والترغيب، وبما يجلب الأضرار لخلق الله، ويخدم أهواء أرباب السلطة والثروة. ولكن وعلى الرغم من هذه المظاهر القبيحة التي ألصقها الأشرار ومعلمو السوء بوجه هذه الموهبة السماوية فإنهم لن يستطيعوا أبداً تدمير لطفها وقيمتها الحقيقية ؛ فلم يستطع الذيـن فتحـوا أفواه المدح للظالمين على مدى التاريخ، أو الذين اتخذوا الشعر وسيلة لترويج الفساد وأداة للقبح والرذيلة، أن يسحقوا كرامة الشعر، بل إن ما قاموا به هو فضح أنفسهم [36].

التشجيع المخادع:

في السابق لم يكن تشجيع الشعر والأدب أكثر من خدعة، فهو تشجيع لم يكن يشمل سوى الذين كانوا على استعداد لفرش "تلك الحلّة المغزولة من القلب والمحاكة بالروح" تحت أقدام الجبارين واستجلاب قلوب آلهة السلطة والذهب باستغلال هذه الموهبة الإلهية القيّمة... وثانياً إن أيدي الترهيب والترغيب والتضليل قد أغلقت العيون عن رؤية الآفاق الجميلة النيّرة التي أقيم عليها المفهوم الإلهي للمجتمع وللإنسان [37].

إن الشاعر والأديب والفنان، القادر على رؤية الحقائق بعينه البصيرة ورؤيته الدقيقة ثم تحويلها في "مصنع" ذهنه الخلاق إلى شكل بديع وعرضه على بني الإنسان، كان يرى (في العهد السابق) أن الواقع الحياتي لمجتمعه مليء بالتوافه والفساد والظلم والعدوان والشقاء والجهالة والعصبية الجاهلية والتطلعات الحقيرة وأماني الغفلة والأوهام، وكان يرى أن المال والشهوات الجنسية والترف الحيواني هي أكثر البضائع مرغوبية في قيم ذلك النظام... وكان الشاعر والأديب والفنان مجبوراً على الخضوع لذلك والاستسلام أو الاعتزال أو الانسياق إلى الاتجاه الذي كانت تريده السلطة السياسية ؛ وكان هناك كثيرون ممن لم يقبّلوا صراحة أيدي السلطويين، لكنهم كانوا يكتحلون عملاً بغبار طريقهم!! ولذلك كان حال الشعر والأدب والفن في العهد السابق باعثاً ـ حقاً ـ للأسف والأسى والحسرات [38].

لقد لوثت الأيدي الخبيثة آلاف الينابيع المتفجرة ليس فقط في عهد حكم الظلم الملكي ـ وهو الذي مثّل ذروة المحنة والمصاب ـ بل على مدى قرون طويلة.

نحن شعب لا نقلّ في جانب المواهب الفنية عن سائر الشعوب الأخرى وعلى حد اطلاعي على القضايا الأدبية والفنية أرى أن لنا سابقة طويلة، والمضامين الموجودة في أشعارنا وقصصنا وبعض المجالات الأدبية والفنية الأخرى، ومنذ قديم أزمان شعبنا وبلدنا، هي مضامين سامية... وحتى في عصرنا، وفي عهد المحنة العظمى للشعب الإيراني حيث جاؤوا بالنظام الملكي البهلوي، ونهبوا كل شيء، كنا نرى مواهب قوية للغاية في مجالات الشعر وكتابة القصة والأفلام والتصوير وغيرها.. ولكن أيدى الناهبين الملوثة لوثت هذه الينابيع، بحيث أنها لم تعد تروي الظمأ وتشفي الجرح، بل وأكثر من ذلك أصبحت سامة قاتلة [39].

.... وهناك أيضاً أفكار غير إسلامية ومعادية للإسلام، أمثال التي دخلت آدابنا خلال الأربعين أو الخمسين عاماً المنصرمة، وبعضها ماركسية، وبعضها معادية للإسلام مباشرة ولها ميول للثقافة الغربية والتحديث الغربي، كما هو حال بعض الأشعار التي أنشدها بعض شعراء أوائل هذا القرن (الهجري الشمسي) فقد أنشدوا أشعاراً حملت أفكاراً أرادوا ترويجها، وهي لا تحمل أي صبغة إسلامية، بل إن قسماً منها معادٍ للإسلام بصراحة... ويوجد اليوم أيضاً شعراء يتابعون نفس تلك المناهج.

* * * * * *

إذاً، فالشعر الذي كان يحمل في ذلك العهد هدفاً ورسالة ما، كان خالياً من الروح الثورية الإسلامية، هذا إذا كان إسلامياً ؛ أما إذا

لم يكن كذلك فأمره واضح. وعليه، فلا يوجد بينها ما ينفع ثورتنا، وليس هو شعرها [40] .

(28) من رسالة للقائد إلى المؤتمر الأول للمسرح الجامعي (7/8/1987م) .
(29) تقارن العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين الميلادي.
(30) المصدر السابق.
(31) من رسالة القائد إلى المؤتمر الثاني للمسرح الجامعي (5/11/1986م) .
(32) من كلمة القائد في مراسم افتتاح مجمع "الأدب والفن في خدمة الحرب" (21/9/1984م) .
(33) المصدر السابق.
(34) من بيان القائد إلى المؤتمر العام الرابع للشعر والأدب والفن (16/5/1983م) .
(35) من رسالة القائد إلى المؤتمر الأول للشعر والأدب الجامعي (18/12/1984م) .
(36) المصدر السابق.
(37) المصدر السابق.
(38) من كلمة القائد في مراسم افتتاح مركز الفكر والفن (6/3/1985م) .
(39) من حديث القائد مع أعضاء المؤتمر الثالث للشعر والأدب الجامعي في عموم إيران الذي أقامه "الجهاد الجامعي" (18/13/1986م) .
(40) من كلمة القائد الافتتاحية في مركز الفكر (6/3/1985م) .

المهام الراهنة والمستقبلية

الحرب الفنية:
أزيلوا الصورة المشوّهة لثورتكم التي رسمتها أقلام أولي السوابق السيئة أو القلوب الخبيثة من الرموز المعروفة لملوّثي صفاء الطينة الإنسانية، سواء في داخل البلد أو أي بقعة من أرجاء المعمورة ؛ والذين يواجهونكم ليسوا تلك الشرذمة من الفنانين والأدباء الأشقياء مسودي الوجوه الذين تنكروا للثورة فحكموا على أنفسهم بالفناء، بل هناك جيش كبير من الوسائل الفنية العالمية التي تتحكم بها قبضة السياسات الاستكبارية [41] .

الاستفادة من ثمار الثورة:
مما لا شك فيه أن الثورة الإسلامية ستتمكن بعد فترة وجيزة من تقديم أفضل النتاجات الفنية في هذا المجال للعالم، وتوصل للبشرية إحدى أقيَم هدايا المنهج الإلهي والإسلامي، وذلك إذا ما شد شبابنا المؤمن أحزمة العزم والجد، وجنَّد ذخائر القيمة من المواهب، واستفاد من الأرضية الملائمة التي هيأتها له الثورة، وأنت فع من الوقائع البديعة الفريدة التي قدّمتها له ميادين الثورة والحرب المفروضة، وأحس بالحاجة الشديدة للفن التمثيلي في ترسيخ ونشر المفاهيم الثورية، وقام بالاستفادة من كل ذلك في العمل المسرحي والسينمائي وتطويره وتطوير أساليبه ومضامينه [42] .
من المؤكد أن ما يجري في مجتمعنا سينعكس في المرايا الصافية لذوق ومواهب فناني وأدباء هذا العصر ؛ وبالطبع فإن على الفنان والأديب المثقف واجب القيام بالمزيد من صقل وتصفية وتنوير هذه المرآة...
ومعلوم أن هذه المرآة لا تعكس دوماً الحقائق الواقعية بصورة دقيقة فأحياناً تظهر معوجّة، ولكن الحقيقة ستتضح يوماً، وسيُفضح الذين سعَوا لتشويهها وحرفها [43] .
نحن نعتقد أن الفنان والأديب الشاب، الذي أودع قلبه لدى الثورة وجنّده لخدمتها وخدمة أهدافها وقيمها وهو يتحدث عنها بصدق، سيصبح المؤرخ الخالد لتاريخ هذا العصر وحقائقه [44] .
يمكن أن تصبح نتاجاتنا الثورية إذا طوت مسير نموّها وتطورها الحالي نموذجاً للأعمال الأدبية في هذا العصر ؛ وإن الشاعر والفنان الناضج الذي ترعرع في مهد الثورة الإلهية والجماهيرية، وتعلّم نظامها القيّم السامي في ظل صفاء وقدسية الأجواء الخاضعة لحاكمية الوحي الإلهي، هو الأقدر من الجميع على تصوير طموحات حياة الإنسان المعاصر ونقاط قبحه ونقاط جماله، ورسم الطريق الذي يوصله إلى السعادة والفلاح والسمو الحقيقي [45] .
... وبالطبع فإن الفن الثوري لا زال فتياً لم يمر بالتجارب المكسبة للخبرات ؛ وإن من طبيعة هذا الوليد الفتي والبرعم اليافع أن ينمو بصورة تدريجية ؛ وتقع مسؤولية تنمية هذا البرعم عليكم أنت م أيها الأعزاء من الفنانين والشعراء وكتّاب القصة والعاملين في المجال التمثيلي والسينمائي والرسم وكافة الفنون الجميلة، وهذا واجب لا يخرج عن إطار إلهامكم الداخلي، بل هو يشكل عملاً بمسؤوليتكم الفنية والأخلاقية (3) .

قوة الشكل والمحتوى:
أيها الأعزاء، أنت بهوا إلى حقيقة أن الفن والأدب الذي يقدَّم اليوم بعنوان "الفن والأدب الإسلامي والثوري" هو وجه الجمهورية الإسلامية والثورة الإسلامية، لذا يجب أن يكون غاية في القوة في تقنيته وأساليبه ومحتواه... والأمل (أن) نحقق هذا المستوى الرفيع بعد بضعة أعوام، كما يجب أن يكون تطور المحتوى مقترناً بتطور الأسلوب [46] .

تعميق قيم الثورة:
إن الثورة الإسلامية باقية لأن دعامتها هو التأييد الإلهي والشعبي، ويجب أن يكون نتاجكم الفني والأدبي باتجاه تعميق قيمها ؛ وعليكم أن تصنعوا من وسائلكم الفنية سيفاً تستأصلون به الخبائث والشوائب لكي تفتحوا وتُعبّدوا بذلك سبيل تنامي الطهارة والإخلاص والتقوى في المجتمع (47) .
لقد فُتح أمام الجميع اليوم ميدان اختبار إبداعهم الفني بعد تحقق حاكمية القيم الإلهية ودخول جماهير الشعب في ميادين الحياة الجادة والحقيقية، وأكبر مشجع لهم في هذا الاختبار هي الأجواء الثورية لثورة بالمعنى الحقيقي للكلمة، تسندها أيدي الشعب وقلوبه"، فالمفاهيم والأهداف الثورية والملاحم الجماهيرية هي أوسع ميدان لجولان ذهن الشاعر والفنان، وكل ذهن خلاق يستطيع أن يشاهد في نبل الشعب وبسالته في مقارعة ذئاب الاستكبار المتوحشة وتحطيم آلهة السلطة والثروة والخداع، سعياً للحياة الكريمة ؛ وأن يرى في صفاء قلوب الشباب وصلابة واستقامة الأمهات في رفع راية الدفاع عن المستضعفين في سائر مظاهر الثورة الإسلامية أشد صور الفضائل سحراً وتأثيراً، ويجسّدها للآخرين بـإبداعات ذهنه الخلاق ؛ وهذا أدنى ما تتوقعه الثورة من الشاعر والأديب والفنان في هذا العصر، فعيون الثورة لن تتطلع للذين كانوا يقولون "نحن ضد الطاغوت" لكنهم ساروا عملياً معه، بل إن جلّ اعتماد الثورة هو على الطاقات التي أنجبتها الثورة وترعرعت في مهدها [48] .
لقد لوّثت الأيدي القذرة الخائنة آلاف العيون الفنية المتفجرة... ونحن نرى اليوم عن قرب الآثار الثقافية لما كان يُصطلح عليها بالحركة الأدبية والفنية للعهد البائدة، لذا فإنكم تتحملون مسؤولية جسيمة، وبالخصوص أنت م الفنانون والأدباء وسائر الفنانين والأدباء من غير الحاضرين هنا، ومهمتكم صعبة ولا شك. ولكننا وبفضل الله نحظى بميزة مهمة، وهي الثورة، وهي ميزة عجيبة تشبه أجواء الربيع، فالزهور تنمو حتى في السندانة الموضوعة في غرفة ولكن لا يمكن مقارنة نموّها هنا بنموّها فى الحقول الواسعة حيث تمنحها أمطار الربيع وأشعة الشمس وبركة الأرض الخصبة طراوة خاصة وسرعة مضاعفة في النمو [49] .

المنجم الغنـي:
إن طاقات الشعب كنز لا يفنى ومنجم ثمين لا ينفذ، وقد سعى البعض إلى إساءة استغلاله. أما اليوم فهذا المنجم الثري هو تحت صرف الثورة والإسلام، وهو منجم ذوق ومواهب وإبداعات الفن الإنساني... فاستخرجوا منه ـ ما أمكن ـ الأفضل والأنقى والأخلص من الغش، واصنعوا، وأنت جوا [50] .
لدي إيمان راسخ وجازم في أعماق القلب بأن مستقبل الفن والأدب في هذا البلد سيكون أكثر عطاءاً وأفضل نوعية، مثلما شاهدنا في المجالات الأخرى، حيث إنجازات قوانا العسكرية وشعبنا في ميادين الحرب وفنون القتال والمقاومة ؛ وأنت م ترَون اليوم عظمة ذلك وعظمة الملاحم الفريدة التي تشهدها ميادين الجهاد، وأنت م تتولّون مهمة تسجيل وتصوير هذه الوقائع، فهذا ما لا يستطيعه أيٌ كان ؛ بل إن رواياتكم وقصصكم هي القادرة على تجسيد روعة وجمال هذه الملاحم للعيون، لذا فعليكم أن تُقوّوا ـ ما استطعتم ـ طاقاتكم الفنية، وتزيلوا مختلف مواطن الضعف، فلا تتهاونوا في ذلك [51] .

الهدم والبناء:
لن يكون ممكناً تلافي الأضرار التي ألحقها عهد التسلط الثقافي دون جهادكم الدؤوب، أنت م الشعراء الواعون والرساليون، ولن يتحقق بدونكم تفتّح وتفجّر الشعر الثوري بالصورة المطلوبة. لذا يجب:
أولاً: يجب تشغيل كامل السعة الأدبية للمجتمع، والتعرف على المواهب، وتربيتها، وإعادة الطاقات المنسية التي لـقّتها أيدي الغفلة أو التغافل، إذا كانت سليمة.
ثانياً: ينبغي أن يصل الشعر إلى الجزالة والقوة اللازمة، ويطهر بالكامل من التوافه والضعف والجمود.
ثالثاً: يجب الاهتمام أكثر ـ في الموضوعات والأهداف الشعرية ـ بالقضايا الراهنة المهمة للمجتمع، وكذلك بالمعارف الإسلامية، وهي عامل رسوخ وثبات النظام الإسلامي، فيتحرك الشعر في مواكبة كاملة لحركة الثورة.
رابعاً: ينبغي التجديد والابتكار والإبداع في اللغة الأدبية والصورة التعبيرية والتشبيهية والمحسّنات [52] ....

الفن العصري:
إن الفن الإيراني اليوم هو فن المقاومة لا الاستسلام والخضوع، ومثل هذا الفن يستلزم أساساً الوعي ومعرفة خصوصيات العصر وكذلك الشجاعة والجرأة في مواجهة الهجمات الوحشية التي فيها كافة الوسائل لقمع وإذلال شعبنا [53].
لا يمكن أن يكون لبقايا فن عصر الطاغوت ـ الذي شكل الاستسلام للهجوم الثقافي الأجنبي روحه وميزته الأساسية ـ دور في بناء الثقافة الثورية والفن الثوري في هذه الحقبة [54].
يجب البدء بتحرك عملي شامل ودؤوب على صعيد التعليم والتربية الفنية ؛ وعلى المسؤولين المتصدين للشؤون الثقافية والفنية في الحكومة أن يضعوا الإمكانات اللازمة تحت تصرف الفنانين والباحثين في هذا المجال [55].

حادي قافلة الثورة:
إن استمرار هذه الحركة الجامعية يبعث الأمل بتنامي وتفتّح شجرة الشعر الثوري الفتي... إن روح هذه الحركة التضحوية يجب أن توجِد قدوة ونموذجاً بارزاً وواضحاً في مضمون الشعر والأدب الفارسي وفي أساليبه أيضاً وفي الحقيقة فإن شعر عهد الثورة ينبغي أن يكون حادي قافلتها [56].
إن الشعراء الشباب يستطيعون أن يصبحوا ـ من خلال نتاجاتهم الشعرية ـ مرآة عاكسة لكافة أهداف ثورتهم وسياساتها وأساليبها وحقائقها... وشغوب العالم ترى اليوم في ثورتنا وشعبنا وبلدنا ونظامنا قدوة لها، وكثيرون هم الذين يريدون أن يروا مصيرهم في مرآة هذه الثورة [57].

الفن والأدب الشعبـي:
يجب أن نعلن مواقفنا بحزم وقوة ونقول: يا كتّاب وصنّاع الأفلام والتمثيليات! إذا أردتم حقاً مواكبة هذه الثورة والشعب فعليكم بمعرفة عقيدة هذا الشعب والتحرك وفقها لتصبحوا شعراء وكتّاباً وفنانين شعبيين ؛ أما إذا بقيتم في البروج العاجية وواصلتم كتابة نفس الأفكار القديمة فستظلون منفصلين عن الشعب وتُعزلون ؛ ولأن هذه الحكومة شعبية فإذا اعتزلتم الشعب فستصبحون غرباء في كل مكان [58].
ضمن الرسائل التي تصلني، وصلتني رسالة من شاعر معروف لا أريد ذكر اسمه وفيها ـ وبعد أن شكر اهتمامنا بالشعر ـ يشكو من أن أحداً لم يهتم بأمره رغم أنه أنشد بعد الثورة عدة قصائد.. ! وعندما قرأت هذه القصائد وجدته يبشّر في إحداها بـ"بقرب رحيل هذا الخريف"!! فقلت لأحد الأخوة أن يكتب في الجواب على رسالته: إن نظرك ضعيف إلى درجة توهمك أن هذا هو عهد "الخريف" فلا ترى هذا الربيع المزهر، ورغم ذلك تشكو من انفصالك عن الشعب!!
لقد حل الربيع ولكن أيدي السرّاق هاجمته لاقتطاع زهوره، لذا فالواجب هو مواجهة هذه الأيدي وإخراج الحمار الذي دخل هذه الرياض، وليس إنكار أصل وجود الربيع الذي أزهر بخضرته وجماله، لكنك أنت الذي لا تستطيع رؤيته!
وتقول إن الفجر سيأتي ؛ فأي بصر لديك وأنت لا ترى هذا الفجر الصادق الذي انفلق؟!
وقد رد هذا الشاعر برسالة ثانية أعرب فيها عن سروره الكبير وقدّم فيها توضيحات لأقواله ؛ وقد أجاب ذلك الأخ عليها برسالة بليغة للغاية [59].
.... وعلى أي حال، فالفنانون هم من الفئات الحريصة أكثر من الجميع على أن يعرف الآخرون قدرها، وهذا هو سبب الحالة التي ترَونها في الفنان والأديب من كونه شديد التأثر سريع الأذى مرهف الحساسية، فهو عندما يتحدث مع شخص ويرى أنه لا يُفهم كلامه يتأذى بسرعة ويقول لنفسه: ماذا أقول لمن لا يفهم قولي، لذا يجفوه ولا يعكف نفسه عناء النقاش والبحث [60].

الفن وتبليغ العقائد:
... ويمكن إعطاء موضوع ما لكاتب أديب أو فنان ليخرجه بأسلوب مبتكر عبر الاستفادة من فنه ؛ وليس في ذلك تحديد له ليقال

إن فئة جاءت لتقييد الفنانين بالأغلال وتحديدهم وسلبهم الحرية، وإن الفن لا يمكن إخضاعه لأطر العقائد والتيارات الفكرية. إن هذا كذب محض، فالفن كان على الدوام أفضل أساليب تبيين العقائد. وعليه، يجب تجهيز الفنان والأديب بالأولويات التي يحتاجها المخاطبون اليوم [61].

يجب القول بأننا قصّرنا كثيراً في العمل قبل الثورة فيما يرتبط بالمجال الفني والأدب وإعداد الكوادر الكفوءة في هذا المجال، وهذا ما يجب تلافيه الآن [62].

أخاطب القادرين على إعداد الأعمال الفنية والأدبية المؤثرة وتبليغها بأن عليهم أن يجتهدوا فى العمل في هذا المجال ويستفيدوا من الأشكال والأساليب الفنية الجيدة والمؤثرة في مختلف الفروع والمجالات الفنية والأدبية [63].

يجب تنقية ثقافة شعبنا المستندة على أسس ورؤية إسلامية من الأفكار الموروثة من عهد الانحطاط الثقافي السابق، وهي موجودة بلا شك حالياً وتشتمل على شوائب مضرة... فعلينا العمل بما يؤدي إلى خبرات تخلفنا الثقافي الموروث الذي ابتلينا به على مدى قرون عديدة وبالخصوص في العهد الأخير [64].

---

(41) من رسالة وجهها للمؤتمر الثاني للمسرح الجامعي (5/11/1986م) .
(42) من حديث القائد خلال تفقده مجمع "الأدب والفن في خدمة الحرب" (21/9/1987م) .
(43) المصدر السابق.
(44) من بيان القائد موجه إلى المؤتمر الأول للشعر والأدب للجامعيين (18/12/1984م) .
(45) من خطاب القائد ألقاه خلال افتتاح مجمع "الأدب والفن في خدمة الثورة" (21/9/1984م) .
(46) المصدر السابق.
(47) من رسالة القائد للمؤتمر العام الرابع للشعر والأدب والفن (16/5/1984م) .
(48) من رسالة لسماحته للمؤتمر الأول للشعر والأدب الجامعي (18/12/1984م) .
(49) من كلمته الافتتاحية لمركز الفكر والفن (6/3/1985م) .
(50) المصدر السابق.
(51) المصدر السابق.
(52) من بيان للقائد وجهه لمؤتمر الشعر والأدب الذي أقامته "نهضة مكافحة الأمية في خراسان" (1/10/1985م) .
(53) من بيان لسماحته وجهه للمؤتمر العام الخامس لشعر والفن (5/5/1985م) .
(54) المصدر السابق.
(55) المصدر السابق.
(56) من رسالة لسماحته وجهها إلى مؤتمر الشعر والأدب الجامعي لعموم إيران (18/12/1985م) .
(57) المصدر السابق.
(58) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (15/2/1982م) .
(59) المصدر السابق.
(60) المصدر السابق.
(61) من كلمة القائد في مراسم ذكرى تأسيس منظمة الإعلام الإسلامي (22/6/1987م) .
(62) المصدر السابق.
(63) المصدر السابق.
(64) من كلمة القائد بمناسبة المرحلة الرابعة لمعرض كتاب السَنة (شباط 1986م) بمناسبة احتفالات عشرة الفجر.

مسألة الغناء والموسيقى

.... أما فيما يتعلق بالموسيقى والغناء، فعليّ أن أعترف بأننا لم نقدّم إلى الآن جواباً واضحاً وكاملاً بشأن هذه المسألة ؛ في السابق كنا نعتقد ـ ولا زلت على هذا الرأي ـ بأن الموسيقى المخصصة والمختصة بمجالس اللهو محرّمة، وكنا آنذاك نتصور أن الموسيقى الغنائية مختصة بمجالس اللهو، ولكن ما هو حكم الأدوات الحماسية أو طريقة "أبو عطا" أو "همايون" وأمثالهما؟
إن جميع الحناجر الإنشادية يُخرجون أنغاماً تنطبق مع هذه الأجهزة (الإيقاعات) الاثني عشرة.
إذاً، فهذه ليست محرّمة ؛ والموسيقى ليست سوى هذه الأنغام والإيقاعات والأطوار. وعليها، فهي ليست محرّمة إلا إذا داخلها شيء محرّم [65] .
... ثم ظهر فيما بعد رأي كنا نحن أيضاً نقول به على نحو الإحتمال، وكان يقول به أيضاً سماحة الشيخ المنتظري عندما كان منفياً في "طبس"، وعندما قال به سماحته قوياً لدينا، وهذا الرأي هو: إننا عندما نقول إن الغناء محرّم في شرع الإسلام فالمشار إليه هنا هو المحتوى وليس الشكل ؛ وأساساً إذا أردتم البحث عن مصداق الغناء فلا تدرسوا الموسيقى من زاوية شكلها لتقولوا بأنها حرام أو حلال، بل ابحثوا في المورد من زاوية المحتوى، بمعنى أن الغناء قضية محتوى لا شكل ؛ فـإذا بيـّنتم مضمونـاً توحيديـاً بأجمل الأغاني أو بأي صورة أخرى فهذا ليس محرّماً، ولكن إذا تحدثتم عن مضمون محرّم فيه معصية عبر موسيقى رزينة ولحن مقبول فهذا غناء (محرّم) ... وبالطبع فهذا الرأي ليس بعنوان فتوى ونحن أيضاً لم نثبته بهذا العنوان [66] .
.... كان هذا هو المطروح عندنا سابقاً ؛ أما الآن فالمطروح هو: أنه نُقل عن الإمام إنه قال بشأن بعض موارد الموسيقى، حتى المقترنة بأنغام الآلات الوترية: "لا إشكال في هذا المقدار". ونستنبط من رأي الإمام أن أنغام الآلات الموسيقية الوترية ليست محرّمة على نحو الإطلاق، وكذلك الأغاني المنشَدة، أي لا إشكال في التي تشتمل على محتوى سليم وتُنشَد بأنغام مناسبة، أما إذا كانت الأنغام قبيحة غير مناسبة والمضمون غير سليم فكل منهما سبب للحرمة.
وبالطبع ينبغي أن أشير إلى أن الأنغام عموماً تُخرج الإنسان بمقدار عن حالة الجدّ، وهذا طبع الموسيقى، فلا ينبغي إنكار الواقع، اللهم إلا إذا كان محتواها من القوة بحيث لا يسمع بحدوث ذلك، كما هو حال القرآن، فاللحن القرآني له هذه الخاصية فهو يبعث الروح في المقروء ويبرزه أمام الإنسان ويدخله ذهنه كلمة كلمة، ويجري في الروح جريان الماء، وبذلك يزيل تلك الحالة السلبية (الإخراج عن حالة الجدّ) الناتجة من صوت جميل مثل صوت الشيخ مصطفى إسماعيل مثلاً.
أنا نفسي عندما سمعت للمرة الأولى نشيد المرحوم الشهيد البهشتي رأيت أنه أخرجني بالكامل عن حالة الجدّ (الواقعية) ، وذلك بملاحظة ذكرياتي الخاصة وسوابقي الذهنية التي جعلت موسيقى هذه الأنشودة ومضمونها تؤثر في أكثر من الشخص العادي الذي لا اطلاع له على هذه القضية (ولا معرفة له بالشهيد) : والآن أيضاً عندما يُبَث هذا النشيد أسرح في عالم الذكريات والذهنيات وهذه حالة قد لا تكون لطيفة [67] .
السؤال الآخر هو: لم يُتخذ إلى الآن موقف واضح بشأن قضية الموسيقى في المجتمع الإسلامي، وهناك اختلاف في التعامل مع هذا الموضوع بين المسؤولين والآيات العظام، فلماذا؟
الجواب: هذا من الاشكالات الصحيحة بالكامل ؛ وأعترف بأننا كان ينبغي أن نحدد موقفاً واضحاً تجاه موضوع الموسيقى قبل الآن بأمد طويل. ولا بد هنا من أن أقول لكم: إن المحرّم في الإسلام هو الغناء وليس الموسيقى، فالموسيقى هي كل نغمة وصوت يخرج من حنجرة أو أداة معيّنة وفق أسلوب معيّن، والمحرّم هو نمط خاص منها هو الغناء.
وسبب اختلاف الآراء هنا هو أننا نفتقد الآيات والأحاديث الصريحة التي تحدد تعريفاً كاملاً للغناء، لذا يختلف الاستنباط الفقهي بهذا الشأن، فمثلاً المرحوم آية الله العظمى البروجردي (رضوان الله عليه) كان يعتقد بأن الغناء يعني الأنغام والأنماط الموسيقية والأنشودات الخاصة بمجالس اللهو والتسلية فتُقرأ فقط فيها، فهذه محرّمة حتى لو قُرأت في غير هذه المجالس، وكنا نطبّـق هـذا المفهـوم ـ إلى آخر حياة المرحوم آية الله البروجردي ـ على الأنغام والأغاني التي كانت متعارفة في ذلك العهد (عهد الحكم الملكي) ، وكنا نعتبرها مصداقاً لا شك فيه للغناء (المحرّم) . أما الموارد الأخرى فلا يقين في كونها مصداقاً له [68] .
لسماحة آية الله الشيخ المنتظري استنباط فقهي لطيف جداً بشأن موضوع الغناء، فقد زرته عندما كان منفياً في "طبس" وسمعته منه للمرة الأولى هناك، يقول سماحته: إن الغناء قضية محتوائية. وهذا ما يستنبطه من الآيات الكريمة والروايات الشريفة المستندة إليها ؛ بمعنى أنكم لو قرأتم شيئاً ذا مضمون سيئ بهذه الأنغام والموسيقى الخاصة فهو محرّم، ولكنه إذا كان

مضمونه جيداً ولا يصدق عليه مفهوم {لهو الحديث} و{ليضل عن سبيل الله بغير علم} فهو ليس غناءً وليس حراماً ؛ وبالطبع فهو لم يطرح ذلك على نحو الجزم والقطع بل أطلعنا على استنباطه الفقهي، وقد نقلناه عنه في الكثير من الأماكن. وقد سألته مؤخراً: هل تتذكرون رأيكم الفقهي الذي أخبرتنا به آنذاك؟ فأجاب بالإيجاب. ويتضح أن رأيه بهذا الشأن لم يتغير.

أما في موارد الشبهة والشك بأن هذا المورد هل هو غناء محرّم أم لا؟ فهنا "شبهة مفهومية" حسب اصطلاح علماء الأصول ومعظمهم يُجرون حكم "أصل البراءة" عليها، بمعنى أننا حيثما شككنا بأن هذا المورد هو غناء محرّم أو لا فعلينا القول بالنفي وعدم الحرمة.

ولكن إضافة لكل ذلك، من الضروري جداً أن نقوم بعمل تحقيقي صحيح في هذا المجال، وهذه مسؤولية الفقهاء. وقد قلت مراراً لأخوتنا الكبار من الفقهاء والأساتذة: إننا الآن لا نملك الفرصة اللازمة للبحث في هذه القضايا، وليس لدينا المجال اللازم للنشاط العلمي والفقهي، لذا فعلى الأخوة في قم من الفقهاء والخبراء الإسلاميين أن يعمدوا للبحث وحل مسألة الغناء والموسيقى للناس[69].

يجب شكر السيد "توكلي" على جهوده حيث أعدّ نتاجاً قيّماً للغاية للثورة، فكل واحد من هذه الأناشيد التي أُنشدت هو نتاج قيّم للثورة، وكل جزء من أجزاء هذا النشيد هو عمل فني إبداعي حقاً من الشعر والموسيقى وتشكيل مجموعة الإنشاد وإنشاده بهذا الاختيار الجيد. لذا يجدر بنا شكر هذا الرجل الكادح الصابر ـ حيث لا يمكن إنجاز مثل هذه الأعمال دون الصبر وتحمّل المشاقّ ـ ويجدر أن نقدّم التبريكات لهم على نجاحهم في إنجاز هذا العمل الفني بصورة جيدة والحمد الله.

كما أن جميع أفراد فرقة الإنشاد الأعزاء قد أجادوا أداء مهامهم، وقد دققت النظر في التلفزيون عند بث هذه الأناشيد فوجدت عمل وأداء هؤلاء الفتية المكرمين يدل حقاً على النضوج والتمرس مما يدل على جهود مدربيهم ؛ كما أن أصواتهم متناسبة بصورة جيدة للغاية حيث أن عدم تناسب الأصوات في الإنشاد الجماعي يؤدي إلى تخريب العمل...

كما أشكر هذا السيد العازف على "الناي" المنفرد على أدائه الهادئ والمؤثر، وهكذا يجب أن يكون العزف، لأن للعزف وللأنغام في أداء النشيد ككل حكم الملح للطعام فيجب عدم الإكثار منها فالتأثير الأساسي هو لأنفاس المنشدين فهي الموصلة للمضمون إلى أذهان الجميع[70].

---

(65) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (15/2/1982م) .

(66) المصدر السابق.

(67) المصدر السابق.

(68) من ندوة أجاب فيها سماحة القائد على أسئلة الحاضرين في جامعة طهران (16/12/1987م) .

(69) المصدر السابق.

(70) من كلمة قصيرة للقائد في مركز محافظة شيراز بعد برنامج اشتمل على إنشاد بعض الأناشيد (28/11/1987م) .

مدائح أهل بيت العصمة النبوية بيان نهج الحياة الحقة

دور مدائح أهل البيت فـي حفظ الإسلام الحق:
لقد شملتمونا أيها الأخوة الأعزاء بألطافكم، ونوّرتم ـ يا بلابل الرياض المحمدية ـ قلوبنا وعطّرتم محل عملنا بعبقات المدائح النبوية وهذه الكلمات اللطيفة البليغة. أسأل الله أن يحطيكم ويحيطنا في هذا المحفل وسائر محافلنا وأعمالنا وحركاتنا وسكناتنا ببركات السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) .
إن شجرتكم طيبة وسلسلتكم طويلة، وعلى الدوام نهضتم منذ عصر الأئمة (عليهم السلام) بمسؤولية أصعب الأعمال التبليغية في مواجهة أعداء الحق والحقيقة.
وتمتد شجرتكم وسلسلتكم النسبية المعنوية إلى دعبل والكميت والسيد الحميري وأمثالهم من الذين حملوا ـ في أصعب حقب التاريخ الإسلامي ـ رايةً كانت تجلب على كل مَن يحملها أشد أنواع الأذى ؛ والسبب هو أن هذه الأشعار تحمل رسالة سامية، ولم يكن ليتعرض لهم أحد لولا وجود هذه الرسالة في أشعارهم. "دعبل" كان يُعلن أنه حمل خشبته خمسين عاماً ينتظر مَن يصلبه عليها. وكان ممنوعاً قراءة أشعار السيد الحميري حتى في المجالس التي لا تضم أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص لأنها تحمل تلك الرسالة. وقد استشهد الكميت بعد سنين طويلة على أيدي حكام بني أمية الظالمين، وجرمه هو حب أهل بيت النبي الأكرم (ص) .
لقد ختم دعبل بصمة عار على جبهة كل خليفة (غاصب) وصل للحكم في عصره، وكتب لكل منهم شعراً خالداً على كتيبة التاريخ لا يمحى، بيّن فيه قبائح باطلهم ببلاغة تفوق تأثير عشرات الخطب.
عليكم أن تحفظوا تلك الرسالة التي جعلت لمدّاحي أهل البيت هذه المنزلة السامية، وهذه الرسالة عبارة عن: حفظ الدين الإلهي الحق في ظل موالاة أهل البيت ومجاهدة أعدائهم ـ أعداء الحق ـ ومجاهدة كافة الطواغيت والعتاة المتمردين على الحق.
أيها الأخوة، إن لهذه الثورة أعداء شرسين تقف في مواجهتهم، مستندة إلى إيمان الشعب، وهذا الإيمان يجب أن يتعمق ويصفو ويزداد نقاءً... وأي لغة أقدر على ذلك من لغة مدّاحي أهل البيت (عليهم السلام) عليكم أنت م أن تنشدوا للناس أشعاراً قوية في الموازين الشعرية.
وفي نفس الوقت تحمل رسالة الثورة ـ وهي رسالة كافة الأنبياء والأولياء والأوصياء ـ الدفاع عن الحق ومجاهدة الباطل، وقد شمل الباطل عالم اليوم.
لدينا ـ والله الحمد ـ شعراء كثيرون اليوم، وشعراء مجيدون ؛ والأشعار التي قرأها الأخ العزيز قوية جداً ولطيفة حقاً، وإن كنت لا أرغب في مدحها لاحتوائها على إشارات بشأني.

قرّاء المدائح والمسؤوليات الراهنة:
إن الشيء الذي يجب أن يحظى بالاهتمام الأول هو رسالة الثورة، في ذكر المصائب وفي المدح وفي الشؤون الأخلاقية... وما أجمل أن تقوموا بـإيصالها للناس بواسطة شعركم الذي يتحلّى باللغة الشعبية المحببة والألحان التي تعدّونها.
عرّفوا الناس بحقيقة أميركا وفي كل مجلس وحيثما تحدثتم، عرّفوهم بهوية يزيد هذا العصر وشمر هذا العصر وبني أمية والمستعمرين في هذا العصر.
القضية الأخرى قضية اللغة، أنت م تعلمون أن نتاجاتنا الأدبية اليوم مرتبطة بدرجة كبيرة بهذه الأمور التي تُقرأ وتقال ؛ فاختاروا الأشعار الجيدة وذات المواصفات الشعرية المطلوبة ؛ لدينا شعراء جيدون وتستطيعون نشر نتاجاتنا الأدبية الجيدة الصالحة والحاملة لهذه الرسالة بين عموم جماهير الشعب.
أسأل الله لكم التوفيق واستجابة الأدعية التي دعوتموه بها اليوم بلغة الشعر والنثر[71] .

المدائح النبوية وتحديد نهج أهل البيت العملي:
جميلة جداً دنيا ذكر أهل البيت ومدحهم والغرق في عشقهم وإغراق الآخرين في محبة عترة النبي (ص) وإيقاد شعلة هذا الحب في القلوب وترغيبها في مضاعفة عشقها وتعلّقها بهذه الشجرة الطيبة...
عظيم جداً هذا العالم، ومهنة مباركة مهنتكم، فهي في خدمة أفضل وأسمى أنماط المحبة والعشق، والحب نفسه هو أسمى الخصال الإنسانية وأسمى أنماطه هو حب عباد الله الصالحين وأوليائه وعترة النبي وأوليائه وعترة النبي الأكرم (ص) وهذا ما يمكن الإحساس به في عالمكم، والمهم هو أن تبيّنوه للناس.
في الأعوام الماضية، تحدثت للإخوان عن قضيتين أو ثلاث فيما يرتبط بذكر ومدائح أهل بيت العصمة (عليهم السلام) فلا أكرر الحديث لكني أريد التأكيد على قضية لعلّي أشرت لها سابقاً ولكن لا ضير من تكرارها وهي: إن ثورتنا قامت على أساس معرفة الشعب ووعيه، لقد قلت في كلمة سابقة إن معظم الثورات العالمية الأخرى قامت بدافع الجوع، فتفجّر الثورة الروسية الأولى ـ إذ أن عام 1917 شهد حركتين شعبيتين عظيمتين فصلت بينهما عدة أشهر، والحركة الثانية هي البلشفية التي وقعت في أكتوبر ـ تفجرت بسبب جوع الشعب حيث أن الشعب فقد الخبز ومسّه الجوع فنزل إلى الشوارع في العاصمة الروسية ـ وكانت آنذاك بطرسغراد ـ ثم احتل المعسكرات والدوائر الحكومية وقصر الملك المخلوع ؛ فكان هذا الجوع سبباً لتلك الحركة الشعبية الضخمة، وهذا ما تصرّح به الوقائع التاريخية وليس تحليلي للأحداث.
أما في بلدنا فلم يكن الحال كذلك، بل إن الثورة هنا قامت على أسس معرفة الناس ووعيهم لحقائق الأحداث. في سنة 1349 هـ. ش (1391 هـ. ق/ 1970م) كانت المجاميع اليسارية قد بدأت للتو بالنشاطات النضالية والعملية، وكان وضعنا يسمح لهؤلاء العاملين في الجناح العسكري منهم بالمجيء إلينا، لذا كان لبعضهم ارتباط بنا، فأتاني أحدهم يوماً فقلت له: إن الشعب لا يؤيدكم ولا بد من العمل الثقافي كمقدمة للعمل السياسي والعسكري، فأجابني ببسمة ساخرة قائلاً: هذا حسب منهجكم الفكري الإسلامي، أما منهجنا فليس كذلك، نحن يجب أن نبدأ بالحرب المسلحة ونفرضها عليهم!!
وقد رأينا ما فعلوا، فقد استمروا في تلك الأعمال لثلاثة أو أربعة أعوام فسبّبوا ازدياد القمع في البلد، وكان جهادنا سيتقدم بصورة أسرع لولا فعالهم تلك التي سبّبوا بها مضايقات لجهادنا.
إن الجهاد الإسلامي قائم على أساس المعرفة، واليوم أيضاً كلما ترسّخت هذه المعرفة لدى الشعب كلما ترسّخت الثورة، ونقصد بالمعرفة: العلم بكل ما يجب العلم به من أصول العقائد (التوحيد، المعاد، النبوة والإمامة) ، والمسائل الدينية المختلفة كالقضاء والقدر والأخلاق، الصفات المذمومة والصفات الممدوحة، وآداب المعاشرة والمفاهيم الرائجة في عرف القرآن والحديث الشريف كالصبر والجهاد والتقية وحقيقة الدنيا والآخرة وغير ذلك، وكذلك المعرفة بالقضايا السياسية كمعرفة التيارات السياسية الرئيسية في الدنيا، وتشخيص الأصدقاء والأعداء، وأساليب العمل السياسي، ومعرفة الأساليب العدائية، وأشكال الضربات التي يوجهها العدو، ومكامنها، وما الذي يجب علينا فعله لمواجهتها.
إن واجبنا اليوم هو تزويد الناس بهذه المعارف، وتمليكهم القدرة التحليلية اللازمة ؛ ويجب ترسيخ تلك المعارف في شعبنا، من معرفة التوحيد إلى معرفة شعار "الموت لأميركا"، ولها وحدة ومتصلة، فشعار "الموت لأميركا" عمل سياسي قائم على أسس الدين والتوحيد والعقائد، وكل هذه المعارف ـ بإطارها الواسع الممتد من أصول العقائد، إلى آداب المعاشرة، والأخلاق، والفرائض الدينية، والأحكام، والاهتمام بالصلاة والحج، وإلى العمل السياسي والتوعية السياسية ـ يجب أن تتعمق في الشعب، فعندها تستقر الثورة وتثبت جذورها بحيث أن كل قبضة توجد لها ضربة تكون نتيجتها تهشّم القبضة نفسها.
فمَن الذي يجب أن يقوم بهذه المهمة؟! إنها مسؤولية عشرات الوسائل وإحدى أهمها أنت م. فتأكيدي هو أن على مدّاحي أهل البيت القيام بدور التوعية في المجتمع ؛ قد تقولون: لنفترض أننا نستطيع أداء دور ما في الشؤون السياسية من المجالات التي ذكرتها، ولكن ما الذي نستطيعه في المجالات الثقافية المعمّقة؟!
إن المادة الشعرية الموجودة كثيرة ـ والله الحمد ـ والذين يغورون في دواوين الشعراء يجدونهم قد نظموا في كافة المجالات، لا سيما أشعار شعراء السبك الهندي فإنهم قد نظموا في كل المجالات التي تريدونها وهذا سر علاقتي بهذا النمط كما أشار إلى ذلك الأخ "إنساني"، والنماذج التي تلاها الأخوة تدل على ذلك، فأخونا العزيز الذي أنشد في البداية قرأ أشعاراً جيدة للغاية ـ لا أعرف شاعرها ـ وكانت في الأخلاق، فأكثروا من هذه الأشعار في المجالات المختلفة: السياسية، المعارف، آداب المعاشرة وغيرها..
أكثروا منها في مجالسكم، وعندها سترَون أنها ستصبح مجالس استثنائية، وبأصوات مثل هذا الصوت الدافئ لأخينا العزيز ذاك، وكذلك الأخ العزيز الآخر الذي جاء من قم، والحمد الله فأحدهم أفضل من الآخر، وهكذا ولو استطعت حفظها لأشرت إلى بعض خصوصيات كل منها وهي مؤثرة في رفع مستوى ثقافة المجتمع، وكذلك حال أشعار مدح أهل البيت.
توجد خصوصيتان أساسيتان في أشعار مدح أهل البيت (عليهم السلام) يجب على الأقل رعاية إحداهما، الأولى أنها تزيد حبنا لهم (عليهم السلام) ، وكل شعر يحقق هذا التأثير هو من المدائح الجيدة، وهذا أمر أساسي فلا يُتوهم أنه فرعي، هذا الحب هو

ضامن كل شيء ؛ وتوجد أشعار تتحدث عن أخلاقهم ومناقبهم وعلومهم ونسبهم وفضائلهم، وهي أشعار جيدة تحقق الخصوصية الأولى.

والخصوصية الثانية هي أن حياتهم ومواقفهم ترسم لنا منهجاً عملياً للحياة الحقة المتجلية في صراحة لهجتهم وقولهم الحق وشجاعتهم وإيثارهم وتضحياتهم وجهادهم وكرمهم وإنفاقهم وذوبانهم ومحوهم في مقابل ربهم ونظائر ذلك.. هاتان ميزتان رئيستان في مدائحهم، وتوجد بالطبع ميزات أخرى تأتي في مراتب لاحقة، وأشعار المدح الخالية من هاتين الميزتين لا تفيد مجتمعنا، ومن نماذجها القصيدتان اللتان تلوتا في هذا المجلس في مدح الأئمة المعصومين (عليهم السلام) والسيدة الزهراء (سلام الله عليها) .

يمكن دائماً العثور على أشعار مربية ومفيدة للغاية في باب حياة الأئمة (عليهم السلام) ، وفي الأخلاق والمعارف وتلاوتها في المجالس، ويستطيع مدّاحو أهل البيت ـ وفي ظل أسلوبهم في إنشاد المدائح ـ القيام بأكبر دور في تعميق الثـقافة والمعارف الإسلامية في أذهان الشعب ؛ وبالطبع فهم في حاجة إلى جمعيات يحضر فيها مع قراء المدائح الذين لديهم تجارب في هذا الفن، ليتم في محافل هذه الجمعيات نقد الأشعار وإصلاحها فمثلاً الأخوة الذين أنشدوا أشعار المدائح هنا أجادوا في الإنشاد كثيراً، ولكن قرأت كلمة "به تو" (إليك) بصورة "برتو" (عليك) فأدى ذلك إلى تدمير معنى الشعر، وما أحسن أن تراعى هذه الأمور الدقيقة من الزاوية الأدبية بصورة كاملة لتستطيعوا بدوركم نقل اللغة الفارسية إلى جماهير الشعب، وهي اليوم تمثل لغة الثورة ولغة الدين، فيجب تقويتها من أجل نشر معارف الإسلام في أرجاء العالم.

وعليه، فمن خلال رعاية الموازين الأدبية في الأشعار يتحقق ضمناً تقوية اللغة أيضاً، وعلى البعض في هذه الجمعيات القيام بهمة نقد الأشعار وإصلاحها ـ مضموناً وألفاظاً ـ فيما يتولى البعض الآخر نقد وإصلاح فن الإنشاد وقراءة المدائح. ويوجد اليوم ـ والله الحمد ـ الكثير من المدّاحين على العكس من الوضع في السابق حيث كانوا ـ قبل ثلاثين أو أربعين عاماً ـ قلة، فمثلاً كان لنا في "مشهد" اثنان منهم فقط لكنهما كانا جيدين حقاً ـ رحمهما الله كليهما ـ وقد ورد ذكرهما في محفلكم هذا، الأول هو المرحوم السيد "ستايشغر" وكان ذا وجه صبيح وحسن الصوت، والآخر المرحوم "أفصح" وكان حياً إلى فترة قريبة ؛ كما كانوا قلة في طهران أيضاً، بالطبع أكثر من أمثالهم في "مشهد"، ولكنهم على أي حال كانوا قليلين جداً مقارنة بعددهم الآن في طهران وسائر المدن الأخرى، وبأكثر من زيٍّ ومن فئات مختلفة، وهم قراء وفق أنماط متعددة، وهذا الحال لم يكن في السابق ؛ لذا يجب استثمار هذه الفرصة بأقصى ما يمكن من أجل تقوية الإسلام والثورة وإيمان الشعب، وأعتقد أن هذا الأمر ممكن وعملي [72] .

(71) من حديث القائد خلال استقباله جمعاً من قراء مدائح أهل بيت العصمة النبوية من طهران وقم (14/3/1985م) .

(72) من حديث القائد خلال استقباله جمعاً من قراء مدائح أهل بيت العصمة النبوية (9/2/1988م) .

الشعر: الالتزام والتجدّد

الأدب الحيّ:
إنني ـ باعتباري محباً للأدب والشعر ـ أشعر بالسرور لوجود مثل هذا الشعر الممتزج ـ والله الحمد ـ بالمفاهيم الحية لمجتمعنا وخروجه من الجمود والتكرار، وبالطبع إن لكل أمر استثناء، وهذا أمر كان على الدوام وما زال، ولكن الحركة الشعرية كانت في السابق ـ وبصورة عامة ـ تكرار مكررات ولم يكن الشعر في خدمة الأهداف الإنسانية السامية والقضايا الأساسية لحياة المجتمع الإنساني [73].
في كل حقبة تشهد تحولاً داخل المجتمع يتبدل معها مساره... ويجري هذا الأمر على الشعر أيضاً فكان يتغيّر ولكن يعود فيما بعد إلى مساره العادي، فمثلاً تعرّض خلال الحركة الدستورية في بلدنا إلى هزة، وشهدت مضامينه حالة من التجديد، ولكنه عاد فيما بعد تدريجياً إلى نفس رتابته السابقة ؛ .... وكل ما كان كان تكرارياً، فلا جديد فيه لأهل عصره، فلا من نداء فيه ولا خير ولا إحساس ؛ حتى جاءت ثورتنا فأوجدت ـ والله الحمد ـ تحولاً في الأدب والفن وخصوصاً الشعر [74].

خصوصيات شعر الشهادة:
.... إن أحد أكثر الموضوعات حماسية وملحمية هو موضوع الشهادة والشهيد، فقارنوا هذه المجموعة من الأشعار التي أنشدت في هذا الموضوع بالمراثي التاريخية المعروفة كمرثية الخاقاني لولده... بيني وبين الله أشهد بأن هذا الشعر الذي يُنشَد اليوم بشأن أحد الشهداء، وبالفهم الذي تتضمنه لمعنى الشهادة، وبمضامينها السامية، وبإحساس الشاعر الوجداني فيه لحقيقة القتل في سبيل الله والتخضّب بالدماء دفاعاً عن القيم الإنسانية، هذا الشعر هو من نمط آخر لا يمكن مقارنته بمرثية ذلك الشاعر والحكيم الفلاني لابنه العزيز مهما كانت تلك المرثية متينة، وحتى لو كانت من الناحية الفنية أقوى من هذا الشعر ؛ وهذا مسلك وظاهرة جديدة يجب متابعة تطويرها [75].
هذه موضوعات جديدة ومفعمة بالعاطفة تلك التي دخلت في الأدب في عصر ثورتنا، كقضية الجهاد في سبيل الله والدفاع عن المستضعفين ومجاهدة المستكبرين والظالمين، وظاهرة عمومية العشق للقائد وأحاسيس المودة الصادقة تجاه الإمام الخميني [76] ....
يجب تطوير الشعر من أجل تبيان وتفهيم الحقيقة، لأن تفهيم الإنسان العادي يحتاج أولاً إلى جذب انتباهه وقلبه وعينه، وهذا الأمر ممكن فقط عندما تتوفر الجاذبية في العمل الفني والجمال والتمثيل الحسن والصور الجميلة في الشعر [77].

الروح الثورية والعمل الأدبي:
هؤلاء الشباب الذين أنشدوا أشعارهم هنا، هم طاقات يمتلكون مواهب متفجرة، وأعجب لذلك فأين كانت كل هذه المواهب، ولماذا لم تظهر قبل الثورة في هذا البلد؟! كنا نعلم بما كان يجري في عالم الأدب والشعر في تلك الأيام فلم تكن توجد مثل هذه المواهب، والثورة هي التي هيأت القلوب لتفجّر ينابيع هذه المواهب، فما لم تتأجج النار في القلب فلن يصدر القول المؤثر، وعندما تفتّحت القلوب تفتّحت الألسن وأخرجت كنوز الفن من الأرواح وأظهرت [78].
توجد ـ والله الحمد ـ كل هذه المواهب الجيدة في مجتمعنا، وعلى أصحابها أن ينشطوا في عملهم ؛ وهذه هي وصيتي للفنانين والأدباء والشعراء الشباب، فالموهبة وحدها لا تكفي بل يجب أن تقترن بالعمل [79].

أسمى الصور المطلوبة للأديب:
في السابق كانت الشجاعة تجذب الشاعر، فقيلت في وصف الشجعان كل تلك الأقوال، فهل تجدون في التاريخ نظائر لكل هذه الصور المعاصرة للشجاعة في ميادين المعارك؟ شجاعة الشبان والرجال والنساء والزوجات والأمهات.. ؟ فأين تجدون مثل شجاعة تلك العوائل حيث تقدّم الأم أربعة وخمسة شهداء بكل شجاعة وصبر... هذه الصور الجميلة الجاذبة في مختلف الأبعاد المعنوية كان ينشدها ويبحث عنها دائماً الشعراء وأرباب البيان والقلوب لينشدوا نتاجهم الفني على أعتاب جمالها المعنوي. إذاً، فعلى أصحاب المواهب الفنية القيام بذلك، اليوم [80] .
لقد سعى مديرو السلطة الثقافية الغربية ـ وعبر جهود مكثفة ـ إلى تسخير الأدب الفارسي لخدمة أهداف منحرفة أو فارغة تافهة، وسعَوا ـ في ذروة تصاعد نشاط ما سمّيت بـ"الحركة التجديديـة" ـ إلى تلويث الشعر بالفساد والفجور والوضاعة، وليس قليلاً ـ من جهة الكمية ـ الشعر الذي جُنّد لإضلال أفكار الناس وحرف قلوبهم أو تمجيد الجبابرة خلال حاكمية تلك السلطة الثقافية.
كان رسول الله الأمين (ص) يعتبر الشعراء المؤمنين الرساليين بأنهم أمراء مملكة البيان ؛ وسنّة أولياء الله الحسنة هي أن يعرضوا على القلوب أسمى الحقائق في أحسن حلل البيان، فينزلوا صواعق كلماتهم الفاخرة المنتصرة كسيف ذي الفقار الغالب على جسد أشرار العصر [81] .
الإسلام يكرم البيان، والإلهيين من أرباب البيان ؛ والبيان الجميل هو علامة من علامات الله الجميل، الذى أجلس أحسن الحديث ـ وهو الكلام الإلهي ـ على أجنحة الفصاحة والبلاغة لطائر الخلود فنوّر بأنواره الساطعة كل حقب التاريخ [82] .
لقد أصبحت عاشوراء ـ ببركة هذه الكلمات والخطب البليغة والحماسية في كربلاء ـ ثقافة كاملة وليست واقعة وحسب، ولوحة معبّرة كتبوا فيها شعر العشق السامي بمداد الدم وعرضوه على التاريخ [83] .
إن الحرب هي بحد ذاتها شعر كتِب على صحائف الدهر، وهي أبلغ من كل بيان، وسيقرأ أحرار العالم أبيات العشق والإيمان والتضحية على خنادق شبابنا الشجعان [84] .
كيف يمكن أن يكون الإنسان شاعراً وفناناً وأديباً وهو لا يرى ولا يشعر ولا ينشد متحدثاً عن هذا الصراع الدموي بين الحق والباطل وبين النور والظلمة، والذي يتجلّى اليوم ـ أوضح من كل مكـان ـ في جبهات معركتنا الشجاعة ضد العدو المعتدي؟! [85] .
رأيت على الصفحة الأولى لإحدى الصحف شعراً لأحد الأخوة الصالحين، الأخ نفسه إنسان صالح ولكن الشعر ليس صالحاً، ومع ذلك نشروه في الصفحة الأولى وبحروف بارزة، وهو يشتمل على أخطاء واضحة وقواعد بديهية وليس كتلك التي يوردها المختصون وحدهم، بل هو ضعيف جداً وساقط من جهة الموازين الأدبية، وفيه أخطاء من جهة الوزن والقافية والحشو القبيح الملحوظ، وكل شيء فيه قبيح، فإذا أخذ الصحيفة أحد أصحاب الذوق الأدبي والشعر ووقع بصره عليه لألقى الصحيفة جانباً حتى لو كان هدفه هو قراءة خبر فيها [86] .

---

(73) مقاطع من كلمة القائد في المؤتمر الشعري الذي أقامته مؤسسة الشهيد تحت عنوان "شعر الشاهد" في حسينية "الإرشاد" بطهران (3/2/1987م) .
(74) المصدر السابق.
(75) المصدر السابق.
(76) المصدر السابق.
(77) المصدر السابق.
(78) المصدر السابق.
(79) المصدر السابق.
(80) المصدر السابق.
(81) مقاطع من رسالة القائد لمؤتمر "شعر الحرب" الذي أقيم في مدينة الأهواز الإيرانية (26/11/1986م) .
(82) المصدر السابق.
(83) المصدر السابق.
(84) المصدر السابق.
(85) المصدر السابق.
(86) من حديث القائد خلال لقاء أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (15/2/1982م) .

الملحق الأول

ترجمة نص الكلمة التي ألقاها سماحة آية الله العظمى السيد الخامنئي (حفظه الله) في المؤتمر الثالث للشعر والأدب الجامعي في عموم إيران بتاريخ 18/12/1986 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت أفضل أن أبقى فيما بقي من الوقت مستمعاً وأنت م تنشدون أشعاركم، ولكنكم أعددتم البرنامج بهذه الصورة، وها أنا أخضع لبرنامجكم.
في البداية، أرى لزاماً عليّ الإعراب عن شكري الصادق للأخوة والأخوات المنظمين لهذا المؤتمر الشعري، وكذلك لكم جميعاً فرداً فرداً، وبالخصوص للذين أنشدوا تلك الأشعار المربية والمفيدة.
هناك الكثير من المطالب المرتبطة بالشعر وأتمنى لو تسنح فرص للحديث عنها بين الحين والآخر، ولكني أكتفي هنا ببعض المطالب القصيرة بما يسعه الوقت المخصص المحدود.
أولاً: إن للشعر ميزة خاصة في عالم الأدب والفن ؛ وبالطبع فإن لكل فرع من الفروع الفنية والأدبية بجميع أساليبها ـ سواء الفنون التمثيلية، أو فنون الرسم والتجسيم، أو ما يمكن وصفها بالفنون الصوتية كالشعر والقصة والمسرحية وأشكال النثر الفني ـ لكل منها دور كبير في موقعه الخاص في تبليغ دعوة ما وتجسيد أحاسيس وعواطف معيّنة لا تقلّ أهميتها عن الفكر والعقل في محالّها المناسبة، بل هي بمثابة مصفاة للفكر والعقل.
والفن والأدب في حقيقتهما يشكلان أسلوباً في البيان والتعبير ولا أكثر، لكنه إذا تحقق الجانب الفني فيه بمعنى الكلمة الحقيقي فهو أبلغ وأدق وأكثر تأثيراً واستجابة من جميع الأساليب الأخرى، وقيمة الفن والأدب تكمن في هذه النقطة بالذات.
ولكل واحدة من هذه المميزات التي ذكرتها ـ الأبلغ والأدق والأكثر تأثيراً وخلوداً ـ حديث طويل، ولعل إدراكها الدقيق يساعد على فهم حقيقة الفن والأدب، فقد يكون بحث ما علمياً وتحقيقياً ودقيقاً لكنه يفتقد الجانب الفني في العرض، وجميع الإبداعات الفنية متساوية من هذه الزاوية، وإذا توفرت فيها جميعاً فقط جنبة عرض وتقرير دعوة معيّنة فهي مع ذلك لا تبيّن سوى بُعد واحد من أبعاد الفن وليس كافة أبعاده الأخرى الموجودة في ماهيته وعنصره، ولكل منها قيمة خاصة ليس الآن مجال الحديث عنها. ولقد قلت مراراً أن لا حظ لأي رسالة ودعوة وثورة وحضارة وثقافة، من التأثير والانتشار والبقاء إذا لم تُطرح في شكل فني مناسب، ولا فرق في ذلك بين الدعوات المحقة والباطلة.
إن الفن وسيلة استثنائية، ولكن من بين أساليبه المتعددة تحظى بعض فروعه بخصوصية خاصة، ومنها الشعر، فأنت م تلاحظون أنه يمثل إحدى أقدم مظاهر التمدن الإنساني، وقد يشاركه الرسم في هذه الميزة إلى حد ما ؛ وهذه الميزة تلاحظون قلّة ظهورها في الفروع الفنية الأخرى.
ولغة الشعر والتعبير الشعري قديمة للغاية وهي تكشف أن الإنسان كان بحاجة إليها منذ البداية، وعندما أقول الإنسان أقصد الشاعر والفنان ومخاطبهما أيضاً، فالجميع كانوا بحاجة إليه وإلا لم يظهر منذ تلك الفترة المبكرة ولم يكتب له البقاء في الطبيعة والخلق والتاريخ.
أجل إن للشعر هذه الميزة، وإذا أردتم دراسة ثقافة وتمدن وحضارة وتاريخ وأفكار بلد ما من بين الثقافات والحضارات والثورات وجميع الظواهر المعنوية للإنسانية... وإذا أردتم معرفة عمق تأثيرها فأحد أفضل وسائل ذلك وأكثرها توفراً للباحثين هي دراسة تراثه الشعري.

الشعر هو العنصر الأساسي في المجال الأدبي، وهذه هي قيمته، فيجب الانتباه إليها، وتقييمه على أساسها، وتقديمه على الفنون الأخرى، وإن كان لكل منها قيمته المهمة في مجاله المناسب، ولعل بعضها يصل إلى ذروة مستواه الفني إذا اقترن بالشعر.

إذا عرفنا قدر هذا التحول التاريخي العظيم الذي حصل لدى الشعب الإيراني، واستطعنا ـ إن شاء الله ـ حفظه وتطويره، فإن إنجازه ذلك يحتاج بكثرة إلى النشاط الأدبي والفني، والحضارة الآتية والتي ستأتي وستعم كل الدنيا حتماً هي حضارة هذه العقيدة والثقافة التي أشرقت شمسها مع طلوع هذه الثورة، وهي تحتاج بشدة أيضاً إلى جميع الوسائل لحمل رسالتها المعنوية العظيمة، وأفضل وأبلغ هذه الوسائل وأكثرها تأثيراً هي وسائل الفن والأدب وبضمنها الشعر. وعليه، فالإسلام والثورة بحاجة للشعر، وهنا بالذات أقول: إن الذين يتصورون أن الثورة الإسلامية لا علاقة لها بالأدب والفن يقعون في خطأ فاحش وهم لا يعون ما يقولون، فهذه الثورة أحوج من الجميع للأعمال الأدبية القوية والثقافة الغنية.

أفكر مع نفسي، أن هذه الثورة لو كانت قد ظهرت في بلد يفتقد للغة غنية ـ كما هو حال بعض البلدان الأفريقية ـ فماذا كان سيحدث؟ ماذا كان سيحدث لو لم تكن لغته مثل اللغة الفارسية، بسابقتها التاريخية الطويلة وسعتها الاستيعابية العظيمة، كما يؤكد علماء اللغة الذين يصفونها بأنها من أفضل اللغات.. وكيف كان يمكن للغة محلية محدودة ضيقة نقل هذه الثقافة الثورية للآخرين؟! وهل كانت ستستعين بلغة أجنبية؟ وأي بلاء سيجرّه مثل ذلك على الثورة؟! هذا البلاء لا نعاني منه نحن اليوم فلدينا لغة قوية وثقافة تاريخية غنية وعميقة وذهنية ثقافية يتحلّى بها شعبنا وجماهيرنا ؛ ولكن مع ذلك نفتقد الآن لفن على مستوى عالٍ، وهذه بالخصوص هي القضية التي سأتحدث عنها لشدة حاجتنا إليها.

إن جميع الإمكانات اللازمة متوفرة، ولكن المفقود هو العمل الغني المؤثر والفاعل القادر اليوم على تركيب هذه الإمكانات وتعبئة وعائها بالمحتوى الثقافي لهذه الثورة وعرضه، وهذه هي المشكلة الكبرى في عملنا، وعلينا الاهتمام بجهود معالجتها.

وكمقدمة لذلك ألفت انتباهكم إلى تجربة صدر الإسلام، والذي أتحدث عنه هو مفاهيم هذه التجربة الإسلامية والمفاهيم لا يبليها القِدَم الذي يتسلل لكل شيء باستثناء المفاهيم الإنسانية الأصيلة كالفضائل والقيم والكرامات الإنسانية والأمور التي يشخّص العقل الإنساني قبحها أو حُسنها، فهذه ثابتة لا تتغير، أما المتغير فهو الوسائل والأساليب والروابط.

إذاً، فالمعرفة الإسلامية جديدة دائماً عندنا، والإسلام نفسه عُرض في البداية في إطار فني بالكامل وهو القرآن الذي يُعتبر ـ بالمعايير الفنية ـ ظاهرة فنية فريدة واستثنائية. نحن الذين تشكل الفارسية لغتنا الأم نستطيع إدراك عمق جملة أو مفردة منها بصورة لا يمكن لغيرنا فهمها، إلا أن يكون قد عاش منذ الصغر بينكم ولسنين طويلة، أو كانت له مواهب خارقة واشتغل بهذه اللغة أعواماً عديدة، وإلا فلن يكون قادراً على إدراك أعماق جمالها الفني وألفاظها وتركيباتها، وقد أجمع الخبراء في شؤون اللغة ـ أي الشعراء والفصحاء والبلغاء والخبراء في القضايا الأدبية والفنية ـ على الاعتراف بالعجز قبال سمو الذروة الفنية الإبداعية في القرآن الكريم، ولكننا نعتقد في الثورة لشيء من هذا القبيل، باستثناء ما تحلّى به بعض المسؤولين المشتغلين بشؤون النهضة والثورة ؛ والأفضل مما لدى الجميع، وفي العديد من الأبعاد، هو ما توفر في شخصية الإمام من مميزات عدة ؛ وأبرز ما تمتاز به أدبيات الإمام في باب الثورة هي البساطة والسلاسة والبلاغة والشعبية وسلامة الأفكار في نفس الوقت الذي يستطيع الجميع فهمها، وهذه هي في الحقيقة من خصوصيات الأدبيات الإسلامية، ومع ذلك لا يمكن أصلاً مقارنة سعتنا الأدبية ولغة ثورتنا بالقرآن.

ويضاف إلى ذلك أن الرسول الأكرم (ص) نفسه كان يستفيد من أساليب أدبية سامية، وكذلك حال كلمات زعماء الإسلام في عصره من كبار الصحابة والأئمة، وكان (ص) يستفيد بالقدر المستطاع من نتاجات الشعراء، التي كانت تشكل أكثر الوسائل الثقافية رواجاً وتأثيراً في تلك الحقبة، رغم وجود آيات في القرآن ـ كما تعلمون ـ تذم بشدة الشعراء الفاقدين لخصوصية الإيمان {والشعراء يتبعهم الغاوون} إلى قوله {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. } حيث ذكر ثلاث أو أربع خصوصيات للشعراء الصالحين الذين استثناهم.

لقد كان (ص) يولي اهتماماً كبيراً بالشعراء ويحترمهم، كما هو مشهود في تجربة صدر الإسلام وفي سيرته (ص) ، حيث كان يقيّم الشعر والشعراء من خلال نظرته الاحترامية لهم، وجذبهم ودفعهم لإنشاد الشعر وتشجيعهم، وكان يفعل ذلك في مجتمع أعرض بالكامل عن الأمور الترفية وغير الأساسية، وكانت سياحته ولذته في الجهاد، حتى أن العديد من الروايات تؤكد أن مَن يريد الزهد والرهبانية والسياحة التعبدية فعليه بالجهاد.

في هذا الدين الجهادي والثوري وفي هذا المجتمع الذي قد يتصور البعض أن لا محل فيه للشعر تلاحظون ظهور شعراء كان يحترمهم النبي الأكرم حتى لو كان شعرهم ليس بشأن الجهاد أو القضايا الإسلامية الأساسية، فأعداء الثورة في ذلك العصر كانوا يمتلكون طاقات أدبية قوية وشعراء مشهورين ؛ لذا كان (ص) يشجع شعراء الإسلام على مواجهتهم لأن الشعر يواجَه بالشعر ولكيلا يسجل التاريخ أشعار الأعداء فقط ويبقى الإسلام أعزل في مواجهة هذه الحقبة التاريخية الخالدة.

واليوم، نحن بحاجة في ثورتنا لمثل هذه السعة والقدرة الفنية العالية، وحديثي كما قلت هو عن الشعر الذي يحظى بلغة غنية، ونحن لدينا فيها شعراء أمثال "حافظ" و"مولوي" و"سعدي" استطاعوا تضمين أدق وأصعب المفاهيم في كلمات غاية في الجمال،

بحيث تصل أحياناً إلى حد لا يمكن تشخيص درجة جمالية معيّنة لها، وبذلك يمكن فهم تلك المفاهيم الدقيقة الصعبة بصورة جيدة ؛ وهذا مستوى شعري راقٍ قلما نجد مثيلاً له في بلاغته وقوّته، وقد لا نجد أفضل منه في الشعر العربي، الذي أستطيع فهمه ولا أستطيع مقارنته (الشعر الفارسي) بشعر اللغات الأخرى التي لا أجيدها.

إذاً فلغتنا مرنة وذات سعة كاملة يمكن بها صنع أي شيء، بحيث أن الشاعر غير الفارسي يستطيع إدراك مدلولات كلماتها، والمثال البارز على ذلك هو "إقبال اللاهوري" الذي تعرّف على شعر "حافظ" و"مولوي" وتعلّم الفارسية عن هذا الطريق.

إذاً فلماذا نحن متخلّفون عن الثورة في المجال الشعري؟! هناك سبب واضح هو أن الأفكار التي تنطلق منها الثورة وتشكل شرايينها الأساسية ليست لها سابقة تاريخية طويلة في مجتمعنا المعاصر، وقبل ظهور هذه الأفكار الموجودة في مجتمعنا على نمطين كانت تدخل في إطاريهما الأشعار الرسالية التي اصطُلح عليها اسم "شعر الدعوة"، أحدهما عبارة عن منهج الإسلام المعزول عن النزعات الثورية ؛ لذا ترَون أشعاراً جيدة للغاية قيلت في مختلف المفاهيم الإسلامية ولكن في المجالات الخالية من الجوانب الثورية ؛ فرباعيات جمال الدين عبد الرزاق وهاتف، وعدد آخر من القصائد هي حقاً في درجة ممتازة من الزاوية الفنية وبعضها في ذروة الإبداع الفني ؛ كما أن ما في مقدمة "النظامي الكنجوي" أو ما في بعض الكتب العرفانية أو قصائد سعدي في التوحيد والأخلاق تضم جميعاً مفاهيم إسلامية، لكنها وعلى الرغم من جودة بُعدها الفني ليست شعر الثورة وإن كان من الممكن للثورة الاستفادة منها، كما سأتحدث عن ذلك لاحقاً، فهي إسلامية ويتوفر فيها الجانب الفني لكنها ليست ثورية حيث لا تلاحظ فيها الأبعاد الثورية للإسلام ؛ هذا هو النمط الأول للتفكير والشعر.

أما النمط الثاني فهو يشمل الأفكار غير الإسلامية والمعادية للإسلام، أمثال التي دخلت آدابنا خلال الأربعين أو الخمسين عاماً المنصرمة وبعضها ماركسية وبعضها معادية للإسلام صراحة ولها ميول للثقافة الغربية والتحديث الغربي، كما هو حال بعض الأشعار التي أنشدها بعض شعراء أوائل هذا القرن (الهجري) الشمسي، فقد أنشدوا أشعاراً حملت أفكاراً أرادوا ترويجها وهي لا تحمل أي صبغة إسلامية، بل إن قسماً منها معادٍ للإسلام بصراحة، ويوجد اليوم أيضاً شعراء يتابعون نفس تلك المناهج.

إذاً فالشعر الذي كان يحمل في ذلك العهد رسالة وهدفاً ما كان خالياً من الروح الثورية الإسلامية، هذا إذا كان إسلامياً، أما إذا لم يكن كذلك فأمره واضح. وعليه، فلا يوجد بينها ما ينفع ثورتنا وليس هو شعرها ؛ وهذا هو حال "شعر الدعوة"، أي شعر بيان الفكر، فإذا تجاوزناه هناك شعر كثير لا علاقة له أصلاً ببيان فكر أو هدف معيّن بل هو إما مدح وإما هجاء أو وصف للحال أو غزل أو عشق بمختلف الأنواع، فبعضها جيدة وفي سماء الإبداع الفني السابعة لكنها خالية من أية هدف ؛ وهذا ما تلاحظونه في تاريخ الشعر على مدى أكثر من ألف عام وفي مختلف الفنون الشعرية منذ زمان "رودكي"، حيث توجد أشعار في غاية القوة والجودة والجمال من زاوية الفن الشعري لكنها خاوية ليس فيها أي فكرة سوى ذاك الوصف لحالة العشق وأمثالها أو الحمد والهجاء. وقد جمعت مرة الموضوعات الواردة في الشعر الفارسي فوجدتها بحدود الخمسة عشر موضوعاً عاماً، وأنت م أيضاً تعرفونها، وخلاصة الأمر أنها لا تمثل شعر الثورة.

وهنا لا بد أن أشير إلى أننا عندما نقول إن الشعر الفلاني ليس شعر الثورة فهذا لا يعني أننا نرفضه بالكامل بل هو وسيلة قد يستلذ بها البعض، فطريق التخيلات لـ"لطيفة المؤنسة" لم يغلق بوجه بني الإنسان ؛ ونحن نقول إنه ليس شعر الثورة، لا إنه ليس شعراً أصلاً، ولكونه شعراً فهو فن وجمال، وقد يكون مطلوباً وقد لا يكون، ولا ضير أصلاً من وجوده في مجتمعنا، ولكنه لا يحظى بمكانة واحترام وافتخار شعر الثورة.

هذه هي سابقة شعرنا، ونحن اليوم نرى فكراً ورؤى جديدة ظهرت في المجتمع منذ عشرين عاماً ونيّف ووصلت ذروتها بعد أنت صار الثورة ولا زالت أبعاد هذا التحول العظيم التي نراها اليوم مجهولة للأغلبية، وكلما أمعنا في التفكير وجدناها أوسع مما فهمنا، وبظهور هذا التحول تحققت وتجسدت هذه الرؤى والفكر، ولهذا الواقع رسالة فمَن الذي يعرضها؟! إنهم الثوريون، فمثل هذا العمل لا يستطيع القيام به الفاقدون للإدراك الثوري، فالذي لم يحصل على شيء من الوجود كيف يستطيع إعطاء الوجود؟!

إذاً، فالثوري هو الذي يجب أن يقوم بهذه المهمة وأصحاب السابقة الثورية قليلون. وبالطبع يوجد شعراء أصحاب مواهب شعرية وطاقات فنية جيدة وهم يخدمون الثورة ويضعون فنّهم في خدمة أفكارها ورسالتها، ونشاطهم قيّم، وإني أحترم وأقدّر وأثني على جميع الذين جنّدوا طاقاتهم الفنية في خدمة الثورة فهم يقدّمون أعظم خدمة لها، ولا ينبغي لنا الشك في ذلك، ولكن عدد هؤلاء ليس كبيراً وليسوا جميع أصحاب البيان، فهم لا يكفون.

والعناصر الشابة التي تظهر الآن هي عناصر ثورية تتحلّى ـ أمثالكم أنت م الجامعيون والعلماء ـ بمستوى فكري عالٍ. وفهم صادق وخالص ونقي للثورة ولديها مواهب فنية بلا شك وهي تريد القيام بمهمة عرض رؤى الثورة وفكرها، فما الذي تحتاجه؟ وما الذي يجب أن تقوله؟ وأي مسير تسلكه؟! أعتقد أن الشيء الذي ينبغي أن نحصل عليه ـ تدريجياً ـ في هذا المؤتمر هو الإجابة على هذه الأسئلة.

لدي هنا عتاب، وفي الحقيقة بيان لحقيقة واقعية هي أن الكثير كانوا قادرين على جعل مواهبهم الفنية القوية في خدمة الثورة

والجماهير، لكنهم لم يفعلوا ذلك رغم كونهم شعراء على مستوى جيد من زاوية الموهبة الفنية، وبالطبع فإن بعضهم لم يكونوا يدّعون أنهم في خدمة الشعب، فأحدهم كان يقول: أنا قارئ رثاء لقلبي المجنون!! فهو كان يقول شعراً لنفسه ولا شأن له بالأفكار والأهداف الثورية، ونحن لا شغل لنا بأمثاله ولا نتوقع منهم أن يأتوا لتقديم خدمة لهذه الثورة ويحركوا ذهنهم من أجلها، فبعضهم قد تقوقع في زاوية وانشغل بشأنه، والبعض الآخر لا يفعل شيئاً أصلاً.

ولكن البعض ادّعَوا أنهم في خدمة الشعب لكنهم لم يلتحقوا بصفوف الشعب، ولذلك أسباب عديدة، فبعضهم بسبب أن أنت صار الثورة أبطل مرة واحدة كل الأفكار والمعتقدات التي كانت حاكمة على أذهانهم مثلما أن تحقق المعجزة يجعل السحر يتحول بنفسه إلى هباء منثور، فقبل تحوّل عصا موسى إلى ثعبان مبين كانت تلك الحبال المتحركة على الأرض تبدو ـ خداعاً ـ كمعجزة، ولكن وبمجرد تحقق المعجزة الحقيقية اندحرت تلك الحبال ومعجزتها الكاذبة ؛ وعندما تحققت معجزة الثورة دحضت كافة ما نسجته أذهانهم، غربيّهم وشرقيّهم ؛ دحضت العلمانيين على النمط الغربي الذي كانوا يتحدثون عن حقوق الإنسان والإنسانية وقيمها وأمثال ذلك، ويشيدون بالجمال والمحبة ويطلقون ادعاءات جوفاء ليس لها مصداق خارجي، كما دحضت اليساريين الذين اتخذوا خدمة الشعب والطبقة الكادحة شعاراً لهم وتعلّقوا به عمراً، فجاءت الثورة واتضح أن جميع تلك الشعارات جوفاء لا حقيقة لها ولا روح فيها.

فهؤلاء إذا أرادوا التخلي عن هذه الأفكار والتصديق بالحقائق الواقعية والقبول بها بكامل إشراقها، فالأمر يحتاج إلى تضحية وشهامة يفتقدونها، لذا لم يلتحقوا بالثورة ولم يقبلوا أفكارها، ولذلك فهم لا يستطيعون طبعاً قول شيء بشأنها. هذا هو حال قسم من الذين لم يتقبلوا فكر الثورة.

وهناك فئة أخرى كانوا يريدون إطلاق سمة الشاعر الجماهيري عليهم والتوسل بافتخار السمة الثورية وفي نفس الوقت الانغماس بالترف واللهو والرذيلة والسكر الأسود، مثلما يفعل الشخص البعيد بالكامل عن الشعب وطموحاته ؛ وكان يوجد أمثال هؤلاء أيام العمل ضد الحكم، وإني أعرف أشخاصاً من أصحاب الأسماء والألقاب المعروفة في عالم الأدب كانوا إذا جلسوا عندكم وكان المقام مقام قول ـ أي التحدث فقط عن العمل الثوري وليس نفس العمل ـ تجدوهم يطلقون الدعاوى العريضة التي يصغر قبالها كل كبار الثوريين في التاريخ ؛ ويخرج من دائرة المقارنة بهم "ماكسيم غوركي" وكافة مَن يحسب أنه من الشعراء والأدباء الثوريين!! هذا في مقام القول والإدعاء، ولكن بمجرد بدء العمل تجد انعدام حضورهم بالكامل، حتى أنهم لم يكونوا مستعدين لقول كلمة واحدة قد تجلب عليهم خطراً مهما كان قليلاً، وإذا فعلوا شيئاً ولو على نحو الاشتباه وتلقّوا بسببه صفعة واحدة كانوا يعلنون توبة مائة عام!! وكانت حياتهم التي ألـفوها حياة ترفية لهوية وضعية حيث كان أحدهم يُجلَب مخموراً محمولاً بعد ساعة أو ساعتين من منتصف الليل بعد أن يُنتزع بالقوة من حانات طهران أو أماكن أخرى لإرجاعهم إلى منازلهم ؛ كانت هذه حياتهم، وكانوا يريدون مثلها للمجتمع الثوري!! وكانون يطلبون ثورة تحقق لهم ذلك.

ومن الطبيعي أن لا يكون لثورة قامت على أكتاف جماهير "حزب الله" المؤمنة ـ وبتلك الحركة العظيمة ـ شأن بأمثال هؤلاء الفاقدين للإحساس بالمسؤولية، العاطلين وغير النافعين، ومن الطبيعي أن لا يكون لهم موقع في الثورة، فاعتزلوها لأنها لا تحقق لهم مصالحهم، وهذا حال طائفة أخرى فقد اعتزلت الثورة لأنها لا تحقق أهواءها.

وهناك طائفة أخرى كانت تتوقع أن تصبح "نجوم الثورة المتألقة"!! ولم تكن ترضى بأقل من ذلك ولا بقيد أنملة! فهجرت الثورة واعتزلتها لمجرد أن شخصاً أو مجموعة أغفلت الحفاوة بها قليلاً، أو أن أسماءها لم تتردد بين الناس ؛ وبالطبع فإن هؤلاء إذا كانوا ثوريين حقاً، كما حدث مثل هذا، فموقفهم هذا ناشئ من عدم صدق ثوريتهم وعدم التزامهم بالإسلام والثورة، فهم كانوا يرغبون أن يكون أول عمل يقوم به الشعب، بعد إسقاطه نظام الظلم الملكي ودحر هذه العقبات السبع، هو التوجه إلى هؤلاء السادة وحملهم فوق رؤوسه، وأن يتحدث عنهم ويسلّط الأضواء عليهم ؛ ولكن هذا لم يحدث، ومن الطبيعي أن لا يقوم الشعب به، فتأثروا لكونهم لم يصبحوا نجوم الثورة!!

وهناك مجموعة أخرى بعض أفرادها تدخل ضمن الطائفة السابقة أو إلى جانبها، وهؤلاء لا دوافع لهم سوى الخبث والارتباط بمختلف الأطراف المعادية للثورة، لذا لم يبادروا لخدمة الثورة فهم لم يرغبوا في ذلك أصلاً، بل وإنهم قاموا بالعمل ضدها، وبعضهم قابلوا الإحسان بالإساءة وحطموا وعاء الملح بعدما طعموا منه.

وقد عرف عالم الأدب بعد ثورتنا بعض الأفراد أمسكوا القلم ـ ودون أن يحمّلوا أنفسهم مشقة أدنى تفكر أو تأمل ـ وأخذوا يسطّرون سلسلة من الخزعبلات، واتهموا بالوقوع في الخطأ والانحراف شعباً كاملاً وثقافة عظيمة متجذرة وثورة بهذه العظمة، وأطلقوا من الأوصاف ما لا يجدر بالمسلمين والفضلاء إطلاقه، ولدينا أمثال هؤلاء الآن يعيشون في بلدنا ويستفيدون من أجواء الحرية التي أوجدتها الثورة ويكتبون ويتحدثون ويخطبون بحرية.

وبالطبع ـ وكما ذكرت ـ كانت هناك أيضاً أقلية من الأدباء والفنانين والشعراء المعروفين وذوي المواهب القوية والأسس الفنية المتينة، تخدم الثورة وتنشد لها الأشعار حتى قبل أنت صارها، وبين هذه الطائفة أفراد تعرضوا للتعذيب بسبب ذلك وهم الآن

يواصلون خدمة الثورة، ونحن نكنّ لهم كبير الاحترام والتقدير، ولكنهم قلة.
إن الثورة تريد أن يكون الناطقون باسمها أشخاصاً منها، وهؤلاء هم أنت م الذين تشكلون الجيل الجديد الذي يريد التحدث لخدمة ذاته والشيء الذي أدركه بكل وجوده، ولتحقق ذلك من الضروري ـ حسب وجهة نظري ـ الالتزام بعدة قضايا:
الأولى: الأسس الفنية، فلو كانت نتاجاتكم تفتقد الأسس الفنية بالمستوى المناسب لما كان لها قيمة، إذ من الممكن إطلاق الحديث العادي بسهولة في حين تلك الخصوصيات التي تحدثت عنها تتعلق بالعمل الفني الجيد المؤثر وهذا الذي يجب أن تكتسبوه.
وبالطبع فالمواهب الموجودة جيدة للغاية، وقد شاهدت ذلك في الأشعار التي قرأها هؤلاء الشباب الأعزاء أخوة وأخوات هنا ـ ومعلوم أن السيد "مرداني" مستثنى فهو من مشايخ عالـم الأدب الثـوري ـ وقد وجدت شيئاً جديداً قيماً وجذاباً للغاية في أنفاسهم، ولكن من السابق لأوانه أن نحدد خصوصيات هذه الوليدة الشعرية الفتية والحتمية للثورة، وتعيين إطار لها، فمن الضروري مرور فترة تسجل فيها نتاجاتها، أما ما أُحس به فهو وجود وحضور الثورة في المصطلحات والتركيبات الجديدة والمفعمة بالسرور والأمل المستخدمة بكثرة في هذه النتاجات، وكثيرة هي المضامين النادرة التي قلّما استطاعت الألفاظ اصطيادها. وبهذه المميزات يمكن ـ إلى حد ما ـ وصف هذا الشعر الجديد.
إن الشعر الثوري اليوم بحاجة إلى مصطلحات جديدة وبديعة، والتجديد هنا لا يعني تلفيق مصطلحات مفتعلة ركيكة، أو مصطلحات فارسية مقترنة بالفرار، أو محاربة المفردات العربية التي هي جزء من لغتنا، فهذا المقدار الذي نتحدث به من المفردات العربية هو جزء من اللغة الفارسية، على حد تعبير المرحوم "آل أحمد" في جوابه على مَن سأله عن كثرة المفردات العربية في عباراته حيث قال: إنني أنا الذي أسألكم: ولماذا لا يكون؟! فهذه المفردات العربية لغتي فقد ولدتُ وفتحتُ عيني عليها وكبرت معها، فمَن ذا الذي يستطيع أن يجبرني على قطعها واحدة واحدة، كـ"الموضوع" و"المحمول" وغيرها من التعبيرات المختلفة للمفردات العربية الموجودة في لغتي بمقدار ما فيها من المفردات الفارسية، والقيام برميها بعيداً والإتيان بمفردات غريبة مستوحشة لتحل محلها؟!
إذاً فالتجديد الذي نقصده لا يعني متابعة بعض التيارات ذات النيّات المشبوهة أو الأذواق الهابطة التي كانت تحارب وتعادي المفردات العربية، كلا إن ميادين الفكر والإبداع مفتوحة، واليوم نجد هذه التعبيرات والمصطلحات والتركيبات الجديدة البديعة في شعر هؤلاء الشباب كاشفة عن جودة مواهبهم، ولعل السابقة الشعرية لبعضهم من الذين أنشدوا أشعارهم هنا لا تتجاوز السنتين أو الثلاث أو الخمس، وقد لا تكون لبعضهم سابقة شعرية أصلاً لكن مواهبهم قوية، واضحة وملحوظة ؛ وأرى بينكم كثيرين سيتطورون ويتقدمون في وادي الشعر، وإذا استمر التقدم على هذا النحو فسيكون لدينا في المستقبل مَن يجمع بين خصوصيات السبك الشعري الهندي لـ"صائب" ـ وليس للسبك الهندي لـ"عبد القادر بيدل" ـ من متانة النظم وسهولة الفهم، وبين خصوصيات لطافة السبك العراقي لـ"حافظ" (الشيرازي) ، أي ذروة ما يصله شعرنا المعاصر هو الجمع بين خصوصيات شعر "صائب التبريزي" و"حافظ الشيرازي".
وكما أشرت فمن غير الممكن الآن تحديد خصوصيات الشعر المعاصر، الذي ظهر وتفجر بعد الثورة، وقد بحثت بنفسي حول هذا الموضوع وسعيت لتحديد خصوصياته، لكني وجدت أنه لا زال غير منظم، ويحتاج الأمر لمرور فترة من الوقت لتثبيت هذه الخصوصيات. وعلى أي حال، فاجتهدوا في العمل بما استطعتم لتقوية هذا الفن الأدبي، وحذار من أن يتصور شاعر شاب أنه أصبح في غنى عن تنقيح وتجويد وإصلاح نتاجاته الشعرية لمجرد كونه قد أنشد خمسين أو مئة قصيدة كان في كل منها بيت أو بيتان جيدان أثارت إعجاب الآخرين، كلا فلا غنى حتى للشعراء الأقوياء الذين تمتد سوابقهم الشعرية عشرين عاماً عن التنقيح والإصلاح، بل إن تقوية الروح الشعرية والفنية أمر يحتاجه الشاعر إلى النهاية لأن الفن غير محدود فهو في حركة تطورية مستمرة ما لم توقفوه بأنفسكم.
واطلبوا دائماً النقد، فعالم الشعر من العوالم التي تحتاج إلى النقد، ولا يكفي هنا تقبّل النقد واستماعه ـ وهو أمر ضروري ـ بل من اللازم طلب النقد والسعي له، لقد كانت لدينا في مدينة "مشهد" جمعية أدبية ولسنين طوال، وكان إذا أُنشد في محافلها شعر ولم يعترض عليه أحد من الحاضرين ولم يُشْكِلوا ولم يستفسروا، فهذا الموقف كان علامة على أن الشعر تافه لا يستحق النقد، حيث لم يكن ممكناً أن يحجموا عن النقد إذا كان الشعر جيداً، اللهم إلا أن يكون الشاعر ضيفاً قادماً من مناطق أخرى فيسكتون احتراماً له ؛ وغالباً ما كانت أشعار أمثال هذا دون مستوى الأشعار التي كانت تُنشد في الجمعية.
نحن بحاجة إلى اتحاد أو جمعية أدبية في كل مدينة. ومع أن عقد هذا المؤتمر الشعري فرصة طيبة لاجتماعكم لكنه لا يكفي ؛ ولا أدري هل أن مثل هذه المؤتمرات قد شهدت إلى الآن قيام شخص أو أشخاص لنقد بعض ما يُنشد وتقديم اقتراحات لإصلاح البيت الفلاني، أو استبدال هذه الكلمة أو هذا المصرع بذاك، أو أن هذا التركيب فيه خلل، أو أن هذا المضمون تكراري؟؟ وهكذا الجمعيات الأدبية ومن خلال عرضه على أساتذة الفن. ويجب التفكير من الآن بالأشياء التي يحتاجها شعر الثورة في أساليبه

وأطره وفي مضامينه، ومع الأسف فالمجال محدود، لذا أكتفي بالقول هنا: إن الشعر الثوري يجب أن يتحلّى بالروح الثورية والاتجاه الثوري، إذ لا يمكن تجديد أي موضوع خاص لشعر الثورة، فلا تتصوروا أن شعر الثورة يجب أن يتحدث فقط عن الثورة أو الحرب أو شخص الإمام أو المقاتلين، بل يمكن لكم أن تتناولوا في شعركم قضايا أخلاقية، ولكن ضمن الإطار والاتجاه الثوري، وهذا المعنى تدركونه اليوم جيداً.

فمرة قد يكون طرح الأخلاق في اتجاه غير ثوري، بل مناقض للثورة. ولكننا نستطيع القيام بـإنجاز مهم إذا استطعنا دعوة الناس إلى القناعة الثورية والصبر الثوري والتعلّم والحلم الثوري والشجاعة الثورية من خلال أشعارنا وقصائدنا ونتاجاتنا الأدبية، ففي هذه الحالة تكون هذه النتاجات أدباً ثورياً قيّماً وقوياً، أي أن الشعر الثوري لا يعني أن نتحدث فقط عن وقائع الحرب والمقاومة في خوزستان وميادينها الدامية، بل يمكن أيضاً أن يتناول قضايا أخلاقية، ولكن شريطة أن يكون الاتجاه ثورياً.

وبالطبع فإن أفضل الشعر الثوري هو الذي يعرض الظواهر التي تختص بها الثورة فلا توجد في غيرها، ولدينا الكثير من هذه الظواهر، فهناك ـ في المجالات السياسية ـ مبدأ اللاشرقية واللاغربية، ومبدأ مجاهدة المستكبر، ونصرة المستضعف على الصعيد العالمي، والدفاع عن فلسطين وأفريقيا، ومحاربة التمييز العنصري في كل مكان، وهذه من مختصات الثورة لا يملكها الآخرون، وبالطبع يوجد أدعياء لها ولكن لا توجد ثورة ونظام تشكل هذه المبادئ إطار تحركها عملياً. كما توجد في مجال البناء الاجتماعي ظاهرة بناء المجتمع على أساس القيم الإلهية، وهذا موضوع تختص به لا نظير له في كل العالم، بل وحتى الذين لديهم بعض القيم الإلهية يطلقون عليها وصف "القيم الإنسانية" أو "الدفاع عن حقوق الفرد والمجتمع"، فتكون القيم أحياناً إلهية لكن المجتمع الذي يقام عليها مفقود ؛ وهذا جزء من الأهداف الأساسية لرسالتنا الشعرية، فالدفاع عن الشعب من مختصات مجتمعنا التي لا ينظر لها حتى في المجتمعات الثورية. كما أن روحية التعاون والتكاتف بين فئات الشعب، وبساطة حياة مسؤوليه، وعدم التمايز بين مختلف فئاته، هي جزء خصوصياتنا الثورية.

ومن هذه الخصوصيات، قيادتنا الإلهية المعنوية والعرفانية، فهذا القائد العام للقوات المسلحة هو عارف، وهذا ما لا تجدونه لا في التاريخ الحديث ولا القديم، فأين كنتم تجدون العرفاء في السابق؟! كانوا دائماً في الزوايا أو المساجد أو الخلوات، وفي حالة البكاء ؛ ولكن هذا العارف يتحلّى بنفس حالات التضرع في الأسحار، ويقوم بأشكال الرياضات المعنوية، وله تلك الجذبات المعنوية، وعنده تلك الاتصالات والإلهامات الغيبية، وإلى جانب ذلك فهو القائد العام للقوات المسلحة، ويقوم بتعبئة كافة القوى للحرب والسلام ؛ وهذه الظاهرة من خصوصياتنا الفريدة.

وبخصوص شخصية الإمام الخميني باعتباره قائد الثورة، فمرة تُنشِدون في مدحه أشعاراً مدفوعين بعاطفة حبكم له وتعلّقكم به، وقد قيل الكثير من هذا النوع لكنه لا يحمل رسالة لشعوب العالم، والمهم أن تحمل أشعاركم تعريفات لهذه الظاهرة التي تتميز بها دولتنا ومعنى "ولاية الفقيه"، وهي القيادة العامة لكل القوى وكيف أنها يجب أن تكون لولي الفقيه الأعلم بالدين ومصالحه، فيكون بيده أمر الحرب والسلام والتعبئة العامة وغير ذلك..

وهناك قضايا أخرى في ثورتنا مجهولة للعالم، ومنها وقائع الثورة، فمثلاً يمكن بواسطة الشعر (وصف) كيفية عودة الإمام الخميني إلى إيران، وقد مرت على ذلك اليوم ثمانية أعوام، والذي يبلغ عمره منكم اليوم أربعة وعشرين عاماً كان عمره يومئذ ستة عشر عاماً، والكثيرون منكم لم يكونوا في طهران آنذاك، فلا أدري هل تتذكرون ذلك اليوم أم لا؟ ولكن الذين كانوا شهود عيان ويتذكرون يستطيعون تصوير وقائع ذلك اليوم وحالة الشوارع التي شهدت ذلك الاستقبال، ومقدمات العودة، ووصول الإمام، وكيفية حركته إلى مقبرة "جنة الزهراء" ثم الذهاب إلى مدرسة "علوي" ثم مدرسة "رفاه"، فستكون من ذلك ملحمة شعرية خالدة إذا اقترنت ـ كما قلت ـ بالمستوى الفني المناسب فستصبح ملحمة أدبية فريدة.

وكذلك نظير وقائع الأيام الأولى لأنت صار الثورة، والتحركات المنحرفة والضالة التي واجهتها، ونشاطات المستغلّين المتسترين بشعارات الدفاع عن مصالح الشعب، وكيف رفعوا السلاح بوجه الشعب وقيادته، وما فعلوه في طهران وغيرها، فهذه موضوعات ملاحم شعرية قوية. كما أن خطاب الإمام الخميني في "جنة الزهراء" وسائر الخطابات تحمل نداءات مهمة يمكن للشعر الثوري أن يجعلها مضامين له.

إذاً، ترَون أن لا حدّ ولا حصر للموضوعات والمضامين الثورية المتوفرة عندنا اليوم للشعر المعاصر، فإذا أخذت الآن قلماً وأردت كتابة عناوينها لاستطعت ـ دون تفكير مسبَّق ـ كتابة العشرات منها، يستطيع كلٌ منها أن يجذب إليه فيتحدث وينشد عنه، وبالطبع فمن الضروري أن توضع هذه المضامين في أوعية فنية مناسبة.

إن إبداعكم يكمن في اقتطاف الكلمات بالشكل المناسب، مثلما يفعل صانع الفسيفساء، وقد رأيتم كيف يجلس يرتب القطع ذات الأشكال والألوان المختلفة بصورة فنية متناسقة بحيث لا يمكن فصلها وتفكيكها فيشكل بها شكلاً واحداً في غاية الجمال. عليكم أن ترتبوا مثله أجمل تصوير في شعركم بواسطة الكلمات، فاقتحموا غمار بحور هذه المطالب والمضامين التي أشرت إليها لكي تستطيعوا تبيان المضامين الجميلة بأساليب وألفاظ وتركيبات جميلة.

هذا فيما يتعلق بمحتوى شعر الثورة. أما فيما يرتبط بأساليبه فالحديث عنها طويل أيضاً.. ولكن مع الأسف فقد ذكروني الآن أن لدي موعداً اقترب حينه ويا ليتني لم أقرر هذا الموعد إذ لاستطعنا مواصلة حديثنا وتوضيح الإطار والأساليب المناسبة لشعر الثورة وكيف يمكن أن يكون.

أسأل الله التوفيق للأخوة والأخوات الأعزاء والمحترمين، واستثمر هذه الفرصة مجدداً لكي أشكر المنظمين لهذا المؤتمر من الأعزاء في الجهاد الجامعي وكذلك المشاركين فيه، فواصلوا هذا النشاط ولا تكتفوا بمؤتمر واحد في العام، وواصلوا نشاطاتكم بين هذا المؤتمر ومؤتمر العام المقبل، مع هذه المضامين والآثار والوصايا التي عرضتها هنا، وهناك الكثير غيرها لم أذكرها وهي في ذهني وأتمنى حلول فرصة للتحدث عنها.

الملحق الثاني

ترجمة الرسالة التي وجهها سماحة آية الله العظمى السيد الخامنئي (حفظه الله) إلى المؤتمر الذي أقيم تكريماً للشاعر الإيراني الشيخ مصلح الدين الشيرازي، المعروف بـ"سعدي"، بمناسبة مرور ثمانية قرون على ولادته (25/11/1984 م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن إقامة مؤتمر تكريمي إحياءً لذكرى الشاعر والكاتب الفارسي الكبير مصلح الدين "سعدي الشيرازي" هي من خيرة الخطوات التي شهدها عالم الأدب والثقافة الثورية في هذا العصر، فتكريم "سعدي" هو تكريم للأخلاق والحكمة والمعرفة البليغة وليس للشعر والنثر البليغ وحسب ؛ وقد حوّلت الثورة الإسلامية المباركة حياتنا ـ نحن شعب إيران ـ في هذا العصر إلى وطن للقيم الإسلامية، ووضعت الحكمة والمعرفة في محلّها المناسب ؛ لذا فمن الحريّ بالمقدّرين للقيم الإسلامية أن يكون الذكر الجميل لـ"سعدي" حيا على ألسنتهم وفي أذهان سالكي هذا الوادي مكرراً ومؤكداً.
أقدّم خالص شكري لمعدّي ومنظمي هذا المجتمع التحقيقي والأدبي والفني، وأكرم وأقدّر هذا العمل الابتكاري الكبير.
لا شك أن "سعدي" هو أحد أعمدة صرح الأدب الفارسي، وتشكل ثمار شعره ونثره إحدى أكثر شجر ثقافتنا المعاصرة بركة وعظمة، فمواعظ "سعدي" المستقاة من معارف القرآن والأحاديث الشريفة كان لها على الدوام تأثيراً بالغاً على أهل الموعظة، فيما كان بيانه الفصيح الصريح كاشفاً لأسرار كنوز المعاني السامية أمام الأمم المشتاقة لها والباحثة عنها. واليوم ـ كما هو الحال علـى الـدوام ـ يستطيع أحباب البلاغة وأولو الألباب أن يجدوا أعز هدية يطلبونها في بدايع طيبات ديوانه ويحصلوا على أجمل زهور الفكر البشري في رياض مصقّى نظمه ونثره.
إن أفضلية "سعدي" على الكثير من نجوم اللغة الفارسية تكمن في احترامه لقدر البيان فلم يجعله وسيلة للتزلف والإرتزاق، فقلة من أصحاب البيان لم ينثروا عطايا البيان السماوية عند أقدام حكام عصورهم ولم يصقلوا بها سيف الظلم، و"سعدي" هو من هذه الثلة النادرة فهو كان إذا يفتح بالمدح لسانه أحياناً لم يكن يضع في كأس مدحه الذهبي سوى الدواء الشافي والحامل أحياناً لمرارة الموعظة.
حمل شعره ونثره ـ وهو السائح الذي شاهد الدنيا، والعارف الصادق بالإنسان ـ على الدوام ورسالته مستقياً لها إما من منبع الوحي وكنوز القرآن والحديث أو من أنوار قلبه وإحساسه النقي.
ومن المميزات الأخرى لهذا المعلّم الجماهيري العظيم، هي انسيابية بيانه الشفاف والخالي من التكلف، فكلامه مثل الماء الزلال يروي روح المستمع قطرة قطرة، ويدخل قلبه خالياً بالكامل من غبار التكلف، وكثيرون هم الذين تسنّموا عروش الفصاحة في مملكتي النظم والنثر، ولكن "سعدي" هو وحده الذي استطاع إيجاد شعر سلس مثل النثر، ونثر رصين مثل الشعر، وأعدّ خليطاً عجيباً من المضمون والتركيب والمعنى واللفظ في الشعر والنثر.
وعلى أي حال فهذه فرصة حانت لإظهار الإعجاب بهذا الصانع لقلائد البيان البديع والمعاني السامية، وحريّ اليوم أن يبيَّن ويقدَّر حق كلامه الذي شد إليه وعلى مدى قرون أذهان الحزين والمسرور، وأحاط بالعشق والشباب والضعف والشيخوخة، وعلّم آداب الحديث للشيب والشباب، وكشف أسرار التربية للعالم والعارف، ولكن لا يمكن تحقق هذا التقدير الحقيقي له بدون معرفته بصورة صحيحة. وعلى هذا المؤتمر أن يعرف الجوانب المجهولة في شخصية "سعدي" وإشراقات نتاجه وإبداعه الفني، وأن يعبّد الطريق أمام الجيل الثوري المعاصر للاستفادة من هذا الكنز الثمين، وهذا أفضل تكريم له، وهو مهمة ضرورية، وواجب لازم على الجمهورية الإسلامية القيام به تجاه الرموز الخالدة لعالم الفن والأدب الجماهيري السليم.

إن الأدب الثوري لا يسعى إلى هدم بناء الثقافة والأدب التاريخي في هذا البلد من الأساس واستبداله بشيء جديد، فسابقة آدابنا وفنوننا تشكل ميراثاً قيّماً ينبغي أن يمنح لأدب الثورة الأساس والقوة ومشعل الهداية الذي يحمله شعر الثورة وفنّها، يستطيع إضاءة كافة الآفاق والأوعية المتقبلة للفن والعارفة بالبيان، وذلك من خلال الوقوف بثبات فوق القلعة العظيمة التي يشكلها هذا الميراث الأدبي القيّم.

ومع أن "سعدي الشيرازي" يحظى هنا بموقع متميز لكونه كان على الأغلب يحمل في منطقه وقلبه كثيراً من هذه القيم، التي أنت شرت اليوم وببركة الثورة لتعطر أجواء كافة نواحي حياة الشعب، لكن دعم النتاجات الشعرية والفنية الإبداعية تمثّل في نظام الجمهورية الإسلامية موقفاً مستلهماً من القرآن وسنّة الرسول والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ، والثورة الإسلامية في مضمونها مناصِرة ومقدّرة للفن والأدب.

وللآداب والفنون ـ باعتبارها وسيلة لتبيان أسمى الأفكار الإسلامية ـ موقع متميز في التاريخ، وينبغي أن يكون لها موقع مماثل اليوم أيضاً.

لا ريب بأن الثورة تغيّر اتجاه الأدب والفن وتضعه في المسار المطلوب، وهذا الواقع يصنّف بطبيعته الشعراء والفنانين والأدباء إلى طوائف، أولئك الذين يسيرون مع هذا التغيير الأساسي أو لا يبادرون على الأقل لمعاداته، وأولئك الذين يحاربون ـ عن عداء وعناد ـ الحركة الثورية للشعر والأدب ؛ وهذه الطبيعة الدائمة للتحولات الاجتماعية في كل مكان في العالم، وهذا ما يتكرر اليوم في ثورتنا الإسلامية العظيمة، وأدى إلى وقوع البعض في حالة من الشك والقلق تجاه مصير تناسق حركة الفن والأدب مع هذه الثورة.

وحقيقة الحال هي أن الثورة، ولكونها منطلقة من أفكار وقلوب ومساعي وجهود الجماهير الإنسانية، فهي بذاتها المولّدة للشعر والأدب والفن، لأن هذه مقولات إنسانية وشعبية، فحيثما وجدت الجماهير وجد الأدب والشعر والفن، والموجود من هذا حقاً هو ما يفكر به الناس وما يريدونه، وما عداه فلا يدخل القلب ولا يكون له البقاء.

وإضافة لما تقدّم، فإن الثورة الإسلامية تقرر احتراماً كبيراً لنتاجات فكر الإنسان ولبّه لأنها تؤمن بقوة بخلاقية الإنسان، لذلك لم تتوقف ولم تجمد حركة النشاطات الأدبية والفنية في مجتمعنا الثوري على الرغم من تنكر وجفاء بعض الأدباء المنفصلين عن الشعب فلم يؤدّ إعراض هؤلاء، الذين لم يرغبوا في فهم وتقدير الغليان الثوري للشعب، إلى خمود وتوقف هذه الحركة المتفجرة، فبراعم الأدب والفن الثوري أخذت تتفتح وتنمو في نفس الاتجاه الذي أشارت إليه الثورة، فاستجاب الكثير من أهل البلاغة والبيان لدعوة الثورة. ونحن اليوم نتوقع مستقبلاً مزهراً وأكثر إشراقة من أي وقت مضى للفنون الأدبية الفارسية.

والقضية التي أرى من المفيد ذكرها هنا هي أن الثورة لا تظل منتظرة لهذا أو ذاك في حركتها البنّاءة ؛ وعلى سالكي الطريق أن يبادروا هم لعثور على مسيرة الثورة والتمسك بعراها لكي لا يتخلّفوا عن قافلة الحياة والكمال، ونداء الثورة لكافة أهل البيان والكتّاب والفنانين والأدباء هو دعوة للفلاح والصلاح والبقاء، وهذه ثمرة تجارب التاريخ الخالدة.

وفي نهاية الحديث، أكرر الشكر لمنظمي هذا المؤتمر العظيم، وأرحّب بجميع الضيوف المحترمين من الإيرانيين والأجانب، وأسأل الله تعالى التوفيق للجميع.

القصة والتمثيل

إن وضع فن كتابة القصة ليس جيداً فهو لم يتطور كثيراً، ولم يكن لدينا في العهد السابق كتاب قصة جيدون في إيران، على الرغم من أن سابقة هذا الفن في إيران قديمة نسبيا [87] .

.... إذا كان فيها (القصة أو التمثيلية) تربية سيئة وأفكار منحرفة وإغواء واتهامات وافتراء وقول سيئ وفحش، فهي غير إسلامية (88) .

لا يوجد في الجانب الفني لكتابة القصة شيء يمكن اتخاذه معياراً لتحديد إسلاميتها أو عدم إسلاميتها، فكل ما يمكن تجميل وتطوير الجانب الفني للقصة لا إشكال فيه، بل هو أمر راجح، وكذلك الحال مع التمثيلية [89] .

حدث مراراً أنني تأثرت بشدة، وتغيّر حالي، خلال قراءة أو مشاهدة أو سماع الآثار الجميلة والنشاطات الفنية لهؤلاء الأعزاء من هذا الجيل، وأغلبها ترتبط بنفس هذا المركز (مركز الفكر والفن) ، وكثيراً ما أثـرت فـيّ أفلامه وتمثيلياته وأشعاره إلى درجة البكاء تأثراً وشوقاً [90] .

عليكم البحث عن الجيدين من الكتّاب والشعراء وكتّاب القصة والنصوص التمثيلية، وأدعوهم (للتعاون) ، لأن هناك أشخاصاً ليسوا منكم لكنهم ليسوا ضدكم أيضاً، لذا يمكن أن يصبحوا في خدمة الثورة [91] .

.... أما فيما يتعلق بالموضوع، فلدينا اليوم ـ والله الحمد ـ موضوعات كثيرة جداً تغنينا عن البحث، فهذه الحرب نفسها تضم موضوعات مثيرة للحس الشعري ومواد للقصة والتمثيلية، فما المانع من أن ندوّن تصويراً لحياة شخص في الخندق على مدى اليوم والليلة، وما يدور في ذهنه وهو في خندقه، وما يفكر به المجاهد والمضحي، ونصور قصة الشهيد؟!... ليجسّد كاتب القصة المبدع ذلك ويكتب عنه، وبالطبع فالذي يجب أن ينجز هذه المهمة يجب أن يكون قد عاش بنفسه حياة الخندق ؛ وهذا الموضوع متوفر في كافة قضايا حرب العراق ضد الجمهورية الإسلامية، فكتابة وقائع جولة في الأهواز وديزفول وسوسنغر تشكل بحد ذاتها قصة متكاملة أجمل من أي قصة أخرى [92] .

تلاحظون أن هذا الأثر الخالد "البؤساء" لا يبلى أبداً، أو على الأقل ما دامت ثقافتنا المتعارفة موجودة ؛ وتشكل الحروب الداخلية في فرنسا ـ بين دعاة الجمهورية وبين السلطة الملوكية التي أعقبت نابليون ـ جزءاً أساسياً في هذا الأثر، الذي ترَون أنه مملوء بشرح حوادث التاريخ الفرنسي من أواسط حكم نابليون إلى فترة الأعوام (1850 ـ 1860 م) وحقبة ما بعد نابليون وحكم ملوك عائلة "بوربون"، ولذا فأفضل المحاور لكتابة القصة هي أمثال هذه الحوادث، ونحن لدينا مثل ذلك [93] .

ومن القضايا الأخرى الجديرة بأن تكون موضوعاً للنتاجات الأدبية والفنية هي مثلاً قضايا أعداء الثورة ؛ وكنت دائماً أفكر مع نفسي في واقع أننا لو استطعنا فرضاً تصوير الأشياء التي تحملها ذاكرتنا بشكل فني ممثّل، أي بصورة فيلم أو تمثيلية، فمن المؤكد أن تأثيرها سيتضاعف أضعافاً مضاعفة... حتى فيلم "الملك السارق" هذا فالمحتوى الذي حمله هو خواء أعمال ودوافع أعداء الثورة، وقد تم تجسيد هذا المعنى في هذا الفيلم بصورة جيدة، حيث أوضح كيف أنهم حتى في نشاطاتهم الكذائية المعارضة للجمهورية الإسلامية لم يكفّوا عن أدنى أهوائهم وشهواتهم الحيوانية...

إذاً، فلو تم انتاج وعرض مثل هذا الفيلم في مجال قضايا المجاميع المعادية للثورة لكان تأثيره كبيراً.

إنني أعتقد أن الموضوعات التي لدينا الآن، والتي تصلح أن تكون مضموناً للأعمال الفنية، هي موضوعات فريدة لا نظير لها، والواجب هو توجيه الفنانين إليها [94] .

يجب عليكم تقوية أسسكم الفنية بما استطعتم، ومعالجة أشكال الضعف الموجودة في هذا المجال ولا تتهاونوا في ذلك.

وأعتقد أن النقد لم يَجِد له إلى الآن مصداقاً صحيحاً في مجتمعنا سوى العنوان، ففي السابق كانوا يتبادلون فيما بينهم السباب والافتراء ويسمونه نقداً!! وبالطبع فلا أستطيع القول إن النقد كان مفقوداً بالكامل ولكن الحقيقي منه كان قليلاً جداً، واليوم أيضاً نفتقد النقد الفني، فبادروا أنت م للبدء بالنشاط النقدي بلغة طيبة محببة ومربية [95] .

(87) مقطع من كلمة القائد في افتتاح مركز الفكر والفن (6/3/1985م) .

(88) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (15/2/1982م) .

(89) المصدر السابق.

(90) مقطع من كلمة القائد في افتتاح مركز الفكر والفن (6/3/1985م) .

(91) من حديث القائد مع أعضاء القسم الثقافي في صحيفة "الجمهورية الإسلامية" (15/2/1982م) .
(92) مقطع من كلمة القائد في افتتاح مركز الفكر والفن (6/3/1985م) .
(93) المصدر السابق.
(94) المصدر السابق.
(95) من كلمة القائد في افتتاح مركز الفكر والفن (6/3/1985م) .

العمل المسرحي والعمل السينمائي

دور جهادي:
يجد المسرح في الجمهورية الإسلامية أصالته ورفعته في تبيان معاناة بني الإنسان وشرح قصة مظلوميتهم ؛ وميدان هذا العرض الفني الكبير واسع بسعة محيط عيش مستضعفي الأرض ؛ وفنانوه هم: مجاهدة الظلم وصرخة الرفض للظالم والدفاع عن المظلوم ؛ وتقنيته الفنية هي: التضحية بالنفس في سبيل الهدف ؛ وثمرته هي: أنت صار الدم على السيف [96] .

في نهاية عقد الثلاثينات وطوال العقد الرابع (من القرن الهجري الشمسي الجاري) ، اللذين شهدا اقتران تطور حركة العمل المسرحي والسينمائي تدريجياً باتجاه الميول اليسارية، اتضحت وبرزت فيه أكثر وأكثر الجنبة المعادية للدين... وكانت السلطة المتجبرة تدعم أي تيار معادٍ للدين ـ حتى لو كان يسارياً ـ وذلك لمواجهة انتشار الإسلام الثوري، وعلى الطرف الآخر كانت تحارب أي ظاهرة يمكن أن تتحدث عن نضوج العقيدة الإسلامية والإيمان.
وفي ظل هذه الأحوال نما الفن، وخاصة أشكاله الفنية الحديثة الظهور كالمسرح والسينما، باتجاه التغرب ومحاربة القيم الدينية، وكانت معظم نتاجاته تصطبغ بصبغة معاداة الدين [97] .

تفتّح براعم الفن السليم:
لقد غيّر سقوط حكم الطاغوت وقيام حاكمية القيم الإسلامية تجاه حركة كل شيء، وهيّأ الأرضية اللازمة لتطور الفن، والأهم منه توجيهه بالاتجاه الصحيح والسليم ؛ الفن الباطل فقد دعامته، وحصل الفن الحق على ميدان التحرك وإمكانية تفتّح براعمه [98] .
أشكر كثيراً الأخوة الأعزاء في الفرقة التمثيلية... فقد كان عملهم جيداً للغاية حقاً ؛ وهذا نموذج للأعمال الفنية القوية والصعبة والتي تخدم الأهداف الثورية وبأساليب فنية عالية للغاية تشتمل على مضامين سامية جداً.
وحقاً فإن ميادين الثورة نفسها هي ساحة عرض مسرحي عظيم... وهذه الحركة العظيمة التي قام بها شعبنا حملت ـ حقاً ـ ظاهرة جديدة للعالم، ومَعْلَمُ هذا الاندفاع المقدس والروح التضحوية وهذه الحركة العظيمة والمعنويات السامية هو إمامنا الخميني العظيم وهو حقاً رائد هذه القافلة ؛ وما يجده وما يراه الشعب في هذه الشخصية العظيمة الكبيرة هو نهج الأنبياء الحقيقي، وقد وجده بالفعل، ولذا فنحن متفائلون جداً تجاه مستقبل هذه الحركة الشعبية [99] .

آمل أن تنجزوا وتعرضوا الأعمال اللاحقة أيضاً وتعلّموا الناس المضامين المتينة والدعوات الجديدة، مع الالتزام بالمحور الأساسي للثورة وعماد مسيرتها الذي تمثلها حركة إمامنا الخميني العزيز ؛ وأشكر بـإخلاص المسؤولين في وزارة الإرشاد والقائمين بهذا العمل.
لقد أوضحتم أيها الأخوة الأعزاء الكثير من الحقائق بلغة التمثيل، وهذه لغة قوية ومؤثرة للغاية (100) .

(96) من رسالة القائد لمهرجان "السابع عشر من شهريور" المسرحي (8/9/1982م) .
(97) مقطع من رسالة القائد للمهرجان المسرحي الجامعي (5/11/1984م) .
(98) المصدر السابق.
(99) من رسالة القائد لمهرجان 17 شهريور المسرحي (8/9/1982م) .
(100) من كلمة القائد في جمع من الفنانين.

الملحق الأول

ترجمة النص الكامل للمقابلة التي أجرتها معاونية وزارة الإرشاد الإسلامية الإيرانية مع سماحة آية الله العظمى السيد الخامنئي حول العمل السينمائي والتي نشرتها مجلة "صحيفة" الإيرانية في عددها الصادر في نيسان 1985 م.

قيمة العمل السينمائي:
س: ما هو الموقع الذي ترَونه للسينما في الجمهورية الإسلامية، وما هي أهمية وجود أو عدم وجود النشاط السينمائي ـ حسب نظركم؟
ج: لا تنفصل قضية السينما عن عموم قضايا الفن، ومثلما نولي أهمية كبرى لكافة فروع الثقافة ـ بهدف الوصول إلى المقاصد التي تشكل جزءاً أساسياً من أهداف نظام الجمهورية الإسلامية ـ فمن الطبيعي أن نولي الفن هذه الأهمية باعتباره وسيلة متفوّقة، ونولي مثلها لفروعه، كلٌ بحسب قيمة ومستوى فاعليته. أما فيما يتعلق بالسينما، فجوابي بشأنها هو نفس الجواب الذي أجيب به عليكم لو كان سؤالكم عن أي فرع من فروع الفن الأخرى ؛ وبخصوص السينما يجب أن أرى ما هو ثمن وجودها لكي أستطيع الجواب عن أهمية وجودها أو عدمها..
نحن نولي احتراماً وتقديراً كبيراً للعمل السينمائي الذي نقبله، والذي يحقق المقاصد التي يؤيدها الإسلام والثورة، في حين نرى أن من غير الصالح وجود العمل السينمائي الذي يتحرك خلاف هذه المقاصد ولا نرى له قيمة أصلاً ؛ وبغض النظر عن النمط الخالي من كلا هاتين الحالتين المتقدمتين إذا افترضنا وجود مثل ذلك، إذ أن لكل فيلم رسالة وكلمة ما يعرضها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وحكم هذا النمط يتضح من معرفة حكم العمل السينمائي النافع أو الضار.
وبناءاً على ما تقدّم، فنحن نولي قيمة كبيرة للعمل السينمائي المطلوب وقيمته هي أكبر من أكثر الفروع الفنية الأخرى، لأن أسلوب إبلاغه لرسالته أفضل وأبرز وأكثر تأثيراً من غيره.

الجاذبية فـي العمل السينمائي:
س: يعتقد الكثيرون أن من اللازم رعاية جانب التلهية في الأفلام السينمائية، فما هي بنظركم طبيعة الارتباط الذي يجب توفره بين جاذبية الفيلم ومضمون الرسالة التي يحملها؟
ج: بالطبع إن الجاذبية عنصر أساسي في الفيلم ولا يمكن تجاهلها، ولكن مصطلح "التلهية" لا نراه مصطلحاً جيداً، ونحن لا نستخدمه، ونرغب أن لا يكون هناك شيء بهذا المعنى، بل نريد أن يكون عامل تعليم وتوعية إلى جانب كونه جذاباً أيضاً، ولا تعارض بين هذين أصلاً، فالجاذبية عنصر أساسي في الفيلم، بمعنى أننا لو فرضنا أن فيلماً يحمل أفضل مضمون ورسالة لكنه يفتقد الجاذبية فهو عاجز عن تحقيق وتبليغ أي شيء وحاله حال الإنسان الذي يجلس وحده في غرفة ويتحدث عن أسمى موضوع. ولكن هناك اشتباه وخلط موجود في أذهان البعض ينبغي أن نزيله وهو: أنهم يتصورون أن الرسالة التي يجب أن يحملها الفيلم ـ ونقصد هنا رسالة الثورة الإسلامية وهي المحترمة المقدسة عندنا ـ تقتضي أن يتجه الفيلم باتجاه انعدام الجاذبية، ويبدو أنهم توهموا وجود تعارض بين هذين، بمعنى أن الفيلم إذا لم يكن إسلامياً وثورياً فهو جذاب حتماً، هذه معادلة خاطئة ونحن نرفضها، بل قد يحدث أحياناً أن تكون رسالية الفيلم ومحتواه عاملاً في إضفاء الجاذبية عليه بحيث يغطي حتى على التقنية والأسلوب الفني له بحيث يهيمن على المشاهد الكلام الذي يحبه ويجذبه بحيث يجعله يغفل حتى عن ضعف التقنية.
واستناداً إلى ما تقدّم فإن الهدف والرسالية هما الأصل عندنا في الفيلم والعمل السينمائي، وإلا فما الذي يدفعكم باعتباركم ثوريين إلى العمل في هذا المجال؟! وهل ستواصلون العمل فيه إذا خلى من المحتوى الثوري أو الإسلامي؟! الجواب واضح: كلا.
إذاً، فالشخص المنسجم والمتفاعل مع الثورة يريد العمل السينمائي المستلهم منها ولا ريب في ذلك، وهو المهم عندنا بالدرجة الأولى، وغاية الأمر هي أننا نعلم أن إيصال العمل السينمائي لرسالته يستلزم أن يكون جذاباً. وعليه، فلا مناص من توفير الجاذبية فيه باعتبارها وسيلة ضرورية فيما المحتوى هو الهدف والمقصد.
إذا وُضِعت أفضل المضامين في شعر سيئ من الزاوية الفنية فلن تحقق أثرها المطلوب، ولكننا مع ذلك لا نضع المضمون في الدرجة الثانية في العمل الشعري بل يجب أن يكون الاهتمام به في الدرجة الأولى شريطة أن يقترن بالتقنية الفنية المطلوبة إذ

بدونها لا يكون مفيداً فيما لا يمكن إنكار أن التبليغ هو المهمة الأساسية للعمل الفني.

محذورات العمل السينمائي الصالح:
س: ما هو الفيلم الذي لا يصلح للعرض بنظركم؟ وبعبارة أخرى: ما هي العوامل الداخلة في الفيلم والتي تجعله غير صالح للعرض؟
ج: أعتقد أننا لو عرفنا الشروط التي يجب توفرها في الفيلم الفارسي المطلوب فإن الأمور التي يجب اجتنابها ستتضح بنفسها، لذا يجب أن نعرف أولاً هذه الشروط. أما فيما يتعلق بالمحذورات فأستطيع القول إنها تشمل كل ما من شأنه إحياء أو تقوية ما يخالف القيم الإسلامية التي يتبنّاها الفيلم الفارسي حالياً، وكذلك ما يخالف الفطرة الإنسانية السليمة والقيم المفيدة والضرورية للشعب والمؤثرة في تكامله ؛ هذه أبرز المحذورات التي يؤدي وجودها في فيلم ما إلى جعله غير صالح ويجعلنا نرفضه ؛ ولا اعتراض لنا على الأعمال السينمائية الخالية من هذه المحذورات. نعم إن درجة قبولنا بها ترتبط بمستواها.

العاملون فـي الوسط السينمائي:
س: العاملون من قبل أنت صار الثورة في العمل السينمائي ينقسمون بمختلف مراتبهم إلى طائفتين: الأولى: هي العاملة في جانبه الثقافي، والثانية: المتكفلة بالجانب الفني والتقني، وهناك في الطائفة الأولى اتجاهات متعددة بعضهم معروف بالفساد والبعض الآخر ليس كذلك، بعضهم معارض للجمهورية الإسلامية والبعض الآخر يدعمون العمل المضاد ضد الثورة، وبعض تركوا العمل السينمائي أصلاً. فما هي طبيعة تعاملكم مع هؤلاء، فالبعض يعتقد بضرورة عدم السماح لأي منهم بالعمل في هذا المجال، فيما يعتقد البعض الآخر بضرورة التمييز بينهم، وهناك مَن يعتقد بضرورة السماح للجميع بالعمل شريطة فرض الرقابة والإشراف. ما هي وجهة نظركم بهذا الخصوص؟
ج: هذا الموضوع من المسائل الحساسة التي وردت بشأنها العديد من التساؤلات منذ أوائل الثورة. لاحظوا إنكم لم توجهوا أي سؤال فيما يرتبط بالطائفة الثانية المتكفلة بالأمور الفنية والتقنية، ولا بأس من الحديث عنها بجملتين أو ثلاث. وحقيقة الحال هي: أن العاملين في الشؤون الفنية السينمائية كالمصورين والعاملين في المكياج والإنارة وغير ذلك يستطيعون القيام بأعمالهم بصورة أفضل مما يقومون به الآن لو أرادوا خدمة الشعب، ونحن نسمع أنهم أكثر رغبة في العمل للأفراد الذين لا ينسجمون مع الثورة بتلك الصورة، فهم يهتمون أكثر بعملهم معهم ويسخّرون خبرتهم الفنية بدرجة أكبر. وعليه، فلا ينبغي لنا الاهتمام فقط بأمر جانب المحتوى أو المتصدين للجانب الثقافي حسب تعبير تقسيمكم، بل إن المتكفلين بالأمور الفنية يمكن أن يكونوا أكثر نفعاً، لذا يجب التساؤل عما نفعله معهم؟! لعلّي أتحدث في النهاية عن أمر يشمل هؤلاء أيضاً.
إن العاملين في النشاط السينمائي اليوم هم ضمن مجموعتين: الأولى تشمل الممثلين وعملهم في الدرجة الثانية، وإن كانوا في الواقع هم الذين يجذبون الأنظار ؛ ولكن الذين يؤثر عملهم أكثر من الممثلين هم المخرجون وكتّاب السيناريو وأمثالهم، لذا يجب البحث بشأن هؤلاء أكثر ؛ ولكن سؤالكم يختص بالمجموعة الأولى أي الممثلين ـ على ما يبدو، وبقرينة الأسئلة المتكررة التي وردتني إلى الآن بهذا الخصوص ـ فسؤالكم عن الذين يظهرون أمام العيون، وأنا لا أعرف الكثير من هؤلاء، والسبب هو أننا لم نكن نشاهد الأفلام أصلاً في العهد السابق، واليوم أيضاً لا نمتلك الفرصة الكافية لذلك رغم إمكانية وجود الأفلام الجيدة، اللهم إلا أن يجبرونا أحياناً على الجلوس لمشاهدة شيء ما، وهذا نادر الحدوث، ولكني أستطيع القول على نحو الإجمال وبحدود الأطر العامة:
إن البعض لا يتمتعون بمستويات فنية عالية وسبب شهرتهم يرجع غالباً إلى جوانب عامية مبتذلة، وهم في نفس الوقت غارقون في المظاهر القبيحة، وهؤلاء ـ بدون شك ـ يُضعفون أي محتوى ومضمون لفيلم ما مهما كان المحتوى قوياً إذا صدر عنهم، وهذه حقيقة ينبغي علينا الانتباه إليها، وأنا هنا لا أطرح قضية عدم الاستفادة من هؤلاء كفتوى شرعية، فلهذه مقام آخر نقرر فيه في دراسة شاملة أمر الاستفادة منهم أو عدم الاستفادة، ولكني أرى أن حضور الممثل ـ رجلاً كان أو امرأة ـ الذي لا تحمل أذهان الناس عنه سوى الصور السيئة والمناظر الجنسية القبيحة المبتذلة والتي تجعل الشاب المؤمن، وحتى الفرد العادي ـ غير "الحزب اللهي" ـ والذي يعيش في أجواء الثورة، لا يشعر بأي احترام لهذا الممثل بل يحس بالنفرة منه، أقول إن هذا الحضور هو أمر سلبي، فحتى لو جاء هذا الممثل مثلاً ليفتح القرآن ويفسر آية منه فلا شك أنه سيضعف مفهوم هذه الآية والرسالة التي تحملها لأن الناس لا يصدقونه حقاً، إلا أن تضاف إلى هذه الحالة أشياء أخرى، وحينئذ يجب التفكير بشأنها.
ولكن يوجد بين الممثلين مَن ليست لهم سوابق، كسوابق الذين تحدثنا عنهم آنفاً، في حين أن مستواهم الفني وعملهم السينمائي لا يقلّ عن أولئك إن لم يكن أفضل، وهؤلاء يجب الانتفاع منهم بدرجة أكبر وفتح ميادين الحضور لهم ومساعدتهم في إظهار طاقاتهم الفنية، كما يجب الانتفاع أكثر من الوجوه الجديدة، فيجب عليكم تشجيع الشباب الموهوبين القادرين على التحول

إلى فنانين جيدين، وإدخالهم في الميادين الفنية والاستفادة منهم، فإذا توجهنا إلى القدماء فقط وملأنا بهم ميادين العمل الفني فإن الشاب الثوري لن يجد فرصة له بل قد يأنف عن المشاركة في عمل مع الممثل الفلاني الذي لا يحترمه لسوء سوابقه.
إذاً، علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار العوامل والمعايير التالية:
أولاً: معيار عدم إضعاف المضامين الجيدة بجعلها تصدر من أفواه وألسنة يعتبرها الناس ملوثة.
ثانياً: فسح المجال أمام غير الملوثين بهذه القبائح، والذين يحظون بقابليات فنية أفضل، وإن كانوا غير مقبولين من العوام.
ثالثاً: وهو الأهم: فسح المجال أمام العناصر الشابة والجديدة والثورية، أي أمام الذين يؤمنون بأن الثورة قد اكتسبت القوة اللازمة لتغيير العمل السينمائي أيضاً وإيجاد تحول في الأفلام وشخصياتها، فليدخل هؤلاء ميادين العمل لكي يصبح لدينا مستقبل سينمائي أفضل، السينما هي بأيديهم. والعناصر القديمة من هؤلاء قلّما يخلصون للثورة بل وقلّما يقفون موقفاً محايداً، فهم في الأغلب وجّهوا ضربات لها ؛ وأعتقد أن علينا أن نستفيد من وجود المستعدين حقاً لخدمة الثورة من هؤلاء شريطة أن تكون هذه الاستفادة حذرة للغاية، وهذا الشرط يصدق أيضاً على المجموعة الأولى التي تحدثت عنها، أي الممثلين.
لا ينبغي لحكومة الجمهورية الإسلامية والمسؤولين عن الشؤون الثقافية في الدولة أن يغفلوا عن أمر النشاط السينمائي، وأحد مصاديق عدم الغفلة هنا هو عدم السماح بالعمل للأشخاص الذين كانوا يلعقون أقدام خدام الملك، وهم اليوم غير مستعدين لخدمة الشعب، بل ويقومون أحياناً بطعنه وطعن الثورة غدراً، نظير ما فعله أحدهم رغم تقدير نظام الجمهورية الإسلامية له حيث تحدث للإذاعات الأجنبية ضدكم ـ أنت م الذين شجعتموه وضد نظامكم.
كنا نتصور أن بعض الأفراد متعلقون بالثورة، لذا سمحنا لهم بالعمل دون أن نلتفت إلى أنهم لم يكونوا من الثورة في شيء فقاموا بما أرادوا، وأعتقد أن هذه المجموعة أساؤوا العمل حتى في هذه المسلسلات التي تعرض عبر التلفزيون، فلدي اعتراضات حتى على مسلسل "سربدران" (المصلوبون) ، فمثلاً كان يمكن لهؤلاء أن يغيّروا أدوار الممثلين، فلم تكن هناك ضرورة أن يؤدي دور "القاضي شارح" ممثل قوي فيما يقوم بتمثيل دور "حسن الجوري" شاب ضعيف الجاذبية ؛ ولا أستطيع أن أصدق بأن الدقة اللازمة قد توفرت في مثل هذه المسلسلات مع خروجها بهذه الكيفية، فإما أن الدقة المطلوبة انعدمت فيها أو أن هناك شيئاً من العناد المتعمد، ولا أقصد هنا "سربدران" بل حديثي عن النشاطات الجارية في عالم السينما وصناعة الأفلام في بلدنا بصورة عامة.
وبناءاً على ما تقدم، يجب عليكم ـ ما استطعتم ـ التعامل بحذر وذكاء في الاستفادة من عناصر هذه الفئة الثالثة، فلا يمكننا أن نغفل عن الثورة والشعب ومشاعر جماهير حزب الله العظيمة والعازمة على الدفاع عن الثورة، نغفل عن كل ذلك من أجل مُخرج كان إلى الأمس يفعل كل ما اشتهى من القبائح ويرقص مع كل دقة طبل!! هذه من الموارد غير الصحيحة التي أريد التحذير منها ؛ فهذا المخرج الذي يتجاهل مشاعر الشعب وقيمه والذي لا زال معرضاً عن الاستفادة من فنـه من أجل خدمة الشعب، وحتى إذا قام بـإنجاز عمل ما ينجزه بصورة يخلط فيها الصالح بالفاسد لكي يستطيع الاعتذار إذا عاد "بختيار" يوماً!! مثل هذا من الأفضل أن لا يقوم بـإنجاز شيء أصلاً حتى لو عطلنا العمل السينمائي، فأنا أرجح تعطيل السينما الفارسية، أو أن يقلّ حجم إنتاجها وبيعها للأفلام على أن يأتي مَن لا يخفق قلبه للثورة ويصنع أفلاماً بنيّة غير خالصة.

الرقابة الحكومية على العمل السينمائي:
س: هل ترَون أن للحكومة دور الإشراف فقط على النشاط السينمائي والعاملين فيه أم يتعدى دورها إلى التوجيه والإرشاد والدعم أيضاً؟ وما هي حدود الدعم الذي يجب أن تقدمه للعمل السينمائي المطلوب والذي تريده الجمهورية الإسلامية؟
ج: أعتقد أن الحكومة لا يمكنها عزل دورها تجاه المجال السينمائي عن المسؤوليات التوجيهية.
وإذا كان مقصودكم من الإشراف هو المعنى الذي يشمل التوجيه والمراقبة والمنع من الأشياء السيئة، فأجيب: نعم يجب أن يكون للحكومة إشراف ؛ أما إذا كان المعنى المقصود أقلّ من هذا فلا يكفي الإشراف، إذ أني أعتقد أن على الحكومة أن تكون مؤثرة وحاضرة في الشؤون المربوطة بالعمل السينمائي، وهذا الحضور المؤثر يشمل عدة مصاديق:
دعم وتأييد وتشجيع الفنانين الثوريين، ووضع الإمكانات تحت تصرفهم، والتعريف بهم، وإقامة مثل هذه المهرجانات الفنية لتوسيع خبراتهم وتجاربهم وتعليمهم، وتطهير ميادين العمل من العناصر المعرقلة لنموهم وتقدمهم.
كما يجب على الحكومة التعامل بحذر وذكاء ـ على الجانب الآخر ـ مع الذين يمكن أن يستخدموا العمل السينمائي والفيلم وسيلة ضد الجمهورية الإسلامية، ويجب عليها منعهم من القيام بذلك، فلا يمكننا أن نضع العمل السينمائي في بلدنا بأيدي أشخاص معادين للثورة، فلا يمكن وضع قسم كبير وشديد التأثير من قنوات التغذية الثقافية للشعب بأيدي أشخاص يرفضون الأفكار التي يؤمن بها عامة الشعب والمنطلقة من المعتقدات العامة التي يقف الشعب على أهبة الاستعداد للتضحية دفاعاً عنها، أو بأيدي أشخاص لا يؤمنون بهذه الثورة التي تقوم على أسس أرقى المقاصد التي عرفها العالم المعاصر ؛ فهذا الأمر يرفضه الشعب وترفضه الثورة بلا شك.

إذاً، فيجب أن يكون للحكومة حضورها المؤثر في هذا المجال، ولكن هذا لا يعني أن تتكفل الحكومة بكافة الاستثمارات، في العمل السينمائي اليوم حركة تكاملية، إذ قد لا يكون غيرها قادراً على ذلك الآن لكونه ليس مربحاً مادياً بالصورة السريعة المطلوبة أو لكثرة المشكلات التي تعترضه. لذا فقد لا يمكن معالجة الأمر في الفترة الراهنة سوى بمبادرة الحكومة للقيام بذلك، لكنني لا أقترح ذلك بل إن ما أقترحه هو أن يدير القطاع الخاص العمل السينمائي شريطة أن يكون تحت إشراف حكومة الجمهورية الإسلامية.

العمل السينمائي والقطاع العام والخاص:
س: شكل الإنتاج والعمل السينمائي في البلد يمكن أن يكون على ثلاثة أشكال، هي:
1ـ من قبل القطاع الخاص وحده.
2ـ من قبل القطاع العام (الحكومي) وحده.
3ـ مشتركاً من كليهما.
فأي هذه الأشكال يمكن أن تكون أفضل؟ هذا أولاً، وثانياً: ما هي المواصفات التي تطلبونها من القطاع الحكومي ومن نتاجات القطاع الخاص؟
ج: طبيعي أننا نتوقع أموراً أكثر من الحكومة، لأن القطاع الخاص يفكر بأرباحه التجارية في حين أن الحكومة تعمل من موقع المسؤول، والعمل السينمائي هو من المجالات التي تتعرض إلى الانحراف حتماً إذا كان هدفها هو الربح المادي وحده ؛ وقد اتضحت الإجابة على السؤال بمقدار من خلال الإجابة على السؤال السابق، وأعتقد أن الواقع القائم فعلاً في القطاع الخاص لا يدفعه للعمل بالاندفاعة المطلوبة إذا أراد الالتزام بالمبادئ والمعايير والضوابط التي تحددها الجمهورية الإسلامية للعمل السينمائي.

مخاطر السينما الأجنبية:
س: ما هي درجة التناسب ـ كماً وكيفاً ـ بين الأفلام الإيرانية والأفلام الأجنبية؟ وبعبارة أوضح: ما هي مواصفات الفيلم الإيراني الذي نستطيع أن نُعرض بوجوده عن الفيلم الأجنبي الجيد؟ وما هي الأخطار التي يمكن أن نغض الطرف عنها في الفيلم الإيراني لكي يصلح للعرض ونقلّل بذلك من عرض الأفلام الأجنبية؟
ج: يبدو أن الفرض الذي يقوم عليه هذا السؤال هو توفر فيلم أجنبي جيد وحاضر للاستفادة في مقابل كل فيلم إيراني نجده يفتقد التقنية الفنية بالمستوى المطلوب، فإذا لم نستطع تحمّل هذا نقدّم ذلك للعرض بدلاً عنه فوراً ؛ هذا هو الفرض الذي يقوم عليه السؤال ـ على ما يبدو ـ لكنني أتصور أن الوضع القائم فعلاً ليس كذلك، فعندما نشاهد فيلماً إيرانياً لا تتوفر فيه المواصفات المطلوبة بالكامل، فهذا لا يعني أننا حرمنا أنفسنا من فيلم أجنبي جيد.
إننا لا نعارض الفيلم الأجنبي الجيد، فأتوا بما شئتم منه، ولكن ما هي كمية الأفلام الأجنبية الجيدة يطبّق موازينكم وموازين الثورة الموجود لديكم؟ ونقصد بالجيد: الفيلم الذي ليس فيه تربية سيئة ولا يتعارض مع القيم الإسلامية في مضمونه وفي أسلوبه وتقنيته ؛ فأتوا بكل ما لديكم من هذا النوع، ولا تقدّموا عليه أي فيلم إيراني، فحتى لو جئتم بها جميعاً فسيبقى لديكم نقص عليكم أن تسدّوه بالأفلام الإيرانية.
أما فيما يتعلق بالفيلم الإيراني فينبغي أن تتوفر فيه كافة المواصفات التي نطمح إليها، ولكن ونظراً للملابسات الواقعية الموجودة فعلاً علينا أن نقلّل من الشروط بعض الشيء، فلو كان محتوى الفيلم جيداً ومطلوباً فلا ينبغي أن نرفضه حتى لو كان فيه ضعف في الجانب الفني، والأمر المهم لدينا اليوم هو محتوى الفيلم فيجب أن يحمل رسالة الثورة، وهذا أصل أساسي كما قلنا سابقاً. صحيح أن الجاذبية شرط ضروري فيه، وعليكم أن تبحثوا عن الأفلام التي تتوفر فيها بأفضل ما يمكن، ولكن إذا لم تجدوها بالحد الأعلى فاقنعوا بأقل من ذلك بعض الشيء.
نحن ـ كما قلت ـ لا نعارض الفيلم الأجنبي إذا انسجم مع مفاهيم ثقافتنا، لكنني أشاهد ما يعرض عبر التلفزيون، وأسمع عما يعرض في دور السينما، فأرى ـ مع الأسف ـ أن كثيراً من الأفلام الأجنبية التي تُجلب غير صالحة، وليس من جهة محتواها فقط بل حتى من الزاوية الفنية، فهي ضعيفة للغاية وتسبّب الملل والضجر، ولا أرى فيها الفيلم الجيد في محتواه وفي تقنيته وجانبه الفني وعلى درجة عالية بحيث يجعلنا نعتقد أنه لو دخل أجواء البلد فسيضيق مجال الفيلم الإيراني.

س: توضح إحصائيات النشاط السينمائي في إيران ازدياد إنتاج الفيلم الإيراني، فما هو تقييمكم لهذا النشاط خلال هذه الأعوام الستة التي تلت أنت صار الثورة الإسلامية؟

ج: بالطبع إن ازدياد عدد الأفلام المنتجة من ستة أفلام في العام سابقاً إلى ستين فيلماً سنة 1361 (هـ. ش) هو تطور كمي واضح وهو جيد بالطبع، والتطور الكمي خلال هذه الأعوام الثلاثة المنصرمة جيد كما ذكرتم ؛ أما التطور النوعي فلا أستطيع الآن إعطاء رأي بشأنه لعدم اطلاعي بالكامل عليه، وعدم مشاهدتي الكاملة لأفلام هذه الفترة ؛ لذا فإني أؤكد قولي السابق وهو: إذا أردتم تطوير السينما الفارسية فعليكم الاهتمام بأمرين: الأول فسح مجال العمل أمام العناصر الموهوبة الموالية حقاً للثورة ولمصالح البلد وليست أجنبية عنها، والثاني إيجاد تحول في أصل السينما الفارسية، بمعنى إخراج العناصر المضادة للقيم التي زُرعت فيها وإزالتها بكل صورة ممكنة، أي أن تعوّدوا المشاهد على عدم توقع مشاهد عنف، ومناظر مبتذلة في الفيلم ؛ فيجب إيجاد سعي حقيقي لأعمال الإبداع الفني الحقيقي في الفيلم، ومتابعة تأثيره، وإيجاد المضامين الحقيقية المطلوبة، فإذا تحقق هذا تحقق معه تحول أساسي في العمل السينمائي.

علاقة العمل السينمائي والجمهور:
س: إلى أي حد يستطيع الإنتاج السينمائي في البلد معتمداً على استقبال المشاهد له؟
ج: العمل السينمائي هو للمشاهد أساساً، ومعلوم أنه لا يستطيع الانفصال عنه، ولكن لا يمكن ضمناً نسيان أن له أيضاً دور الهداية كسائر (الخطباء) الذين لديهم مَن يستمع لقولهم ويعتبرون وجودهم للمستمع فلا يمكنهم تجاهل رأي المستمع ؛ لكن حكمة وجودكم هي هداية المستمع ؛ وبين هذين خط مستقيم يمكن السير عليه بالتسلح بالدقة.

س: بنظركم هل يشترط أن تكون فكرة الفيلم من المسائل الإسلامية أو القضايا الحربية والثورية؟ أم يمكن أن تتسع لتشمل أيضاً سائر المضامين والقضايا الاجتماعية؟ أي ما هو معنى إسلامية الفيلم بنظركم؟
ج: كافة الموضوعات يمكن أن تكون إسلامية، فحتى الفيلم الذي يحكي سيرة النبي الأكرم (ص) يمكن إعداده بحيث يكون معادٍ للإسلام. إذاً، فكون أن الفيلم يحمل اسم محمد (ص) والدور الأول فيه هو عنه (ص) لا يعني إسلاميته مطلقاً، بل إن كافة الموضوعات يمكن أن تعدّ بصورة إسلامية، ونحن نريد تحقق أمرين لأسلمة الفيلم: الأول أن تكون القيم التي يدعو لها ويركزها قيماً إسلامية، والتحقيق يثبت أن للقيم الإسلامية مساحة واسعة، تمتد من تعليم الصلاة إلى تعليم الصدق، الشجاعة، والمقاومة وسلامة العمل... ، وكل فيلم يعلّم أمثال هذه القيم فهو ذو محتوى إسلامي، هذا هو الأمر الأول.
أما الأمر الثاني المطلوب لإسلامية الفيلم هو أن تكون فيه مظاهر ورموز غير إسلامية، فقد يُظهر فيلم حالة الصلاة ولكن الممثلين يُظهرون أشياء مضادة للقيم الإسلامية من خلال طريقة تحركهم ووضعهم ونظراتهم، فهذه القضية مهمة بمقدار أهمية القضية الأولى فكلتاهما يجب أن تكونا إسلاميتين.

س: ما هي الآثار والثمار التي يمكن أن يحققها مهرجان الفجر السينمائي؟
ج: مثل هذه المهرجانات يمكن أن تكون مفيدة للغاية، وبالطبع فالأمر يرتبط بطبيعة القيم التي تديرون بها هذه المهرجانات وكيفية إدارتكم لها، فإذا جعلناها وسيلة لتشجيع أصحاب المواهب الفنية أو أسلوباً للتعاون وتبادل وتكميل المعلومات للفنانين الإيرانيين، أو وسيلة لتعليم أساليب ومناهج صناعة الأفلام للراغبين من الشباب حديثي العهد بالعمل في هذا المجال، أو لتعريف العناصر المجربة التي يمكن الاستفادة منها... فإذا استطاع هذا المهرجان تحقيق مثل هذه الثمار فهو مفيد وجيد حسبما أعتقد.
وبالطبع فإن من الضروري التعامل بحذر وذكاء مع إدارة هذه المهرجانات، فقد يكون تعريف أحد الشخصيات أو الاتجاهات فيها أمر غير جائز حسب موازين الجمهورية الإسلامية، وإجمالاً فإني أؤيد إقامتها.

س: هل ترجحون بقاء مهرجان الفجر السينمائي داخلياً أم تحوّله إلى مهرجان دولي تشترك في مسابقته أفلام أجنبية؟
ج: لا ضرر في تصوري من جلب الأفلام الأجنبية، بل يمكن أن يكون مفيداً ضمن شروط خاصة، فلا اعتراض عليكم إذا عرضتم ما ترَونه مفيداً على الناس خلال هذه المهرجانات، ولكن يجب الاعتماد على أسس صحيحة واختيار الأفلام المنسجمة مع الصبغة الرسالية التعليمية لهذا المهرجان، أي تكون تعليمية حقاً ودرساً للحاضرين.

الجانب الترفيهي:
س: إذا أخرجنا الأعمال السينمائية المسبّبة للانحرافات الأخلاقية والعقائدية والمروّجة للفساد والفحشاء والمنكرات، وكذلك النتاجات المحاربة للقيم الإسلامية، ومنعنا تسللها، يمكن تقسيم الأعمال السينمائية الأخرى إلى ثلاثة أنماط رئيسية:

أ / التي يغلب عليها جانب التلهية.
ب / التي تخدم الفكر الحاكم.
ج / التي تُستلهم مضامينها من الفكر والمعتقدات الإسلامية.
ما هي وجهة نظركم بشأن هذه الأنماط بملاحظة ما تقدم ذكره؟
ج: ليس لدينا شيء بعنوان "الفكر الحاكم" مقابل الفكر الإسلامي، فالفكر الحاكم هو الفكر الإسلامي، فحكام المجتمع الإسلامي مر نفس الشعب ولا توجد هناك عقيدة خاصة بالسلطة الحاكمة بالمعنى الذي يتداعى للذهن، فعقيدة الحكم هي نفس عقيدة الشعب، فأنا مثلاً أرأس السلطة التنفيذية في هذا البلد وأنا أساساً إمام جمعة ؛ وعليه تلاحظون أن ما يحكم الجهاز المدير لشؤون البلد ليس سوى عقائد وعواطف وآمال وطموحات هذا الشعب. إذاً فليس صحيحاً في نظري تعبيركم "السينما التي تخدم الفكر الحاكم" والأفضل أن تقولوا التي تخدم الأفكار الإسلامية وعقيدة الناس وإيمانهم.
إذاً فالقسم الثاني والثالث شيء واحد، فالمستلهم من فكر معيّن والذي يخدمه شيء واحد، فكل مضمون مستلهم من الفكر الإسلامي يخدم هذا الفكر بلا شك. وعليه، يصبح لدينا نمطان من العمل السينمائي أحدهما للتلهية المجردة، أي أنه فارغ لا يحمل شيئاً، وكل ما يقوم به هو أنه يلهي الإنسان ساعة ويقتل وقته، فلا فائدة منه سوى هذه!! والنوع الثاني هادف ويحمل مضموناً آمال الشعب وطموحاته، ومن الطبيعي أنني أختار الثاني وأرفض الأول، فأنت م قد أخرجتم العمل السينمائي المحيي للأشياء المضادة للقيم الإسلامية، فهل الأعمال التي لا تحمل سوى البطالة واللهو يمكن أن تخدم أياً من القيم الإسلامية؟!

س: أن يخرج العمل السينمائي الذي تغلب عليه التلهية؟
ج: نعم، إلا أن يكون جانب التلهية قوي فيه لكنه يحمل أيضاً هدفاً ومضموناً إسلامياً، ومثل هذا أرغب فيه وأتقبله إذا كان موجوداً.
لاحظوا أنني تحدثت في جواب السؤال الأول عما يرتبط بالمحتوى والجاذبية وقلت كل ما لدي في هذا الباب. ونحن عندما نعتبر الأساس والعمود الفقري للفيلم هو مضمونه والكلمة التي يريد أن يوصلها ونؤكد عليه فمن الطبيعي أننا لا يمكن أن نغفل عن جاذبيته وهي نفس الجانب الترفيهي فيه والذي يجعله مرغوباً، بل إن كلا هذين الجانبين ممتزجان، ويكمل كل منهما العمل الفني الكامل.

الملحق الثاني

ترجمة حديث آية الله العظمى السيد الخامنئي مع أعضاء مهرجان عشرة الفجر المسرحي (10/2/1988 م) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخوة والأخوات الأعزاء، لقد وقعت القضايا المربوطة بالفن في مطبّات عجيبة ؛ وليس الأمر بعيداً عن التوقع، لأننا نعيش في حقبة خاصة حيث أدى تفجر المواهب واتساع وشمول كافة المظاهر الإنسانية الجيدة ـ وبضمنها الفن ـ ووصولها إلى الجميع، أدى ذلك إلى زيادة اهتمام الناس بالفن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن تدخل المفاهيم والمضامين الثورية الجديدة للعمل الفني وتتجلّى وتتفتح فيه، في حين توجد عقبات تعترض سبيل التنظيم الصحيح للعمل الفني و التمهيد للتنظيم الجماهيري.
لذا، يجب تجاوز هذه المطبات، ولا يكفي لتحقق التطوير المطلوب توفر العزم لديكم والإيمان بالعمل الفني، بل يجب توفر الاندفاعة والعشق لتعبيد هذا الطريق للعمل المستقبلي ؛ وأعتقد أن لهذا العمل الفني المسرحي فاعلية كبيرة لكنها مجهولة للناس مع الأسف، وهكذا كان الحال في السابق أيضاً ؛ فالبضاعة التي تصنعها يد الفنان المبدع الدقيق لا تجلب أنظار العوام بقدر ما تجلبها البضاعة البرّاقة المصنوعة في المعامل ؛ وهذا ما يصدق على المسرحية إذا أردنا مقارنتها بالفيلم، فالعارفون بقيمة الفن المسرحي قليلون في حين أن له على المشاهد والمستمع تأثيراً وخصوصيات يفتقدها الفيلم في أغلب الحالات على الأقل.
فالفيلم يجب أن يكون قوياً جداً، وأداء الممثلين فيه استثنائي، والتصوير والعمل التقني والإنارة كلها استثنائية لكي يصور حركة الممثلين بأنها طبيعية وحية ومحسوسة ؛ أما في المسرحية فالممثلون أناس حقيقيون والكلام يخرج من أفواههم مباشرة وصورهم الحقيقية هي أمام المشاهد، ولذلك تأثيرات حتمية تتوفر في المسرحية ويفتقدها الفيلم، وتوجد أشياء وخصوصيات أخرى تعرفونها أنت م أهل العمل المسرحي أفضل مني ولا شك، وأنا تحدثت عن إحساسي كمستمع ومشاهد.
ومن الضروري الاستفادة من الفن المسرحي بأقصى حد ممكن لسببين: الأول هو أن الكلام الذي يجب تبليغه للناس كثير ويحتاج إلى ألف لغة لكي يستطيع الإنسان قول هذه الألف حقيقة الجميلة المجهولة، وحتى لو تمت الاستفادة من جميع أنواع الفنون على الصعيد الاجتماعي لبقيت هناك الكثير من الحقائق والصور الجميلة مجهولة لم يتم تصويرها وتجسيدها للناس، فالفنان هو ـ على أي حال ـ إنسان محدود والآلاف من الفنانين محدودون أيضاً، في حين أن الحوادث والحقائق الواقعية وصور الجمال واللطافة في حياة بني الإنسان غير محدودة، لذا فهم غير قادرين على تصويرها جميعاً.
وعلى أي حال، ففي مجتمع مثل مجتمعنا الثوري هناك كل هذه الوقائع والقضايا الاستثنائية المشهودة فيها، والتي قرأنا نظائر بعضها في الكتب والآثار، ففي كل هذه الصور الخالدة للشجاعة والتضحية والفراسة والفطنة والبسالة في أشكال الدفاع المقدس ضد أشرس مصاديق العداء، وصور كل هذه الصعاب المقترنة بنقل المجتمع من الوضع السابق إلى الحالة النموذجية التي يطمح لها، وهي الصعاب التي تواجهها كل الثورات، كل هذه القضايا يجب توضيحها وتبيانها، فمَن القادر على تصوير كل ذلك؟! أي كاتب وأي شاعر مقتدر؟! بل وكم لدينا من هؤلاء؟! وأي بيان بليغ يجب توفره ليعرف شعبنا نفسه بحقائق حياته؟!
إذا كان من الضروري في المجتمعات العادية المتعارفة وجود دور الفن الذي يرسم في الواقع لوحة الحياة ـ أي ينتخب الصور الجميلة والبارزة ويعرضها ـ فإن ضرورة وجوده في مجتمعنا الثوري أشد وألزم، الأسباب كثيرة، فمثلاً مَن يستطيع تصوير كل الحوادث المثيرة للإعجاب والحيرة التي يشهدها مجتمعنا؟!
ادرسوا وضع إحدى عوائل الشهداء أو أحد المعوقين في الجهاد أو المقاتل الذي تحثه عائلته على الذهاب للجبهة، صوّروا طبيعة الحياة في الجبهة لليلة واحدة وتصوروها في أذهانكم، تصوروا الانتفاضة العظيمة للشعب في الدفاع عن الثورة والوطن بآلاف النماذج والمظاهر التجسيدية والمصاديق المتناثرة.

تمعّنوا في الجهاد الدفاعي الذي يخوضه هذا الشعب والبلد، وبشاعة العداء والأعمال العدائية للأعداء ضد هذا الشعب وحقدهم عليه ؛ لاحظوا حالات أنت قال الناس من انعدام الإيمان أو ضعفه أو التعلق بالحياة المادية والشخصية إلى رحاب العالم الملكوتي والذوبان في الجمع.... هذه آلاف الموضوعات الحية والمهمة والجذابة والجميلة التي لا يستطيع تصويرها سوى إبداع الفن ولا يستطيع توضيحها سوى لغته ؛ فعلينا توضيحها بمختلف أنواعه ومنها: فن التمثيل، وهو الأفصح والأكثر تأثيراً.

هذا هو السبب الأول لضرورة الاهتمام بالفن المسرحي واستثمار المواهب. أما السبب الثاني فهو أن الفن يشكل إحدى الخصائص الإنسانية، ولا يمكن إيصال المجتمع للتكامل مع الغفلة عنه، مثلما هو حال الجسم الذي نموّن بعض أعضائه دون البعض الآخر.

إذا أراد مجتمع ما تحقيق التطور والتكامل في الجوانب المادية والمعنوية والفكرية فيجب أن ينمو الفن فيه، ونحن نعتقد ـ استناداً إلى أصول فلسفتنا الشمولية ـ أن جميع الفنون يجب أن تنمو، ومنها فن التمثيل، ولغته أفصح وأبلغ من لغات الفنون الأخرى ؛ وبالطبع فللشعر والقصة وبعض الفروع الفنية الأخرى خصوصيات يفتقدها التمثيل، ولكن لا شك في المقابل أن لهذا خصوصيات تفتقدها الفروع الفنية الأخرى. لذا فإني أساند بقوة الدعوة إلى العمل في الفن التمثيلي، الذي يجب أن يصبح جماهيرياً اليوم، حيث تحضر الجماهير في مختلف ميادين الحياة ؛ في حين أن هذا الفن لم يتركز بين جماهير الشعب في السابق ؛ وكم هي جيدة الفكرة التي أشار إليها الأخوة بشأن إقامة عروض تمثيلية في الشوارع والمعابر العامة، فلو أنت شرت هذه الظاهرة لكان لها آثار جيدة ولطيفة.

ولكن على الأخوة المديرين لهذه الأمور الانتباه إلى أنه كلما كان الفن المعيّن أكثر تأثيراً، والرسالة التي يحملها أهم كلما وجب أن تتوفر الدقة بدرجة أكبر بشأن الوسيلة التبليغية لها من جهة التقنية والجانب الفني أولاً، فأفضل رسالة تضيع إذا كان هذا الجانب ضعيفاً ؛ وتارة تكون للكلمة الجيدة فرصة واحدة فقط تقال فيها فإذا قيلت بصورة سيئة فلن تأتي فرصة أخرى لتعرض فيها بصورة جيدة.

أحياناً أرى أو أسمع أشياء في التمثيليات التلفزيونية أو الإذاعية تعبّر عن حقائق صحيحة جيدة بحد ذاتها، لكن طريقة أداء الممثلين سيئة إلى درجة أن تأثيرها السلبي على الإنسان ينتقل إلى أصل تلك الحقائق التي يتحدثون عنها.

إذاً، فالتقنية الفنية القوية أمر مهم للغاية في العمل الفني، فأفضل المضامين إذا أعطيتموها لشاعر ضعيف لضيّعها.

إذاً، فالشرط الأول هو قوة الجانب الفني في العمل الفني، أي شرط التأثير والفائدة، أي أن المدح الذي أوردته بشأن العمل المسرحي ـ وهو دون قدره بكثير ـ لا يشمل العرض الضعيف فهو خاص بالعمل الجيد الصحيح والقوي. وعلى الفنانين وأساتذة هذا الفن والخبراء فيه أن يُفهموا الذين يريدون العمل فيه ضرورة عدم السماح بـإنتاج العمل الضعيف.

لنضرب مثلاً على ذلك من عالم الشعر، لأن العمل المسرحي في بلدنا لا سابقة له باستثناء ما يُجرى في مراسم العزاء الحسيني سابقاً. أما المسرحية بالمعنى الجديد فهي فن حديث الولادة، فالشعر الفارسي يمتاز بسابقة طويلة في مجتمعنا ولغتنا، كذلك في اللغة العربية ـ وهي لغة قريبة منا، بل جارة لنا من جميع الجهات ـ وقد ظهر فيها شعراء كبار كان أحدهم يشتغل بنظم قصيدة واحدة على مدى عام كامل، ولذلك يُطلق على هذا النمط من القصائد وصف "الحوليات"، وطبيعي أن تكون هذه القصائد خالدة في التاريخ خلود النقوش المحفورة على الصخور الصمّاء، ولا زالت هذه القصائد محفوظة متداولة، على الرغم من أن مضامينها في الحقيقة فارغة، لكن جانبها الفني قوي إلى درجة أنه خلّدها إلى الآن.

أتذكر إلى الآن بعض قصائد الشعراء العرب، التي لو أنشد أحدهم مضامينها في شعر فارسي اليوم لاعتقلته اللجان الثورية دون أمرنا، ولما أطلقت سراحه حتى لو طلبنا منهم ذلك! ورغم هذه المضامين لا زلت أتذكرها وهي لا زالت حية على الرغم من مرور أكثر من ألف ومائة أو مائتي عام ؛ فالفن الجيد هو الذي يبقى كما هو وأثره ومحال أن يزول أو يُزال. والمثال الذي ضربته في فن الشعر بصدق على سائر الفروع الفنية من قصة وتمثيلية وغيرها.

إذاً، فالتقنية الفنية القوية أمر مهم ومهم جداً، وإذا أردتم عرض أي مضمون قوي في الثورة ومقبول في مجتمعنا الحالي، فعليكم أن تودعوه في عمل تمثيلي قوي ومناسب. وأرجو من الأخوة المسؤولين عن هذه الأمور في وزارة الإرشاد في أنحاء البلد أن يولوا اهتمامهم البالغ بقوة وصحة ومتانة التقنية الفنية وأسلوب العرض، بمعنى أن يضعوا مصفى لتنقية النتاجات من العمل الضعيف. هذه هي القضية الأولى.

أما القضية الثانية فترتبط بالمضمون، والمضامين التي خلقتها الثورة في أجواء مجتمعنا، وهي كثيرة، وقد أشرت إلى نماذج منها في مجال الحرب والجهاد وتلك الروح الجهادية التي تتجلى اليوم في سلوكيات شعبنا. أحياناً أزور منازل عوائل الشهداء وأجلس معهم في أجواء حياتهم، والد الشهيد ووالدته والزوجة والأخوة والأخوات، وأطلب أن يسجلوا أحاديثهم، وأسمعها بدقة، وأحصل على تلك الصور الدقيقة الرائعة التي تتجلى فيها، وأطلب أن يصوروا تلك الحالات المعنوية العظيمة، ولكن هل يكفي ذلك؟ وهل يمكن تصويرها؟ كنت أفكر مراراً في سر عجزي عن تصوير وتبيان كل مظاهر العظمة في هذه العوائل الصغيرة؟! عليكم أنت م أن تقوموا بهذه المهمة فأنت م قادرون عليها، فالفن والعمل المسرحي الجيد يستطيع إنجاز ذلك لأنه يستطيع أن

يجسّد أدق المشاعر والعواطـف الإنسانيـة ـ كما أعتقد ـ وهذا هو الفن الصادق والأداء التمثيلي الجيد، وأنت م قادرون على ذلك وهذه مهمتكم.

من المفيد أن تقوم الفرق المسرحية بزيارة الجبهات ـ وفي ذلك جهاد عظيم ـ وزيارة المقرات ومراكز تجمع المقاتلين، واعرضوا لهم أعمالكم الفنية هناك وعرّفوهم بالحياة التي يعيشونها، أوضحوا لهم تلك الجنان الصافية التي يحيَون فيها، فالإنسان ما دام يعيش في هذه الجنان المعنوية لا يحس بها عادة، ويجب أن يراها في الخارج ليعرفها ؛ فأعطوهم فرصة مشاهدة ذلك في أعمالكم الفنية والإحساس به، وعلى أي حال أقدّم لكم شكري أولاً وآخراً.

الملحق الثالث

الأناشيد والموسيقى وما يناسب المقام

س: ما هو حكم الاستماع إلى صوت المرأة لغير المحرم في الموارد التالية:
أ / تلاوة القرآن.
ب / قراءة العزاء.
ج / الإنشاد (الثوري، الشعبي) .
د / قراءة الشعر والقصائد مع التنغيم، والتي غالباً ما تكون حالات حزن وغم (مع الموسيقى) .
هـ / قراءة المقالات والأشعار.
و / المحادثة العادية.
ز / الضحك والبكاء؟
ج: في تمام الصور المذكورة، استماع صوت المرأة، بصرف كونه صوت امرأة، فلا إشكال. أما إذا كان بنحو مهيّج أو موجب للفساد والفتنة فغير جائز.

س: ما حكم الموسيقى المشكوكة؟
ج: على فرض الشك محكومة بالحلية.

س: ما الحد بين الموسيقى المحلّلة والمطربة؟
ج: الموسيقى المطربة حرام، وتشخيص الموضوع موكول إلى رأي العرف.

س: هل أن الضرب على "الدف" و"الدربكة" في مجالس الأعراس، وكذلك بيعها وشراءها، هل هو جائز أم لا؟
ج: إذا كانت تعتبر من آلات اللهو فلا يجوز بيعها وشراؤها وحفظها واستعمالها.

س: ما حكم الصوت أو الموسيقى التي تبثها إذاعة وتلفزيون الجمهورية الإسلامية، إذا شك الشخص بـإطرابها أو عدمه؟
ج: إذا شك في صدق الموسيقى المطربة عليها، لا يحرم عليه استماعها.

س: الموسيقى المطربة (شريط أو ...) في مراسم العرس في مجلس خاص بالنساء، وكذلك في مجلس خاص بالرجال، ما هو حكمه؟ ج: مع فرض كون الموسيقى مطربة، غير جائز.

س: هل الأفلام التي يبثها التلفزيون لها حكم الصور أم حكم الأشخاص الحاضرين، وهل من فرق بين الفيلم الذي يبث مباشرة والمسجل مسبَّقاً؟
ج: في حكم الصور، إلا في حالة البث المباشر.

س: توجد في لبنان عدة فرق للأناشيد الإسلامية وتستعمل الآلات الموسيقية، وهذه الفرق لها أهمية على الساحة اللبنانية والإسلامية، فهل استعمال الآلات الموسيقية مع الأناشيد جائز، مع أنه يوجد بعض المراجع ممن حرّم العزف على هذه الآلات مطلقاً، وحتى بيعها وشرائها أو اقتنائها، أفتونا مأجورين، أدام الله ظلكم على رؤوس المسلمين؟
ج: لا مانع شرعاً من استعمال الآلات الموسيقية في الموارد المحلّلة شرعاً، كإجراء وقراءة الأناشيد المحلّلة مع العزف على الآلات الموسيقية.

س: ما حكم التصفيق باليدين في الاحتفالات الدينية وإنشاد الأناشيد الفرحة؟ وما حكم التصفيق في الأعراس؟
ج: لا إشكال في التصفيق بالنحو المتعارف، وإذا لم يكن صوت الموسيقى مطرباً طرباً لهوياً فلا مانع، وإلا فغير جائز.

س: بعض الأمراض في هذه الأيام، مثل حالات الاضطراب والمشكلات الجنسية وبرودة المزاج، يستعملون لعلاجها الموسيقى، فهل استخدام الموسيقى في علاج هكذا أمراض جائز شرعاً أم لا، ولا بد من التذكير أن الإحصاءات والتجارب أثبتت نجاح المعالجة الموسيقية؟
ج: إذا أحرز من خلال رأي الطبيب الحاذق والأمين أن علاج المرض يتوقف على ذلك فلا إشكال بعلاج المرض، بمقدار الضرورة.

س: ما حكم الاستماع إلى أشرطة الغناء المبتذل في مجلس العرس؟
ج: لا إشكال في الغناء في مجلس النساء المخصص لزفاف العروس.

س: ما حكم التصفيق في الأعراس وغيرها؟
ج: لا مانع منه، إذا كان على النهج المتداول في الأعراس والأفراح وموارد التشويق والتأييد وما إلى ذلك.

س: هل يجوز الاستماع إلى أشرطة التسجيل المبتذلة؟ وكيف يشخّص ذلك؟
ج: لا يجوز الاستماع لأشرطة التسجيل المبتذلة اللهوية والموسيقى المطربة الملهية. وفي جميع الأسئلة يكون تشخيص كون الموسيقى لهوية مطربة بعهدة المكلّف.

س: هل يجوز الاستماع لجميع البرامج التي تُبَث في الراديو والتلفزيون في الجمهورية الإسلامية؟
ج: يمكن أن تكون بعض الموارد لا تنطبق عليها الموازين الشرعية، وتشخيص الموضوع في عهدة السامع أو المشاهد، فإن شخّص أن الموسيقى مطربة لهوية أو كان البرنامج فيه مفسدة لم يَجُز الاستماع والمشاهدة.

س: ما حكم التصفيق والتصفير في احتفالات الأعياد بغرض تشجيع الفنانين؟
ج: لا إشكال في التصفيق من أجل التشجيع، لكن الأفضل أن يُستبدل ذلك بذكر الصلوات المباركة أو التكبير بشكل جمعي في الموارد المناسبة.

س: هل أن الحرمة ثابتة لذات الموسيقى أو لكلمات شعرها؟
ج: الحكم متعلّق بالصوت واللحن، لكن الكلمات ومضمون الشعر لهما دخل في تحقق موضوع الحرام.

س: ما حكم قراءة الأشعار والقصائد مع لحن بشكل يظهر بوضوح حالة من الحزن لكنه غير مطرب، مع فرض أن المنشد من النساء منذ أيام الشاه الظالم، وهو إنشاد مشعر بالفساد، وقد فررن بعد أنت صار الثورة في إيران؟
ج: إن كانت المشكلة فقط هي كون الصوت صوت امرأة فلا يحرم شرعاً الاستماع لصوت المرأة، مع عدم قصد الريبة ؛ لكن لو ترتب عليه مفاسد من جهات أخرى وجب الاجتناب عنه. وعلى كل حال فإن هذه المسألة هي من الأمور التي يترجح فيها الاحتياط.

س: ما هو حكم الاستماع للموسيقى التي يبثها التلفزيون والراديو والتي تدعو المرء لإصدار صوت متناغم معها؟ وما هو حكم إصدار هذا الصوت؟
ج: إذا كانت من الموسيقى المطربة المختصة بمجالس اللهو حسب نظر السامع لم يَجُز الاستماع إليها.

س: هل يحرم على المرأة الرقص لزوجها فقط مع الموسيقى التي يبثه التلفزيون والراديو؟
ج: أما الموسيقى فحكمها هو ما ذُكر في المسألة السابقة، والرقص غير جائز إن استلزم تهيّج الشهوة، أو استلزم ارتكاب الحرام. ولا مانع شرعي عن رقص المرأة لزوجها فقط.

س: ما هو حد جواز الموسيقى؟ وهل أن تلفزيون الجمهورية الإسلامية حجة باعتبار أنه تحت نظر "ولاية الفقيه"؟
ج: إن كانت الموسيقى من القسم المطرب المخصوص بمجالس اللهو فهي حرام، وتشخيص الموضوع موكول إلى رأي المكلّف نفسه، ومجرد بثها من التلفزيون ليس دليلاً على حلّيتها، فإن كان ما يُبَث مخصوصاً بمجالس اللهو حَرُم بثّه وحَرُم الاستماع إليه.

س: ما حكم بث الموسيقى من الراديو والتلفزيون؟ وهل يجوز الاستماع إليها بدون شك ولا شبهة؟
ج: إن لم تكن الموسيقى من الموسيقى المطربة المخصوصة بمجالس اللهو فلا إشكال، وتشخيص الموضوع موكول إلى نظر السامع. وعلى كل حال فمجرد بث الموسيقى من الراديو والتلفزيون ليس دليلاً على حلّيتها.

س: كما تعلمون يحضر "الحزب اللهيون" والمؤمنون المناصرون للثورة إلى مسجد "الشهداء" في الليالي للمشاركة في صلاة الجماعة، فيقوم شباب التعبئة والشباب المسلم بمناسبة بعض الأعياد بأناشيد بين صلاتي المغرب والعشاء أو بعد صلاة العشاء، وعادة تكون الأناشيد مع الموسيقى، وحيث أن ذلك لا يتلاءم مع قداسة المسجد وقع خلاف وجدال في الأمر، والجميع مطيع لأمركم، فنرجو أن تذيّلوا لنا حكم النشيد مع الموسيقى في المسجد بين الصلاتين أو بعد صلاة العشاء؟
ج: إن كانت الموسيقى ليست من الموسيقى المطربة الخاصة بمجالس اللهو فلا إشكال في ذلك ولا مانع من الأناشيد الثورية أو الدينية في المسجد، لكن يشترط أن لا يكون ذلك موجباً لمعارضة صلاة المؤمنين ومزاحماً لها، وإلا لم يَجُز.

س: يبث راديو الجمهورية الإسلامية يوم الجمعة بحيث يشعر بعض الأفراد بالسرور عند سماعها فهل هذه الموسيقى تكون محرّمة عليهم؟ كما أننا قد سمعنا أن الإمام (قده) قد قال وذكر في توضيح المسائل أنه يجوز سماع الأغاني في الأعراس؟
ج: إن كان في سماع الموسيقى مفسدة على السامع أو كانت الموسيقى في نظره من الموسيقى المطربة اللهوية لم يَجُز له الاستماع إليها، ولا إشكال في الغناء في العرس مع كون المجلس للنساء.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بإمكاننا أن نختزل الإسلام كله في (الولاء) و (البراءة) والأحكام الشرعية المترتبة على (الولاء) و (البراءة) ؛ فإن دين الله تعالى في أصوله وأحكامه لا يزيد على أن يكون عملية ارتباط للإنسان بالله تعالى، وفي امتداد الارتباط بالله، الارتباط برسله وأنبيائه وأوليائه ثم بالمسلمين عامة ابتداءً من الارتباط بالأسرة في الدائرة الصغرى إلى الارتباط بالأهل والمعارف والأرحام في دائرة أوسع ثم الارتباط بالأمة الإسلامية في الدائرة الكبرى. ولهذه الصلات (الصلة بالله وبرسوله وأولياء الأمر وبالمسلمين) أحكام وتشريعات تخص كل واحد واحد من هذه النشاطات على الصعيد التشريعي، وتعليمات وتوصيات في كيفية التعامل على الصعيد الأخلاقي والتوجيهي.

وهذا هو أحد وجهي المسألة (الولاء) .

والوجه الآخر للمسألة هو (البراءة) والمقاطعة لأعداء الله ورسوله وأوليائه والأمة. ولهذه القطيعة كذلك أحكام وتشريعات في الحرب والسلم والمهادنة كما كان للارتباط والاتصال بالله أحكام وتشريعات وتوجيهات.

وإذا أمعنا النظر في هذه المساحة الواسعة التي يحتلها الولاء والبراءة من حياة الإنسان سواء في مجال المواصلة (الولاء) أو المفاصلة (البراءة) أو في أحكام هذه المواصلة والمفاصلة، نجد أن هذه المساحة الكبرى تستوعب دين الله جميعاً ولا يبقى شيء من دين الله خارج هذه المساحة [1] . إذن فليس من المبالغة في شيء إذا قلنا أن الولاء والبراءة يختزلان الإسلام كله على سعته وشموليته لحياة الإنسان، هذا في المجال النظري والتشريعي.

وأما على الصعيد السياسي فإن أدق الأقوال وأعمق النظريات وأكثرها واقعية وأصالة هو أن الولاء والبراءة هما اللذان يرسمان الخارطة السياسية على وجه الأرض، ويحددان المحاور السياسية الحاكمة في حياة الإنسان.

فليست الجبال والبحار والأنهار هي التي ترسم الخارطة السياسية، وإنما الولاء والبراءة هما اللذان يرسمان هذه الخارطة ويحددان المحاور القائمة في حياة الإنسان ؛ فالإسلام محور للولاء على وجه الأرض يستقطب المسلمين جميعاً ويتجاوز الحدود الجغرافية والقومية والعرقية ويستقطب كل القلوب التي تنبض بحب الله ورسوله وأولياءه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ؛ من جزر أندونيسيا وماليزيا والصين والتبت في أقصى الشرق إلى المسلمين الحفاة السود في أقصى الغرب في غابات وصحاري أفريقيا.

إن كارل ماركس يخطأ كثيراً ؛ إذ يتصور أن جوهر الصراع في التاريخ هو تضارب الطبقات في المجتمع وأن الصراع بين الطبقة المستثمرة (بالكسر) والمستثمرة (بالفتح) هو أساس حركة التاريخ وجوهر الصراع والقتال والصدام في حياة الإنسان. إن اختلاف الولاءات هو أساس حركة التاريخ وجوهر الصراع على وجه الأرض وعلى امتداد التاريخ. لقد كانت تقول زوجة كارل ماركس أن كارل ماركس كان يمشي في شوارع المانيا وينظر إلى حياة الناس وصراعهم ويقول طبقتان، أي أن الناس في التاريخ وفي المدن وفي القرى يشكلون طبقتين متباينتين مستثمرة ومستثمرة، وهذا الإختلاف الطبقي هو سر الصراع وحركة التاريخ. أما نحن فعندما نتحرك في المجتمع وعلى التاريخ فلا نرى ـ بما أرانا الله من الهدى وأعطانا من البصيرة ـ غير ولائين وبرائتين ؛ الولاء لله ولرسوله والبراءة من أعدائنا والولاءات الأخرى للطاغوت {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}. والصراع القائم في التاريخ وحركة التاريخ إنما يتمّان حول هذا المحور في الأساس وإن كان يتخذ أحياناً في انشعاباته وآثاره صيغاً اقتصادية أو غيرها من الأسباب الثانوية للصراع والمعركة القائمة اليوم بين الجمهورية الإسلامية من طرف وأعدائها من طرف آخر بما يمتلكه هؤلاء من إمكانات وقدرات وما تتلقاه الجمهورية الإسلامية من عطف ودعم من قبل المسلمين المستضعفين في كل أرجاء الأرض في حقيقة أمره لمن يمعن النظر في هذه المعركة الحاسمة.. صراع بين محوري الولاء والبراءة ؛ الولاء لله ولرسوله من طرف والولاء للطاغوت من طرف آخر، وأي تفسير آخر لهذه المعركة القاسية التي امتدت وطالت وقست غير هذا التفسير في رأينا نظرة سطحية إلى الأحداث تفقد العمق والأصالة والفهم الإسلامي لحركة الإنسان على وجه الأرض وفي التاريخ.

وللأهمية الكبرى التي يملكها محور الولاء لله ولرسوله ولدوره الفعال في تجميع المسلمين واستقطابهم وتشكيل كتلة واحدة وصف واحد منهم في مقابل أئمة وأنظمة الكفر، نرى أن محاور الاستكبار العالمي تحاول وتسعى إلى تفتيت هذا المحور الواحد (الولاء لله) وإضعافه ليفقد قوته وفاعليته ودوره في حياة الإنسان. ومن أساليب التآمر على محور (الولاء لله) هو طرح بدائل حضارية للولاء والبراءة في مقابل (الولاء لله والبراءة من أعدائه) ، وهذه البدائل عديدة منها الولاء للقومية، والولاء للأرض والتراب (الوطن) ، ومنها الولاء للدم والعرق، ومنها الولاء للأوثان والأصنام الفكرية والبشرية. وأخطر هذه البدائل الحضارية في حياتنا الولاء للقوم والدم والعرق، وقد استطاع الاستكبار أن يعمق حالة الإرتباط بالقوم والدم والعرق في حياة المسلمين خلال الفترة التاريخية التي انحسر الإسلام فيها عن حياة المسلمين، واستطاع أن يمزق المسلمين إلى قوميات متعددة عربية وفارسية وتركية وكردية، ويربطهم عبر الإسلام العظيم بالحضارات البائدة الفرعونية والأكدية والآشورية والكلدانية والساسانية، واستعان لتحقيق هذه المهمة بالتاريخ والشعر والنثر والفن والفلسفة وحتى بأجهزة التربية والتعليم والإعلام وبأسماء الشوارع والميادين.

***

واليوم حيث بدأ المسلمون يعودون إلى الإسلام من جديد ويستعيدون في ظل الإسلام كيانهم وأصالتهم وجذورهم وعمقهم، وحيث منّ الله عليهم بانتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) وقيام الدولة الإسلامية الأم في هذه الرقعة المباركة من الأرض، أقول أن أهم ما يجب علينا أن نعمقه اليوم في أحاسيس المسلمين ومشاعرهم وقلوبهم هو الإحساس بالولاء لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وللأمة الإسلامية والبراءة من أعدائهم من الشرق والغرب ومن أئمة الكفر وأنظمة الكفر أينما كانوا، ولا نستطيع أن نخوض المواجهة والصراع الحضاري الحتمي بين الإسلام والكفر وننتصر بإذن الله ما لم نعمق حالة الولاء والبراءة في نفوس أمتنا وما لم نبلور وحدة الولاء ضمن صيغ عملية تتجسد في وحدة الصف ووحدة الكلمة ووحدة الموقف فيما بين المسلمين في كل مكان.

وأمامنا الآن فرصة طيبة لكي نقرأ ونفكر في الولاء والبراءة من خلال تصورات وأفكار قائد الجمهورية الإسلامية سماحة آية الله السيد علي الخامنئي (حفظه الله) ، فإن للولاء والبراءة معاناة وثقل وضريبة. وقائد أول جمهورية إسلامية تقوم في العالم الإسلامي اليوم بعد فترة السبات الطويلة لابد أن يكون قد تحمل الكثير من هذه المعاناة والجهد ودفع الكثير من ضريبة العمل سواء قبل قيام الدولة الإسلامية في مرحلة تكوّن الثورة أو بعدها، وعليه فإن حديث السيد الخامنئي عن الولاء والبراءة لا يكون حديثاً تنظيرياً بعيداً عن المعاناة والهموم والآلام والآمال والطموحات ومشاكل ومتاعب ذات الشوكة.

ونحن إذ نقرأ هذه الرسالة القيمة عن الولاء والبراءة لقائد الجمهورية الإسلامية، نلتقي بأفكار وآراء وتصورات تكونت في ضوء القرآن والسنة ومن خلال الجهد والمعاناة وداخل السجون والزنزانات وعلى صعيد مواجهة الكفر العالمي للإسلام وللأمة الإسلامية، وبذلك فإن هذه الرسالة سوف تشكل، إنشاء الله، عاملاً مؤثراً في بلورة مسألة الولاء والبراءة في حياتنا السياسية والحركية وجهادنا وقتالنا في الوقت الحاضر. وجزى الله تعالى فضيلة السيد المترجم خيراً حيث يسر لقراء العربية فرصة الالتقاء بأفكار وتصورات قائد الجمهورية الإسلامية عن الولاء والبراءة بصورة مباشرة ؛ بهذه الصورة التي ترونها بين أيديكم. نسأل الله تعالى أن يؤيد هذه الدولة الفتية المباركة وينصرها وينصر أمامها والقائمين بها والأمة العاملة والمضحية في سبيلها، أنه سميع مجيب قريب.

---

1 ـ اللهم إلا ما يتعلق بعلاقة الإنسان بنفسه وأحكام هذه العلاقة، وهذه العلاقة وأحكامها تدخل في دائرة الولاء أيضاً بمعناها الشامل، ولا مجال هنا لتفصيل الكلام.

المقالة الأولى: معنى الولاية

يدور بحثنا حول مسألة الولاية، وقليلاً ما تطرح الولاية بمعناها الذي نستنبطه من القرآن الكريم. ومن الطبيعي أن لا تكون كلمة الولاية غريبة على الأسماع الشيعية، بل أنها مأنوسة بشكل كامل بهذه الكلمة، حيث أننا نذكر الولاية مطعمة بالقدسية ومفعمة بالإحترام في دعائنا وابتهالنا إلى الله، وفي رواياتنا وأحاديثنا الفكرية العامة الرائجة. ونحن كشيعة ندين بالولاية وندعو لله سبحانه أن يحيينا ويتوفانا عليها.

أريد أن أتحدث عن الولاية من أساسها وعمقها البعيد. ومن الطبيعي أن يصل بي الحديث إلى ولاية علي بن أبي طالب، ولكن حديثي الآن في المراحل السابقة على ذلك، وما نبتغيه هو استخلاص واستنباط معنى الولاية من الآيات القرآنية، وستجدون علو هذا المعنى وجدته وتطوره، وستجدون أيضاً أن الأمة أو الجماعة التي تتبع منهجاً معيناً وتعتقد بعقيدة ما تعيش التيه والضياع ما لم تكن موالية. وفي ظلال هذا البحث ستطلعون بصورة واضحة على السبب في أن صلاة الموالي هي الصلاة الحقيقية، وصيامه هو الصيام المطلوب، وعبادته هي العبادة التي فرضها الله. وسيسهل عليكم من خلال هذا البحث معرفة السر في أن الأمة والمجتمع مع الولاية يكون لائقاً ومستحقاً للطف الله ورحمته وعنايته. ونلخص ما مضى بالقول بأننا سنفهم في ظل هذا البحث ما تعنيه أحاديث الولاية.

ومن هذه الأحاديث الحديث المعروف والذي أكرر بعض فقراته في مواطن مختلفة (لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله جلَّ وعزَّ حق في ثوابه) [2] . وسوف تستوعبون أبعاد هذا البحث بعد التدقيق فيه وفي نتائِجِه المستخلصة من الآيات القرآنية.

ومسألة الولاية تتصل بمسألة النبوة إتصالاً وثيقاً وتتبعها من غير أن تنفك عنها، وهي في الحقيقة خاتمة لبحث النبوة، وملحق لها، وتتمة لنتائجها.

وسوف نفهم من خلال عرضنا الحاضر أن النبوة تبقى ناقصة من غير ولاية.

ولهذا فنحن ملزمون بالبحث بصورة مختصرة عن النبوة.. وفي هذا البحث المختصر نتعرض للقضايا الكلية والعامة في مسألة النبوة، حتى نجعل هذا البحث مدخلاً لدراسة مسألة الولاية. ولا أنسى أن أقول هنا أن عرض هذه المسألة شاق وصعب صعوبة بالغة، وأشق من ذلك بيانها وعرضها كما هي ؛ ذلك لرسوخ الكثير من المفاهيم والاعتقادات الواهية الهزيلة وغير المنطقية في أذهان العامة من الناس عن الولاية بدرجة لا تسمح بفهم ما تريد أن تبيّنه عن معنى الولاية المطابق مع القرآن والسنة، وستواجه عندئذ أحد اشكالين ؛ إما أن تختلط عليك الصورة بما يقوله عامة الناس، وإما أن يبدو هذا المعنى غريباً حين مقارنته مع ما في أذهان الناس، ولهذا كان هذا البحث صعباً وشاقاً جداً. ولكني بعد استمداد العون من الله المتعال وبالسعي الجاد آمل أن أتم هذا البحث في خلال أيام قليلة إنشاء الله تعالى.

لماذا أرسل النبي (ص) ولماذا جاء؟ من أجل أن تتكامل البشرية، وتتخلق الأمم بأخلاق الله. التكامل البشري وإيصال الناس إلى مكارم الأخلاق هو هدف الرسول (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . بُعث النبي لتربية الإنسان وتقويمه، وعلينا أن ننظر في الوسائل والأساليب والطرق التي يسلكها الرسول للوصول إلى تربية الناس وتقويمهم ؛ هل يؤسس مدرسة، أو يطرح مذهباً فلسفياً، أو يبني صومعة ومكاناً للعبادة. النبي أسس مصنعا [3] لإعداد الناس وتربيتهم وصناعتهم وفق المنهج الإلهي {ولتصنع على عيني}.

وكان (ص) يرجح أن يصل إلى هذا الهدف خلال عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر ؛ إذ لم يكن يستهدف تربية إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة أو عشرين فقط، وإنما كان يهدف إلى بناء مصنع يُنتج ويُعد إنساناً كاملاً يحبه الله ورسوله وبصورة تلقائية أتوماتيكية. فما هو هذا المصنع؟ إنه المجتمع والنظام الإسلامي. هنا يَظهر المنعطف الخطير والنقطة الحساسة لأن الجميع يقولون أن النبي جاء مربّياً ومعلماً يهدف تعليم الناس وتزكيتهم وتربيتهم، والكل يفهم ذلك، ولكن ما ينبغي فهمه بصورة دقيقة هو الطريق إلى هذا الهدف، هل يخلو بالأفراد واحداً واحداً ليلقي على مسمعه النداء الحنون المفعم برحمة الله ولطفه؟

والأنبياء لم يؤسسوا مكاتب ومعاهد علمية أو فلسفية لتعليم مجموعة من الرواد، ثم إرسالهم لهداية الناس في أقطار الأرض، بل إن عمل النبي أشد استحكاماً وثباتاً وعمقاً من هذا كله. فماذا يعمل النبي؟ ليس أمامه من سبيل إلا تأسيس وإنشاء ذلك المجتمع الإسلامي الذي يتولى مهمة إنتاج وإعداد الإنسان الكامل.

ماذا نعني بالمجتمع الإسلامي؟ وما هي حقيقته؟
وطبيعي أن هذه المسائل ليست من صميم بحثنا الأول، ولكنها توضح جوانبه.
المجتمع الإسلامي هو تلك الجماعة التي ترجع في حاكميتها إلى الله، فهو مصدر تشريعها وواضع قوانينها ؛ فقوانين هذه الجماعة قوانين إلهية وحدود الله هي الجارية، والذي يعين القائد أو يعزله هو الله. فإذا تصورنا المجتمع على شكل هرم كما يشاء بعض علماء الاجتماع فإن الله سبحانه هو قمة الهرم، وقاعدته هي الجماعة المسلمة، والذي يوجد الجماعات والتشكيلات هو دين الله، والقرار الرباني الإلهي هو الذي يحدد وقت الصلح والسلام أو الحرب والقتال.. كما أن دين الله هو الذي يعين الروابط الاجتماعية والاقتصادية، وهو الذي يشكل الحكومة ويحدد الحقوق، وكل شيء على الاطلاق يمر من خلال دين الله وشريعته ورسالته، وعلى الجميع أن يتبعوا المنهج الذي يرسمه دين الله ورسالته.. هذا هو المجتمع الإسلامي.
وعندما جاء الرسول إلى المدينة أسس المجتمع الإسلامي، والله سبحانه هو الحاكم على هذا المجتمع الناشىء، ومن الناحية العملية والتنفيذية كان المنفذ والحاكم الفعلي هو خليفة الله ووليه وهو الرسول، فكان يضع أو ينفذ المقررات الإلهية، وكان المسؤول عن هداية الناس وقيادتهم وإدارتهم. كان كل شيء من الله سبحانه في هذا المجتمع.. فصلاة الجماعة كانت تقام وتعقبها خطبة للرسول أو نداء للقتال، لا فرق بين الإثنين ؛ كان الرسول (ص) يقوم إماماً للصلاة في المسجد ثم يرتقي المنبر للموعظة والوصية بالتقوى والتربية وتزكية النفوس. وفي نفس هذا المسجد يُؤتى براية الجهاد ليضعها الرسول بيد أسامة بن زيد أو بيد قائد كفؤ آخر ثم يقول انطلقوا على اسم الله، ثم يصدر أوامره التي تنتهي إلى انتصار المسلمين على أعدائهم. وفي نفس هذا المسجد كان الرسول يقيم الحدود الإلهية ويجريها ويقضي بين الناس ويحل مشاكلهم ويرفع نزاعاتهم.
وكان المسجد هو مكان إدارة الأعمال ودراسة المسائل الاقتصادية.. تجمع الزكاة في المسجد وتوزع منه.. الدرس في المسجد والصلاة والدعاء والعبادة.. كان نشيد القتال يردد فصلاً فصلاً في المسجد، ولا تدرس أمور الثروة والاقتصاد إلا في المسجد، ولم تجد أمور الدنيا والآخرة مكاناً تُتداول فيه غير المسجد، فكلها تشكل كياناً واحداً في وعاء واحد هو بيت الله وتحت قيادة الرسول. هذا هو المجتمع الإسلامي.
إنما جاء الأنبياء لبناء مثل هذا المجتمع، والذي يدخل هذا المجتمع يخرج منه إنساناً كاملاً، وإذا لم يتكامل فهو لا يجد مجالاً يتحرك فيه غير مجال حركة هذا المجتمع، ومن أراد أن يكون منسجماً مع مجتمع الرسول فإن بإمكانه ذلك، بينما لا نجد ذلك في المجتمعات المادية وغير الإلهية ؛ فإن الإنسان في المجتمع غير الإسلامي إذا أراد أن يكون فرداً صالحاً فهو لا يستطيع، يريد أن يكون من أهل الإيمان والتقوى لكنه لا يستطيع، لا يريد أن يأخذ الربا ولا يتعاطاه لكنه يجد ذلك صعباً أو غير ميسور، تريد المرأة أن لا تخرج عن حدود الشريعة الإسلامية فتواجه من المجتمع الضغوط التي تدفعها للسير في الاتجاه المعاكس.
وكل الأجواء والدوافع تبعد الإنسان عن ذكر الله ؛ فالصور والمعارض، والذهاب والإياب، والمعاملات، والمحاورات تبعد الناس جميعاً عن ذكر الله وتجعل ذكر الله غريباً على النفس الإنسانية. أما في المجتمع الإسلامي فالمسألة معكوسة ؛ فإن السوق والمسجد ودوائر الدولة والأصدقاء والأقارب والآباء والشباب وكل من في المجتمع وكل ما فيه، يدعو الإنسان إلى ذكر الله ويجتذبه إلى قدسه ويجعله منسجماً مع ما يريده الله ويوثق الروابط الإنسانية بالله.
كل شيء في المجتمع الإسلامي يبعث على عبودية الله، وهذا بدوره يعد الإنسان العابد لله عبادة حقيقة، ويبعده عن العبودية لغير الله. ولو استدامت حياة المجتمع الإسلامي الذي أسسه الرسول على حالته الأولى مدة خمسين عاماً، ولو كانت القيادة في ذلك المجتمع للرسول، أو لعلي بن أبي طالب الذي عينه الرسول قائداً للناس من بعده، فإن جميع المنافقين يتحولون إلى مؤمنين واقعيين في هذه الخمسين سنة، أي أن أولئك الذين كانوا ضعاف الإيمان وفي منتصف الطريق والذين يمزجون الحق بالباطل وهم يوماً مع هذا ويوماً مع ذاك، إن هؤلاء يتحولون إلى مؤمنين مخلصين لو كانت القيادة نبوية ثم علوية ؛ فالقلوب المنافقة تتحول إلى قلوب ملؤها الإيمان والهدى في مجتمع كالمجتمع الإسلامي الأول لو استمرت به الحياة مدة أطول مما كان ولو كان عمر ذلك المجتمع طويلاً.
فإن أولئك الذين لم تعرف أرواحهم المعاني البعيدة للإيمان سيعرفون الله. والإيمان معرفة رفيعة.. هذا هو مقتضى طبيعة المجتمع الإسلامي، وهذا هو مبتغى الأنبياء وهدفهم، وهذا المجتمع هو المصنع الذي يعد وينتج الإنسان المتكامل، وتخرج من هذا المجتمع مجاميع تعمل بالإسلام في سطحها الظاهر وتؤمن بالإسلام في قلبها وأعماقها وواقعها.
ولهذا الهدف أرسل النبي، ولمثل هذا الهدف كان يعمل ويدعو، وقد تقدم أن هدفنا البحث عن الولاية من أسسها وأعماقها. عندما جاء النبي برسالته وطرح فكره الإسلامي، وبدأ دعوته، فهل يستطيع إدارة المجتمع لوحده؟ ألا تحتاج الجماعة وتشكيلاتها إلى طائفة من الناس تتولى إدارة الأمور؟ ألا تحتاج الجماعة إلى جنود يدافعون عنها، ويردون كيد الأعداء؟ أليس من الضروري وجود مجموعة من المسلمين تعين النبي في تبليغ رسالته ونشر دعوته؟ طبيعي أن ذلك لازم وضروري، ولابد أن تكون هذه السبل

طبيعية غير حاصلة على أساس الإعجاز، والأنبياء يسلكون الطرق الطبيعية في أكثر أعمالهم. جاء النبي ليبني المجتمع المسلم (أي مدرسة التربية) ، وهو لإنجاز هذا الهدف يحتاج إلى جماعة متراصة متحدة يشد بعضها بعضاً تؤمن بهذه المدرسة من أعماق قلبها، وتسير بخطىً ثابتة نحو تحقيق هدفها.

كان ضرورياً للنبي من أجل تحقيق هدفه وجود مثل هذه الجماعة، ولهذا كان فاتحة أعماله إيجاد مثل هذه الجماعة المتراصة عن طريق تلاوة الآيات القرآنية والمواعظ الحسنة {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} [4] ، حيث كان القرآن ومواعظ النبي التي تصدر من أعماق قلبه هما السبيل لإنشاء ذلك المجتمع، وكانت كلمات الرسول تصيب هدفها وتدخل أعماق القلوب لتجتذبها اجتذاباً إلى طريق الله ورسالته. كانت بداية أعمال الرسول تجميع المسلمين ليشكلوا [الجماعة الأولى] (والصف الأول) والجبهة التي تقابل جبهة الكفر والشرك. ولو سألنا عن نواة هذه الجبهة، لوجدنا أنها تتألف من المسلمين الثابتين أولي الاعتقاد الراسخ والقلوب القوية من الذين {لا تأخذهم في الله لومة لائم} [5] .

وكان على المسلمين في ذلك الحين أن يكونوا كالفولاذ إذا أرادوا لجبهتهم أن تبقى قوية مستقلة عن الجاهلية، وهي جبهة حديثة النشوء، غضة العود، قليلة العدد، مع كثرة المشاكل والضغوط التي يخلقها المجتمع الجاهلي.. كان عليهم الارتباط القوي، والاتصال المحكم، حتى لا يستطيع أي عامل النفوذ إلى جبهتهم ليفرق بينهم.. كانوا أشد الحاجة إلى ما يسميه المثقفون هذه الأيام بالانضباط الحزبي الحديدي ؛ عليهم الاتصال أكثر ما يستطيعون والتفاعل بأقوى ما يقدرون، وعليهم الابتعاد ما استطاعوا عن الصفوف والتيارات المضادة لأنهم يشكلون الأقلية، وفكر الأقلية إذا حوصر وضيق عليه فليس له أي قيمة، فإنه كعمل الأقلية وشخصيتها قد يضيع في المسالك العملية المتعددة التي ترجع إلى الجماعة المخالفة التي تشكل الأكثرية، وبهذا تسحق شخصية الأقلية وعملها وفكرها ضمن شخصية الأكثرية وتوجهاتها.

إذن لابد لتلك الجماعة من الانسجام والاتصال والوحدة والانفصال عن سائر الجبهات الأخرى من أجل أن تبقى هذه الجماعة متشكلة ومؤلفة، وأساساً لبناء المجتمع الإسلامي الكبير القائم على أسس القوة والمتانة والثبات ؛ ذلك المجتمع الذي تبنيه أيادي هذه الجماعة الصغيرة.

وحال هذه الجماعة عندما تريد بناء مجتمعها الكبير يشبه حال أولئك الذين يتسلقون الجبال فهم يطمحون طي المسافة الملتوية المتعرجة، ويحمل كلٌ منهم عصا، وطريقهم الجبلي مغطى بالثلوج كثير الارتفاعات الشاهقة والانخفاضات السحيقة ؛ فمن أجل أن يصل هؤلاء إلى قمة الجبل لابد أن يلتزموا بالوصايا التي تقدم لهم بشأن تسلق الجبال، التصقوا ببعضكم، شدوا الظهور سوية، لا تسيروا متفرقين فإن من يبقى وحده قد ينزلق ويسقط.

يوصي هؤلاء بالالتحام الشديد والتفاعل المشترك، ويقال لهم أيضاً لا تثقلوا ظهوركم بالأحمال الثقيلة، ولا تنظروا إلى الأطراف المحيطة بكم، بل عليكم تركيز نظراتكم على طريقكم، وركزوا حواسكم على عملكم، وتشد أيدي هؤلاء وظهورهم بإحكام حتى إذا سقط واحد منهم أو اثنان كان بإمكان الباقين إنقاذه وإرجاعه إلى حالته المتوازنة. هذه الحالة الشديدة الاتصال والتفاعل تعتبر مثالاً واضحاً لحالة المسلمين الأوائل انسجاماً واتصالاً وتفاعلاً.

هل لهذه الحالة المتفاعلة المتصلة اسم خاص في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة، أم ليس لها اسم؟

وهل تقبل الانفصال والذوبان تلك العلاقة الصميمية بين المسلمين الأوائل الذين شكلوا الجبهة الإسلامية الأولى؟ ألم تكن هذه الجبهة منفصلة بنحو كامل عن سائر الجبهات المضادة فكراً وسلوكاً، مبدأ وغاية، مع أنها شديدة الالتحام والتفاعل داخل صفوف المسلمين ؛ فالأيادي متشابكة ومتلاصقة والقلوب متوحدة متفاعلة، والأجساد متراصة والمسلمين يشد بعضهم بعضاً.

هل لهذه العلاقة اسم خاص في القرآن الكريم؟ نعم هناك اسم لهذه العلاقة الالتحامية، ولهذه الجبهة المتميزة والتي شكلتها مجموعة من الأفراد ذوي الفكر الواحد والطموح الواحد والهدف الواحد والواضعين خطاهم في طريق واحد والمتحركين من أجل غاية واحدة والذين يعتقدون بعقيدة واحدة، هؤلاء الذين كانوا يلتحمون ويتآزرون فيما بينهم بقوة تشتد يوماً بعد يوم، وكانوا متمايزين عن باقي الجبهات والتيارات والرؤى الفكرية بصورة واضحة على كل المستويات الفكرية والسلوكية، وهم يحافظون على تميزهم واستقلالهم هذا، ولماذا كل ذلك؟

لأنهم لا يريدون الذوبان والتحلل في الآخرين. والقرآن الكريم يصطلح على هذه العلاقة بالولاية. كان الرسول (ص) هو الذي أوجد تلك الجماعة المتفاعلة المنسجمة ؛ فآخاهم ووحدهم وحولهم إلى جسد واحد. ومن هذا الكيان المنسجم تشكلت الأمة الإسلامية، ومن هذه الجماعة تولد المجتمع الإسلامي ؛ وقد فصلهم الرسول وأبعدهم عن أعدائهم ومخالفيهم ومعانديهم كما سنقرأ ذلك في الآيات القرآنية.

وقد أوجد الرسول حاجزاً بين المسلمين وبين سائر الجبهات، ومنعهم من تكوين أي علاقة مع جبهات اليهود والنصارى والمشركين، وكان يسعى ما أمكنه السعي إلى أن يجعل الصفوف الإسلامية متصلة مملوءة متوحدة متفاعلة منسجمة، لأنهم إن لم يكونوا على تلك الحالة وإذا لم يكن بعضهم يوالي بعضاً، لا يستطيعون حمل الأمانة الملقاة على عواتقهم وسوف يعجزون عن

النهوض بها وإيصالها إلى غايتها المنشودة ونهايتها المطلوبة. وعندما يتحول المجتمع الإسلامي إلى أمة عظيمة تبقى ضرورة الولاية قائمة.

وسنأتي بالشرح على ذلك.. ومن أجل أن نصل إلى معرفة إجمالية للولاية عند الشيعة، علينا التدقيق فيما تقدم من أن المجتمع الصغير يلزمه الالتحام والارتباط القوي وهو يعيش في دنيا يخيم عليها الظلام وتحكمها الجاهلية ؛ لابد له من ذلك الالتحام والانسجام من أجل البقاء والديمومة، فلن يكون له وجود وحياة إذا لم يكن متصلاً منسجماً متفاعلاً، ومثال ذلك المسلمون الأوائل الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وكانوا يعيشون وسط المجتمع الجاهلي، ومثال آخر المجتمع الشيعي الثائر الصغير في عصور الخلافة الأموية والعباسية والتي كانت تنصب الكيد والعداء للإسلام.. هل كان من اليسير بقاء تلك الجماعة المؤمنة، مع شدة الحملات التشويهية، وحملات الرعب والتجويع والإعتقالات والسجن والقتل؟ ما هو هدف كل هذه الحملات؟ ألم تكن تهدف إلى تذويب وسحق ذلك الجمع المنسجم فكراً وسلوكاً، مع ملاحظة أن هذا التجمع كان يعارض بشكل واضح وصريح الاتجاهات الحاكمة آنذاك؟

أما كيف قدر لهذا الجمع أن يبقى؟! ذلك لوجود العلاقة الصميمية والمتفاعلة بشكل مدهش والتي يسميها القرآن بالولاية، وتحت ظلال هذه الولاية أمكن بقاء الشيعة كمدرسة تواجه المدارس المعارضة. تصوروا نهراً عظيماً واسعاً تصب فيه روافد مختلفة منتشرة الأطراف هنا وهناك، والمياه تجري سريعاً، لن يكون سطح الماء مستوياً بل ستكون هناك حفر كثيرة. مع اختلاط المياه ببعضها وبتيارات الماء التي تصب من الروافد ومن كل الاتجاهات يحدث تفاعل شديد بين مجموع هذه المياه الجارية، سوف يطغى بعضها على بعض والماء جارٍ من غير توقف مما يبعث على أن ينتشر الطين والترسبات هنا وهناك.

ماذا تقولون لو شاهدتم مجرىً نظيفاً زلالاً وفراتاً عذباً داخل ذلك النهر العظيم وهو محافظ على نقاءه وتميزه بصورة تثير الدهشة والإعجاب؟ لم يمسسه سوء من كل الأطراف المحيطة به، لم تختلط أو تمتزج مياهه بمياه النهر الكبير. فما تغير لونه مطلقاً، ولم يتأثر مذاقه العذب بمذاق ماء النهر الأجاج، حلو الطعم عذبه، أبيض اللون، شفاف بلوري، صاف خالص نقي، يسير محافظاً على صفائه وخلوصه في مجراه قُدُماً. شبّهوا العالم الإسلامي في أيام الأمويين والعباسيين بهذا النهر، حيث كانت التيارات والمدارس الفكرية والسياسية المختلفة في صراع..

انظروا إلى هذا الصراع من أوله إلى آخره، تجدون مجرى التشيع كالخيط الرفيع من الماء داخل ذلك الطوفان المهيب ؛ فهو شيء وكأنه لا شيء، يرى صغيراً وكأنه لا يرى، لكنه كان محافظاً على وجوده، لم يصبه كدر المياه المختلفة، ولم يتغير طعمه أو يفقد صفائه ونقاوته، ولم تستطع التأثير فيه مذاقات المياه المختلفة أو رائحتها أو ألوانها، حافظ على بقائه مستقلاً وسلك مسيره وطريقه. ما هو ذلك العامل الذي حافظ على وجوده ونقائه واستمراره؟ إنه وجود الولي، الذي كان يوصي بإنشاء علاقة الولاية بين أتباعه. وكان يربط بعضهم ببعض، ويجعل بعضهم رحيماً ببعض، وكان يذيع هذه العلاقة ويشجع عليها ويحفظها قوية بين أفراد جبهته، هذا بعد من أبعاد الولاية عند الشيعة، وهناك أبعاد أخرى سوف نحققها ونحللها.

فليس كل ما تعنيه الولاية هو هذا، بل إن هذا جانب من جوانبها وبعد من أبعادها. وعلى هذا نعرف أن الولاية هي الاتصال والترابط والانسجام بين الأفراد. والقرآن يعتبر المؤمنين أولياء فيما بينهم، والذين آمنوا وأخلصوا يشكلون في منطق القرآن جبهة واحدة. وورد مصطلح المؤمن في رواياتنا تعبيراً عن الشيعي، والإيمان بناء على هذا المصطلح، هو الاعتقاد بالفكر الإسلامي الذي يعتمد على أساس الولاية، والإيمان هو الرؤية الإسلامية من خلال زاوية النظر هذه.

ونحن نرى أن الإنسجام كان قوياً وشديداً في زمان الأئمة (ع) وكانت الأخوة هي الظاهرة البارزة، كان ذلك من أجل المحافظة على التيار الإسلامي حياً صافياً متدفقاً على مر التاريخ. ولو لم تكن العلاقة بهذا الشكل القوي فما الذي يقع؟

سوف يفنى الإسلام والمسلمون ألف مرة وستذوب أفكارهم وتصادر، كما حصل ذلك لبعض الفرق الأخرى حيث فقدوا صبغتهم وذابوا وانتهوا.. على كل حال هذا بعد من أبعاد الولاية.

ونتعرض الآن للبعد الآخر الذي يتلو سابقه في الأهمية وهو بعد ولاية ولي الله ؛ فقد عرفنا معنى ولاية الشيعة، فما الذي نريده بولاية ولي الله؟ ولاية علي بن أبي طالب ماذا تعني؟ ماذا نعني بولاية الإمام الصادق (ع) ؟ ويجب علينا جميعاً أن نوالي الأئمة (ع) ، فما نعني بهذه الولاية؟

هناك من يتخيل أن ولاية الأئمة لا تعني أكثر من محبتهم والانشداد القلبي بهم، وهذا وهم كبير ؛ فليست الولاية محبة فقط، وهل يوجد في العالم الإسلامي من لا يحب الأئمة المعصومين وأهل بيت النبي وذوي قرباه؟! فهل الكل موالون؟! وهل هناك من ينصب العداء للأئمة وأهل البيت؟ وهل كان كل أولئك الذين قاتلوا الأئمة يعادونهم؟ كان الكثير منهم يحب الأئمة ولكن حب الدنيا جعلهم يقاتلونهم، وكان الكثير منهم يعرف مقام الأئمة وسمو مكانتهم وفضائلهم.

فعندما بلغ المنصور خبر وفاة الإمام الصادق (ع) أخذ يبكي. هل تتصورون أن المنصور كان يتظاهر بالبكاء؟ أمام من يتظاهر؟ أمام أتباعه والسائرين في ركابه؟ أمام ربيع الحاجب؟ كلا، لم يكن بكاؤه تظاهراً، وإنما كان محترق القلب ومتحسراً لوفاة الإمام

الصادق. لكن من هو قاتله؟ المنصور هو الذي أمر بدس السم للإمام.. وعندما بلغه خبر التنفيذ تألم وتحسر وتحطم قلبه، فهل يكون المنصور من أهل الولاية للإمام الصادق لأنه تألم لوفاته؟ وقد انتهى هذا الفهم للولاية إلى نتيجة خاطئة شأن المأمون حيث تصور الكثير من أن المأمون كان شيعياً، فمن هو الشيعي في منطق هؤلاء؟ هل أن الشيعي هو من يعرف أن الحق مع الإمام الرضا (ع) ويكفيه هذا؟! على ضوء هذا الفهم ليس المأمون فقط شيعياً بل أبوه هارون الرشيد شيعي أيضاً، وكذلك المنصور ومعاوية ويزيد، بل هم من ألصق الناس بالشيعة حينئذ.

وأولئك الذين نازعوا علياً وخاصموه وحاربوه، هل كانوا يكرهون علياً؟ كلا، إن أغلبهم كان يحب علياً، فهل نجعلهم شيعة لعلي ومن أهل ولايته وولائه؟ كلا، إن الولاية أسمى من هذا المعنى وأرحب..

وحين نفهم حقيقة الولاية لعلي بن أبي طالب وللأئمة (ع) ، نرجع إلى أنفسنا لنرى هل تنطوي جوانبها على هذا الولاء أم لا ؟

وإذا لم نجد الولاء سألنا الله سبحانه أن يرزقنا الولاء للأئمة، وبذلنا الجهد في سبيل الحصول على هذا الولاء. وحين ننتهي إلى بيان المعنى الحقيقي للولاية سوف يتبين الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون في تفسيرهم للولاية، وقد اعتاد الشيعة في يوم (18 ذو الحجة) وهو عيد الغدير أن يتداولوا هذا الدعاء "الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب (ع) ". وكثيراً ما قلت لأصدقائي وأحبتي لا تقولوا الحمد لله الذي جعلنا فإني أخشى أن يكن هذا كذباً، ولكن قولوا اللهم اجعلنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب (ع) ، إن علينا أن نلاحظ هل أننا من المتمسكين بالولاية أم لا؟ وسنصل إلى دراسة هذه الناحية إنشاء الله.

وهذا بعد آخر للولاية، وخلاصة ما قلته أن ولاية الأمة المسلمة وولاية تلك الجبهة السائرة والمجاهدة في سبيل الله تعني العلاقة المتفاعلة والمنسجمة والمتصلة بين أفراد هذه الأمة وهذه الجبهة، والتي تظهر في العلاقات القلبية المشتركة والمتلائمة وفي الاستقلالية الكاملة عن باقي الجبهات التي تحمل فكراً آخر وتسلك سلوكاً مضاداً وتعمل في سبيل إلغاء هذه الأمة ومصادرة وجودها.

وآيات سورة الممتحنة شاهد صدق على هذه الحقيقة، وأنا أتصور أنها إنما سميت بهذا الاسم لتناسب هذا المعنى، ولعلها إنما سميت باسم الولاية من أجل ذلك.

{بسم الله الرحمن الرحيم* يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} الآية تنهى المؤمنين عن اتخاذ غيرهم أولياء وأحبة وأعضاء في مجتمع المؤمنين، وليس الأمر كما ترجمه بعضهم إلى الفارسية بمعنى المحبة فقط ؛ فإن هذا ليس هو المعنى الكامل لكلمة الأولياء، وليست المسألة مقتصرة على المودة والمحبة بل هي أرفع من ذلك وأعمق ؛ فالآية تريد أن تقول لا تعتبروا أولئك منكم ولا تحسبوهم من جبهتكم وصفكم وأعضاء من مجتمعكم وأمتكم، ولا تجعلوا أنفسكم منهم ومن جبهتهم حتى على مستوى الافتراض الذهني والتقدير والتصور فضلاً عن الاعتقاد والجزم، لا تجعلوا عدو الله وعَدوّكم إلى جنبكم ومعكم، بل كونوا صفاً يقابله، وقفوا في وجهه وعارضوه. {تلقون إليهم بالمودة} لا تعتبروهم من جبهتكم ومن صفكم حتى تعلنون لهم عن مودتكم لهم، {وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم} فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء {إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي} فإن كنتم صادقي الإيمان والجهاد فما لكم من حق في اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء واعتبارهم من صفكم وأمتكم.

والآيات اللاحقة تشير إلى الكفار الذين يعنيهم الله سبحانه لأنها تذكر أقسام الكفار {تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيلي}.

ولابد أن نذكر أن سبب نزول هذه الآيات هو ما فعله حاطب بن أبي بلتعة، حيث كان رجلاً ضعيف الإيمان، وعندما عزم الرسول على الخروج لمقاتلة كفار قريش وجهادهم أخذ حاطب يحدث نفسه (لو لم ينتصر الرسول في هذا الخروج وهذه المعركة فسوف تلحق قريش الضرر بأقاربي الذين يسكنون بين ظهرانيهم) . أراد حاطب وهو من جند الرسول أن يحتال لإنقاذ أقاربه، فقال لنفسه نحن الآن قرب النبي ونجاهد معه وسيصيبنا أجر المجاهدين وثوابهم، فعليّ أن أحتاط للأمر بكتابة رسالة إلى الكفار أعلمهم فيها عن مودتي ووفائي لهم ولا ضرر في ذلك، إذ عندما تتلاقى السيوف في ميدان القتال لن أعمل بمفاد هذه الرسالة، ولا مانع من أن اخدع الكفار برسالتي ما دامت الحرب لم تقم، وسأحصل على الدنيا وعلى ثواب الله [6] . وسأكون مصداقاً لتلك القصة المعروفة التي تقول أنه تنازع عمدة البلد ومختارها مع أحد أكابر هذه البلدة، فسألا أحدهم مع من ترى الحق، ومن هو قائله؟ فقال: كل منهما يقول الحق، فكان مع الجبهتين على وفاق تام. كتب حاطب رسالة إلى رؤوس قريش حتى يطلعهم على علاقته الودية معهم وعلى صداقته الحميمة والرحيمة لهم، ودفع الرسالة لأمرأة لتوصلها إلى مكة، وأطلع الوحي الرسول على الحادثة، فأرسل خلف المرأة أمير المؤمنين وأرسل معه واحداً أو اثنين من المسلمين يقبضوا على المرأة، وجد عليٌّ المرأة وهددها، فأخرجت الرسالة من ضفيرتها. سأل النبي (ص) حاطباً: لم فعلت هذا؟ ولم كشفت للعدو عن أسرارنا العسكرية والقتالية؟. قال: يا رسول الله إن لي رحماً وعشيرة في مكة، وخفت عليهم أذى قريش وتضييقهم، فأردت أن أجلب لينهم وعطفهم، فكتبت لهم هذه الرسالة. وتجيب

الآية الكريمة: لا تخطئوا فإن هؤلاء لن يلينوا لكم، ولن تقترب قلوبهم معكم لأنهم يشكلون جبهة فكرية مضادة لكم، وهم يعلمون أن دينكم وإيمانكم سوف يستأصلهم ويلغي وجودهم، وقد وضعوا كل همهم للقضاء على دينكم وإيمانكم، فهيهات أن يكونوا معكم رحماء أو يكونوا لكم أصدقاء. تقول الآية {أن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء} فيا حاطب بن أبي بلتعة، لا تتصورنَّ أن هؤلاء سيكونوا حافظين لك ولرحمك في غدٍ، لأنك أعنتهم اليوم. كلا، فإنك إن تقربت إليهم وتنازلت عن شيء بسيط، فإنهم ينتظرون تنازلاً أكبر، وسيتسلطون عليك أكثر ويمدون إليك يد العداوة والظلم {أن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء} سيضغطون عليكم أكثر، ويذلوكم، ويسلبوكم شخصيتكم وعزتكم وكرامتكم، ولن ينظروا إليكم نظرة احترام، فلا تحسبوا أنهم ينفعونكم، وودوا لو تكفرون. وحين يتسلطون عليكم سوف يسلبوكم تلك العلقة الباقية من الإيمان، فهل تحبون أن تكفروا؟ لا تتصوروا ولا تظنوا أن هؤلاء يتركونكم على دينكم بكل حرية وراحة أو يسمحوا لكم بالتنسك والعمل على ضوء رسالتكم ودينكم.

بعد هذا يأتي دور البيان القاطع الذي يوجهه القرآن بشأن اقارب حاطب وكل من شاكلهم في التاريخ، فهو يقول: أنتم على استعداد وإهبة للتنازل عن دين الله ورسالته من أجل قومكم وأقاربكم وأرحامكم وأولادكم فتظهرون لأعداء الله محبتكم ومودتكم، فأي منفعة سوف تجنونها من أولادكم وأرحامكم؟! وكم سينفعكم أولئك الذين تسالمون قريش من أجلهم؟! هل سينجوكم من عذاب الله؟!

وهذا حاطب الجاهل كان على وفاق مع قريش والكفار وأعداء الرسول من أجل أن لا يلحق بأرحامه ضرر منهم، كم هي منفعة هؤلاء الأولاد والأرحام حتى يتسبب الإنسان من أجلهم في سخط الله عليه؟ {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم} {يوم القيامة يفصل بينكم}. نستطيع أن نقرأها منفصلة عما سبقها، ويكون معناها أن الله يفرق بينكم فلن ينفع أحدكم الآخر، ونستطيع أيضاً قرائتها بهذا الشكل {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة} ثم {يفصل بينكم} ويكون مفادها أن الله يفرق بينكم يوم القيامة.

وهذه الفقرة من الآية الكريمة لها نظير في القرآن الكريم وهو قوله تعالى في سورة عبس {يوم يفر المرء من أخيه* وأمه وأبيه* وصاحبته وبنيه}[7] . فهذا الطفل الذي تتحمل كل غم وهم من أجل راحته سوف يفر منك، وكل فرد سوف يفر من سائر المخلوقات، فكل يفر من الآخر، إذ ليس لديه وقت يسأل فيه عن حالهم، {لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه} وليسمع منطق القرآن من يضحي بسعادة دنياه وآخرته من أجل راحة أولاده وسعادتهم ويتحمل من أجل ذلك أنواع البلاء والشقاء ويجعل آخرته وراءه ظهرياً، ليسمع آيات القرآن لعله يخشع ويلين {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير* قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه}. هذا المقطع من الآيات هو القمة في السياق القرآني، أيها المؤمنون انظروا ما فعله ابراهيم والذين معه فاجعلوهم لكم أسوة وتابعوهم في عملهم، فما الذي فعله أولئك؟ لقد قالوا لقومهم الضالين وللطاغوت وللآلهة المزيفة {نحن براء منكم} لقد كفرنا بكم، ونحن على جفوة معكم، ويفصل بيننا وبينكم العداء والبغض. نعم هناك طريق للوفاق معكم {حتى تؤمنوا بالله وحده} فإذا أعتنقتم أفكارنا فنحن معكم ولكم، فتعالوا إلى الإيمان بعقيدتنا. القرآن يأمر المسلمين أمراً صريحاً بالنهج على طريقة ابراهيم {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه}.

كان هناك مورد مستثنى، إذ لم يقطع إبراهيم علاقته بكل الكافرين جميعاً ؛ حيث قال لعمه {لأستغفرن لك ربي وما أملك لك من الله من شيء} فلا تتصورن انك ستدخل الجنة بشفاعة ابنك المطيع الله سبحانه. كلا، فأنا لا أستطيع أن أدخلك الجنة، ولكني سأتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه من أجل أن يغفر لك ذنوبك ويجعلك من المؤمنين {ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا وأغفر لنا، ربنا إنك أنت العزيز الحكيم}. هذا دعاء ابراهيم، ثم يقول القرآن الكريم {لقد كان فيهم لكم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد} ومن يكون على وفاق مع أعدائه فسوف يفقد عزته، ويذل شخصيته، ويتنازل عن كرامته، ولن يضر الله شيئاً، ولتحفظوا ما قاله ابراهيم، ولتتذكرونه دائماً، فإنه والذين معه قالوا لأعدائهم الكفار والمنحرفين عن رسالتهم {إنا براء منكم} وبهذه الطريقة كان تعامل الإمام السجاد والذين اتبعوه مع المنحرفين في زمانهم ؛ فقد ورد في كتاب بحار الأنوار قصة حواريّ الإمام السجاد، يحيى بن أم طويل، الذي دخل المدينة المنورة ووقف مواجهاً أهلها الذين يتظاهرون بأنهم أتباع آل محمد وأوليائهم ؛ أولئك الذين عاش بين ظهرانيهم الإمام الحسن والحسين طول عشرين سنة، وما كانوا أتباعاً لبني أمية ولا من محبيهم، لكنهم كانوا هيابين جبناء خيمت عليهم ظلال الخوف من واقعة الطف وكربلاء، وكان نتيجة الرعب الذي أفشاه بنو أمية أن تخلفوا عن أهل البيت وتركوهم منفردين، وكانت عقيدتهم سليمة، مع ذلك وقف يحيى بن أم طويل يوجه هؤلاء وقرأ عليهم {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً} وهو نفس كلام إبراهيم والذين معه مع المشركين والمنحرفين والضالين. فالولاية هي الولاية كما تلاحظون، وإبراهيم كان على الولاية، وشيعة الإمام السجاد كانوا على الولاية، فهم

على انسجام فيما بينهم، وهم على جفاء وبينونة مع عدوهم، ويخرج عن الولاية للإمام السجاد (ع) من دفعه الخوف أو الطمع إلى الانضواء في صفوف جبهة العدو.
ولهذا يقول يحيى تلميذ الإمام السجاد (ع) لهذا وأمثاله (كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً) .
ويحيى بن أم طويل تلميذ الإمام السجاد ومن أصحابه البررة المخلصين، وكان مصير هذا الرجل الصالح أن أخذه الحجاج وقطع يده اليمنى ثم اليسرى ثم قطع رجله اليمنى فاليسرى، ولما أراد أن يتكلم بالحق قطع لسانه حتى مات (رحمة الله عليه) وكان دمه سبباً لديمومة حياة التشيع، وقد بني بدمه وشهادته أسس التشيع الشامخة الرصينة بعد الإمام السجاد.

خلاصة المقالة الأولى
الرؤية الإسلامية الجديدة التي بلغها الرسول عن ربه سبحانه وتعالى، تعطي للحياة معنى الجدية، فهي رؤية متميزة، لا تستطيع تحقيق أهدافها في بناء هذه الحياة جديدة ما لم تظهر بشكل عملي وفعلي متمثلة في فكر المؤمنين بها، وفي وجدانهم، وفي عملهم وسلوكهم. والمؤمنون هم المجموعة المنسجمة المتفاعلة من الناس. وهذه المجموعة تشكل جبهة قوية غير قابلة للنفوذ والاختراق من قبل الأعداء. ويلزم هذه الجماعة أن تتوحد وترص صفوفها وتملأ ثغراتها وتصمد في طريقها حتى لا تذوب في التيارات والمدارس الفكرية النظرية والعملية المعارضة، وهذا يستلزم بدوره الابتعاد عن كل ما يحدث الخلل والضعف والوهن في هذه المجموعة ويجعلها عرضة لتأثير الأفكار المعارضة، ويلزمها كذلك عند الضرورات قطع العلاقات العادية أو تحديدها مع أولئك المعارضين.
ويطلق القرآن الكريم كلمة التولي والموالاة والولاية على هذا التوحد والانسجام والتراص في جبهة واحدة فكرية وعملية. وهذا التجمع المنسجم الموحد هو حجر الزاوية في المجتمع الإسلامي وهو الذي يشكل أسس بناء الأمة الإسلامية، ومن أجل أن تحفظ الأمة الإسلامية العظيمة وينشأ المجتمع الإسلامي الكبير لابد من حفظ الوحدة والانسجام ولابد من الحذر من نفوذ الأعداء واختراقهم لحصون هذه الأمة، وليس من سبيل لحفظ الوحدة غير سبيل الولاية والولاء، والأمور الدقيقة التي ترتبط بالولاية القرآنية والتي نشير إليها مستقبلاً إنشاء الله لابد من استنتاجها من آيات قرآنية متعددة {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}.
{وقد كفروا بما جاءكم من الحق} (فكيف تتخذونهم أولياء) .
{يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم} (وقد اتخذوكم جبهة مضادة لهم) .
{إن كنتم خرجتهم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي} (فعليكم مجانبة أولئك) .
{تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما اخفيتم وما أعلنتم}
{ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل} (من يتخذ الكافرين أولياء)
{إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء}
{ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء}
{وودوا لو تكفرون}
{لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم}
{يوم القيامة يفصل بينكم}
{والله بما تعملون بصير}
{قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم}
{وقد بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً}
{حتى تؤمنوا بالله وحده}.
سورة الممتحنة 1 ـ 5.

أسئلة حول المقالة الأولى
1 ـ ما هو نوع العلاقة بين الولاية والنبوة؟
2 ـ على ماذا اعتمد الرسول في تربية الإنسان؟
3 ـ المدرسة التربوية الإسلامية، ما هي ميزاتها؟
4 ـ ماذا تعني الولاية حسب الفهم الابتدائي؟
5 ـ ماذا تعني ولاية الشيعة فيما بينهم؟

6 ـ ماذا تعني الولاية لولي الله؟
7 ـ ما هي الأوامر المستفادة من سورة الممتحنة والموجهة للمؤمنين؟
8 ـ كيف كان إبراهيم وأتباعه نموذجاً للمؤمنين، وكيف يظهر هذا الانموذج في حياة المؤمنين هذه الأيام؟
9 ـ ماذا قال يحيى بن أم طويل في المسجد؟ ولمن نقول هذا الكلام هذه الأيام؟

2 ـ أصول الكافي، باب دعائم الإسلام، الحديث الخامس.
3 ـ ورد لفظ الصنع تعبيراً عن عملية تربية وإعداد الإنسان في القرآن الكريم في قوله تعالى {ولتصنع على عيني} سورة طه، الآية: 39.
4 ـ سورة النحل، الآية: 125.
5 ـ نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.
6 ـ مثل فارسي سائر "هم خدا را داشت باشيم وهم خرما".
7 ـ مورة عبس، الآيات: 34 ـ 37.

المقالة الثانية: العلاقة المهيمنة على الأمة الإسلامية

الجماعة التي تشكل الأمة الإسلامية، تحكمها الشريعة الإلهية والقانون الرباني، وتنفذ كل ذلك بقوة تنفيذ إلهية، ويهيمن الفكر الإسلامي على كل وجودها. إذا أرادت هذه الجماعة الوصول إلى المعنى الواقعي للولاية كما أوضحها القرآن وكما تقدم عرضها في المقالة الأولى، فلابد من تأكيد جهتين:

أ ـ الجهة الأولى: العلاقات الداخلية الحاكمة في المجتمع الإسلامي.

الجهة الثانية: العلاقات الخارجية والروابط بين العالم الإسلامي وبين الأمم غير المسلمة. فيما يعود إلى العلاقات الداخلية نرى أنه لا مجال للفرقة والتشتت، والذي يسود داخل المجتمع الإسلامي هو الانسجام والتفاعل والعلاقات الصميمية، ذلك أن الولاية بمعناها القرآني تستلزم ذلك وتعني به. إذن أفراد المجتمع الإسلامي أخوة منسجمون، صفوفهم متحدة، لا يسمح لها بالتفرق والتشرذم، وإذا حدث قتال أو خصومة أو نزاع بين طائفتين أو فردين مسلمين فإن القرآن يأمر المسلمين جميعاً بأن يبذلوا كل جهودهم من أجل إيقاف النزاع ورفع التخاصم، وعليهم السعي للصلح بين المتنازعين والموائمة بينهما، وإذا أبت إحدى الطائفتين الصلح والسلام واختارته الأخرى، أو كان أحد الطرفين محقاً والآخر مبطلاً لا يخضع للحق فإن على المسلمين جميعاً في هذه الحالة أن يقوموا يداً واحدة بوجه المبطل ويوقفوه عند حده ويجلسوه في مكان {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}. هذا الأمر الإلهي يحفظ الوحدة داخل صفوف المجتمع الإسلامي.

وأما فيما يرجع إلى العلاقات والروابط الخارجية، فالأمة الإسلامية مسؤولة عن تنظيم هذه العلاقات بشكل لا يوقعها بأي حال من الأحوال تحت دائرة نفوذ الأمم الأخرى وسيطرتها فكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً، والأمة المسلمة لا يسمح لها أن تنتهج نهجاً سياسياً غير النهج الإسلامي ولو بشكل جزئي ومحدود، فعليها المحافظة على استقلالها السياسي بصورة دقيقة وكاملة، وليس لهذه الأمة أن تدخل إلى جبهتها أي طرف لا يؤمن برسالتها. وتؤكد ذلك القصة المعروفة والتي وقعت أحداثها في زمن الإمام الباقر (ع) والتي يُذكر عادة في المصادر الشيعية يوم كان المسلمون يتعاملون بالنقد المسكوك في بلاد الروم، ولأمر ما هددت السلطات الرومية جهاز الخلافة بقطع هذه النقود عن البلاد الإسلامية، فأرشد الإمام الباقر جهاز الخلافة إلى طريقة لحل هذه المشكلة وذلك بأن يستقل المسلمون بسك النقود لأنفسهم، وقد فعلوا ذلك وخرجوا من أزمة قاتلة.

والذي يثير الدهشة في سيرة أئمة الهدى (ع) انهم طوال عمرهم الشريف المبارك لم تكن لهم أدنى علاقة ولو جزئية بالأجهزة الحاكمة. نعم هناك مورد أو موردين نستثنيهما وأحدهما القضية المتقدمة. وعلى هذا سوف يمنع ويطوق أي تأثير خارجي من قبل الأجنحة غير الإسلامية يستهدف النفوذ داخل حصون الأمة المسلمة، وليس للمجتمع أو الأمة المسلمة أن تشكل أي علاقة مع العالم غير الإسلامي إلا بالصورة التي تحفظ الرفعة والهيمنة للإسلام.

ليس من صلاحيات الأمة المسلمة إنشاء علاقة أو إبرام اتفاقية استثمارية مع أمة غير إسلامية أو بلاد لا تدين بالإسلام، كما حدث ذلك في اتفاقية التنباكو، وكمباني رزي.

وقد حدث نظير ذلك أيضاً في تاريخ الهند حيث سمح الحكام المغول للدول الأجنبية بالدخول إلى الهند لتنفيذ جملة من الاتفاقيات.. لا يجوز للمسلمين القيام بمثل هذا العمل وليس هذا من صلاحياتهم لأنها تنافي مبدأ هيمنة الإسلام والعالم الإسلامي على غير المسلمين، والعالم الإسلامي هو صاحب الولاية والحاكمية على غير المسلمين في البلاد الإسلامية، وما الذي حدث للهند الشرقية عندما دخلتها الدول الأجنبية على الجميع أن يعرف أن الاستعمار استطاع النفوذ داخل شبه القارة على سعتها بصورة دقيقة.

نعم لا يسمح للأمة المسلمة إقامة مثل هذه العلاقات، وعليكم أن تعرفوا أنه ليس مقصودنا من ذلك أن تعيش الأمة المسلمة حالة الانزواء السياسي. ليست المسألة بهذا الشكل، إذ كيف يمكن أن لا يكون للعالم الإسلامي أي علاقة تجارية أو سياسية أو دبلوماسية مع العالم، بل أن للدولة الإسلامية علاقات ولكن هذه العلاقات لا تكون مقدمة لولاء الأمة الإسلامية لأولئك ولا تتسبب في إنشاء وإيجاد علاقة نفسية معهم، فليس وراء هذه الروابط والعلاقات والاتفاقيات التجارية والصناعية وغيرها أي اتصال حقيقي أو هوى بين المسلمين والكافرين حتى لا يفتح الطريق أمام النفوذ الاستعماري داخل البلاد الإسلامية. وعلى هذا فإن الولاية القرآنية ذات اتجاهين، اتجاه داخل المجتمع الإسلامي ووظيفته توحيد العناصر جميعاً ودفعها للسير في هدف واحد وجهة

واحدة ومسيرة واحدة، واتجاه خارج المجتمع الإسلامي ووظيفته قطع كل العلاقات بين المجتمع المسلم وبين كل التيارات والسلطات غير المسلمة.

وهنا يظهر مطلب دقيق سوف نتعرض له في حينه وهو أن هذه الولاية هي نفس الولاية التي عند الشيعة، فنحن الشيعة نعتبر الارتباط بالإمام أمراً مهماً وعظيماً، ونحن نمتثل أمر الإمام في كل شئون حياتنا الاجتماعية، وكيف نفهم ذلك من القرآن؟ نفهم ذلك من النصوص القرآنية التي تتحدث مع المسلمين عن الولاية.

وإذا أراد المجتمع أو الأمة أن تلتزم بالولاء بمعناه القرآني، أي إذا أرادت أن تركز كل قواها الداخلية في جهة واحدة نحو هدف واحد وتقف بوجه كل القوى غير الإسلامية بعد تعبئة قواها الداخلية هي، تحتاج حينذاك إلى نقطة مركزية ومحور تكون له القدرة وبيده القرار، والمجتمع المسلم يحتاج إلى مركز تلتقي عنده كل القوى الداخلية وتنجذب إليه، والمسلمون جميعاً يستلهمون منه ويسمعون له ويستجيبون لأمره، وهو مطلع على تمام المصالح والمفاسد، ليكون حافظاً لرسالة الله ويمكنه بذلك توظيف كل الطاقات في مجالاتها المناسبة.

من الضروري إذن وجود قيادة ورئاسة وقدرة متمركزة إجتماعياً تعرف ماذا ينتج هذا الفرد أو ذاك، وماذا يمكنهم أن يقدموا حتى يلزم الجميع بأداء ما نستطيع أدائه. ولنأخذ مثالاً يقرب لنا هذه الفكرة.. أنتم تعرفون معامل الحياكة اليدوية للسجاد، فهناك مجموعة تعمل، ولكن أعمالها مختلفة، فالصبي والكبير، والمرأة والرجل، كل منهم يضع خيطاً في النسيج الكبير، وكل يقدم عملاً ونشاطاً معيناً. لو لم تكن هذه الأعمال منسجمة مع بعضها فكيف تصنع السجادة الكاملة؟ هناك خطة وفكر وعين وقرار فوقي تجعل الأعمال منسجمة والخيوط متداخلة متناغمة تشكل صوراً جميلة. لابد إذن من تعيين نوع الخيوط المستعلمة وكيفية وصلها وأماكن قطعها. لو لم تكن هناك خطة وقرار فكيف نترقب صناعة فراش كامل؟ عندما يراقب الإنسان هذا العمل يصاب بالدهشة.

فمن أين ظهرت هذه الوردة الجميلة في هذا الطرف؟ ثم كيف نبتت أختها وتوأمها في الحجم والشكل في الطرف الآخر؟ ومثل هاتين الوردتين ظهرت وردتان أخريتان في الجهة المقابلة للنسيج، وكل شيء منظم ومنسجم وفي مكانه الطبيعي.. كيف حدث هذا؟

لأن هناك خطة مرسومة، ومشرف صارم.. وكذلك المجتمع إذا أراد أن يجمع طاقاته وقدراته لتصب في جهة واحدة من غير أن تضيع طاقة من هذه الطاقات، ومن أجل أن تكون الطاقات جميعاً قوة واحدة متراكمة كأنها ذراع واحد متحدية الصفوف والقدرات غير الإسلامية والمعادية، يحتاج مثل هذا المجتمع إلى قدرة مركزية وقلب واحد. نعم هناك شروط يجب أن تتوفر في هذه القدرة والقلب الواحد ؛ فيجب أن يكون واعياً كفوءاً بدرجة عالية، وعالماً بدرجة كبيرة، شجاعاً لا يتراجع، مدبراً حكيماً، له نظرة بعيدة تختلف عما يراه الآخرون، لا يخشى في الله لومة لائم، يقدم نفسه في سبيل الله عند الحاجة. ماذا نسمي مثل هذا الإنسان؟ نسميه (الإمام) أي القدوة والنموذج، والحاكم المعين بتعيين إلهي كما عين الله سبحانه إبراهيم {إني جاعلك للناس إماماً} [8] .

وعندما نقول أن تعيين الإمام والقائد من الله نريد بذلك الإشارة إلى صورتين في التعيين الإلهي:

1 ـ أن يعين الله الإمام باسمه وعلاماته الخاصة به كما عين النبي أمير المؤمنين والحسن والحسين وسائر الأئمة (ع) .

2 ـ أن لا يعينه باسمه بل بصفاته وشروطه كما ورد في حديث الإمام المهدي (عج) (فأما من كان الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه، فعلى العوام أن يقلدوه) [9] ، فقد عين الإمام (ع) في هذه الرواية وغيرها صفات وشروط القائد والإمام ولم يذكر اسماً معيناً.. فكل شخص تنطبق عليه هذه الشروط يكون إماماً، وأريد بكلمة الإمام القدوة والمقدم والحاكم وصاحب الراية وحاملها، ذلك الذي يتبعه المسلمون أينما سار، يجب أن يعين هذا الإمام من الله ويجب أن يكون عادلاً مدبراً، ومتى ما أراد الكيان الإسلامي الكبير (الأمة الإسلامية) أن يكون حياً ناهضاً متحركاً قوياً يقظاً فعليه أن يحكم علاقته بقوة مع ذلك المركز والقلب المتحرك النابض بحرارة وقوة.

وعلى هذا يتبين أن البعد الآخر للولاية هو الارتباط المستحكم بين كل مسلم من المسلمين وفي كل الأحوال مع قلب الأمة المسلمة، وهذا الارتباط فضلاً عن كونه ارتباطاً فكرياً هو ارتباط عيني، فالإمام هو القدوة وهو المُتبع في الأفكار والرؤى وهو المطاع في الجانب السلوكي والعملي، فولاية علي (ع) تعني على هذا أن يتبع الإنسان علياً بأفكاره، وكذلك في سلوكه وعمله، وتكون له علاقة قوية متينة مع علي (ع) لا تقبل الانفصال. هذا هو معنى الولاية، وعلى ضوئه يتيسر لنا فهم معنى الحديث القائل (ولاية على بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمِنَ من عذابي) . هذا كلام دقيق عميق مفاده أن المسلمين وأبناء القرآن إذا تابعوا علياً في الجانب الفكري والسلوكي فسوف يأمنوا من العذاب، وذلك الرجل الذي يجعل القرآن مستعصياً على الفهم كيف يدعي أنه من أولياء علي (ع) وأنه من المرتبطين به فكرياً مع أن علي (ع) في إحدى خطب نهج البلاغة [10] يقول (واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في هدى ونقصان من عمى) . بهذا الشكل يحث علي (ع) الناس على دراسة القرآن، وبهذه الصورة يربطهم بالقرآن.

فلو قال قائل أن القرآن عصي على الفهم، فهل يكون من أولياء علي بن أبي طالب. كلا، كان علي (ع) على أتم الأهبة والاستعداد للتضحية بتمام وجوده من أجل الله وفي سبيله، وهذا الذي لا يفهم القرآن ليس مستعداً للتنازل عن مثقال واحد من أمواله أو راحته أو شخصيته ومكانته الاجتماعية من أجل رسالة الله، فهل هذا من الموالين لعلي (ع) ؟ وليُ علي (ع) ذلك الذي أحكم علاقته بعلي بشكل غير قابل للانفصال فكراً وسلوكاً. دققوا في معنى الولاية هذا تجدونه أدق المعاني وأعمقها وأحسنها، واستمعوا الآن لآيات من سورة المائدة.

فقد بنيت هذه الآيات الجانب الاثباتي للولاية أي الجهة الداخلية وكذلك الجانب السلبي [الجهة الثانية] قطع العلاقات الخارجية، وتبين أيضاً البعد الثاني للولاية وهو الارتباط الفكري والسلوكي بالولي وهو قلب الأمة وحاكمها وإمامها.

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء}.

الأولياء جمع ولي وهو مشتق من الولاية، وهي الاتصال والعلاقة، فالولي من يتصل بآخر ويرتبط به ويتبعه.

{بعضهم أولياء بعض} فلا تنخدعوا بانفصال معسكراتهم ظاهراً، فهم يتحدون لمواجهة أصالتكم ورسالتكم في جبهة واحدة وخندق واحد، ومن يتولهم منكم [التولي تفعّل من الولاية] يعني من اتخذهم أولياء ووضع قدمه في وادي ولايتهم وارتبط بهم فإنه منهم {إن الله لا يهدي القوم الظالمين}.

{فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم} فهم لا يقتنعون باللحوق الطبيعي بهم بل يسارعون ولا يقتنعون بالاقتراب منهم بل يدخلون أعماق خندقهم وجبهتهم، وإذا سألتهم عن سبب ارتباطهم بهم وعن سبب عدم إظهار العناد لهم {يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة} ولننظر إلى كلمات الله التي تجيب:

{فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين} وعند ذاك يأسفون على خطئهم ويقولون لو كنا نعلم أن المؤمنين ينتصرون بهذا الشكل لما كانت لنا مودة أعداء الله ودينه، ويقول الذين آمنوا بعد افتضاح أولئك {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم} كان هؤلاء يظنون بالناس الظن الحسن وينخدعون بالمظاهر.

قالوا أهؤلاء هم أهل الظاهر الحسن والذين يقسمون الإيمان المغلظة أنهم معكم، وكلما كلمناهم قالوا أنا معكم وليس لنا معكم خلاف، فنحن نقول ما تقولون، أكان كل هذا كلاماً كاذباً؟ هؤلاء مرضى القلوب على رغم ظاهرهم المقبول، وقلوبهم منافقة وسوداء وغلف {أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين} [11].

هذه الآيات إلى هذا المقطع تتحدث عن العلاقات والروابط الخارجية، ودققوا الآن في السياق التالي لهذه الآيات الراجع إلى العلاقات الداخلية {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه} فإذا لم تتحملوا عبأ الرسالة ومسؤولية تبليغها كما تعهدتم بذلك حين آمنتم بالله، وإذا لم تصلوا بها إلى مكانها وألقيتموها من على ظهوركم، فلا تتصوروا أن هذه المسؤولية لن يتحملها غيركم، بل سيكون الفخر لغيركم في حملها.

{يا أيها الذين آمنوا من يرتدُّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}.

هل نحن من هؤلاء الذين يحبون الله، وهل أن كلماتنا التي يحبها الله دليل على حبنا لله.. يجيب القرآن الكريم {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

{يحبهم ويحبونه} أي أنهم يسلمون لأمر الله كاملاً، والله يحبهم، وهذه المحبة ذات طرفين.

{أذلة على المؤمنين} وهذه صفة أخرى من صفات هؤلاء، أذلة على المؤمنين، متواضعين خاضعين، وهذا دليل قوة الارتباط والعلاقة الحميمة بالمؤمنين، وليسوا ذوي غرور أو طالبي أجر أو مقام، إذا التقوا بالناس كانوا منهم ومعهم وفي طريقهم ومن أجلهم، لا يخرجون أنفسهم من بين الناس ولا يرقبون أمور المسلمين من غير اهتمام، وليس اهتمامهم بأمور المسلمين مؤقتاً أو جزئياً.

{أعزة على الكافرين} لا ينفذ إليهم تأثير الأعداء، مرفوعي الرأس بالفكر الإسلامي الذي حصّنهم بحصن محكم غير قابل للنفوذ والاختراق، {يجاهدون في سبيل الله} من غير قيد أو شرط {ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}.

والآية التي تتلو هذه الآيات تتحدث عن الارتباط والعلاقة بين أفراد المجتمع المسلم وبين قلب المجتمع أي الإمام، وعندما ندقق جيداً في الآيات يتضح أن جملة من المسائل التي يتصور أنها ليست قرآنية هي من صميم المضامين القرآنية ومن الأمور التي بينها القرآن بوضوح وجلاء، ذكر القرآن في ما تقدم من آيات الروابط الخارجية والروابط الداخلية.

وهو يبين في السياق التالي مركز العلاقات الداخلية وقلبها، أي الإمام والقدوة والقائد {إنما وليكم الله} فهو القائم بأمركم وهو الذي ترجع إليه الأمة والمجتمع المسلم في كل الأنشطة والفعاليات، وهو ملهم الأمة، ولكن الله سبحانه لا يتجسم ولا يجلس بين الناس فيأمرهم وينهاهم، فمن هو الولي الآخر {ورسوله} ولا نزاع أو نقاش بين الرسول وبين ربه لأنه نبيه والمبعوث برسالته، وبما أن الرسول بشر ينطبق عليه قول الله في القرآن الكريم {إنك ميت وإنهم ميتون} [12]

فهو لا يبقى إلى الأبد. فلا بد
إذن من إيضاح تكليف المرحلة اللاحقة لوفاة الرسول، هل هناك ولي ثالث قال الله سبحانه في نفس الآية {والذين آمنوا} هذا هو الولي الثالث، ولكن هل يقوم بأعباء الولاية كل من آمن؟ هل أن ملاك الولاية بدرجة متناسبة مع الإيمان فقط من غير حاجة إلى صفة أو شرط آخر؟ من الواضح أن الإجابة الصحيحة هي النفي ؛ لأن ثمة صفات وشروط تذكرها الآية {الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وهم راكعون} هذه الصفات لم تجتمع إلا في علي (ع) ، فالآية تشير إلى علي بن أبي طالب وتعينه ولياً، حيث أن (الواو) في قوله تعالى {وهم راكعون} حالية، فتكون الجملة حال لدفع الزكاة، فليس كل من دفع الزكاة فهو الولي، وإنما الولي هو من دفع الزكاة في حالة الركوع، ولو شكك في ذلك وقيل بأن الآية قد تريد تعيين كل مؤمن ولياً، فأنا أسأل هل ثمة أسوة ونموذج وقدوة يحمل كل مفاهيم الرسالة وروحها مثل علي بن أبي طالب بين المسلمين؟ ليس هناك غير علي، فهو وحده الإمام والانموذج المتكامل للجناح المؤمن المنسجم المتين، ولو فرض أن الآية غير ناظرة إلى علي بالخصوص، فهناك أدلة أخرى على ولايته ذكرها الشيعة مفصلاً في بحث الإمامة، ونحن عندما نبحث هذه المسألة ننظر إلى جانبها الإثباتي، فإنها قضية عقائدية.
ولابد للشيعة أن تعرف نفسها وفكرها وترسخ إيمانها وتعمقه أقوى ما تستطيع، ونحن نعتقد أيضاً إلى جانب ذلك أن على الشيعة أن يتركوا معارضة إخوانهم السنة، لأن هناك عدو خارجي يتربص بالمسلمين الدوائر ولا يفصل بين شيعة أو سنة، فعندما تثبت الشيعة عقائدها لا تريد بذلك إلغاء عقيدة الآخرين أو الدخول في خلاف عقائدي معهم. علينا أن نعرف كيف نفهم عقائد الشيعة وأفكارها، لأن التشيع كما نرى ليس شيئاً غير الإسلام وليس الإسلام شيئاً غير التشيع.
والذي ننتهي إليه ونستنبطه ونفهمه من القرآن فهماً صحيحاً ومنطقياً ومتوازناً هو التشيع، وعلى هذا فنحن نتحدث في مجال عقائدنا عن أصول الإسلام وأصول الرؤية الإسلامية الكونية، وليس لكم في هذا أدنى خلاف كما أقطع. إذن ما نبحثه في هذه العقائد هو جانبها المثبت حيث نعرض الإسلام كما نفهمه من خلال المدرسة الشيعية الإسلامية، وليس لنا كلام مع الآخرين الذين يمكن أن يفهموا الأمور بطريقة ثانية.
ليس لنا معهم معارضة أو بحث، لأننا أخوة نمد إليهم دائماً يد المودة والمحبة، ولأن ثمة عدو مشترك خارج دار الإسلام يتربص بنا الدوائر، وليس لنا الحق في أن يضرب أحد رأس الآخر. هذه هي طريقتنا في البحث، والبحث إنما ينصب على التشيع لأصالته، ولأننا شيعة نعتقد أن الإسلام هو التشيع ولا نريد ببحثنا هذا إيقاع الخلاف بين الشيعة والسنة، ليس هدفنا هو هذا أبداً لأن هذا التضارع محرم في رأينا.
{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}.
لو أن المسلمين التزموا بالولاء والولاية، فما هي النتيجة وما هو أثر الأبعاد الثلاثة المتقدمة للولاية، وهي حفظ العلاقات الداخلية، قطع العلاقات والروابط مع الأجنحة والكيانات غير الإسلامية، حفظ الارتباط الدائم والعميق مع قلب الكيان الأساس وقلب الأمة المسلمة أي الإمام والقائد. الأثر هو ما تذكره الآية الكريمة {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [13].

خلاصة المقالة الثانية
الجبهة الواحدة المتراصة والصف الواحد الذي يشد بعضه بعضاً هما في الحقيقة اللذان يشكلان المدينة الإسلامية الفاضلة، بعد أن يشكلا ذلك الكيان العظيم الموحد وهو الأمة المسلمة المؤلفة من مجموع المؤمنين بدين الله..
وتظهر الولاية في مواضع الأمة الداخلية وفي مواضعها الخارجية ؛ ففي الداخل يكون كل فرد وكل جناح في الأمة مسؤول عن تعبئة كل الطاقات والقوى بصورة دقيقة وحساسة حذرة، ثم توظيف هذه القوى في طريق ومسار واحد ونحو هدف واحد، كما أن كل فرد وجناح مسؤول بصورة مؤكدة عن رفع كل مقتضيات الفرقة والتشتت حتى لا تضيع الطاقات وتذهب هدراً. وفي الخارج يكون على الجميع أن يحذروا من إنشاء أي علاقة أو معاهدة أو مودة مع غير المسلمين حتى لا يتعرض العالم الإسلامي لخطر السقوط والذوبان وعدم الاستقلال. وواضح أن حفظ ورعاية هذين البعدين من الولاية (أي الاتصال الداخلي المحكم وعدم القابلية للنفوذ الأجنبي) يستلزم وجود قدرة مركزية ذات سلطة نافذة هي في الحقيقة مظهر لكل العناصر الإيجابية الحية والفعالة في الإسلام، وهذه النقطة المركزية هي الإمام والحاكم الشرعي، وتستلزم هذه الولاية ببعديها أيضاً وجود ارتباط قوي وعميق بين أفراد الأمة وبين الحاكم والإمام أي المحور الأساس لفعالية وأنشطة المجتمع.
وهنا يتجلى بُعدٌ آخر من أبعاد الولاية وهو بعد ولاية (الإمام وقائد العالم الإسلامي) .
وفي الآيات التالية إشارات معبرة عن هذه الحقائق الدقيقة:
{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء}
{بعضهم أولياء بعض}

{ومن يتولهم منكم فإنه منهم}
{إن الله لا يهدي القوم الظالمين}
{فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم}
{يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة}
{فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين}
{ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}
{يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون الله لومة لائم}
{ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}
{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}.
{ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}[14].
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[15].

أسئلة المقالة الثانية
1 ـ من أجل إقامة الولاية القرآنية، ما هي الجهات التي ينبغي أن تلاحظها الأمة المسلمة؟
2 ـ كيف تنشأ وكيف تكون العلاقات مع الدول غير الإسلامية؟ وهل تؤدي المفاهيم الإسلامية حول الولاية إلى قطع العلاقات مع كل الدول؟
3 ـ كيف نفهم الولاية في القرآن ونثبت أن الولاية التي نفهمها هي عينها ولاية القرآن؟
4 ـ ما هي صفات وشروط الولي التي تستفيدها من الحديث المذكور في المحاضرة؟
5 ـ إشرح بدقة كيفية ارتباط الولي بالمجتمع، وارتباط الأفراد بالولي.
6 ـ اذكر الآيات 51 ـ 57 من سورة المائدة، واشرح الأبعاد الثلاثة للولاية على ضوء الآيات المباركة.

8 ـ سورة البقرة، الآية: 124.
9 ـ وسائل الشيعة، ج 18 ، ص 95
10 ـ نهج البلاغة، الخطبة 175، نسخة فيض الإسلام.
11 ـ سورة المائدة، الآيات: 51 ـ 53.
12 ـ سورة الزمر، الآية: 30.
13 ـ سورة المائدة ، الآية: 56.
14 ـ سورة المائدة، الآيات: 51 ـ 57.
15 ـ سورة آل عمران، الآيتان: 102ـ 103.

المقالة الثالثة: جنة الولاية

لابد من التعرض لأمرين عند بحث الولاية:
1 ـ تعريف إجمالي بالفرد الموالي والمجتمع المتولي (ذو الولاية) والذي تسوده الولاية والتولي والولاء.
2 ـ الدور والأثر المترتب على وجود الولاية في المجتمع.
فالذي يظهر لنا من خلال التدبر في الآيات القرآنية، ومراجعة السيرة الجهادية لأهل البيت (ع) أن هناك أبعاد ومظاهر للولاية.
أ: فمن هذه الأبعاد، أن المجتمع المسلم ليست له علاقة تبعية بالعناصر الغريبة على الإسلام (أي بغير المسلمين خارج دائرة المجتمع الإسلامي) ، وأوضحنا أن عدم وجود العلاقة الخارجية والارتباط التبعي مسألة تختلف عن مسألة عدم وجود أي علاقة أو ارتباط بأي نحو من الأنحاء، ونحن لا نقول أن الإسلام والمسلمين يعيشون حالة الانزواء السياسي أو الاقتصادي وليس لهم أي ارتباط مع الأمم والبلدان والقوى العالمية غير المسلمة، بل أن ما ننفيه هو مسألة التبعية والذيلية والذوبان، وما نثبته هو الاستقلال والوقوف من غير اعتماد على الكفار.
ب: ومن أبعاد الولاية ومظاهرها الانسجام الداخلي والارتباط المتفاعل القوي بين العناصر الإسلامية، أي وحدة الصف الإسلامي شعاراً ورايةً، كما ورد في الحديث {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرهم بالسهر والحمى} [16] .
وورد في حديث آخر: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .
إذن المسلمون في النصوص الإسلامية كالجسد الواحد والبناء الواحد المتداخل الأجزاء والمنسجم والمتراص، وهم كاليد الواحدة تقابل الأيادي الغريبة والأجنبية وتواجه العداءات الفكرية والعقائدية، وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} [17] .
وهذا البعد يستفاد بشكل أجلى من قوله تعالى {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} [18] ، فلا ترى من هو أقوى منهم وأكثر ثباتاً وتحصيناً واستحكاماً عند المواجهة مع الأعداء، كما لا تجد من هو أكثر منهم تحفظاً وحذراً من نفوذ كل جسم غريب على الهيكل المسلم، ولكن انظر إليهم كرة أخرى داخل صفوفهم فلن تجد غير الرحمة والمودة والألفة والتعاطف، ولا تجد جبهات متشكلة ضد بعضها البعض، وتجد استحكاماً لا يخترق بين هذه الجبهات والهياكل التي تشكل الجسم الاجتماعي الكبير (أي المجتمع المسلم) ، بل إنك ترى صورة تعاكس الصورة الأولى حيث يتأثر بعض المسلمين بالبعض الآخر، وكل يهدي أخاه نحو الخير والصلاح، وهم يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، وكلٌ يشجع الآخر ويؤكد عليه بالثبات في المسيرة الكادحة إلى الله في طريق الحق.. كما يوصيه بالصمود في وجه دوافع الشر والفساد، وكل يرعى الآخر ويحفظه حاضراً وغائباً. ولقد قدمت مثال أولئك المتسلقين للجبال، فهؤلاء يتسلقون من بين التعرجات الحادة، فإذا ما تزحلقت من تحت قدم أحدهم صخرة أو حجر أو حصاة فهي كافية لإسقاطه في واد عميق، والسبيل الذي يحفظ لهؤلاء المتسلقين سلامتهم أن يشدوا ظهر بعضهم بظهر البعض الآخر بوثاق محكم قوي حتى تحفظ حالة التجاذب فيما بينهم، وليأخذ كل منهم بيد الآخر، وبين الفينة والفينة ينادي بعضهم الآخر أن احذر ضياع الطريق، لا تتخلف عنا، هل أنت جائع؟ والمسلمون يلاحظون بشكل دقيق الضعيف منهم فكرياً أو مادياً أو بلحاظ معرفة الحق عند ذاك يسعون لهدايته جميعاً، والكل يسعى في سبيل أن يسير هذا الضعيف في الخط المستقيم، ويشكل هذا البعد من المسلمين عائلة تضم أفراداً منسجمين بشكل كامل.
ج: والبعد الثالث من أبعاد الولاية وهو أهمها جميعاً ؛ إذ يضمن بقاء الولاية ببعديها الأوليين، هو المركز القيادي المقتدر داخل المجتمع الإسلامي، لأن المجتمع المسلم بحكم الجسد الواحد، وأجزاء هذا الجسد متجانسة متماسكة متفاعلة متعاونة فيما بينها، وهو يد واحدة ورجل واحد بوجه المخاطر الخارجية والأجنحة الكافرة.
وهذه الوحدة في المجتمع المسلم لا يمكن أن تحصل من غير أن تتمركز القوة في محور فاعل، وإذا قدر لكل وحدة اجتماعية أن تدار مستقلة عن الوحدات الاجتماعية الأخرى فسوف تتفرق أعضاء ذلك الجسد الواحد إلى أقطاب متعددة وقدرات غير متوحدة، ولن يسير المسلمون في درب واحد، وسيؤول أمرهم مآل وجود جهازين يديران الجملة العصبية للإنسان، جهاز يدير الطرف الأيمن والآخر يدير الطرف الأيسر، ففي هذه الحالة لن يحصل انسجام بين الطرفين إذا ما أريد إنجاز عمل واحد.. فلو أراد الإنسان هذا أن يرفع شيئاً من الأرض سوف يجد أن يده اليمنى استعدت لرفعه بينما يجد اليسرى لا زالت منقبضة غير مستعدة للحركة والرفع

بأي وجه، وسيختل وضع البدن مع وجود جهازين يديران سلسلة الأعصاب، ويتخذ الإنسان في هذه الحالة وضعاً مضحكاً مزرياً حين يريد إنجاز عمل أو مواجهة عدو، ولن يستطيع.

وإذا أراد المجتمع الإسلامي أن يدفع عدوه في الوقت المناسب فعليه أن يحفظ مركز القدرة والقوة والقيادة فيه، والمواجهة الناجحة مع العدو يلزمها تكتيل وضم كل الأجنحة الاجتماعية ووضعها في خط واحد مواجهة لخط العدو، لتوجه ضربة محكمة قوية لعدوها، وهذا لا يحصل ما لم تندفع هذه الأجنحة بملئ اختيارها لهذا العمل وتلك المواجهة. وقد ذكر مولوي الشاعر الإيراني المشهور قصة تماثل في النتيجة حال الأجنحة الاجتماعية غير الموحدة.. فإنه ذكر أن ثلاثة ذهبوا إلى بستان عنب واستطاع عدو لهم أن يهلكهم جميعاً عن طريق الدسيسة.

وقد تكرر وقوع مثل هذا في التاريخ العام للأمم وفي التاريخ الإسلامي أيضاً. وإذا ما أراد المجتمع المسلم أن يستفيد من طاقاته ويتجنب السلبيات والنقائص، فعليه تحكيم علاقاته الداخلية وتوحيد أعضاء المجتمع كما تتوحد أعضاء الجسد الواحد.. وتتعبأ لمواجهة الخطر الخارجي، والمجتمع الإسلامي يد واحدة مقابل أعدائه.

خلاصة ما نريد ذكره هنا أن المجتمع الإسلامي من أجل تحقيق بعدي الولاية الأوليين عليه أن يملك مركزاً قيادياً واحداً قادراً وفعالاً، وتستلهم كل العناصر الفعالة والنشطة في هذا المجتمع من هذا المركز نشاطها الفكري والعملي وفعاليتها الحياتية وأساليب مواجهة أعدائها وطرق تقوية المحبة والولاء بين أفرادها. وهذا المركز الواقع في عمق المجتمع المسلم هو الذي يتولى إدارة تمام الأجنحة، وهو الذي يحدد لكل فرد عمله ومكانه المناسب، وهو الذي يرفع حالات النزاع والتعارض ويمنع من نشوء هذه الحالات، وهو الذي يسدد كل القوى للمسير نحو غاية واحد وفي مسار واحد. وهذا المركز يعيّنه الله سبحانه، فلابد أن يكون عالماً، واعياً، مأموناً، جامعاً لكل الكمالات التي يخلقها الإسلام، مظهراً قرآنياً حياً. وثقافتنا الإسلامية تطلق على هذا المركز اسم الولي. على هذا يلزم بعدي الولاية بعدٌ ثالث (هو بعد ولاية الولي) ..

والمسألة الأخرى التي نبحثها: هي هل أملك أنا أو أنت هذه الولاية؟ من الممكن أن نكون من أهل الولاية كأفراد، ولكن هل أن مجتمعنا يملك هذه الولاية؟ من الممكن أن يقع هذا التساؤل، هل هناك فرق بين ولاية الفرد وولاية المجتمع؟

ولابد من الإجابة بالإثبات، فلو كان ثمة عضو سالم بنفسه فليست سلامة هذا العضو دليلاً على سلامة تمام البدن، هذا أولاً، وثانياً لن يحصل هذا العضو السليم على تمام حسنات وإيجابيات العضو السليم مع وجوده ضمن بدن غير سالم، ولابد أن نعرف ابتداءً كيف تكون محصلة الإنسان المتولي، لنعرف مدى كوننا من أهل الولاية، وإذا كنا من أهلها علينا أن نعرف مميزات المجتمع ذو الولاية، وما هي الشروط الموضوعية التي تؤهله ليكون مجتمعاً موالياً، وليس ثمة ما يمنع من وجود فرد موالٍ في مجتمع غير موال، ومن الطبيعي أن أنظر هنا إلى القضية في عالم الإمكان والثبوت لا في عالم الواقع والإثبات والتحقق، فإن المسألة بهذا اللحاظ في غاية التعقيد.

وعلينا الآن أن نبحث هذه الحالة وهي ما إذا كان الفرد قد تولى وأصبح من أصحاب الولاية، فهل تنتهي مسئوليته؟

هل يمكن أن يكون الفرد من أهل الولاية في مجتمع لا يملك هذه الولاية؟ وهل تكون ولاية الفرد كاملة حين لا يشعر بمسئولية تجاه مجتمعه؟ هذه مسائل يجب على كل المسلمين الرجل منهم والمرأة وخصوصاً الشباب أن يفكروا فيها، ومن المحتمل أن لا يتوفر لي الوقت الكافي لشرح هذه المسائل واحدة واحدة، لأن كل واحدة من هذه المسائل تحتاج في تفصيلها إلى ساعات من البحث والتحليل.

ولهذا سوف أتحدث باختصار وأترك لكم مهمة تفصيل هذه المسائل، والآن أشير إلى المسائل الأربع المتقدمة.

1 ـ كيف نعرف الفرد الموالي وما هي صفاته؟

2 ـ ما هي المقومات التي تجعل المجتمع وهيئاته التي تعيش في مكان واحد من أهل الولاية؟ ومتى يفقد هذه الولاية؟ أي ما هي شروط المجتمع المتولي على ضوء المفهوم الإسلامي للولاية؟ وفي أي الشروط الموضوعية يفقد المجتمع هذه الولاية؟

3 ـ هل تنتهي مسؤولية الإنسان عن لزوم خلق المجتمع الموالي عندما يتولى هو.. ؟

4 ـ لو كان ثمة إنسان موال على المستوى الفردي وهو يعيش في كنف مجتمع غير موال وهو لا يشعر بأية مسؤولية تجاه هذا المجتمع، هل يضر عدم إحساسه بالمسؤولية بولايته؟ هل أن عدم شعوره بمسؤولية خلق المجتمع الموالي ينقص من ولايته على مستواها الفردي؟

وأنا أطرح عليكم واحدة أو اثنتين من هذه المسائل، وعندما يكتمل البحث ستدركون عمق معنى الولاية وسموه وانسجامه مع مدركات العقل، وكيف لا تتضاد مدركات العقل مع معنى الولاية المفسر قرآنياً وسنة، ولنقارن هذا المعنى مع المعنى المضاد الذي يجعل الإنسان كسولاً قاعداً، يأنس بالراحة والخمول، ولا يأخذ الأمور مأخذ الجد، وسوف تستنتجون من هذه المقايسة أين تبدأ الفوارق واين تنتهي، ويتصور البعض أن التولي لا يعني أكثر من إبراز التعظيم والاحترام لأهل البيت عندما يُذكرون كأن نقول (عليهم السلام) ، والمودة والحب القلبي لهم، وطبيعي أن حب أهل البيت فريضة إسلامية وواجب أكيد، ومن الواجبات أن يذكر

أهل البيت بالإعظام والإجلال، كما أن إقامة مجالس الوعظ والتبليغ باسمهم أمر عظيم الفائدة، وفي ذلك دروس عالية يستلهمها الإنسان من سيرتهم وحياتهم في وجهها المبكي والمُسر، ومطلوب من المسلمين إقامة العزاء عليهم ومجالس السرور لهم والبكاء على مظالمهم ومصيباتهم، ولكن هذه الأمور ليست هي الولاية، فالولاية أعظم من هذه الأمور، ويكون قد قام بعمل صالح من شارك في مجلس سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) وسالت دموعه حزناً على مقتله ومصابه، ولكن هذا ليس وحده دليل الولاية ؛ إذ ليس كافياً لتحقق الولاية أن يبكي الإنسان. وعلينا جميعاً أن ندقق في معنى الولاية؟ ويتحتم ذلك على من أثرت على أذهانهم بعض الأيادي المغرضة منحرفة كانت أو عميلة حيث صورت لهم أن هناك من يخالف في مسألة الحزن والبكاء لمصائب سيد الشهداء، وها نحن نقول ليس هناك من يخالف في ذلك لأن البكاء على مصائب الحسين بإمكانه ضمن بعض الظروف الموضوعية أن ينقذ أمة بكاملها، وقد حدث ذلك للتوابين الذين ذهبوا إلى قبر الإمام الحسين بن علي (ع) وجلسوا يبكون عند قبره يوماً أو يومين أو أكثر، وكان نتيجة هذا النحيب وتلك الدموع والعبرات أن عقدوا بينهم ميثاقاً وعهداً على الذهاب إلى ميدان القتال والمواجهة المسلحة مع الظالمين حتى الشهادة. هذا هو البكاء على الإمام الحسين، وهل يخالف أحد في عطاء هذا البكاء وتأثيراته الفعالة؟! وليس هناك من يخالف في لزوم الإجلال والإعظام عندما يذكر الحسين بن أمير المؤمنين، وكل من يعرف الأئمة (ع) يجزم بلزوم ذكرهم بكل إكبار وإجلال لأن ميراث أهل البيت هو الشهادة، وأعز ذكرياتهم الفداء والتضحية في سبيل الله، وكل وجودهم خالص الله. على الإنسان أن يذكر أهل النبي بكل إكبار.

وليس لهذا الأمر ارتباط بالتشيع ولا بما يناقض التشيع. فإن من المؤكد أن أوربا وأمريكا وكل الأقطار الكافرة حين تطلع على حياة علي بن أبي طالب وشخصيته، فسنجد مظاهر الإعجاب بشخصية علي وأعماله الكبيرة التي أنجزها في حياته بادية في أقوالهم وأفعالهم، وسيظهرون الاحترام والإجلال والتعظيم لعلي (ع) حين يذكر اسمه، بل سيذكرون اسمه باعتزاز وافتخار، وسيبقى اسم علي في ذاكرتهم محفوظاً مثاراً للفخر والاعتزاز.

فليس الأمر إذن خاصاً بالشيعة، وهل تتصور بعد هذا أن الولاية لا تعني أكثر من هذا؟! نعم الإعظام والإكبار للأئمة من شعب الولاية وجانب مهم وخطير من جوانبها يسوق أهلها إلى الجنة، ولكنه ليس كل معنى الولاية وحقيقتها، وعلى هذا يكون حصر التولي بمسائل البكاء على الإمام الحسين (ع) والإعظام لاسمه أمر غير صحيح، ويكون طرحه وعرضه بهذا الشكل كاشفاً عن الجهل إذا لم يكن كاشفاً عن قصد وقلة معرفة إساءة إلى الفكر الإسلامي.

والولاية عند الإنسان بمعنى الارتباط الفكري والسلوكي بالولي، ذلك الإرتباط الذي يشتد ويقوى يوماً بعد يوم. فعلى الإنسان أن يبحث عن الولي ويعرفه ليتبعه في الجانب الفكري والسلوكي والمعنوي الروحي، في المنهج والطريق، وعلى الإنسان أن يحكم الوشائج والعلائق بينه وبين وليه، ويتبعه ويتحرك خلفه، ويجعل جهده جهد وليه، وجهاده جهاده، ومحبته محبته، وعدائه عدائه، وجبهته جبهة وليه، وحزبه حزب وليه، وعندئذ يكون من أهل الولاية، وكيف نكون أولياء لعلي المتولي والموالي من يعرف وليه ويتبعه في أفكاره وسلوكياته، في مسيره ومنهجه، لكننا نحصر الولاية بالمحبة القلبية لعلي بن أبي طالب وبإجراء العبرات والدموع على المصائب التي واجهها وعملنا مباين لعمل علي، وفكرنا ومعرفتنا لا يلتقيان مع فكر علي ومعرفته، وقد نسجنا للولاية شكلاً اسطورياً في أذهاننا، وأسعدنا قلوبنا حين أوحينا إليها أننا من الموالين لعلي (ع) وسيصيبنا ما يصيب أولياء علي من الثواب الجزيل والعطاء المبارك. والله يعلم ويشهد أن هذا ظلم صريح وجفاء واضح لحق علي (ع) ، وهو بُعد وهجران لمفاهيم الإسلام، لأن الولاية تؤول في النتيجة إلى الولاء للإسلام، والإمام الصادق (ع) يجعل الولاية هي العمل ؛ إذ يؤكد (ع) أن من يعمل صالحاً فهو ولينا ومن يعمل غير صالح فهو عدونا.

بهذا الشكل يشرح الإمام الصادق مفهوم الولاية، ولأن الولاء في ثقافة الإمام الصادق وفكره يختلف عن ذلك المفهوم الذي يحمله الجاهل أو المنحرف، وهو يحيا ويرتزق باسم الإمام الصادق، علينا أن نعمق فهمنا لمعنى الولاية والتولي وإلا سوف نخسر عمرنا الذي قضيناه بأمل الفوز بالجنة وسنشعر بالخسران عندما تبلغ أرواحنا الحلقوم.

التولي والولاء الفردي هو الارتباط والتبعية المطلقة للولي، ولكن ما هي الولاية الاجتماعية؟ عندما يُعرف ولي المجتمع المسلم ثم يكون محوراً لحركة المجتمع وحياته، فهو الذي يوظف الطاقات والأنشطة والفعاليات الاجتماعية، وهو النهر الكبير الذي تتفرع عنه كل الينابيع والجداول، وهو النقطة التي تلتقي عندها كل الخيوط، وهو المصدر لكل الأوامر، وهو المشرف على تنفيذها، والكل يتطلع إليه ؛ فهو الجهاز المحرك لكل فعاليات الحياة الاجتماعية، وهو القائد القريب على حركة المجتمع.

كان ثمة أفراد من المسلمين يسيرون في خط الولاية كأفراد مثل أبي ذر والمقداد وسلمان وغيرهم، وحين استلم أمير المؤمنين الخلافة والحاكمية سار المجتمع منذ ذلك الحين في خط الولاية، وأصبح الأمر والنهي بيد الإمام، وفي ذلك الحين ارتبطت كل الخيوط بمركزها الطبيعي وأصبحت الأمور الاجتماعية تدار بإشراف الإمام (ع) ، فهو الرافع لراية الحرب، وهو الذي يعطي الأمر بالهجوم، وهو الذي يوقع ويمضي قرار السلم. في مثل هذا الوضع الاجتماعي يكون المجتمع متولياً وموالياً، وفي وضع مخالف لهذا الوضع لا يكون المجتمع سائراً في خط الولاية، فإذا كان لنا مثل هذا المجتمع فعلينا أن نحمد الله ونشكره على هذه النعمة

الكبيرة، وإلا فعلينا السعي الجاد لبناء هذا المجتمع وإنشائه.
وليس ثمة نعمة تضاهي نعمة الولاية ؛ فإذا أظلت رؤوسنا فلله الشكر والحمد، وإن لم ينعم علينا بمثل هذه النعمة فعلينا أن نسير في طريق الحصول عليها في أنفسنا ومجتمعنا. علينا أن نحيا حياة علي (ع) وننهج نهجه ونسير في طريقه الذي سار فيه ونرتبط بعلي ولي الله، وهذا ما يحتاج إلى جهد وكدح ومجاهدة واهتمام على مستوى من يحرق دمه.
لأن الأئمة الهداة (ع) كان كل همهم بعد استشهاد أمير المؤمنين هو السير على خط الولاية، وكانت كل جهودهم مركزة على هدف إحياء الولاية في المجتمع الإسلامي، وليغرسوا ذلك الغرس الذي نسميه الإنسان في مزرعة الولاية. وقد سقوا الولاية بالماء العذب الطهور حتى أينعت وتهدلت أغصانها خضراء باسقة وآتت أكلها كل حين بإذن ربها.. هذا هو عمل الأئمة، وهكذا ينبغي أن يكون عملنا بلحاظ الولاية في المجتمع، ولنرَ ما نعمله حتى نمكن ولي المسلمين من إعمال قدرته وصلاحياته.
وكما قلنا سابقاً فإن هناك طريقين لتعيين الولي، فتارة يعين باسمه وصفته علي، الحسن، الحسين، علي بن الحسين (عليهم السلام) .
وأخرى يعين ضمن صفات محددة كما قال (ع) : (أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه) [19] .
بهذه الطريقة الوصفية يعين الولي، وهذا التعيين إلهي قطعاً، ولكنه يختلف عن الأول بلحاظ أن الأول تعيين اسمي خاص، وهذا تعيين وصفي عام، وعلى المسلمين تطبيق هذه الصفات على مصاديقها من العلماء، وسنجدها منطبقة على آية الله العظمى السيد البروجردي، وسيرجع الإنسان إلى طريقه المستقيم عندما يجعل همه تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع ضمن دائرة الولاية، وسوف يجد المنهاج والطرق الصالحة لإنجاز هذا العمل، وليس لنا كلام في هذه المناهج والطرق في البحث الحالي.
والمجتمع الذي يسير في اتجاه الولاية كالميت الذي تحل فيه الروح والحياة. تصوروا ميتاً ليس فيه حياة، أن له مخ ودماغ وأعصاب ولكنه لا يعقل أو يفكر، وله عين لكنها لا ترى النور ولا تبصر، وله فم لا يتناول الطعام أو يبتلعه، وله معدة وكبد وجهاز هضمي لكنه لا يهضم الغذاء، وله شرايين وعروق فيها دم لكن الدم لا يجري ولا يتحرك، وله يد لكنها لا تستطيع دفع حشرة صغيرة عنها، وله قدم لا تنتقل من الحرور إلى الظل.
لماذا أصبح بهذا الشكل؟ لأنه لا روح في بدنه، أما حين تدب فيه الحياة، فسوف يعمل المخ والأعصاب واليد والفم والمعدة، يستطيع عندئذ أن يفكر، ويمسك بالأشياء بيده، ويأكل بفمه، وتهضم معدته، ويعمل جهازه الهضمي عمله المعتاد، ويتحرك الدم في دورته العادية، ويوصل الطاقة إلى كل أجزاء الجسم، وسوف يشعر البدن بدفء الحياة والحركة، وعندئذ يعمل الإنسان ويتحرك ويواجه العدو وينشأ علاقات المودة، وسيتكامل تدريجياً. ضعوا هذه الصورة أمام نواظركم لتعرفوا أهمية الولاية في المجتمع.
ضعوا المجتمع مكان الجسم الميت، ضعوا الولاية مكان الروح والنفس والحياة، فالمجتمع الذي لا يسير في خط الولاية ليس فاقداً للاستعدادات والطاقات الكامنة وإنما طاقاته ميتة ضائعة مهدورة، لا تنفع الإنسان فهي مشلولة بل ستكون ضارة له، فإن للمجتمع مخ يفكر ويحلل، لكنه يفكر في إيجاد الأجواء الفاسدة والقاتلة، وفي وسائل إفناء العالم والكون وشقاء البشرية وتثبيت قواعد الاستغلال والاستكبار والظلم، ولهذا المجتمع عين لكنها لا تبصر ما ينبغي أن يبصر، وترى ما ينبغي أن تغض عن مثله الأبصار، ولهذا المجتمع اذن لكنها لا تسمع مقولة الحق، وعلى الأعصاب أن تنقل هذه المقولة الحقة إلى المخ، لكن المخ لا يأمر الجوارح بالحركة وفق الحق، والجوارح والأعضاء لا تعمل العمل الموافق للحق، والأوضاع السائدة في هذا المجتمع لا تسمح للإنسان بالحركة المطابقة للحق. مثل هذا المجتمع لا يكون سائراً في خط الولاية، وفي هذا المجتمع الفاقد لنعمة الولاية لا تشتعل المصابيح ولا يزداد أو يشتد ضياؤها ونورها، والقطرات الباقية من الوقود في هذه المصابيح تشرف على النفاذ، ثم تجف هذه المصابيح، تلك المصابيح التي عبئها النبي (ص) بالوقود شارفت على الانطفاء وكادت أن تخبو، وقد خبت وانطفأت.
في الأيام التي أعقبت وفاة الرسول كانت هناك شعلة ضئيلة الضياء تنير بعض الشيء، لأن النبي قد عبئها بالوقود، ولكن الوقود نفد بعد ذلك لأن يد الولاية لم تكن تشرف على هذه المشاعل والمصابيح، وامتلأت الأجواء بالدخان الأسود، وزكمت الأنوف بالرائحة الكريهة، وخبا النور شيئاً فشيئاً حتى جاء زمن عثمان الذي حولها إلى معاوية ورأيتم ما الذي حدث، لقد حدث كل ما أخبرت فاطمة الزهراء عن حدوثه عندما خاطبت نساء الأنصار والمهاجرين، فلم يتعقلن كلامها ولم يسمعنه. ولقد أخبرت الزهراء المسلمين منذ اليوم الأول بما سيحدث ولكنهم كانوا في غفلة، ولم يصلوا إلى مستوى فهم كلام الزهراء، ولقد حدث كل ما قالته، ذلك السيف الصارم البتار الذي يقطر بالدماء، والشفار والمدى التي تقتل الفضائل والكرامات والأصالة، وتلك الأيدي التي تخنق الإنسان والإنسانية. لقد أخبرت عن كل هذا ومنذ اللحظة الأولى فاطمة الزهراء، ولقد أخبر عن هذه الأمور قبل الزهراء أبوها الرسول (ص) ، فهما يعرفان ويعلمان بهذه الأمور ولهذا أخبرا عنها. لكن المسلمين لم يفهموا وكانت آذانهم مثقلة لا تسمع، ولا زال صوت الزهراء يرن في المسامع والآذان، فلتسمع الآذان الحساسة المرهفة الواعية، والمجتمع ذو الولاية ينضج كل الطاقات والاستعدادات الإنسانية، ويربي كل ما وهبه الله سبحانه للبشر حتى يصلوا إلى كمالهم المنشود، وينمي غرس الإنسانية ويقويه. الولي هو

الحاكم في هذا المجتمع وهو الذي يضع المجتمع في طريق الله وصراطه، وهو من الذاكرين الله في كل الأحوال، وهو المقسم للثروة والمال بالحق، وهو الذي يسعى إلى نشر الخير والصلاح وقلع جذور الفساد والظلم والجهل.

{الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}، فهم يقيمون الصلاة لأنها نموذج لذكر الله والتوجه الاجتماعي نحو الله، فهم يقيمون الصلاة ويسيرون إلى الله ووجهتهم مطابقة لما يريده سبحانه {وآتوا الزكاة} وهم يوزعون الثروة بنحو عادل ويدفعون الزكاة، ومصاديق الزكاة القرآنية واسعة وعديدة ؛ إذ يشمل مصطلح الزكاة في القرآن كل أنواع الإنفاق والصدقات المالية. {آتوا الزكاة} يراد منها قطعاً إشاعة العدالة في التوزيع، وقد وردت روايات في الزكاة تفيد أن الزكاة إنما شرعت لحفظ التوازن المالي وتعديل الثروة.

{وأمروا بالمعروف}، ينشرون الخير والعمل الصالح {ونهوا عن المنكر}، ونحن نتصور أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني أن نأمر باجتناب عمل السيئات أو نأمر بإنجاز العمل الحسن، في حين أن الأمر اللفظي والكلامي مظهر وصورة من صور ومظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قيل لأمير المؤمنين: لماذا تقاتل معاوية؟ فأجاب: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، فاسمعوا جيداً وعوا. قالوا لعلي ما لك ولمعاوية، اذهب إلى الكوفة وليذهب إلى الشام. فقال علي (ع) : إن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد نهض الإمام الحسين من المدينة قائلاً: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

انظروا إلى سعة هذه الدائرة، ولاحظوا كم هي ضيقة في نظرنا. وعلى كل حال عندما تكون الولاية متمثلة في مجتمع ما فسوف يقيم ذلك المجتمع الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وستدب الحياة في بدن المجتمع الذي كان ميتاً.

خلاصة المقالة الثالثة

تتمثل الولاية في حياة المجتمع عندما يتعين الولي ويكون من الناحية العملية مصدر استلهام لكل الأنشطة والفعاليات الحياتية الاجتماعية.

وتتمثل الولاية في حياة الفرد عند معرفته لوليه وارتباطه به ارتباطاً فعالاً قابلاً للنماء والثبات والاستحكام، لأن الولي مظهر للولاية الإلهية وهو الذي يسعى جاهداً إلى توظيف كل الإمكانات والقابليات التي أودعها الله في الإنسان لكي يصل إلى كماله ؛ فهو يسعى إلى توظيف هذه الإمكانات في نفع المجتمع ويحول دون توظيفها فيما يوقع الضرر بالناس، كما أنه يمنع من تبديد هذه الطاقات وإضعافها، لأن هذا يشكل خطراً من أعظم الأخطار. والولي والإمام يُؤمن العدل والأمن الفردي والاجتماعي لتنمو غرسة البشرية، كما أنه يهيأ الأرض الخصبة والمناخ المناسب والماء العذب لكي يشتد عود هذه النبتة الطيبة، وهو الذي يمنع من وقوع المظاهر المختلفة للظلم كالشرك والاعتداء على الغير وعلى النفس، ويسوق الكل نحو عبودية الله، ويربي العقل والمعرفة الإنسانية.

وخلاصة برنامجه الأساسي دعوة الجميع إلى إقامة ذكر الله والعمل والابتكار والابداع، فهو يدعوهم إلى الصلاة وإقامة ذكر الله، والى تقسيم الثروة العادل وأداء الزكاة ونشر الخير والعمل الصالح والأمر بالمعروف وقلع جذور الشر والسوء والنقص بالنهي عن المنكر، وهذا ما يؤدي إلى تقريب البشرية نحو هدف خلقتها وغاية وجودها شيئاً فشيئاً.

والتدبر في الآيات القرآنية يفتح أمامنا الآفاق الواسعة لجنة الولاية، وكذلك يتوضح لنا معنى ذلك الحديث النابض بالحياة (ليس أفضل من الولاية في الدين كله) .

{لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم}

{ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}

{كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}

{لبئس ما كانوا يفعلون}

{ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا}

{لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم}

{وفي العذاب هم خالدون}

{ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء}

{ولكن كثيراً منهم فاسقون} [20] .

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء}

{واتقوا الله ان كنتم مؤمنين}

{وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً}

{ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}
{قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلا أن آمنا باالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون}
{قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند االله من لعنه االله وغَضِب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل} [21] .

أسئلة المقالة الثالثة
1 ـ ما هي الولاية الفردية، وما هي مظاهرها؟
2 ـ ما معنى الولاية في المجتمع، وما صفات المجتمع المتولي؟
3 ـ كيف يكون سعي الإنسان للوصول إلى خط الولاية في حياته وفي حياة مجتمعه؟

16 ـ نهج الفصاحة، ص 561 ، الحديث: 2712.
17 ـ سورة المائدة، الآية: 545.
18 ـ سورة الفتح، الآية: 29.
19 ـ الوسائل، ج: 18، ص 95.
20 ـ سورة المائدة، الآيات: 78 ـ 80.
21 ـ سورة المائدة، الآيات: 57ـ60.

المقالة الرابعة: من هو الحاكم على البشرية؟

تعقيباً على البحوث السابقة رأينا أن نشرح جملة من الأمور التي تقدمت الإشارة إليها، فقد تقدم الحديث عن الولاية ومعناها القرآني وموارد استفادة هذا المعنى من القرآن، وتقدم أيضاً الحديث عن أبعاد الولاية وجوانبها، ولكن هناك جملة من المسائل المتفرعة عن الولاية، وهي بلحاظ نفسها مسائل متأصلة ولها استقلاليتها وأهميتها البالغة ؛ حيث تعين الخطة والمنهج الذي ينبغي أن يسير عليه المجتمع المسلم. فهنا عدة مسائل مترتبة، فقد أثبتنا فيما تقدم أن القرآن الكريم يجعل حفظ العلاقات والروابط الداخلية، ورفض التبعيات الخارجية للمجتمع المسلم متوقفاً على وجود قدرة مركزية في هذا المجتمع، حتى تقود جميع الأنشطة والفعاليات والواجهات والأجنحة والأوضاع الاجتماعية.

ويسمي القرآن هذه القوة المركزية بالولي أي الحاكم والقائد، والذي تستلهم منه كل القوى خط سيرها وحركتها، وترجع إليه كل الأعمال، وهو الذي يدير المجتمع ويقوده في جانب الفكر والسلوك. فمن يكون هذا الولي؟ لنا إجابة مختصرة حول هذا التساؤل. فلو قيل لنا نريد معرفة الولي، فهل نستطيع تعريفه لهم؟ وطبيعي أننا عرضنا الاجابة في ما سبق من بحوث وأنتم تعرفون هذه الاجابة ؛ إذ هي ليست من الأمور الغامضة، ولكننا نريد تحليل المسألة بشكل منطقي وبصورة طبيعية، والقرآن يجيب بكلمة واحدة {الله ولي الذين آمنوا} [22] الله هو الولي الواقعي للمجتمع، وليس ثمة غير الله يكون حاكماً في المجتمع المسلم. وهذه الاجابة تبينها عقيدتنا في التوحيد وتجعلها النبوة من الأمور المسلّمة الواضحة، ولنرَ هل تثبت لنا الولاية هذه المسألة، ولابد أن تكون الاجابة واحدة لأنه أصول أي مدرسة فكرية وأي عقيدة كونية. ولابد أن لا تتناقض النتائج المستفادة من أصولها المتعددة، ولا يصح أن يستنتج نتيجة ما من أصل من أصول العقيدة ثم يستنتج ما يضاده من أصول أخرى.

وللأسف فإن صورة الإسلام التي تعيش في أذهان وقلوب بعض المسلمين الأغرار البسطاء وساذجي التفكير فيها المتناقضات.

ونعود إلى أصل الموضوع فنقول: إن الله تعالى وحده حق الأمر والنهي والقيادة وتنفيذ الأوامر وتعيين خطة السير للمجتمع، وله وحده حق الحاكمية والتدخل في كل جزئيات الحياة الإنسانية {الله ولي الذين آمنوا}، وقد قمت بمراجعة جميع الآيات التي ترتبط بالموضوع تقريباً وبشكل إجمالي، ولاحظت أن من المسلّمات القرآنية أن الله هو ولي المجتمع الإسلامي وأنه ليس للمؤمنين ولي سوى الله، ويجب أن يكون هو الحاكم في كل الأمور. وأجد من الضروري أن أذكر هنا بعض من يمكن أن تختلط عليه عناصر هذه المسألة، أن الكلام هنا ليس عن السلطة التكوينية الله رب العالمين فهي في مكانها معلومة ومصونة، فإن الله هو الذي ينظم حركة السماوات والأرض بإرادته القاهرة، إنما الكلام عن القوانين الحياتية للإنسان، والروابط الفردية والاجتماعية، فإن هذه يجب أن تستلهم من الله سبحانه، والله لا غير هو الحاكم في المجتمع الإسلامي.

ولو طرح هذا السؤال ما تعني مقولة أن الله هو الحاكم؟ والله المتعال لا يلتقي الناس وجهاً لوجه حتى يأمرهم وينهاهم، والناس في حاجة إلى إنسان يحكمهم وتفوض إليه مقاليد الأمور، ولا أريد بذلك أن أنفي القيادة الجماعية، بل أريد القول بأن مقاليد الأمور والحاكمية لابد أن تكون بيد إنسان واحد، ولا يكفي وجود القانون لوحده في دفع الفوضى الاجتماعية حتى وإن كان هذا القانون إلهياً ما لم يوجد ولي أو قائد أو مجموعة قيادية حاكمة تشرف على تنفيذ القوانين في المجتمع.

لكن من هو هذا الإنسان، وكيف يكون، وما هي صفاته؟ ومن هي المجموعة التي يقدر لها قيادة المجتمع البشري؟

وللإجابة على هذا التساؤل قدمت عدة إجابات، كما أنه تعددت الإجابات التاريخية أيضاً، فهناك فئة تقول أن الملك لمن غلب، وهذا هو منطق حكومة الغاب، وثمة فئة تقول أن الملك والحاكمية لمن يتصف بصفة التدبير الدقيق. وفئة ثالثة تقول أن من يوليه الناس ويقبلونه فهو الحاكم. وفئة رابعة تقول أن الحاكم من يملك الذهب والفضة أو العشيرة والاتباع، وهناك من يبرز مقولات مخالفة لهذه.

وأما الإجابة الدينية الإسلامية فهي {إنما وليكم الله ورسوله}، فزمام الأمور الاجتماعية والأمر والنهي وإدارة الأمور جميعاً من ناحية عملية بيد الرسول. وحين يكون الرسول بين ظهراني المسلمين لا معنى لوجود حاكم آخر غيره، والذي يستلم كل القدرات والحاكميات هو الرسول، ولكن عندما ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو يموت كسائر البشر، فماذا تكون الإجابة؟ {والذين آمنوا}، من هم هؤلاء، فهل أن كل من آمن بالله ورسوله يكون ولياً وحاكماً على المجتمع المسلم؟ وهذا يستلزم أن يكون هناك حاكمين بعدد المؤمنين، والآية تريد أن تضع علامة على إنسان معين لدى المقنن والمشرّع الإسلامي، كما أنها تذكر علة انتخابه وتعيينه حاكماً، حتى تحدد لنا المقياس والضابط في الولاية والحاكمية ؛ فالآية تقول {الذين آمنوا} بصدق وبشهادة العمل

والسلوك، وهذا هو الشرط الأول الإيمان الواقعي الخالص.
والشرط الثاني {الذين يقيمون الصلاة}، فلا يؤدونها فقط. وفرق بين إقامة الصلاة وأداءها، وإقامة الصلاة في المجتمع هي إحياء روح الصلاة وانعاشها في المجتمع، وعندئذ يتحول المجتمع إلى مجتمع يقيم الصلاة. وتعلمون أن المجتمع الذي يصلي هو المجتمع الذي يكتنف كل أنحائه وزواياه ذكر الله ويتموج في كل أجزاءه ذكر الله بصورة مهيبة، وفي المجتمع الذي يتموج في خلاياه ذكر الله لا تقع فيه أي جناية أو فاجعة أو خيانة، ولا تمس فيه قيم الإنسان أدنى مساس.
واتجاه هذا المجتمع الذي يتحرك في كل وجوده ذكر الله اتجاه إلهي، ولا يقوم الناس بأعمالهم إلا من أجل الله وفي سبيله وطلباً لمرضاته، والابتعاد عن ذكر الله هو عامل كل أنواع الإذلال والظلم والاعتداء على النفس وعلى الآخرين.
وقائد المجتمع الذاكر الله مثل علي (ع) لا يظلم، بل يحارب الظلم، والرعية فيه مثل أبي ذر الغفاري الذي لم يخضع للظلم ولم يعش تحت كنفه رغم أنه منفي ومبعد عن وطنه، ورغم أنه كان قد تعرض للضرب والإيذاء، ورغم أنه مهدد.. لم يبتعد عن طريق الله ولم ينسه، وهذا المجتمع الذي يذكر الله ويقيم الصلاة هو المجتمع المرضي الذي يتوجه إلى الله.
الشرط الثالث {ويؤتون الزكاة}، يقسّمون الثروة بصورة عادلة ويدفعون الزكاة وينفقون في سبيل الله.
ويضاف إلى هذا الشرط {وهم راكعون} أي في حالة الركوع يدفعون الزكاة، وهذه إشارة إلى ظاهرة واحدة وحالة معينة وقصة فريدة خاصة. وقد قال بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى {وهم راكعون} أنهم في حالة ركوع في كل شئونهم وأوضاعهم وأفعالهم، فلا تكون هذه الفقرة من الآية إشارة إلى مورد خاص.
أما علماء العربية والمختصون بدراسة الأوضاع اللغوية فيردّون هذا الاحتمال ويقولون أن فقرة {وهم راكعون} حال من قوله تعالى {ويؤتون الزكاة}، فهم يدفعون الزكاة في حالة الركوع. والذي يخطر في ذهني وأحتمله أن المراد بالزكاة مطلق الإنفاق، لأن خاتم أمير المؤمنين (ع) الذي دفعه إلى السائل وهو راكع لم يكن يشمله مصطلح الزكاة، وإنما أنفقه في سبيل الله كما ينفق أي مال غير زكوي، ولأنه أنفقه في سبيل الله سمي زكاة، وتريد الآية الإشارة إلى رجل مؤمن له حب كبير للمساواة وله تعلق قلبي عظيم بالعدالة والإنفاق، وهو يتألم عندما يشاهد فقر الفقير وعوز المحتاج، ولم يستطع أن يصبر حتى يتم صلاته، فثمة جاذبية شديدة للإنفاق في نفس هذا الرجل لم تمهله إلى أن يتم صلاته، وهو متفاعل مع التكليف والتحمل، فقد شاهد فقيراً وشاهد مظهر الفقر الذي لا يحب أن يراه الله، وهو لا يحب أن يرى مظهر الفقر ولم يكن عنده ثروة غير خاتمة، فنزعه وهو في صلاته وأعطاه للسائل. إذن هذه الفقرة تشير إلى عمل ومورد خاص ومحدد في التأريخ قام به أمير المؤمنين ونزلت الآية.
وكما تلاحظون فإن الآية تشير إلى علي بن أبي طالب وتضعه ولياً للأمر، وليس هذا التعيين كالتعيينات التي يقوم بها الأقوياء ذوو البطش والمكر في التأريخ وطواغيت التأريخ وفراعنته، وكما فعل معاوية عندما أراد أن يعين خليفة له حيث قال: خليفتي فيكم ابني فهو الذي يجلس في هذا المقام، والله سبحانه لا يعين لنبيه خليفة بهذا الشكل، وإنما الملاك في الحاكمية هو الإيمان الكامل بالله وإقامة الصلاة في المجتمع وحب الإنفاق وإيتاء الزكاة بالشكل العفوي الذي فعله علي (ع) ، وبتعيين الله علياً (ع) بهذا الشكل نفهم الملاك في الخلافة والإمامة وفلسفة ذلك.
وبناءً على هذا، يكون ولي الأمر في الإسلام هو من يعينه الله سبحانه لا غير، ونحن نعرف أن الأصل والأساس الذي نعتمده هنا هو أن طبيعة الخلقة تتنافى مع حاكمية الإنسان على الآخرين، ومن له حق التصرف والحاكمية هو الله سبحانه، ولأن الله حق الحاكمية فهو قادر على تعيين ولي وحاكم على ضوء علمه بالمصالح البشرية ويمنح حق الحاكمية لمن يريد، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وأفعال الله معللة بالحكمة وليست خالية من المصالح الراجعة إلى العباد، وليس الله ديكتاتوراً ولا طاغوتاً ولا مستبداً ولا محتكراً للسلطة حتى يفعل ما يفعل من غير حكمة أو مصلحة، بل أن أعمال الله سبحانه تنسجم مع المصالح الإنسانية، ولأن تعيينه لمن يريد منسجم مع مصالح الناس، فعلينا الخضوع والتسليم لمن يعينه.
فهو يعين النبي والإمام، ويحدد الشروط لمن يخلف الأئمة الهداة المعصومين كقائد في المجتمع الإسلامي، فالله هو الذي يعين الولي، وهو الولي ونبيه ولي أيضاً والأئمة أولياء للأمر، وقد عين الأئمة الاثني عشر أهل بيت النبي وذريته، ثم يأتي من بعدهم من يعين بمعايير وضوابط محددة.
وطبيعي أن هذه آية واحدة ذكرتها لكم، وهناك آيات أخرى في القرآن ذكرنا بعضها في هذه المقالة، وعليكم أن تراجعوا القرآن الكريم للحصول عليها، ولدينا آيات كثيرة حول هذا الموضوع، والأساس الذي يعتمده الإسلام في هذا المجال هو منع وقوع الحاكمية بيد من يقود الناس إلى جهنم.
وقد حدثنا التأريخ عن هذا الأمر، وقد شاهدنا ما الذي فعلوه بالمجتمع الإسلامي بعد صدر الإسلام، والذي حلّ في ذلك المجتمع هو ضياع قدر الرجال الكبار وعظمتهم، وقد استبدل ذلك المجتمع مقاييسه الإيمانية الرفيعة بمقاييس تافهة، ولم يستطع الناس آنذاك أن يعرفوا الناصح والمشفق والمصلح لهم، وكم قد بذلوا من جهود حتى أضلوا الناس إلى هذا الحد، فالاعلام المسموم للسلطات الجائرة أثر على المجتمع المسلم بشكل رهيب حتى تغير الأفق العلمي للناس، وقد اضطربت رؤيتهم فكانوا يصيّرون

السواد بياضاً والبياض سواداً. ومن يراجع تاريخ القرن الأول والثاني الهجريين يصاب بالألم والحسرة لما يشاهده من فجائع ومظالم يرتكبها الجهاز الحاكم مع سكوت المسلمين وعدم اهتمامهم لما يجري، ويعجب الإنسان من هؤلاء الذين لم يصبروا في زمان عثمان على ما وقع من حوادث، فحاصروا عثمان وخلعوه من الخلافة بشكل فجيع، هؤلاء هم الذين يرون الاسراف في إنفاق ومصارف الخليفة العباسي في (حفلة زواج) ؛ ففي تلك الحفلة أُنفق ما يكفي لسد حاجة قطاع كبير من المجتمع الإسلامي، فهم يرون هذا الوضع ولا ينبسون ببنت شفة، يشاهدون كيف يصرف مال المسلمين في موارد شخصية وهم لا يحركون ساكناً، فهذا المال ملك لآلاف المسلمين، وها هو ينفق لشخص واحد، ولا أقول يصرفه لرفاهه وسعادته المادية بل لو صرفه لصلاته وصيامه، فهل يجوز له هذا العمل؟ والناس يرون أن هذه الأعمال تقع في المجتمع الإسلامي وهم غافلون غير مبدين لأدنى اهتمام. ولعلي ذكرت لكم في مناسبة ما قصة جعفر البرمكي وهو الوزير المقرب والمحبوب لدى هارون الرشيد بشكل كبير، وكان له من العمر ثمان وعشرون سنة عندما أراد هارون أن يزوجه، غيّر سنة الناس بنثر الحلوى والزهور على رأسي العروسين بسنة أخرى ونثر على رأسيهما شيء آخر، مما أثار استغراب الضيوف وهم أشراف القوم ومترفيهم. وما كان من هؤلاء إلا أن تراكضوا فجمعوا ما وصلت إليه أيديهم.

فما الذي شاهدوه؟ لقد رأوا علباً صغيرة بقدر الإصبع مصنوعة من الذهب الخالص، وعندما تفتح العلبة تستخرج منها ورقة رقيقة، ثم تفتح هذه الورقة لتصير هي نفسها ورقة كبيرة لكنها عندما تطوى تتحول إلى ورقة صغيرة جداً، وقد كتب فيها صدر الأمر بأن تكون مالكاً للمقاطعة الكذائية، أو ذلك القسم من البلاد ملك لك.

والله يعلم كم من اسناد الملكية قد طوى بذلك الشكل الغريب ليوضع في تلك العلب الذهبية، وأما الذين أخذوا هذه العلب، فالخليفة لا يعرف من هم، ولنفرض أن سند أملاك الأرض الكذائية قد وقع في يد طفل، أو سكير قاتل، أو إنسان تافه حقير، وهؤلاء الذين لا يعرفهم الخليفة سوف لن يحرمهم مما حصلوا عليه، فكل منهم سوف يملك الإقطاعيات الواسعة، وبهذا العمل كم من الحقوق سوف يضيع، وكم سيذهب هدراً من الثروات، وما أكثر الحرمان الذي سيصيب كثيراً من الناس. لم يكن كل هذا محطاً لتفكير هؤلاء وليس مهماً عندهم، في مثل هذا الترف والإسراف يعيش أحد العلويين وهو يحيى في جبال طبرستان وهو يقاوم الظالمين، وكان ليحيى رداء واحد يلبسه عندما يصلي ثم يعطيه لزوجته لتصلي فيه، كانت ذرية النبي تقاوم الظالمين وهم في مثل هذه الحالة من الفقر، وكان الناس يعيشون هذه الأوضاع ولا تثير اهتمامهم، لست أريد انتقاد هارون أو أشكوه أو أعاتبه، فإنه إذا لم يقم بمثل هذه الأعمال فليس بهارون.

والطبقة التي ينتمي إليها هارون حين تكون هي الحاكمة. فستقع هذه الأعمال والمآسي فلا عجب ولا عتاب مع هؤلاء، ولكن اللوم يقع على عامة الناس الذين نسوا التاريخ المشرق لصدر الإسلام ونقائه وخلوصه وفقدوا ذلك الوعي والتيقظ، والفهم الراجح الذي كان صفة بارزة من صفات مسلمي صدر الإسلام، ولهذا فلا يشعرون بالأهمية لما يقع، ولا يحسون بمسؤولية التغيير عند مشاهدة الظلم والمآسي، ولا يتألمون لما يقع. لماذا وصل بهم الأمر إلى هذا الحد؟ كان ذلك نتيجة الاعلام المزيف الوضيع، وهذا نتاج طبيعي لعمل المؤسسات التبليغية بين صفوف الناس، وهكذا عملت هذه الأيادي التبليغية سنوات متعددة متطاولة في أقطار المجتمع المسلم والبلاد الإسلامية، فهم يؤثرون على فكر الإنسان وروحه وشخصيته حتى وصل الأمر إلى الوضع الفعلي للمسلمين.

وبهذا تدركون أهمية اتصاف الحاكم في المجتمع الإسلامي بشروط معينة، وضرورة تعيينه من قبل الله سبحانه. ويقول القرآن في آية أخرى {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[23] ، فمن هم أولي الأمر الذين يلزمون الناس بأوامرهم؟ يتخيل السطحيون من المسلمين أن صاحب الأمر كل من يستطيع أن يصدر أمراً ولو استخدم القوة، ونحن نجيب بالنفي لذلك ؛ فليس مثل هذا ولياً لأمر المسلمين، وإذا كان الأمر بهذا الشكل، وإذا كان القرآن يقصد هذا المعنى فالذي يترتب على ذلك هو أن يكون اللص وقاطع الطريق الذي يعيش في ذلك الجبل أو القرية من أولي الأمر، لأنه يتصرف في منطقته كيف يشاء، ويجب أن يطاع حينئذ لأنه من أولي الأمر. والله سبحانه هو الذي يصدر أمراً بتعيين أولي الأمر حسب عقيدة الشيعة، وهذا ما تريده الشيعة، فالحاكم هو ذلك الفرد الذي يشكل جزءً من المجتمع المسلم لكنه معين من قبل الله سبحانه، وهو صاحب الولاية الكبرى، وهل يصلح مثل هارون الرشيد لمنصب ولاية الأمر وهو الذي كان في ذلك الوضع المنحط، ومع إسرافه وتصرفاته غير المسئولة، ومع طبيعته الدموية القاسية حيث قتل جعفر البرمكي ومجموعة من عشيرته في يوم واحد شر قتلة، وهذا ما فعله أيضاً بكثير من المؤمنين إلى غير ذلك من جرائمه، ويقول القاضي والمفتي في ذلك العصر أن هارون هو ولي الأمر، والمواجهة الحادة مع الإمام الكاظم (ع) كانت نتيجة لهذا الفهم، فهم يسألون الإمام لماذا تضع نفسك في مواجهة مع ولي أمر زمانك وهم يقصدون بذلك هارون. نظرية الشيعة في هذا المجال نظرية دقيقة، وهم يستنبطون ضرورة التعيين الإلهي للإمام وولي الأمر من القرآن الكريم، ويستنبطون الملاكات والضوابط التي يضعها القرآن الكريم تحت نظر المسلمين حتى لا يخدعوا وحتى لا يقولوا نضع علياً (ع) فوق رؤوسنا وتحت أحداق عيوننا، وكذلك يفعلون مع من يخلف علياً وإن كان هارون، وقد قال المنصور العباسي نحن نرضى بخلافة

الحسن (ع) ولكنه باع الخلافة بالمال ولهذا فليس له الحق في الخلافة، ونحن أخذنا الخلافة بالقوة من أولئك الذين باعهم الحسن هذه الخلافة، فهي لنا يظهر على هؤلاء المخدوعين أنهم يقبلون خلافة علي (ع) ويرتضون المنصور العباسي خليفة لعلي ونائباً عنه، ولا يشاهدون أي تباين فكري أو سلوكي بين الاثنين. ولكن الشيعة يرفضون هذا المنطق الأعوج ويخطئونه، ويقولون مع قبول حكومة علي (ع) يجب الالتزام بمعايير وضوابط الحاكمية والولاية، وعلي (ع) إنما انتخب خليفة لاجتماع هذه الملاكات في شخصيته، وإذا كان ثمة من لم تجتمع في ذاته هذه الضوابط أو كان يتصف بما يضادها فليس له حق التولي والحاكمية على المسلمين، وليس لأحد الحق في الأخذ منه والقبول بولايته.

هذا هو أول الأمور التي تظهر من مسألة الولاية. وطبيعي أننا أشرنا إلى الأمر الثاني وذكرنا الآية التي تحدده، فلو سأل سائل عن الدليل على أن ولاية الأمر تحت الاختيار والاصطفاء الإلهي، فسيكون الجواب أن هذا نتيجة طبيعية للفهم الذي أوجده الإسلام ؛ فإن الرؤية الكونية الإسلامية حددت هذا بوضوح، وأن كل شيء في الكون أنما يخلق ويوجد بقدرة الله ومشيئته ويستحيل أن يخرج عن قدرته.

{وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم} [24] ، وما دامت كل الظواهر الكونية بيده فله الحاكمية التكوينية على كل شيء، كذلك يكون الأمر في الحاكمية التشريعية والتقنينية إذ لا فصل بينهما. ولنلتفت إلى هذه الآيات {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا} [25] ، إن الله يأمركم لأنه سميع بصير، يسمع نداءات حاجاتكم الداخلية والباطنية، وبصير بحياتكم فيعطيكم ويهبكم ما تحتاجون إليه.

وهذه الآية تتحدث عن الإمامة أولاً وتأمر بإعطائها لأهلها، وهي تهيأ المناخ للآية الثانية. وعليّ أن أذكر هنا أن الأمانة لا تعني فقط أن ترد عليّ ما وضعته بيدك كأمانة ووديعة، بل أن أهم نماذج الأمانة، الأمانة الإلهية المودعة بين الناس، وعلى المسلم أن يضعها في مكانها الطبيعي وبيد أهلها، وطاعة الإنسان لله ميثاق الله مع عباده، فعلى الإنسان أن يفي بما عاهد عليه الله، وعليه أن يضع أمانته في مكانها في الواقع، وكما هي عند الله فهو يطيع الله ويطيع من أمر الله بطاعته. هذا هو أهم مصاديق الأمانة، وفي الآية الأخرى يقول القرآن {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [26] ، وهنا يبرز وجه الاختلاف بين النظرية الإسلامية وبين النظريات الأخرى.

والنظرية الإسلامية لا تقول سوف يأتي يوم لا يحتاج الناس فيه إلى حكومة وسلطة، في حين نرى أن بعض المدارس الفكرية ترى أن المجتمع سوف يصل إلى درجة المثالية. ومن سمات هذا المجتمع وخصائصه أنه لا يحتاج إلى حكومة وسلطة، وهذا أمر لم يتبناه الإسلام والمقنن الإسلامي، وقد قال الخوارج بدعوى الحكومة الإلهية أن علياً ليس له الحق في أن يكون حاكماً ويجب قتاله إذ لا حكم إلا لله.

وقد قال علي جواباً على ذلك (كلمة حق يراد بها باطل) [27] . نعم كلام الخوارج حق فالله هو الحاكم الواقعي وبيده التقنين وهو مصدر الوجود والحياة وبيده كل جزئيات الأمور، لكن هؤلاء لا يقولون لا حكم إلا لله وهم يريدون بذلك (لا إمرة إلا لله) ، والحكومة والقانون بيد الله.

ولكن من هو منفذ القانون؟ فهل تقولون أن غير الله لا يستطيع تنفيذ القانون ثم يقول لابد للناس من أمير فالمجتمع يحتاج إلى قائد وحاكم، ولا يكفي وجود القانون بل لابد من وجود شخص ينفذ هذا القانون ويشرف على تنفيذه كاملاً.

وهذا هو مفاد قوله تعالى {وأولي الأمر منكم}، ولو استفيد أن المراد مطلق من يكون له سلطة ونفوذ وقوة، فيجب طاعة كل من يصدر أمراً، عندئذ ماذا نقول بشأن ما يقع كثيراً من وجود آمرين يصدران أوامر متعارضة، فهل كون كل منهما ولياً للأمر؟! وكثيراً ما يشاهد أيضاً أن هناك من يأمر بما يخالف العقل، والعقل المفكر لا يخضع أو يمتثل مثل هذا الأمر بل ينفيه، وهنا يبرز الاختلاف الأساسي بين المنهج الذي نفكر على ضوئه وبين منهج آخر ؛ فنحن نقول هناك ضوابط تحدد أولي الأمر والقادة، أما غيرنا فلا يشترطون ذلك عملياً ولا يعملون به. {فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} [28] أي أحسن عاقبة ومستقبلاً.

انظروا كيف يلفت القرآن أنظار الناس وعقولهم نحو العواقب الحسنة والقيادات الصالحة، ونحو العواقب الوخيمة والقيادات غير الصالحة.

ثم تذم الآية اللاحقة كل من يتخلف عن هذا القانون الشامل {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} فيرجعون إليه لرفع النزاع وفض الخصومة، ويستلهمون منه الرأي، ويتلقون منه الأمر، ويعيشون وفق نظريته ورؤيته، وهذا ما ينافي الإيمان.

{يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}. الضلال هنا بعيد ومستقبلي، وأنا أحتمل أن الشيطان هنا هو الطاغوت لا غير، فهؤلاء يريدون الرجوع إلى الطاغوت غافلين عن أن هذا الشيطان والطاغوت

يريد أن يضلهم عن الطريق المستقيم ويقودهم في متاهات الغواية والضياع، ويبعدهم عن الاستقامة فيصعب عليهم الرجوع إليها إلا مع الجهد الكبير.
والأمر الآخر الذي يترتب على الولاية الإلهية هو أن هذه الولاية وتحملها من قبل المؤمنين مرتبط بالنظرة الكونية الإسلامية، ومن الطبيعي أن تقول أن الله يجب طاعته فهو ولي الأمر.
هذه هي فلسفتنا الطبيعية ونظرتنا الكونية لأن كل شيء الله، وتوضّح هذا الأمر الآية الكريمة {وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم} [29].

خلاصة المقالة الرابعة
تطرح حول الولاية مع سعتها وشمولها كما عرضها القرآن مسائل متعددة قد تكون هذه المسائل أصولاً مستقلة في معرفة الأسس والأهداف الإسلامية.
ويمكن فهم بعض هذه المسائل مع التدبر البالغ في الآيات القرآنية:
1 ـ الولي في المجتمع الإسلامي هو القوة التي تقود وتدبر كل الفعاليات والنشاطات الفكرية والعملية، والولي هو الله ومن يعينه الله باسمه أو أوصافه
{إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا}
{الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} [30].
{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً}.
{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم إن، كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً}.
{من يطع الرسول فقد أطاع الله}.
{ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً} [31].
{ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً}
2 ـ الولاية الإلهية وقبولها من قبل المؤمنين تنشأ من فلسفة الإسلام وأسس نظريته الكونية، وحينئذ يكون الولاء الله ولأوليائه أمراً طبيعياً.
{وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم}
{قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم}
{قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم}
{ولا تكونن من المشركين} [32].

أسئلة المقالة الرابعة

1 ـ حدد المعنى الذي تحدثنا عنه للولاية في ما تقدم من مقالات؟
2 ـ الله هو الحاكم المطلق، ماذا يعني حصر الولاية به، ولماذا كان الأمر كذلك وكيف تتحقق حاكمية الله؟
3 ـ هل للإنسان الحكم والتسلط على أخيه الإنسان بحسب طبيعة الخلقة؟ ومع الإجابة بالنفي كيف نفهم ولاية النبي والأئمة والفقهاء؟
4 ـ ما هو جواب القرآن عن السؤال التالي: من هو الحاكم والولي على المجتمع المسلم؟
5 ـ من هم أولو الأمر الذين عنتهم الآية {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}؟
6 ـ ما هو أهم مصداق للأمانة الواردة في الآية 58 من سورة النساء؟
7 ـ وضّح (المقالة الرابعة) مستنداً إلى الآيات 58ـ60 من سورة النساء؟

22 ـ سورة البقرة، الآية: 257.
23 ـ سورة النساء، الآية: 59.
24 ـ سورة الأنعام، الآية: 13.

25 ـ سورة النساء، الآية: 59.
26 ـ سورة النساء، الآية: 59.
27 ـ نهج البلاغة، الخطبة الأربعون.
28 ـ سورة النساء، الآية: 59.
29 ـ سورة النساء، الآية: 60.
30 ـ سورة الأنعام، الآية: 13.
31 ـ سورة المائدة، الآية: 55.
32 ـ سورة النساء، الآية: 80.

المقالة الخامسة: حول الولاية

فهمنا لحد الآن إن على كل مسلم وكل من يدعي العبودية لله أن يجعل وليّه وصاحب أمره واختياره في كل فعالياته ونشاطاته، في تمام شؤون حياته وعلى مدى عمره هو ذلك الولي الذي يعينه الله سبحانه، فهو طوع أمر القائد الذي ينصبه الله ويعينه، والخلاصة أن المحور والحاكم في جميع فعالياته الحياتية هو الله ومن يعينه الله خليفة عنه.

وطبيعي أننا بحثنا عن مَن يعينهم الله سبحانه خلفاء عنه وأولياء على الناس وعن خصائصهم، وقلنا إن الأنبياء هم أول من يعينهم الله أولياء له على الناس ثم الأوصياء والأئمة، وقلنا إن الأولياء تارة يعينون بأسمائهم وأخرى بصفاتهم. هذه مطالب اتضحت فيما سبق.

والمطلب الذي نتحدث عنه الآن يتضمن عدة مسائل:

1 ـ حكم مَن يتخل عن قبول ولاية الله ويخضع لحاكمية غير الله.

ـ ماذا يصطلح على مثل هذا العمل؟

3 ـ ما هي النتيجة المترتبة على هذا العمل؟

وهذه المسائل متفرعة عن الولاية ومن تبعاتها، وتكون من الأصول الإسلامية الثابتة بعد قبول أصل الولاية وإن كانت مسائل فرعية وجانبية حين يقع البحث عن أصل الولاية وقبل إثباته، فهي أصول بلحاظ ذاتها وإن كانت فروعاً قبل البحث عن أصل الولاية. والقرآن يصطلح على كل ولاية غير ولاية الله بالطاغوت ؛ فهو يؤكد أن من لا يخضع لولاية الله وحاكميته فهو خاضع لولاية الطاغوت وحاكميته. فما هو الطاغوت؟

الطاغوت مشتق من مادة الطغيان، والطغيان هو التعدي والخروج على الحدود الطبيعية والفطرية للإنسان ؛ فلو أن الإنسان الذي خلق ليصل إلى كماله الممكن خرج على هذا الهدف فهو طاغوت، وعلى الناس أن يعيشوا وفقاً لرسالة الله ودينه، وهذا أمر طبيعي وفطري ومطابق لخلقه الناس. والطاغوت هو ذلك الشخص الذي يستخدم مختلف الوسائل من أجل أن يجعل الناس يسيرون على خلاف نهج الله ورسالته ودينه، وعلى الإنسان أن يسعى بكل ما أوتي من قوة من أجل أن يجعل وجوده مثمراً منتجاً، وكل دافع يتنافى مع جدية الإنسان وجهاده وكدحه ويدعوه إلى الكسل والتواني والخمول وطلب العافية فهو الطاغوت، وعلى الناس أن يخضعوا لشريعة الله ورسالته ومنهجه، وكل من يمنع الإنسان عن طاعة أمر الله ويدعوه إلى المعصية فهو طاغوت. إذن فليس الطاغوت اسماً خاصاً وليس صحيحاً ما يتخيله البعض من أن الطاغوت اسم لصنم معين، نعم يطلق على الصنم ويسمى الصنم به لكنه ليس صنماً معيناً. وقد يكون الإنسان نفسه صنماً وكذلك ثروته وحياته العاطلة المتراخية المترفة وكذلك أمانيه وآماله، وقد يضع الإنسان يده بيد إنسان هو صنم يغمض عينيه ويضع كل ما لديه بيده، وقد يكون الصنم هو الذهب والفضة أو النظام الاجتماعي أو القانون، فليس الطاغوت اسماً لشيء محدد خاص. والذي يستنبط من القرآن الكريم أن الطاغوت مقام فوق مقام الملأ وأشراف القوم والمترفين والجبارين والرهبان، وهذا بحث غير بحثنا ولسنا بصدد الحديث عنه. وعلى هذا فكل من يخرج عن ولاية الله وحاكميته فلابد أن يدخل في ولاية الطاغوت والشيطان. أما ما هو الطاغوت والشيطان وما هي النسبة بينهما؟

لأن الشيطان هو الطاغوت والطاغوت هو الشيطان كما يقول القرآن {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت}.

ثم يقول {فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا} [33] مكر الشيطان وحيلته وتدبيره وخططه ضعيفة، وتلاحظون أن القرآن استعمل كلمة الشيطان مكان الطاغوت، والطاغوت بدل الشيطان. إذن فالشيطان كائن وعنصر خارج وجود الإنسان ويعمل على إغوائه وإغرائه على الوقوع في المعصية والظلم والفساد والانحطاط والذلة والتبعية والانحراف، ويدعوه إلى القيام بالأعمال الفاسدة والشريرة، وهناك شياطين من البشر ومن الجن، هناك شياطين بيننا من أقاربنا وأرحامنا، ومن الرجال والنساء، ومن مصاديق الشيطان إبليس الذي وقف مخالفاً لصفوة الله آدم (ع) حيث اعترض على أمر الله سبحانه بالسجود عند خلق آدم.

وأنا وأنتم على مدى حياتنا وسني عمرنا نلعن إبليس الشيطان الأول المطرود من الجنة، في حين أنه ليس الشيطان منحصراً فيه، ويحتمل أن الشياطين لم تبتدأ بإبليس ولن تنتهي به أيضاً ؛ فالشياطين في العالم كثيرة يلمسون ويحسون ويدعون، ويشد على أيديهم، كذلك يرون بالعين، وفي بعض الحالات يعاصرهم الإنسان ويعايشهم. وبنحو كلي تكون الولاية غير المرتبطة بالله ولاية الشيطان والطاغوت، والذي لا يعيش ضمن القانون والأمر الإلهي وتحت ولاية الولي الحقيقي عليه أن يعلم أنه سيحيا ضمن

دائرة القانون الشيطاني والطاغوتي، ويمكن أن تسألوا عن المفسدة في حياة الإنسان ضمن دائرة ولاية الشيطان والطاغوت. هذا مطلب ضمن مطالب بينتها الآيات التي تقدمت.

فالقرآن يوضح أن ولاية الشيطان حين تهيمن على الإنسان فسوف تتسلط على تمام الطاقات الحية والفعالة والخلاقة والمثمرة، وسوف يتسلط على كل وجود الإنسان الذي يحني رأسه للشيطان والطاغوت، فسوف يلف الشيطان عنقه ورقبته بحبل ولايته المحكم، ولن يجد الإنسان منه خلاصاً ؛ فالشيطان يقبض بيده على كل القوى والابداعات والفعاليات الحية ومظاهر الوجود الإنساني المشرقة. وفي الوقت الذي يسيطر الشيطان على تمام الوجود الإنساني فسوف يقوده بيسر ومن غير مواجهة في الطريق الذي يريده، وسوف يقوده بكل وسيلة يريدها الشيطان حيث يشاء. ومعلوم أن الشيطان لا يهدي الإنسان نحو النور والمعرفة والراحة والرفاه، لأن هذه ليست من أهداف الشيطان، بل أن الهدف الأساسي عند الشيطان والطاغوت هي المصالح الضيقة، فهو يسعى إلى تحقيقها، ويدعو الإنسان إلى طريق مصالحه الشخصية. ولو تدبرتم في هذه الكلمات الدقيقة سوف ترون أن لكل جملة معنى ينطبق على الواقع التأريخي في مراحله المختلفة، فإذا خضع الإنسان لولاية الطاغوت فسوف يتسلط الطاغوت على تمام الطاقات والقوى والاستعدادات والإبداعات الإنسانية.

ومع تسلط الشيطان على الإنسان لن يسعى لتحقيق منافعه وخيره وكماله، فإن الشيطان يسعى إلى تحقيق مصالحه هو، فإذا وقع الإنسان في طريقه فسوف يضحي به لتحقيق مصالحه ومنافعه ويجره إلى الضلالة والغواية، فالقدرة تكون بيده.

فالآية التي سأتلوها عليكم من سورة النساء تستحق التأمل والدراسة والتدبر الدقيق {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [34] .

وحين يدقق الإنسان في التاريخ يرى بوضوح تحقق هذا الكلام الإلهي، وهذه مسائل مهمة أهمية بالغة فهي ذات أبعاد اجتماعية خطيرة، ولم نبحث عن هذه المسائل من وجهة نظر القرآن بصورة تستحق الذكر وقليلاً ما طبقناها على تاريخنا الإسلامي، وكم هو جميل أن يقوم ذوو الاختصاص والعلاقة بالقرآن الكريم والمتمرسون بدراسته، والمختصون بالمسائل الاجتماعية والتاريخية وخصوصاً قصص القرآن بالتدقيق في هذه المسائل من وجهة نظر القرآن ومقارنتها بالواقع التاريخي.

أريد أن أعرض عليكم صفحات من التاريخ لإيضاح معنى هذه الآية.. مدينة الكوفة من المدن المثيرة للعجب البالغ في تاريخ الإسلام وأنتم تحملون صور وخواطر مختلفة عن الكوفة، وما أقوله ليس فيه جديد، فأمير المؤمنين (ع) اختار الكوفة عاصمة لخلافته من بين أقطار ومدن الدولة الإسلامية الواسعة. وهذا من مميزات الكوفة، وقد اشترك أهل الكوفة في حروب أمير المؤمنين، فأكملوا حرب الجمل والنهروان.

وقد اشتركت مجموعة من القبائل التي تعيش في أطراف الكوفة في معركة صفين، وهؤلاء الرجال من الكوفة وغيرهم أتموا تلك الحرب، وقد كان أمير المؤمنين (ع) يشكو منهم ويلومهم قائلاً (لماذا لا تأتون حين أدعوكم إلى الحرب؟) . وكان كبار أهل الكوفة وأشرافهم هم الذين كتبوا للإمام الحسن كتاباً طالبين إليه المجيء حتى يمكنوه من أن يحكم مدينتهم لكنه لم يستجب، ونفس أكابرها كتبوا للإمام الحسين بن علي (ع) أنه ليس علينا إمام وحاكم وقائد والله قد أهلك ذلك الطاغية فأقدم علينا، وقد قالوا ذلك حقاً وصدقاً، فإن فيهم سليمان بن صرد وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وغيرهم، وأهل الكوفة أنفسهم وقفوا صفاً غير متوازن بوجه الإمام الحسين وارتكبوا تلك الفاجعة النكراء، وهم أنفسهم الذين قاموا بعد مدة قليلة من جريمتهم هذه بعمل مشرق وضاء نادر الحدوث في التاريخ الإسلامي ؛ ذلك هو ثورة التوابين الذين خرجوا على الظالم طلباً للتوبة، ولأنهم لم يصلوا لنصرة الإمام الحسين في يوم عاشوراء. وقد بذرت في نفس هذه المدينة بذور أغلب الثورات ضد بني أمية وبني العباس وقد نمت تلك البذور، وانتصرت تلك الثورات، فكم قدموا من المضحين وكم قُتِل منهم، وكم قدموا من أعمال مثمرة كبيرة، ولكن من بين هؤلاء تبرز أحياناً أنواع من الضعف والكسل والخور والقصور الروحي والمعنوي، لماذا؟

هل لهؤلاء قلبان وروحان ووجهان؟ وتاريخ الكوفة مهم جداً، وأنا أرى أن البحث في الكوفة والدراسة النفسية لتلك المدينة بحث مهم ونافع وعمل عظيم ذلك الذي ينجزه المتخصصون والمحققون وعلماء النفس والاجتماع، حين يدرسون تاريخ الكوفة وأوضاعها ويفكرون في ذلك، وعندئذ يوضحون ما يثير العجب من وجود مظاهر عظيمة ومضيئة للنفس الإنسانية، ومن وجود مظاهر هزيمة الوجدان والشرف وظهور حالات الضعف والتكاسل، لماذا حدث هذا؟

الكوفة مدينة ولدت تحت ظل كلمات أمير المؤمنين الواضحة المتينة.

وهل أن المحيط والبيئة هي التي تصنع الإنسان؟

الرجال العظام والمتحمسون في تاريخ الشيعة هم من الكوفة وهم أكثر من شيعة المدينة المنورة، والسبب في ذلك هو التعليمات والدروس العظيمة التي غذاهم بها علي (ع) في السنوات المعدودة التي لبث بينهم فيها، وليس سهلاً أن يحكم فرد مثل علي بن أبي طالب في المدينة.

صحيح أن حكومة علي (ع) في تلك السنوات الأربع كانت ضعيفة في العالم الإسلامي، لكنها كانت غير قاصرة أو ضعيفة في

مدينة الكوفة، وكانت تظهر فيها ظواهر عظيمة فتحولت إلى مهد للتشيع وموطن للفضائل والأخلاق الشيعية، وليس ضرورياً في موطن الفضائل أن يكون كل أهل ذلك الموطن من أهل الفضيلة والأصالة والمثالية، ففي المجتمع الثائر المتحمس تبرز طبقة واحدة من الناس يحملون الحماس والثورة.

ويحدث أحياناً أن يكون بين ملايين من البشر عشرات محدودة من الآلاف هم الذين يقومون بعمل بطولي، ولكن البطولة والثورة والشجاعة تسجل في حساب الملايين، وكذا مدينة الكوفة فإنه كان فيها مجموعة تستحق التقدير والإعجاب وليست الكوفة بدعاً من بقاع الأرض وأقطارها ليس فيها مجموعة صالحة، كلا.. فإن فيها مجموعة صالحة كما أن في أي بقعة من الأرض توجد مجموعة صالحة ثائرة، وليس أهل الكوفة أسوأ من غيرهم. كلا.. فأهل الكوفة مثل أهل مشهد وطهران وأصفهان والمدينة المنورة وكأهل أي مدينة أخرى.

ولكن لأن هذه المجموعة المحدودة العدد التي تعيش في زاوية من العالم الإسلامي أعني الكوفة كانت مثار خوف الحكومات آنذاك، لهذا كانت الحكومات تعين عليهم أقسى الولاة والقادة وأحط الجواسيس والعيون والعملاء وأغلظ الجلادين، فأعملوا فيهم سياسة قاسية صارمة، أجروا بينهم إعلاماً مسموماً فاسداً، وضيقوا عليهم في المجال الاقتصادي حيث أخذوا الناس بسياسة التجويع، مما أدى بالناس بطريقة غير مقصودة أو متعمدة إلى القيام بالأعمال الفاسدة المنحطة.

ولم تكن مثل هذه السياسة تجري في سائر المدن والعواصم الإسلامية الأخرى، لأن تلك المدن كانت تفقد مثل تلك المجموعة الشجاعة الثائرة لأمير المؤمنين، وكان هدف الحكومات من إجراء تلك السياسة هو تفويت الفرص المناسبة التي يمكن أن يستفيد منها أولئك الرساليون المجاهدون.

ولهذا اتبعت الدولة سياسة إعلامية مسمومة، وأجرت سياستها الاقتصادية القاسية بالتجويع وقطع العطاء أو تقليله، وكذلك حكمت الناس بسياسة التخويف والرعب والضغط.

وخلاصة الأمر أنهم استعملوا مع أهل الكوفة مختلف أساليب الضغط، ولم تكن المدن الأخرى في مثل هذا الوضع المفجع، وكانت الأعمال غير الصالحة تصدر من عامة أهالي الكوفة نتيجة هذه السياسة الظالمة والنادرة الحدوث، فليس منشأ الفساد عند أهل الكوفة هو المدينة التي يسكنونها، هذا عرض مختصر لتاريخ الكوفة، وفي رأيي أن من يطالع التاريخ ويحالله سوف يحصل على نتائج مثيرة.

فالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان يعلم أنه لا يصلح لأهل الكوفة الثائرين الأبطال سوى الحجاج بن يوسف الثقفي، ولهذا عينه حاكماً ووالياً على الكوفة وهو أقسى الجلادين وأشدهم غلظة وأكثرهم ارتباطاً وتبعية لبني أمية.

دخل الحجاج الكوفة في منتصف الليل مع مجموعة من المسلحين ولم يعلم بدخولهم أحد من أهلها، والوالي السابق على الكوفة كان قد أخرج أو عومل معاملة الطريد من قبل أهل الكوفة. دخل الحجاج مسجد الكوفة في منتصف الليلة نفسها، وكان المسجد يدوي بأصوات أهل العبادة والمتهجدين. أصدر الحجاج لغلمانه وجنوده أوامره وعين لهم أماكن استقرارهم، ومن غير أن يشعر به أحد توجه إلى المسجد ودخل بين صفوف الناس ثم استل نفسه من بينهم ليستقر على المنبر، ولأن مسجد الكوفة واسع جداً لم يشعر الناس بما يجري أول وهلة ولكنهم بدأوا يدركون تدريجياً ما الذي يحدث، شاهدوا رجلاً غريب المظهر والهيئة جالساً على المنبر من غير أن ينطق بكلمة، يلبس عمامة حمراء قد أنزل حنكها، وكان متلثماً لا يرى من وجهه إلا بريق عينه، وكانت له هيئة مدهشة. تصوروا رجلاً يحمل السيف ويلبس عباءة وعمامة حمراء يجلس على المنبر بهيئته هذه ومن غير أن يتكلم، في تلك اللحظة رفع رجل من المصلين رأسه لتقع عينه على هذا المنظر الغريب، سأل الذي إلى جنبه من هذا؟ والآخر يسأل الذي إلى صفه وبدأت تنتشر في أنحاء المسجد التساؤلات عن هوية هذا الرجل، وانتشر الغوغاء والضجيج أثير انتباه الناس بهذا الشكل فتركز اهتمامهم حول المنبر، تصوروا جيداً ماذا يقول القرآن {نوله ما تولى} من لا يخضع لحاكمية الله وولايته سوف يطوّق عنقه بما لا يستطيع الفكاك منه.

فأنت أيها المصلي الجالس في المسجد، أنت مسلم وترى على منبر مسجدك رجلاً لا تعرفه، لماذا لا تتحرك نحوه وتسأله من أنت؟ لماذا لا تسعى إلى معرفة هذا الرجل ثم تعرفه للناس؟ وأنت أيها المصلي الثاني والثالث يوجه إليك نفس السؤال، فلو سأل كل هؤلاء نفس ذلك الرجل عن هويته ونادوا من أنت؟ فسوف يتغير الوضع، لكن هؤلاء ركنوا إلى الخور وفقدوا إرادتهم، وضعفت نفوسهم وانتظروا مقالة الحجاج فيهم.

عندما رأى الحجاج أن كل العيون توجهت نحوه من غير أن يعرفوه، قال لهم: سأعرفكم من أنا، فنزع العمامة ولثامه ثم قال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وكان هناك واحد أو اثنان من أهل الكوفة يعرفون الحجاج لأنه كان قد جاء إليها مرة في فترة سابقة، فقال من يعرفه هذا هو الحجاج، نعم إنه هو.. فضج المسجد بخبر دخول الحجاج وداخل الناس رعب شديد، ثم قال الحجاج: أنا الحجاج وصح فهمكم، وكان الخوف والرعب يخيم على الناس، ولم يقل أحدهم لنفسه الحجاج رجل وأنا رجل هو فوق المنبر وأنا تحته وكل ما عنده

عندي، ولكن ضعف العزيمة كان سائداً بين الناس.
قال الحجاج: يا أهل الكوفة إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. عندما سمع الناس هذا التهديد الفارغ في حقيقته زاد رعبهم وهلعهم. وهل دخل الحجاج إلى الكوفة وهو يحمل قنبلة ذرية؟
ولو كانت معه لما فجرها، لأنه لو فعل ذلك لما بقي أحد حتى يكون ولياً وحاكماً عليه، لابد من بقاء مجموعة لأنه لو قتل الجميع فسوف لن يكون حاكماً على أحد. وليس ثمة حاكمية على الباب والحائط والتراب والحجر.
لم يفكر الناس بهذه الأمور بعد أن قال الحجاج: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، ثم أضاف: وأنا أحدد الآن أي رأس سوف يقطف، ونادى غلامه، فنهض وقال: له اقرأ كتاب أمير المؤمنين (عبد الملك بن مروان) لأهل الكوفة.
فتح الغلام كتاب عبد الملك فقرأ مطلعه وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة: يا أهل الكوفة، سلام عليكم.
عندما قرأ الغلام هذا الكلام قاطعه الحجاج وقال له: اسكت، ثم التفت إلى الناس وقال: انكم تسيئون الأدب فأنتم لا تردون سلام أمير المؤمنين، ثم قال اكمل يا غلام.
قرأ الغلام ثانية يا أهل الكوفة سلام عليكم. عندها ضجَّ الناس من أنحاء المسجد وبصوت عالٍ وعلى أمير المؤمنين السلام.
ابتسم الحجاج راضياً وقال لنفسه انتهى الأمر، وكان ما قاله صحيحاً تماماً، فإن رد السلام على أمير المؤمنين والفاسقين يعني قبول ولاية الحجاج وحكومته. وبهذا الشكل انتهت مقاومة أهل الكوفة.
{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى}.
وحين أجبتم يا أهل الكوفة الحجاج وأردتموه فهو لكم وهو وليكم، والله سبحانه لا يخرج الحجاج عن ولايتكم بطريق إعجازي ليضع مكانه الإمام زين العابدين (ع) . كلا، فالحجاج لكم وما دمتم تحبونه فكل حياتكم وفكركم وروحكم طوع أمره، هذه هي سنة الحياة والكون والتاريخ.
بعد قراءة كتاب عبد الملك نزل الحجاج من المنبر ليتوجه إلى دار الإمارة، وكان جمع من أهل الكوفة قد ساندوا أحد الخارجين على الدولة ولعله محمد بن الأشعث، فأراد الحجاج أن يلعب لعبة جديدة، فقال لأهل الكوفة: يلزمكم الاحتياط فتأتونا جميعاً لتعترفوا بأنكم قد كفرتم ثم تؤمنوا من جديد وتتوبوا.. فاستجاب له الهمج الرعاع وبقي المخلصون من أهل الكوفة فإنهم لم يكونوا على استعداد للاستجابة، بقي بعضهم في بيته وشحذ بعضهم الآخر سيفه وبعضهم عمل غير هذا. ذهب الناس جماعات إلى دار الإمارة، ليشهدوا على أنفسهم بالخروج على دين الله والارتداد عن الإسلام، وبعد أن شهدوا بذلك تابوا قائلين: تبنا وندعو الله أن يقبل الأمير توبتنا لأننا نريد أن نكون على الإسلام.
وكان هناك شيخ طاعن في السن قد تقدم نحو الحجاج، فبادره الحجاج لما شاهد عليه من سيماء الوقار والهيبة: كأنك شاك في كفرك. ومعنى هذا الكلام أن يرد على شكه بقطع رأسه بالسيف، فقال له الشيخ: كلا، فأنا أكثر الجميع كفراً. هذا مقطع من التاريخ، التاريخ درس الحياة والرجل العاقل من يدرس التاريخ والحياة ليكون له عمران يقضي أحدهما مجرباً باحثاً، ويقضي آخر في تطبيق ما حصل عليه من خبرات وتجارب.
وتجربة التاريخ وحوادثه هي عمرنا الأول. دققوا في التاريخ واستأنسوا به واحرصوا على أن تلتقطوا ما في أعماقه، ولا تكتفوا ما الذي يريد أن يقوله لنا التاريخ وما الذي تخبرنا به وتقوله لنا قصة الحجاج، وليس ضاراً أن أضيف هنا أن الحجاج هذا قد قُتِل بأبشع صورة بيد هؤلاء الذين ارتكب كل تلك الجرائم والفجائع من أجلهم، وليس ضاراً أيضاً أن تعرفوا من أعان ظالماً سلّطه الله عليه. وهذه سنة أخرى..
لاحظوا عظمة الدروس التي يقدمها لنا التاريخ، ولاحظوا أهمية مقولات التاريخ وسننه. سيروا مع التاريخ مع كمال التدقيق. سوف ترون أن الآية القرآنية يتضح معناها بكل يسر، وقد عرضت عليكم شيئاً من مقاطع التاريخ وعليكم مهمة الاتصال والارتباط بالتاريخ.. وارجع الآن إلى الآيات القرآنية {وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم}.
فأنت عندما تقرأ القرآن وتطلع على المفاهيم الإسلامية سوف تدخل في حمى الله سبحانه وتلوذ به من الشيطان الذي لا يريد أن تعرف القرآن وتفهمه، فاسع إلى أن لا تُسلب منك معرفة القرآن المستحكمة في قلبك لتفتح لك هذه المعرفة طريق الوعي والعمل، ومن أجل هذا استعذ من الشيطان الرجيم.
{إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون}. فالشيطان الضال المضل لا يتسلط على المؤمن، فتوكل على الله واعتمد عليه، والشيطان لا يتسلط على من يخضع لولاية الله ويدخل في دائرة حاكمية {إنما سلطانه على الذين يتولونه} من يخضع لولاية الشيطان فهو وليه {إنما سلطانه على الذين يتولونه}، والآية تفيد حصر ولاية الشيطان في دائرة من يرتضي ولاية الشيطان ويخضع له، {والذين هم به مشركون}[35] وتقدم في آية من سورة النساء تلوناها {ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى}.

فيجعل الله من تولى الشيطان قائداً له وحاكماً عليه ووليّاً على أموره {ونصله جهنم وساءت مصيرا} [36].

{إن الله لا يغفر أن يُشرك به} عليكم الرجوع إلى أبحاث التوحيد لتعرفوا معنى مصطلحي التوحيد والشرك وتحددوهما، فما الشرك وما التوحيد، وما هو الذنب الذي لا يتجاوز عنه الله ولا يغفره؟ إن الله لا يغفر أن يشرك به في الولاية، والمشرك الذي لا يغفر له هو من منطقة النفوذ الإلهي الرباني لغير الله واستقرت في روحه جراحات المعاصي والتخلف عن أمر الله ورسالته، وهذه الجراحات لن تلتئم، لا يغفر له والغفران يعني التئام الجراحات التي تسببها المعاصي والانحرافات، فإذا أشركت غير الله في الولاية فلن تذهب عنك آثار المعاصي وجراحاتها.

{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ويغفر الله غير الشرك من المعاصي. وطبيعي أن هذه المغفرة تأتي بعد التوبة والتدارك، فالذي يتوجه إلى الله يتوجه الله إليه ويغفر له، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً وابتعد عن الهداية.

قد يضل الإنسان ولا يهتدي إلى الطريق في الصحراء ويبتعد مقدار كيلومتر واحد ولكن هذا الإنسان لو ضل الطريق عشرات الكيلومترات فلن يسهل عليه الرجوع ويحتاج إلى جهد كبير وتعب شاق وتيقظ بالغ ودليل قوي ليرجع إلى الطريق. وأولئك الذين أشركوا قطعوا مسافة شاسعة مبتعدين عن الهداية الربانية وعن طريق الله الوسطى المستقيمة.

{فقد ضلّ ضلالاً بعيداً إن يدعون من دونه إلا أناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً} المريد هو العاصي والغوي، وللمريد معنى آخر وهو غير المتخلق بالأخلاق الفاضلة. {لعنه الله} حيث أن الشيطان عاهد الله من أول الأمر على الطغيان والإضلال، ومن حيث الأساس والطبيعة والصفات لا تلتقي جبهة الشيطان مع الجبهة الإلهية.

وهنا يبين القرآن طبيعة الشيطان وصفات الشيطان في العالم {وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً} [37] . فتعهد الشيطان هنا بأن يضل طائفة من العباد عن الطريق المستقيم، فيستولي على عقولهم ويعمي أبصارهم وبصيرتهم ويخرجهم من دائرة ولاء الله ليدخلهم تحت ظل ولائه وقيادته، {ولأضلّنهم ولأمنّينهم} تأملوا هذه الكلمة فهي تشمل الأماني الطويلة والبعيدة وكل ما يبعد الإنسان عن المجاهدة والكدح في سبيل الله..

الأماني والآمال أن يعيش الإنسان براحة وطمأنينة وسرور ورفاه، فأمانيه أن يزوج الولد الكبير والبنات، وتوسعة الدار الصغيرة ومحل تجارته، وأن يكون رئيساً ومديراً لذلك الجهاز أو تلك الجمعية أو الهيئة، أو الحصول على هذا المقدار من المال ... فالآمال البعيدة والأماني الطويلة تطوق عنق الإنسان وتدور حوله كما يدور حجر الطاحونة، وإذا قلعت أضراس الأماني والآمال وأبعدتها عنك فسوف تعيش حراً، وتفكر بحرية وترى رؤية حرة من غير أن يفيدك أي قيد، فلهذا يقول الشيطان {ولأمنّينهم}، سوف أقيدهم بقيود الآمال البعيدة والطويلة {ولآمرنهم فليبتّكن آذان الأنعام}، يمكن أن يراد من الآية الإشارة إلى العادة الجاهلية بشق آذان الأنعام ويمكن أن يكون للآية معنى دقيق، ولم أدقق لمراجعة ما قيل حول الآية، والظاهر أن الآية تشير إلى ما يفعله أهل الجاهلية من شق أو قطع أذن الحيوان تحسباً للبركة والرزق والسلامة، وهذه سنة جاهلية وهي أنموذج ومصداق للأفكار والأطروحات الجاهلية وتلاحظون سخافة هذا العمل وتفاهته، وكل سنن الشيطان على هذه الشاكلة، {ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله} وفطرته حيث سأخرجهم من دائرة الولاء لله لأدخلهم في دائرة الولاء لي، وسآمرهم بالخروج على فطرة الله والابتعاد عن نهجه وخطه الذي رسمه لعباده. وسأضع لهم قانوناً يخالف الفطرة وأرسم لهم طريقاً يخالف طبيعتهم ويوصلهم إلى نهاية غير النهاية المرسومة لهم.

{ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله} هذا هو عهد الشيطان مع الله فهو عهد ولجاجة وعناد مع الله، وهذا هو خط كل الشياطين وأطروحتهم وبرنامجهم.. وكونوا على اطمئنان أن الناس لو أرادوا أن يعيشوا على ضوء الفطرة والخلقة الأصلية، فلن يهيمن عليهم الشيطان ولن يظهر في طريقهم، وإنما يبعد عن الفطرة من يتولاه ويخضع له، لأن هذا هو دور الشيطان وعمله وخطته وميثاقه، ولهذا يخاطبني ويخاطبكم الله سبحانه في نفس السياق القرآني المتقدم {ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً} [38] .

خلاصة المقالة الخامسة

كل ولاية غير الولاية الإلهية هي ولاية الشيطان والطاغوت، والخضوع لولاية الشيطان توجب تسلط الشيطان على كل القوى الفعالة والخلافة التي أودعها الله في الإنسان وعندئذ يسيرها في طريق هواه، وقيادة الطاغوت وحاكميته وولايته لا تؤدي إلا إلى ضياع وهدر الطاقات الحية، حيث أن الطاغوت لا يرى إلا مصالحه الشخصية، وإنما يحرم البشر من نور المعرفة وأشعة الهدى الإلهي والحياة في ظل الدين الرباني، ويحبسون في الجهل والشهوة والغرور والطغيان لأنهم يخضعون لولاية الطاغوت.

وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على

الذين يتولونه والذين هم به مشركون} [39] . {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً * إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنّينهم ولآمرنهم فليبتّكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيّرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً * مبيناً يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً} [40] .

{الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [41] .

أسئلة المقال الخامسة

1 ـ ما هو محور البحث في هذه المقالة، وما هو البعد الذي تدور حوله هذه المقالة؟

2 ـ كيف عرض القرآن ولاية غير الله، وبأي اسم سماها؟

3 ـ ما هو الطاغوت، وماذا يعني، وما هو مقامه في العلاقة مع أشراف القوم والملأ والمترفين والأحبار والرهبان؟

4 ـ ما هي العلاقة والنسبة بين الشيطان والطاغوت، وما هي مصاديق الاثنين؟

5 ـ وضح المعنى اللغوي لقوله تعالى {نوله ما تولى}، ثم أوضح المعنى الذي تريد الآية بيانه؟

6 ـ على أي طائفة من الناس يتسلط الشيطان ويتولى؟

7 ـ قارن بين آية 13 من سورة النساء وآية 98 من سورة النحل، واستخرج الإجابة الدقيقة عن السؤال السادس؟

8 ـ بيّن القرآن الحوار بين الشيطان وبين الله سبحانه وتعالى وذكر القرآن تعهدات الشيطان، اذكر مثالاً تاريخياً لكل مورد؟

33 ـ سورة الأنعام، الآيتان: 14-13.

34 ـ سورة النساء، الآية: 76.

35 ـ سورة النساء، الآية: 115.

36 ـ سورة النحل، الآية: 100.

37 ـ سورة النساء، الآية: 105.

38 ـ سورة النساء، الآيات: 116ـ 118.

39 ـ سورة النحل، الآيتان: 99ـ100.

40 ـ سورة النساء، الآيات: 115ـ120.

41 ـ سورة البقرة، الآية: 257.

42 ـ سورة المائدة، الآية: 55.

43 ـ سورة القصص، الآية: 41.

44 ـ سورة إبراهيم، الآية: 28.

المقالة السادسة: العلاقة بين الولاية والهجرة

الأمر الرابع الذي يرتبط بالولاية هو الهجرة، فلو درسنا الولاية بشكل واسع كما فعلنا فيما تقدم فإن الهجرة ترتبط عندئذ بالولاية إرتباطاً قوياً، لأن الولاية عبارة عن الارتباط والعلاقة المحكمة بين أفراد الصف الواحد وقطع كل أنحاء التبعية والارتباط بين الصف المؤمن وبين الصف غير المؤمن، ويترتب على هذا البعد من الولاية إيجاد الارتباط القوي المحكم بين كل أفراد الصف المؤمن وبين النقطة المركزية والقدرة الواحدة التي بيدها إدارة المجتمع الإسلامي أي الإمام والولي والحاكم. وتعرضنا فيما سبق إلى بحث خصائص وصفات الأشخاص الذين يصلحون لإمامة وقيادة المجتمع المسلم، وأخذنا الإجابة من القرآن الكريم {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} [42].

وأشرنا إلى قصة أمير المؤمنين صلوات الله عليه مع السائل، فإذا درسنا الولاية بهذه الشمولية والسعة ولم نحصرها في المسائل الجزئية والفرعية تكون مسألة الهجرة داخلة في صميم بحث الولاية، لأنه مع الرضوخ لولاية الله سبحانه وقبولها لابد من توظيف كل الطاقات والنشاطات الجسدية والفكرية والنفسية في الطريق الذي يرسمه ولي الله، وعلى الإنسان أن يكون عبداً لله بكل جوارحه وجوانحه وعناصر وجوده لا عبداً للطاغوت، ولابد من أن نخرج من تبعات الخضوع لولاية الطاغوت ونحرر أنفسنا منها ونحطم قيود ولايته، وعلينا أن نحيا تحت ظل ولاية الله المباركة، فلو خضعنا في مورد ما لولاية الطاغوت بعد خروجنا على ولاية الله فعلينا الرجوع والإنابة إلى الله سبحانه، فإن هذا هو ميثاقنا وعهدنا مع الله سبحانه أن نخرج من ولاية الطاغوت إلى ولايته سبحانه.

والهجرة: هي الخروج على ولاية الولي والإمام الظالم ثم الانضواء تحت لواء ولاية الإمام العادل. حينئذ تطرح مسألة الهجرة متفرعة على مفهوم الولاية. وقد تقدم الحديث عن الأمور الثلاث المفرعة على الولاية. وهذا هو الأمر الرابع.

لماذا كان من ضروري على الإنسان أن يفر من الولاء للطاغوت؟

والإجابة على هذا التساؤل تأتي بعد الإجابة عن سؤال آخر أريد منكم أن تحللوا مفرداته في أذهانكم حتى تحصلوا على الإجابة المطابقة للأصول والمفاهيم الإسلامية والعقائدية.

والسؤال هو: هل يمكن للإنسان أن يجمع بين الخضوع لولاية الطاغوت وبين كونه مسلماً؟ وهل يمكن لمسلم أن يحيا تحت ظل ولاية الشيطان وهو في نفس الوقت عبدٌ للرحمن؟ وهل ثمة مورد تجتمع فيه حالتان ؛ حالة تأثير الدافع غير الإلهي على كل آفاق الإنسان وشؤون حياته سواء في ذلك شؤون الجسد والفكر والنفس أي حالة الخضوع للدوافع الشيطانية والطاغوتية، وحالة العبودية لله والتدين بالإسلام عقيدة ومبدءً ؛ هل يمكن الجمع بين هاتين الحالتين؟

أنتم الآن تهيئون الإجابة حول هذا السؤال، ولابد من تحليل مفردات هذا السؤال وتفسيرها وتوضيحها، نحن نسأل عن إمكانية الجمع بين الخضوع لولاية الشيطان وبين اختيار الإنسان للإسلام ديناً ومبدءً، وهذا السؤال يتركب من مقطعين وفقرتين، فعلينا أن نحلل هذين المقطعين ونتوصل إلى معناهما.

المقطع الأول: خضوع الإنسان لولاية الطاغوت والشيطان.

ماذا نعني بالولاء للشيطان والطاغوت؟ إذا لاحظنا المعنى الذي استخلصناه من القرآن الكريم لمصطلح الولاية وضممناه إلى فقرة ولاية الشيطان ودرسنا هذه الفقرة على أساس ذلك المصطلح يتضح معنى ولاية الشيطان ؛ فهو: سيطرة الشيطان على كل الطاقات والاستعدادات والإبداعات الإنسانية وتوظيفها في الخط الذي يرسمه الشيطان. ونكرر هنا أن للشيطان معنىً كلي، فسوف يفكر الإنسان في المجالات التي يحددها الشيطان ويرسمها. ويكون حال هذا الإنسان الخاضع لولاية الشيطان كحال من كان في وسط نهر شديد الجريان أو كمن جرفه سيل عرم، فهو لا يحب أن تصيبه الصخور الضخمة الهائلة لتحطم رأسه، ولا يحب أن يجرفه الماء ليلقيه في مستنقع آسن كما لا يحب أن يخنقه الماء وهو في غمرات أمواجه. مع أنه لا يحب كل ذلك فإن الجريان المتدفق الهادر يجرفه من غير اختياره والذي يستطيع أن يفعله هو أن يحرك رجليه ويلصق جسده بهذا الطرف أو ذاك ويتشبث بكل شيء أمامه، ولكن هذا لا يعني شيئاً لمواجهة المياه المتدفقة.

يقول القرآن الكريم {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [43] فهم قادة يقدمون قومهم ومن تولاهم إلى النار والشقاء.

{ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار} [44].

ما هي النعمة التي كفر بها هؤلاء؟ إنها نعمة القدرة وهي مظهر قدرة الله وسلطانه وحاكميته ؛ فالقدرات الدنيوية هي نعمة ربط

إدارة أمور الإنسان وجزئياته بمحور واحد، ونعمة التوظيف السليم والإثارة النافعة للقدرات والاستعدادات والمعارف والطاقات الكثيرة المودعة في الوجود الإنساني. كل هذه نعم وهي رأسمال يدر الخير على البشر، وكل فرد يقع تحت اختيار وهيمنة أولئك الأئمة الذين أشارت إليهم الآية يستطيع أن يكون إنساناً كبيراً ويصل إلى أعلى مدارج الكمال، ولكن هؤلاء كفروا بهذه النعم ولم يصرفوها في طريقها الطبيعي، والقرآن الكريم يقول: {وأحلوا قومهم دار البوار}، فهم ومن تولاهم في دار العدم والفناء والهلاك {جهنم يصلونها وبئس القرار}.

وقد قرأ الإمام موسى بن جعفر (ع) هذه الآية على مسامع هارون الرشيد وأفهمه بأنه من هؤلاء الأئمة الذين يقودون قومهم ومن تولاهم إلى النار وبئس القرار، عندما سأله هارون هل نحن من الكفار يريد بذلك أن يقول نحن نعتقد بالله ونبيه ودينه، فقرأ عليه الإمام هذه الآية وأفهمه أن الكافر ليس هو من يقول بكل صراحة وعن يقين وقطع أنه لا وجود الله، والقرآن كذب وباطل، والنبي خرافة، فهذا كفر وهو أهون أقسام الكفر، لأن صاحبه يصرح بعقيدته بصورة كاملة، وعندئذ يعرفه الناس، ويحددون موقفهم منه.

ولكن أسوأ الكفار من يكفر بتلك النعم العظيمة المودعة لديه والتي وضعت تحت اختياره وتصرفه، فهو يصرفها ويوظفها في منهج غير صحيح، ولا يقود نفسه فقط نحو النار بل يقدم قومه إليها أيضاً، يقود قومه ومن تولاه نحو جهنم. هذه هي ولاية الطاغوت والذي يعيش في ظل ولايته كأنه فاقد لإرادته وحريته، ولا أقول ليس له إرادة أو اختيار بصورة مطلقة، وبعد أن طرحنا وحللنا معنى الآية يتضح لنا هذا الأمر وهو في وسط السيل العرم يتحرك معه وفي غمراته ولن يستطيع أن يضرب بيديه ورجليه، وهو يريد أن ينحرف عن طريق جهنم لكنه لا يستطيع وهو يرى أن كل أفراد جماعته يتحركون نحو جنهم وهم يدفعونه معهم.. هل ذهبتم إلى الأماكن المزدحمة والمكتظة بالناس كبعض الأسواق والطرق؟ فأنت ترغب أن تسير في هذه الجهة لكن الحشود تدفعك من غير أن تستطيع المقاومة إلى الجهة المقابلة، والذي يخضع لولاية الطاغوت يُحب أن يكون صالحاً حسن الفعال والأخلاق ويحب أن يحيا حياة المسلمين الصالحة، حياة الإنسان الفاضل ويحب أن يحيا مسلماً ويموت مسلماً، لكنه لا يستطيع.

فإن السيل المتدفق لحركة المجتمع يجرفه بشكل لا يترك له أي قدرة على تحريك يديه ورجليه، وإذا استطاع أن يضرب بهما الأرض فلن يحصل على أكثر من هدر طاقة من طاقاته، ليس فقط لا يستطيع ضرب الأرض بيديه ورجليه وإنما الأسوأ من ذلك أنه أحياناً لا يستطيع أن يفهم ما يجري. لا أعلم هل قُدّر لكم أن تشاهدوا الأسماك التي تقع في شباك الصيادين في البحار؟ إذ يحدث أحياناً أن تقع آلاف الأسماك في شبكة واحدة ويبدأ الصيادون بسحبها من وسط البحر إلى الساحل، ولكن من غير أن تحس أي سمكة بما يجري والى أي اتجاه تتحرك بل انها تحس أنها تتحرك باختيارها نحو مقصد معين، ولكن الواقع أنها تتحرك من غير اختيارها فإن مقصدها هو المقصد الذي حدده الصياد صاحب الشبكة، وكذلك تفعل شبكة النظام الجاهلي غير المرئية، فهي تسحب الإنسان إلى جهة تحددها هي.

ويحب الإنسان أن يتحرك نحو دار السعادة والفلاح وهو غافل عن أنه يتحرك نحو جهنم {جهنم يصلونها وبئس القرار}. هذه هي ولاية الطاغوت وولاية الشيطان والتي تشكل الفقرة الأولى من سؤالنا المتقدم عن إمكانية أن يحيا المسلم تحت ظل ولاية الطاغوت ويخضع له محافظاً على إسلامه.

وهكذا عرفنا بشكل إجمالي ماذا تعني الحياة تحت ظل الولاء للطاغوت، وإذا أردتم تفسير ذلك تستطيعون الرجوع إلى التاريخ لتروا أن العالم الإسلامي في عصر بني أمية وبني العباس قد شهد حركة قوية، فإن الموج المتلاطم من المعلومات والمعرفة في ذلك العصر كان قد شمل المجتمع الإسلامي، وكم قد ظهر من الأطباء البارعين الكبار ومن المترجمين الأذكياء الذين قاموا بترجمة الآثار المهمة للثقافات القديمة إلى اللغة العربية في وقت لم يشهد أي تطور لغوي أو معرفة باللغات المختلفة.

لقد كانت عظمة المسلمين واضحة في مجالات علم الطب والنجوم والفنون الجميلة وغير ذلك، وقد اعترف غوستاف لوبون الفرنسي وغيره من الباحثين والمستشرقين عند ملاحظتهم هذه الظواهر البارزة في حياة المسلمين في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، اعترفوا أن هذه العصور هي العصور الذهبية للحضارة الإسلامية.

وقد كتب غوستاف لوبون كتاباً عن ذلك بعنوان (تاريخ التمدن الإسلامي في القرن الرابع الهجري) .

وبصورة عامة نقول أن المستشرق الأوربي عندما يطالع مسيرة تلك القرون الثلاثة يصاب بالذهول والدهشة ذلك لأن الطاقات والنشاطات الفعالة قد برزت في تلك الفترة، ولكني أوجه إليكم هذا السؤال: هل كانت هذه النشاطات الفعالة في صالح المجتمع الإسلامي وفي نفع الإنسانية؟ وقد مرّ على تلك الفترة عشرة قرون، وليس لنا أي نظرة متعصبة تجاه تلك القرون، ونستطيع أن نقول للعالم غير الإسلامي أن العالم الإسلامي هو الذي أنشأ الجامعات وأوجد الدراسات الفلسفية، وهو الذي برع في مجالات الطب والدراسات الطبيعية، ولكن حين ننظر إلى المسألة فيما بيننا نظرة موضوعية محايدة، هل نستطيع أن نقول ان تلك الطاقات قد وظفت في موقعها المناسب ومن أجل الإنسانية وفي صالح المجتمع الإسلامي؟

ما الذي يملكه المجتمع الإسلامي بعد عشرة قرون من ذلك التراث؟

ولماذا لا يملك منه شيئاً؟ لماذا لم تبق لنا كل تلك الثروات العلمية والثقافية؟ ولماذا لا يضيء مجتمعنا الإسلامي من بين

المجتمعات وهو الذي كان يشع ضياءً قبل عشرة قرون؟ هل أن ذلك يعود إلى حاكمية الطاغوت على تلك الأنشطة والفعاليات الكبيرة؟

نعم، إن قادة السوء هم الذين كانوا يلعبون بمقدرات المجتمع الإسلامي من أجل أن ترفع اسمها عالياً ؛ مثلاً في زمان أحد الخلفاء العباسيين برزت ظاهرة الترجمة، وعوضاً عن هذه الفعاليات في مجالات الطبيعة والرياضيات والنجوم والأدب والفقه لو كانوا قد مهدوا لمجيء الحكومة الإسلامية بقيادة أئمة أهل البيت ؛ فلو كان القائد أو الحاكم هو الإمام الصادق (ع) وكانت القوى والطاقات الإنسانية تحت تصرفه فسوف تكون قيادته في صالح الإنسانية وسبباً إلى نضجها، حتى لو فرضنا المحال وقلنا أن الإمام الصادق لا يوظف تلك الطاقات في المجالات العلمية والأدبية والتي هي موضع فخر واعتزاز للعالم المعاصر، وحتى لو تأخرت البشرية في تلك المجالات مائة عام. نعم ستكون النتيجة في صالح البشرية وسوف تتفتح أزاهير الإسلام وتصرف الطاقات والاستعدادات في سبيلها الصحيح، ولا يقتصر الأمر على ترجمة الكتب والتقدم العلمي والبراعة في الطب من غير أن ينمو الجانب الخلقي والاجتماعي، مما يؤدي ـ وقد أدى فعلاً ـ إلى ظهور الطبقية بشكل عنيف.

ويعد الاختلاف الطبقي المتفشي في ذلك العصر من أساطير التاريخ، تماماً كالتمدن القذر والهابط الذي يسود عصرنا اليوم ؛ فإن القوى العالمية العظمى تسود في العالم اليوم لأنها وصلت إلى مستوى علمي رفيع بسبب الاكتشافات والاختراعات المدهشة، فهم بين فترة وأخرى يعلنون عن اكتشافات واختراعات جديدة في مجالات الطب والتكنولوجيا وغيرها ولكنهم في الجوانب الإنسانية والأخلاقية لا زالوا في المراحل التاريخية السائدة قبل آلاف السنين. ولا زال إلى جنب الثراء العظيم، المجاعات وحالات الفقر الاسطورية، وهؤلاء يتباهون بالتقدم العلمي.

هذه صورة مطابقة لما كان عليه الوضع في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، وهذا ما حدث في التمدن الإسلامي العظيم في تلك القرون، فهناك تقدم علمي هائل لكن الحياة مترفة لاهية عابثة وفارغة عن الفضيلة. وهناك أسماء نذكرها بكل فخر واعتزاز ضمن قائمة المناهضين بشدة لتلك المدينة الخاوية، كالمعلى بن خنيس فقد صلب في السوق، وكذلك يحيى بن أم طويل الذي قطعت يده ورجله ولسانه، ومحمد بن أبي عمير الذي ضرب أربعمائة جلدة، وكذلك يحيى بن زيد الذي قتل في سن الثامنة عشر في جبال خراسان، وزيد بن علي الذي ظلت جثته معلقة على الخشبة التي صُلب عليها مدة أربع سنوات.

هؤلاء رجال يفتخر بهم العالم، ولم يكن لهؤلاء أي علاقة إيجابية مع التمدن الهائل الوضاء الذي يشير إليه غوستاف لوبون ويكتب عنه، بل كانت لهم علاقة سلبية مع ذلك التمدن وكانت لهم معه مواجهة مسلحة. لهذا ندرك أن ولاية الطاغوت والشيطان على المجتمع توظف الطاقات الاجتماعية الخاضعة لها بالشكل الذي نشاهده في المدنية الحديثة وشاهدناه قبل عشر قرون في العالم الإسلامي، وأما الشكل الذي ينسجم مع القيم الأصيلة والمعايير المنطقية فليس له أي قيمة في السوق السوداء.

هذه هي ولاية الطاغوت، فهل يمكن أن يحافظ المسلم على إسلامه مع اندماجه بها وعيشه في كنفها وتقلبه في أوضاعها وأخلاقها؟! ونحن نسأل عن معنى أن يعيش الإنسان مسلماً إن هذا يعني وضع كل الطاقات والإمكانات والفنون والقدرات والقابليات تحت إرادة الله سبحانه، فالمال والنفس والمعرفة والفكر وكل ما نملك تحت إرادة الله، ولدينا نموذجان لما عرضناه، نموذج يعود إلى المجتمع والحياة الاجتماعية المتمدنة، ونموذج يرجع إلى المجموعات الخارجة على الأنظمة التي يحكمها الطاغوت والمهاجرة إلى الله.

النموذج الأول: مجتمع المدينة في زمن الرسول (ص) الذي كان خاضعاً لله سبحانه ؛ فكل حركة يتحركها لله، وكل خطوة يخطوها في سبيل الله، وكان اليهود والنصارى يعيشون في كنف الولاية الإسلامية، ومع أنهم لم يسلموا لكنهم يحيون الحياة الإسلامية لأن هؤلاء يعيشون في ذمة الإسلام ؛ ومعنى ذلك أنهم يتحركون من ناحية عملية في الطريق الإسلامي ؛ فاليهودي الذي لم يسلم عندما يعيش ضمن الولاء للإسلام قد يكون أكثر نفعاً للإسلام من المسلم الذي يخضع للنظام الجاهلي. كانت الأموال والثورة تنفق في سبيل الله في زمن الرسول وكذا السيف والسلاح والفكر والمعرفة، وكل ما يصدر من فعل من المسلمين فهو لله وفي سبيله، والعواطف والأحاسيس والبغض كانت لله وفي الله. وفي زمان أمير المؤمنين (ع) كان الوضع بهذا الشكل تقريباً حيث أن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) لا يختلف عن النبي (ص) بلحاظ كونه حاكماً ووليا لكنه كان قد ورث مجتمعاً ضعيفاً سئ الأوضاع كثير النواقص، ولو كان النبي (ص) نفسه مكان أمير المؤمنين فإنه سيواجه نفس المشكلات الاجتماعية التي واجهها أمير المؤمنين.

والنموذج الثاني: هو نموذج المجموعات الشيعية المرتبطة بالأئمة على مر التاريخ، ونحن نأسف لانتهاء شهر رمضان ولم نبحث بعد تفاصيل مسألة الإمامة، فإن المفروض أن أبحث مسألة الإمامة بعد مسألة الولاية لأبين لكم هناك أن الشيعة في زمان الأئمة كانوا كياناً واحداً منسجماً ومتفاعلاً، وأبرز لكم نوع ومناشئ العلاقات بين الإمام وبين الشيعة والعلاقة بين الشيعة وبين المجتمع آنذاك.

وأنا مضطر لعرض المسألة بشكل إجمالي. كان ظاهر الشيعة أنهم يعيشون في كنف النظام الذي يحكمه الطاغوت، ولكنهم في

الواقع كانوا يتحركون ضد هذا النظام تماماً. وكمثال لذلك نذكر تلك المجموعة المحدودة العدد التي خرجت مع الحسين بن علي (صلوات الله وسلامه عليه) ؛ فهؤلاء شقوا السيل العارم وساروا خلافاً للجهة التي يدفعهم السيل للسير فيها، وهذا أحد النماذج التاريخية للهجرة ولحركة المجموعات المجاهدة.

نريد أن نقول أن الفرد العادي وبصورة كلية الفرد أياً كان، لا يستطيع أن يعيش في ظل مجتمع يحكمه الطاغوت وهو مع ذلك يحافظ على إسلامه بأن يكون وجوده وإمكاناته وطاقاته وكل قواه تحت إرادة الله وحاكميته ورسالته، فالمسلم الذي يعيش في محيط وبيئة يتسلط عليها الطاغوت سوف يصرف شيئاً من طاقاته في طريق الطاغوت ولا يمكنه أن يكون عبداً خالصاً مخلصاً لله بصورة كاملة. وفي كتاب الكافي ـ وهو من أهم المصادر الموثوقة والقديمة للشيعة ـ ورد حديث بعبارات متعددة أقرأ عليكم إحدى هذه العبارات ويمكنكم الرجوع إلى الكتاب [45] . قال الإمام الصادق (ع) :

"إن الله لا يستحي أن يعذب أمة دانت بإمام ليس من الله وإن كانت في أعمالها برة تقية، وإنّ الله ليستحي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة".

وهذا الحديث يثير العجب والدهشة ؛ فهو يؤكد أن المجتمع الذي يعيش حالة الولاء لله مجتمع صالح ومؤهل للنجاة وإن كان يرتكب بعض المعاصي في جزئيات سلوكه أحياناً، وأما أولئك الذين يعيشون تحت ولاية الشيطان والطاغوت فهم من أهل العذاب وإن كانت جزئيات سلوكهم وأعمالهم صالحة وحسنة.

وأنا أشبّه مفاد هذا الحديث بمن يصعد في سيارة قاصداً نيشابور ؛ فإذا تحركت نحو هذه المدينة فهو سيصل حتماً إلى هدفه، بخلاف ما إذا تحركت نحو طبس أو قوجان فمن المسلّم به أنه لن يصل إلى هدفه. ولنفترض أنها تحركت نحو نيشابور وهي الهدف المقصود فسوف يصل المسافرون إلى هدفهم على كلتا حالتين: حالة ظهور الآداب والأخلاق الحسنة بين المسافرين وهي الحالة الفضلى، وحالة سوء الخلق. والسيارة سوف تصل الهدف وإن كان قد حدث ما لا ينبغي حدوثه أثناء المسير، وطبيعي أن للخلق السئ دوافع وله آثار ونتائج ولكن على المسافرين أن يتحملوا كل هذا للوصول إلى هدفهم، خلافاً لحركة تلك السيارة التي ينبغي أن توصلك إلى نيشابور لكنها اتجهت نحو مسير آخر فلن تصل هذه السيارة بمسافريها إلى هدفهم وإن كانت الأخلاقية العالية تسودهم، لأن طلاقة الوجه والابتسامة والتعامل الأدبي الرزين والاحترام الوافر لن يغير من اتجاه حركة السيارة، إنما الذي يغير مسيرها ووجهتها هو قيام هؤلاء بوجه قائدها، فهؤلاء مؤدبون رحماء فيما بينهم لكنهم لن يصلوا إلى الهدف. في المثال الأول كان القائد أميناً مخلصاً إماماً من الله، لهذا فهو يوصلهم إلى أهدافهم وإن كانت بعض أعمالهم سيئة، وامام المجموعة الثانية لا يهتدي إلى طريق وليس خبيراً بمسيره وعابد لهواه ورأيه قد ضيع الطريق لعدم وعيه قدم هدفه على أهداف الآخرين، ولهذا فأتباعه لن يصلوا إلى هدفهم وإن كانوا فيما بينهم رحماء مؤدبون، وإن كانت في أعمالها برة تقية، فهم في النتيجة معذبون ولن يصلوا إلى الهدف الذي خلقوا من أجله. وعلى كل حال، فإن المجتمع الذي تحكمه ولاية الطاغوت كالسيارة التي يقودها سائق غير أمين، لن يصل هذا المجتمع إلى هدفه، لهذا لن يكون المجتمع مسلماً خالص الإسلام وهو يعيش في كنف ولاية الطاغوت، ولهذا يرد هذا التساؤل: ما الذي يلزم المسلمين فعله في مثل هذا الوضع؟

وتجيب الآية القرآنية:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا}.

والآن أحلل أجزاء هذه الآية:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ومستقبلهم وكل طاقاتهم تخاطبهم الملائكة كما يخاطب الطبيب أو الجراح مريضه الذي لا أمل في شفائه: أين كنت وفي أي وضع أنت، مما يدل على أن الوضع الذي وصلوا إليه سئ غاية في السوء. وأنا أشعر أن الملائكة عجبوا من الوضع الهابط الذي وصل إليه هؤلاء ومن حالتهم النفسية المنهارة ومن العذاب الذي ينتظرهم، ولهذا قالوا لهم أين كنتم تعيشون وأي ظلم ألحقتموه بأنفسكم في دنياكم؟! قالوا كنا مستضعفين في الأرض لا نملك إرادتنا. والمستضعفون في المجتمع هم الذين سحقت إرادتهم وشلت فليس لهم إرادة في الخط الاجتماعي المرسوم ولا في المسير في هذا الخط ولا في الوقوف فيه ولا في تصحيح مسارهم، وليس لهم اختيار في أفعالهم فهم يسيرون وفق الخط الذي يرسمه واضعوه ومن غير معرفة بالوجهة التي يتحركون نحوها.

افرضوا طفلاً صغيراً من طلاب المدرسة الابتدائية وليس له من العمر سبع سنوات، فإن عيون أبناء السبع هذه الأيام وآذانهم واعية تتلقى بصورة جيدة ولا يضلون الطريق، بل افرضوه ابن الأربع أو الخمس سنوات كالطفل الذي كان يوضع في الكتاتيب ليتعلم قراءة القرآن. ولا زلت أتذكر أنه عندما نخرج من المكتب على شكل مجموعة لم نكن نعلم أو نفهم إلى أين نذهب، ولكن ثمة مراقب معنا أكبر منّا سناً ويحمل بيده العصا هو الذي يحدد لنا الطريق، فيقول: سيروا في هذا الاتجاه أو ذاك، ونحن لا نعلم إلى أين ينتهي سيرنا، ولكن بعد ذلك نجد أنفسنا في بيوتنا بشكل يشبه المفاجأة. لو أراد المراقب أن يطوف بأولئك الصغار في

الشوارع، فلا أحد منهم يشعر بما يجري، وسيكون له ما يريد.
ومستضعفو الأرض هم أولئك الذي ليس لهم أي تأثير أو رأي في التيارات الاجتماعية وفي المناهج التي تسيّرها، كما أنهم لا يملكون إرادة في حركتهم الاجتماعية، لا يعلمون ماذا يجري، ولماذا يجري، وأين يجري، لا يعلمون أين هم والى أين يسيرون، لا يعلمون نقطة الشروع في حركتهم ولا نقطة الانتهاء، ولا يعرفون من هو الذي يقودهم في هذا التحرك ولا يعرفون كيف يقفون، ولو توقفوا فهم لا يعلمون ماذا يفعلون بعد هذا التوقف، لا يعرفون هذا أساساً ولا يلتفتون إليه ولا يثير انتباههم..
ومن غير أن نشبههم تشبيهاً حقيقياً، نقول أنهم كالحصان الذي شدت عيناه فهو يحسب أنه يمشي في طريق طويل بينما هو يدور ويدور حول نقطة معينة، فلو قدر لهذا الحيوان أن يفهم لأوحى لنفسه أنه قريب من باريس، ولكن عندما يقرب وقت الغروب تفتح العصابة من عينيه ليرى نفسه في ذات المكان الذي كان فيه أول الصبح، فهو لا يدري أين ذهب، ولا يعلم إلى أين يتحرك.
وطبيعي أن هذا مثال للمجتمع الذي لا يحكمه نظام عادل، بل يديره نظام لا يؤمن بأي قيمة للإنسان وإرادته وكرامته. لا يأتي هذا الكلام في مجتمع يقوده النبي (ص) حيث يخاطبه القرآن {وشاورهم في الأمر}، فمع أنه نبي ومعصوم لا يحتاج إلى مشورة الناس يأتيه الأمر بأن يشاور المسلمين ليشعرهم بعزتهم وكرامتهم وقيمتهم وشخصيتهم، مثل هذا المجتمع ليس فيه من لا يعي ولا يفهم ما يجري خلافاً للمجتمعات التي يتسلط فيها نظام فردي أو نظام استبدادي ظالم أو نظام جاهلي فإن أكثر أفرادها مستضعفون، وهؤلاء يقولون كنا مستضعفين في الأرض، ثقاداً ولا ندري إلى أين، كانوا يأخذوننا هنا وهناك، لقد جعلونا نرتكب السوء ونفعل القبيح ونحن لا نعلم. هذا هو تبرير المستضعفين، لكن الملائكة يجيبون {قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} هل ضاقت الأرض عليكم فليس فيها مساحة تسعكم غير البقعة التي كنتم فيها؟! وهل كان كل الناس يسكنون في تلك النقطة التي كنتم تستضعفون فيها؟! ألم تكن أرض الله واسعة حتى تخرجوا من ذلك السجن أحراراً طليقين؟! ألم تكن في هذه الارض الفسيحة نقطة حرة من سلطة الجبارين تذهبون إليها لتعبدوا الله فيها وتصرفوا طاقاتكم بالطريقة الصحيحة وفي المسير الصحيح؟! ألم تكن ثمة نقطة لا يسودها الاستضعاف في كل أنحاء الأرض الواسعة؟! وإجابة الملائكة هذه تنسجم تماماً مع المنطق العقلاني المقبول، وهذا ما يدركه عقل الإنسان، ومن الطبيعي أنه ليس لأولئك إجابة مقبولة، ولهذا يعقب القرآن {فأولئك مأواهم جهنم} بما وهبوا للطاغوت من الطاقات {وساءت مصيرا}. وهناك استثناء من إطلاق الأمر بالهجرة وعمومه حيث لا يمكن للجميع أن يهاجروا وينقذوا أنفسهم من قيود النظام الجاهلي، فهناك العاجزون والطاعنون في السن والأطفال والنساء اللواتي لا يمكنهن القيام بهذا العمل، ولهذا فهذه الطوائف مستثناة.
{إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا} ولا يعرفون نقطة مضيئة يحكمها الإسلام وتسودها عبودية الله {فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم}. لاحظوا جملة التمني وأداتها "عسى" {وكان الله عفواً غفوراً}.
وبعد أن ألقيت الحجة على المستضعفين بوجوب الهجرة، يدفع القرآن تصور من يتخيل أن الهجرة تسبب الشقاء والحرمان والضرر، ويتسائل في كل حين عن عواقب الهجرة وعن إمكان هذه الهجرة، وعن احتمال وجود منطقة لا يحكمها الطاغوت. من أجل دفع كل هذه التخيلات والتصورات، يقول القرآن الكريم:
{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}. انظروا كيف يحلق الإنسان في آفاق الأرض وكيف يطوي من مساحات وكيف تنفتح أمامه الآفاق، ونفس هذا الإنسان كان يطمح تحت حاكمية النظام الجاهلي إذا اراد أن يطمع بفكره نحو أعلى وأوسع الآفاق فهو يفكر في سطح السقف الذي يظله، سطح القفص الذي سجنه وحبسه، أما الآن فإن الآفاق الوسيعة الشاسعة منفتحة أمام ناظريه.
ويوم كان المسلم يعيش في مكة في أيام الإسلام الأولى كان أقصى ما يطمح إليه وأوسع الآفاق التي يحلم بها أن يدخل المسجد الحرام ويصلي فيه ركعيتن وهو يواجه حدة قريش وشدتها، وما أن ينتهي من صلاته حتى يتلقى الضربات والصفعات..
أما بعد الهجرة إلى الأفق الوسيع والأرض غير المستضعفة، إلى المجتمع الإسلامي الذي يعيش الولاء لله ورسوله فسيرى المهاجر عجباً ؛ فالمسلمون {يسارعون في الخيرات}، والآية تحدد ميزان التفاضل بين أفراد المجتمع الإسلامي ؛ فالذي يتحرك في سبيل الله أكثر ويتعبد له ويكدح في سبيله ويجاهد لإعلاء كلمته وينفق على عباده في سبيله هو الأكثر عزة وفضلاً وإيماناً، وفي مجتمع الأمس في مكة كان جزاء إنفاق درهم واحد في سبيل الله، الكي بالنار والتعذيب بالإحراق، ولكن المسلم يجد مراغماً كثيراً وفرصاً عظيمة للعمل الصالح وآفاقاً واسعة يحلق فيها بعد الهجرة في سبيل الله وإليه والوصول إلى المدينة المنورة.
{ومن يهاجر في سبيل الله} ويتوجه نحو المجتمع الإسلامي {يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}، ومن يخرج مهاجراً من دار الكفر إلى دار الإسلام متخذاً سبيل الله سبيلاً ومنهجه منهجاً ويمت وهو في دار الهجرة، فماذا يكون مصيره؟
والإجابة القرآنية أن أجره على الله لأنه أدى وظيفته ووفى، حيث كانت الحركة والهجرة مسؤوليته وقد أداها، وقدم ما في وسعه من جهد، وهذا ما يريده الإسلام، أن يتحرك الإنسان الله وفي سبيله بمقدار استطاعته وقدرته. {ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً}.

وهذا المبحث لم يتم بعد وبقي على النصف، وهذه المقالة هي آخر بحث الولاية، ولكننا نشير إلى هذه الملاحظة وهي أنه في حالة عدم وجود دار للهجرة، فماذا يعمل الإنسان تجاه مسؤوليته بالانتقال من دار الكفر، والهجرة عن ولاية الطاغوت والشيطان إلى دار ولاية الله والنبي والإمام أو الولي الإلهي؟
وثمة احتمالات: أن يبقى في دار الكفر، أو أن يكفر في تأسيس وبناء دار للهجرة.
وهناك هجرات يبتدأها بعض الناس وتكون نقطة انطلاق لهجرات موسعة، وتصير أساساً لبناء المجتمع الإسلامي، وعندها تبنى دار الهجرة وتبدأ أفواج المؤمنين بالمهاجرة إليها. هذا ما يعود إلى بحث الهجرة.

خلاصة المقالة السادسة
ولاية الطاغوت والشيطان في النظام الجاهلي والطاغوتي تربط المؤمن وتقيده بآلاف القيود والعلاقات بمركز القدرة الطاغوتية وتحاصره في شبكة النظام الجاهلي غير المرئية، فتسلبه حريته وتدفعه من غير اختياره نحو النهاية التي تنتظر ذلك النظام وتمنعه من توظيف طاقاته في سبيل الله، وعلى ضوء المنهج الذي رسمه الإسلام وهذا الواقع الذي لا يقبل التخلف أو الاستثناء يطرح أمامنا مسألة الهجرة. والهجرة هي الفرار من قيود النظام الجاهلي والوصول إلى المحيط الإسلامي الحر الطليق، حيث تقترب كل الدوافع الإنسانية من الأهداف التي يحبها الله، وحيث تسير الحركة الطبيعية للمجتمع نحو التكامل والسمو الفكري والروحي والمادي.
وهناك حيث تنفتح الطرق المشرقة الصالحة، وتنغلق أبواب الشر والسوء، هناك حيث المجتمع الإسلامي، إذن يترتب على أصل الولاية وجوب الهجرة، وتكون الهجرة من المسؤوليات الفورية والضرورية للمؤمنين، وعندها يضع المؤمنون خطاهم في أرض تحكمها ولاية الله.
{ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء} في الكفر{فلا تتخذوا منهم أولياء}
{حتى يهاجروا في سبيل الله} فيخرجون من مساندة الشرك والطاغوت {فإن تولوا} بقوا على تلك المساندة {فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم}
{ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً} [46].
{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله}
{والذين آووا ونصروا}
{أولئك بعضهم أولياء بعض} تسودهم المحبة والتعاون
{والذين آمنوا ولم يهاجروا}
{ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا}
{وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} لأنهم تحركوا من أجل دينكم
{إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق}
{والله بما تعملون بصير}
{والذين كفروا بعضهم أولياء بعض}
{ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}
{والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله}
{والذين آووا ونصروا}
{أولئك هم المؤمنون حقاً}
{لهم مغفرة ورزق كريم} [47].
{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}
{قالوا فيم كنتم}
{قالوا كنا مستضعفين في الأرض}
{قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها}
{فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً} لأنهم ذلوا أنفسهم وفقدوا عزتهم ولم يهاجروا
{إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان}
{لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً}
{فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم}

{وكان الله عفواً غفوراً}
{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة}
{ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله}
{ثم يدركه الموت}
{فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً} [48].

أسئلة المقالة السادسة

1 ـ ماذا تعني الهجرة، وأي علاقة لها ببحثنا، وبأي مسألة ترتبط؟
2 ـ لماذا يلزم الإنسان بالفرار من الطاغوت والشيطان؟
3 ـ هل يمكن أن يعيش المسلم محافظاً على إسلامه في كنف الطاغوت؟
4 ـ ما هي أهم المميزات البارزة لولاية الله، وما الذي تمنحه للمجتمع؟
5 ـ هل تكمن سمة الولاية الإلهية في تحريك الفرد والمجتمع وتوجيه طاقاتهما في المنهج الإسلامي؟
6 ـ من هم المستضعفون؟
7 ـ هل أن الهجرة ضرورية مع وجود دار للهجرة وأخرى للإيمان، وهل أن المؤمنين مكلفون بإيجاد دار للإيمان لو لم تكن ثمة دار للإيمان؟
8 ـ احفظ الآيات 97 ـ 100 من سورة النساء، واشرح خلاصة المقالة السادسة على هدي هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

---

42 ـ سورة المائدة، الآية: 55.
43 ـ سورة القصص، الآية: 41.
44 ـ سورة إبراهيم، الآية: 28.
45 ـ أصول الكافي ج 1 ، ص 36. كتاب الحجة، باب من دان الله عز وجل بغير إمام من الله جل جلاله.
46 ـ سورة النساء، الآيتان: 88 ـ 89.
47 ـ سورة الأنفال، الآيات: 72 ـ 74.
48 ـ سورة النساء، الآيتان: 99 ـ 100.

المواعظ الحسنة

(ثماني مواعظ لطيفة في السلوك المعنوي للإمام الخامنئي دام ظله)

تمهيد

إن الذي قصم ظهر المجتمعات البشرية البالغة التمدن والتطور، والتي سخّرت كل ما في الطبيعة لخدمتها ورفاهيتها، هو فراغها من القيم الأخلاقية. لقد حققت هذه المجتمعات جميع متطلبات الحياة المادية ــ وبمختلف كمالياتها ــ حتى بلغت حدّ الرفاهية، ولكنها رغم ذلك لم تكتف ولم تحصل على مطلوبها. وإنسان المجتمع المادي يعترف بذل صراحة. ففي الوقت الذي كانت تتراوح ساعات العمل فيه ما بين أربع عشرة إلى ستة عشرة ساعة من العمل الشاق يومياً باتت اليوم تتراوح ما بين خمس إلى ست ساعات، الأمر الذي سمح بازدياد أوقات الفراغ إلى 18ــ19 ساعة يومياً مع إمكانية ملئها بكافة وسائل الراحة والترفيه المتطورة جداً، بفضل التطور الصناعي والتكنولوجي، وبالرغم من كل ذلك فإن الإحساس بلذّة العيش لا زال يتضاءل يوماً بعد يوم.
وتأتي الإحصاءات لتكشف الواقع المرير الذي تعيشه المجتمعات "الراقية". فكثرة جرائم القتل وحالات العنف، وارتفاع نسبة الانتحار وتزايدها. وتفكك العائلة ــ النواة الأساسية في المجتمع البشري ــ وتمزقها، مضافاً إلى الاضطرابات النفسية وتزايد عدد مراكز العلاج النفسي، وفقدان حالة الأمن والاستقرار الاجتماعي، كل ذلك يدلّل بوضوح على ما نقول.
لقد انحصر كل ما يسعى إليه إنسان اليوم في تسخير الطبيعة لإشباع رغباته وغرائزه، وأهملت المعنويات والحاجات الروحية. لكننا بحمد الله وببركة الإمام الراحل (قده) ازددنا توجهاً واهتماماً بالجانب الفطري المعنوي وبتنا ندرك أصالة هذا التوجه وأولويته. والقيادة الواعية في يومنا هذا تؤكد دائماً على أهمية ضرورة ملء الفراغ الروحي لدى كافة فئات المجتمع وطبقاته، وهي تنتهز كل الفرص لأجل أداء هذه المهمة العظيمة.
الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو بعضٌ من بيانات السيد القائد (دام ظله) والتي كان قد وجهها لمجموعة من الأخوة المجاهدين بلسان الناصح المشفق تماماً كما كانت نصائح الإمام الراحل (قده) من قبل، نضعها بين أيديكم وكلنا أمل أن نخطو باتباعها نحو بناء الذات وتزكية النفس بإذن الله تعالى.
ويمثل الكتاب الذي نقدمه لقرائنا الأعزاء مجموعة دروس ألقاها سماحة الإمام القائد على مسمع مجموعة من الأخوة المجاهدين العاملين في قسم الحراسات.
وهذه الدروس عبارة عن سلسلة من المواعظ الأخلاقية اللطيفة التي تحاكي الروح بكل سلاسة وبساطة. وأهميتها تكمن في أنها صادرة عن المربي الأول في الأمة الإسلامية. فكل موعظة فيها تمثل برنامجاً عملياً لتهذيب النفس وتنبيه الغافلين .
لأجل المزيد من الفائدة قام مركز بقية الله الأعظم (ع) بعد ترجمة هذه الدروس بإضافة هوامش، كل واحدٍ منها يتضمن مجموعة من الأحاديث المتعلقة بالدرس.
نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتمسكين بولاية الفقيه العادل الجامع للشرائط.

والحمد لله رب العالمين

1ـ البكاء على النفس

من الأمور التي حثّ عليها شرع الإسلام المقدس أن يبكي الإنسان على نفسه. ولاشك أننا سنبكي جميعاً على أنفسنا فيما لو أدركنا واقعنا. فنحن في الحقيقة في غفلة عن حالنا.
لقد خلق الله الإنسان لأجل هدف محدد، وهو يتحمل المسؤولية، وعليه أن لا يقضي حياته وعمره في غفلة عن ذلك الهدف وتلك المسؤولية.
إن ما تسمعونه من أن أئمتنا الأطهار (ع) كانوا يبكون، مع أنهم أهل الصلاة والعبادة، وأهل العرفان والبصيرة، ولم يكن يخفى عليهم شيء من المعارف الإلهية، إنما كان بسبب عرفانهم وإدراكهم للواقع.
أئمتنا (ع) ــ مع ما هم عليه ــ يبكون! فمن أجل أي شيء، ولماذا؟ وبالطبع، إن عدم البكاء يعدّ تقصيراً عند من وصل إلى تلك المقامات. أما بالنسبة لنا، فالأمر ليس كذلك. نحن ننشغل في تأمين مستلزمات الحياة من طعام وشراب وترفيه وغيرها، ومع أن طلب هذه المباحات لا إشكال فيه، وقد يصبح مرجحاً في بعض الحالات بالنسبة لأمثالنا، إلا أن من وصل إلى تلك المقامات من القرب الإلهي سيكون صعباً عليه جداً أن يصرف لحظة واحدة من حياته في غفلة، حتى ولو كانت لتأمين متطلبات الحياة الضرورية. وهو لأجل ذلك يبكي : يبكي لأجل تلك اللحظة. أنا وأنتم ــ طبعاً ــ لا ندرك حقيقة هذا البكاء، ولذلك نتعجب كيف تكون لحظة واحدة من الغفلة سبباً لكل هذا البكاء!!.. أجل، فهم يرون ما وراء الحجاب، أما نحن فمحجوبون عن الرؤية..
يوم الحسرة والندامة
يقول الله تعالى في إشارة إلى يوم القيام: {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر}... إن كل لحظة واقعية، والتي قد تكون أقل من ثانية واحدة، تصنع لكم الدرجات العليا في الآخرة، ولكنكم يوم القيامة سترون كيف أن آلاف ملايين اللحظات قد ضاعت في الدنيا مقابل لا شيء، أفلا يورث هذا الأمر ندماً؟!
يوم الحسرة هو هذا ؛ حيث ترون أن قسماً من لحظات عمركم قد صُرفت في مسيرة البعد عن الهدف والبعد عن الله تعالى.
ولهذا، فإن البكاء على النفس من خير الأعمال. بكاء الإنسان على العاقبة بعد الموت ويوم القيامة، هذا اليوم الذي قد يكون عذابه أشد بكثير من عذاب القبر وآلامه، هذا البكاء هو من الأعمال الصالحة... فهل عسانا، ونحن نرى الموت من حولنا، ونستطيع أن نتصور ظلمات القبر ووحدته، أن نستيقظ قبل فوات الأوان؟!
نحن الآن نعيش بين الأصدقاء والأحباء، وننعم بملذات الدنيا وسعاداتها، ولكن سيأتي زمان، من الممكن أن يكون بعد ساعة واحد أو سنة أو عشرين سنة، نفقد فيه كل أعزائنا وملذاتنا، ونبقى في وحدتنا تحت التراب.
في ذلك الحين، ستكون تلك الغربة وذلك البعد عما اعتاد عليه الإنسان طيلة حياته من أصعب الأمور، خاصة عندما يرى جميع أعماله في الدنيا حاضرة ومحيطة به، ويعلم أن سؤال منكر ونكير حق، كما نقرأ في زيارة آل يس.
يوم القيامة الذي قد يبدو لنا، بمنظارنا الدنيوي صعباً، هو في الواقع أصعب بالآلاف المرات مما نتصوره، ولكن بما أنه بعيد عن أنظارنا في الوقت الحاضر، فإننا لن ندرك قيمة البكاء على هذه المسائل، ولن نعرف فظاعة يوم الحسرة .
أنتم تحبون البكاء على أنفسكم، ولكنكم تتركون هذا خجلاً. والله يأمرنا أن لا نترك هذا الأمر حياء. إن كنتم تحبون العبادة تعبّدوا. ولا يقولن أحدكم إنني إذا صليب ركعتين سيقول الآخرون عني: هذا مراء! فليقولوا ذلك وليرتكبوا هم الخطأ، ولكن لا ينبغي أن تتركوا هذا العمل بسبب الناس.

أحاديث النور

عن الإمام علي (ع) قال: "طوبى لصورة نظر الله إليها تبكي على ذنب من خشية الله عز وجل، لم يطلع على ذلك الذنب غيره."

الرسول (ص) / البحار، ج93، ص331

"كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله."
الإمام الباقر (ع) / البحار، ج7، ص195

"ما من قطرة أحب إلى الله عز وجل من قطرتين: قطرة دم في سبيل الله، وقطرة دمعة في سواد الليل لا يريد بها عبد إلا الله عز وجل."
الإمام زين العابدين (ع) / البحار، ج69، ص378

"البكاء من خشية الله ينير القلب، ويعصهم من معاودة الذنب."
أمير المؤمنين (ع) / غرر الحكم

"سبعة في ظل عرش الله عز وجلَ يوم لا ظلَ إلا ظله: ..... ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشية الله."
الرسول (ص) / البحار، ج84، ص2

"بكاء العيون وخشية القلوب من رحمة الله تعالى ذكره، فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء."
أمير المؤمنين (ع) / البحار، ج93، ص336

2ـ نعمة الدعاء

إن من أعظم النعم الإلهية التي وهبها الله للإنسان نعمة الدعاء. يكفي أن الله سبحانه وتعالى هو خالقنا ومولانا، ونحن عباده الضعفاء، وقد أجاز لنا أن نطلب منه ونطلبه، فهذا من أكبر نِعَم الله وأعظم مننه على الإنسان. ولولا نعمة الدعاء لكان الإنسان في سجن خانق، كما هو حال الذين لا يؤمنون بالله عز وجل. ولا يقولن أحد انه إذا كان هؤلاء في سجن خانق، فلماذا لم يختنقوا بعد! كلا، فهم يختنقون بالفعل.
يعيش الإنسان حياته اليومية دون أن يلتفت إلى نفسه وإلى ربه ما دامت جميع أموره تسير على ما يرام. لكن يكفي أن يقع في مأزق واحد حتى يعلم أهمية ذكر الله ودعائه، وقيمة مخاطبته وطلبه.
نحن قد رأينا الكثيرين من المساكين الذين عانوا من السجون والشدائد ولم يكونوا مؤمنين بالله، وكنا نشفق لحالهم. ففي تلك الحالات التي تنسد جميع الأبواب على الإنسان وتشتد عليه الدنيا، لا ينجو ولا يفلح إلا من كان مع الله، حاضراً بين يديه، مسموحاً له بالتكلم مع ربه.. فأمثال هذا هم الذين ينعمون بالأمن والطمأنينة والراحة الحقيقية، وكل من عداهم مسكين خاسر.
يعيش الإنسان حياة صعبة. والدعاء نعمة الله وباب الفرج. وويل لمن أغلق هذا الباب على نفسه، وويل للغافلين الذين لا يطلبون من الله شيئاً.
ليس الطلب من الله أن يقول المرء بلسانه "اللهم ارحمني واقض دَيني وافعل بي كذا وكذا... " فليس هذا هو الطلب، إنه بعض تموجات وذبذبات صوتية لا قيمة لها. الطلب الحقيقي هو عندما يكون القلب وجميع الحواس مع الله وتحت تصرفه، ففي هذه الحال يُستجاب الدعاء قطعاً. إن قيمة الدعاء بالنسبة للداعي أسمى من استجابته، فنفس حالة الدعاء أعظم من استجابة الدعاء.
وقد نُقل عن أحد كبار العرفاء قوله: "أنا مِنْ أنْ أُحرم من الدعاء أخوف مِنْ أنْ أُحرم من الإجابة".
إن المسكين هو المحروم من الداء والغافل عن التكلم مع ربه. أنتم الشباب يجب أن تدعوا وتتضرعوا وتتكلموا مع الله، وتطلبوا منه حوائجكم، اطلبوا منه كل شيء، وكل ما يحلو لكم.
وبالطبع، إن من يعيش حالة الأنس مع الله لن تتبادر إلى ذهنه الأمور الصغيرة، بل سيكون منصرفاً بشكل تام إلى ما هو أعظم وأكبر. القليل هو عشرة آلاف ليرة (مثلاً) ، والأكثر هو عشرة ملايين، ولكن الأغلى والأثمن هو طلب المغفرة من الله. وفي المناجاة الشعبانية، يقول الإمام (عليه السلام) : "إلهي، ما أظنك تردني في حاجة قد أفنيت عمري في طلبها منك". فما هي؟ إنها "في ما ادَّخر".

الدعاء للمغفرة
وفي دعاء أبي حمزة الثمالي: "وإن قوماً آمنوا بألسنتهم ليحقنوا به دماءهم". فإيمان بعض الناس بالله هو مجرد لقلقة لسان ليحفظوا أنفسهم، وليتمتعوا ببركات المجتمع الإسلامي. ولكننا نرى في هذا الدعاء: "فإنّا آمنّا بك بألسنتنا وقلوبنا لتعفو عنا". فجعل العفو والمغفرة الإلهية هدفاً للإيمان.
إن نيل مغفرة الله هو من أعلى المراتب وأعظم الحوائج. وعلينا أن نطلب هذا الأمر من الله دائماً ونسأله التفضل علينا وإعانتنا في جميع حوائج الدنيا والآخرة.
أنتم أيها الشباب، عندما تدعون، يجب أن تعلموا بأنكم تقفون بين يدي الله دون أن يكون ذلك في مخيلتكم، لأن الله لا يمكن تصوره أبداً. يجب أن تتصوروا أنفسكم عبيداً ضعافاً في غاية المحدودية والعجز. وهذا هو الواقع فعلاً. أنا وأنتم قدراتنا محدودة جداً. فجرثومة تدخل إلى أجسامنا تفقدنا السيطرة بشكل كامل. زكام حاد يصيب أحدنا يشعره بالعجز.. إلى غير ذلك من الأمراض والعوارض.
علينا أن نستحضر دائماً محدوديتنا وضعفنا وحقارتنا أمام الله وأمام أوليائه. وعندما نطلب يجب أن نعرف أن المولى هو صاحب الاختيار وبيده الإجابة.
ينبغي أن نردد بألسنتنا ما نريده من أعماق قلوبنا، وهذا هو الدعاء الذي يقربنا من الله.

ادعوا ما استطعتم ؛ وادعوا أن يهبكم الله السكينة.
وإذا دعوتم فأدعو لنا كذلك.

أحاديث النور
"إن الله تبارك وتعالى أخفى... إجابته في دعوته، فلا تستصغرون شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم". البحار، ج69، ص274
"أكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، وليس باب يكثر قرعة إلا يوشك أن يفتح لصاحبه". الإمام الصادق (ع) / البحار، ج93، ص295

"إذا ألهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أن البلاء قصير."
أبو عبد الله (ع) / البحار، ج93، ص381

" ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدرَ أرزاقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله.
قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء". البحار، ج93، ص294

"أعلمُ الناس بالله سبحانه أكثرهم له مسألة". أمير المؤمنين (ع) / غرر الحكم

"سُئل النبي صلى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم، فقال: كل اسم من أسماء الله أعظم، ففرغ قلبك من كل ما سواه وادعه بأي اسم شئت". البحار، ج93، ص322

3ـ وبالوالدين إحساناً

إن بناء الحياة الإنسانية قائم على أساس مراعاة الناس بعضهم البعض. فبدون الرعاية والمودة والاهتمام وغيرها من المشاعر الأخرى لا تستقر الحياة البشرية، ولا تقوم لها قائمة. وهذه المشاعر موجودة عند الإنسان بوعيه والتزامه. بينما لا توجد بهذه الصورة في الحيوانات. وإنما تكون بصورة غرائزية.
وتتفاوت هذه المشاعر عند الناس من حيث الأهمية والمؤثرية. منها رعاية حقوق الوالدين.
ينبغي على من أنعم الله عليه (وخاصة الشباب) بنعمة وجود الوالدين أو احدهما أن يؤدي حق هذه النعمة وشكرها. ولا بأس أن نذكر في هذا الخصوص الرواية المروية عن الرسول الأكرم (ص) حينما جاءه أحد الأشخاص وسأله: من أبر؟. فللإنسان كثير من الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين تجمعه بهم علاقات مختلفة. فإلى من يجب أن يتوجه بالإحسان؟
أجاب الرسول (صلى الله عليه وآله) : أمك.
فسأله الرجل ثانية: ثم من؟
فقال الرسول (ص) : أمك.
فسأله الرجل ثالثة: ثم من؟
أجاب الرسول (ص) : أمك.
وهذا يعني أن المسافة بين حق الأم وباقي الحقوق واسعة جداً. وعندما سأله الرجل مرة رابعة: يا رسول الله، ثم من؟ قال الرسول: ثم أباك.
وهكذا نفهم أن حق الوالد كبير أيضاً، لكن الأولوية دائماً للأم. وأنا أقول لكم أن أداء حقوق الوالدين، وإضافة إلى آثاره الإلهية الأخروية، فإنه يورث بعض التوفيقات المادية والمعنوية والتي لا أقلها حصول السعادة والرضا كأثر طبيعي لهذا العمل.

ذكرى مفيدة
من المفيد أن أنقل لكم بعض التجارب الشخصية التي تعتبر مصداقاً لما نقول. إنني كلما كنت أوفق في مجال ما وأعيد حساباتي، أجد أن كل توفيق وبركة حصلت لي تعود إلى عمل خير عملته مع والديّ.
قبل وفاة المرحوم الوالد بحوالي عشرين سنة ــ أي كان له من العمر سبعين سنة ــ ابتلي رحمه الله بمرض في عينيه كاد أن يؤدي إلى فقدانه بصره، وكنت في تلك الفترة أتابع دراستي وسكني في مدينة قم، وبالتدريج علمت من خلال الرسائل التي كان يبعثها لي الوالد أنه لم يعد يرى جيداً. فقصدت مشهد ووجدته بحاجة إلى طبيب، فراجعنا الطبيب عدة مرات ثم عدت إلى قم لضرورات الدراسة، وفي العطلة عدت إلى مشهد واهتممت بعلاج الوالد، ولكن أي تطور في حالة عينية لم يحصل، فرجعت إلى قم مرة أخرى.
في سنة 43 هـ ـ ش [1964م] اضطررت أن آخذه إلى طهران لعدم استفادته من العلاجات في مشهد، ولكننا في طهران أيضاً لم نوفق لعلاج لهما. بالطبع بعد حوالي ثلاث سنوات عولجت إحدى عينيه وبقي يرى بواسطتها إلى آخر عمره، لكن قبل ذلك لم يكن يرى أبداً حتى اننا كنا نأخذ بيديه لينتقل من مكان إلى آخر. وقد أحزنني هذا الأمر كثيراً فهو لم يعد قادراً على المطالعة أو معاشرة الآخرين أو أي عمل آخر. لقد كان ذلك صعباً علي بشكل كبير.
كان الوالد يستأنس بوجودي استئناساً خاصاً بالمقارنة مع إخوتي. فهو لم يكن يذهب إلى الطبيب إلاّ معي. كنت أقرأ له الكتب وتناقش المسائل العلمية، حتى شعرت أنني بتركه سيكون إنساناً بلا عمل، وهذا كان ثقيلاً عليه جداً.

المعاملة مع الله

في أحد الأيام كنت منزعجاً جداً تساروني الشكوك والأفكار التي ترجّح أن أرجع أبي إلى مشهد وأعود إلى قم. لكن لصعوبة الأمر عليّ ذهبت إلى أحد الأصدقاء، وكان إنساناً عارفاً، واخبرته بما يجري معي وبما أشعر به من آلام وضيق صدر. فأنا من جهة لا أستطيع أن أترك والدي، ومن جهة أخرى أرى أن مستقبلي ودنياي وآخرتي وصلاحهما في قم فقط. عندها تأمّل قليلاً، وقال لي: اترك مدينة قم واذهب وابق في مشهد. أفعل ذلك لأجل الله.

فكرت ووجدت أن كلامه صحيح، فما أحلى أن يتعامل المرء مع ربه. قررت أن أعود إلى مشهد، فالله تبارك وتعالى إذا أراد يستطيع أن يأتي بدنياي وآخرتي إلى مشهد. عندما اتخذت ذلك القرار انشرح صدري، وفي لحظة انقلبت من حال إلى حال. عدت إلى البيت براحة وسرور وأخبرت الجميع بقراري.

لقد وهبني الله الكثير من التوفيقات إثر ذلك. وعلى أي حال فإنني أعتقد أن ما حصلت عليه من توفيقات في الحياة إنما يعود إلى البر الذي خصصت والديّ به. ذكرت هذه الحادثة لتنتبهوا لأهمية هذه المسائل عند الله تعالى.

حقوق الوالدين بعد الموت

الإحسان إلى الوالدين لا يختص بزمان حياتهما، بل إنه يتعداه إلى ما بعد الممات أيضاً. كل إنسان يستطيع أن يحسن إلى والديه ويبرهما. وقد ورد في الروايات أن البعض ممن يكونون بارين بوالديهم في حياتهم يصبحون عاقين لهم بعد مماتهم، والبعض يصبح باراً بوالديه بعد مماتهم، وقد كان عاقاً لهم من قبل. إن برّ الوالدين بعد مماتهم يكون بالاستغفار والدعاء لهم والتصدق عنهم. هكذا ترضى أرواح الوالدين ويحصلون على بركات بر الأولاد.

ينبغي أن تنتبهوا أن تركيزنا على بر الوالدين وأداء حقوقهما لا يعني ترك حقوق الآخرين، فللزوجة حقوق، وللأولاد وللأخوة والجيران حقوق أيضاً. الإنسان العاقل الذكي هو الذي يجمع كل هذه الحقوق ويؤديها للجميع. آمل أن يوفقكم الله لهذا أنتم وجميع المؤمنين إن شاء الله تعالى.

أحاديث النور

"في قوله تعالى: {وبالوالدين إحساناً}، الإحسان أن تحسن صحبتهما، وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين."

الإمام الصادق (ع) / البحار، ج74، ص39

"من سرّه أن يمدَ له في عمره ويزاد في رزقه فليبرَ والديه، وليصل رحمه."

الرسول الأكرم (ص)

"يجب للوالدين على الولد ثلاثة أشياء: شكرهما على كل حال، وطاعتهما فيما يأمرانه وينهيانه عنه في غير معصية الله، ونصيحتهما في السر والعلانية."

الإمام الصادق (ع) / تحف العقول، ص238

"إن العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهم ثمَ يموتان فلا يقضي عنهما دينهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عز وجل عاقاً. وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بار بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله عز وجل باراً."

الإمام الباقر (ع) / أصول الكافي، ج2، ص164

في قوله تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}: لا تملأ عينيك من النظر اليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدامها."
الإمام الصادق (ع) أصول الكافي، ج2، ص158

4ـ التكبر

من الممكن القول إن جوهر وروح الدين هو تجاوز الإنسان لنفسه وأهوائه وأغراضه، وإن زعم شخص أن هذا هو معنى التدين فلن يكون كلامه عبثاً. والمقصود من تخلص الإنسان من نفسه هو أن لا يجعل لها أي شأن مطلقاً أمام إرادة الله وعظمته وأمره ونهيه. وهذا الشخص الذي يصل إلى هذه المنزلة هو المتدين الحقيقي.

إن صلاة المرء وصدقته وحجّه وسائر عباداته لا قيمة لها إن كان يرى لنفسه شأناً ومقاماً أمام الله. فأعمال المتكبرين غير مقبولة ولا فائدة منها. والذين يرون لأنفسهم مقاماً أعلى من الآخرين ويحسبون لأنفسهم وأنانيتهم حساباً دون اعتبار لشؤون غيرهم من الناس، هؤلاء ستكون عبادتهم ضئيلة الأثر، وإن كانوا في الظاهر من أهل الزهد والطاعة والتقوى، ذلك لأن المتقي حقاً لا يمكن أن يتصف بمثل هذه الصفات. المتكبر، ولو قرأ القرآن وذكر الأذكار وجاهد فإن كل هذه الحسنات لن تؤثر تأثيرها الكامل فيه.

لقد تنوّع الحكام والسلاطين والأمراء على مر التاريخ، ولم يكونوا جميعهم منكرين للدين. البعض منهم كان يعبد الله ويصلي. لم يكن الجميع كمحمد رضا شاه وأبيه تاركين للصلاة. ولقد قرأت في أخبار فتح علي شاه (أحد ملوك القاجارية) أنه كان يستمع لدعاء كميل كل ليلة جمعة هو وعائلته ومجموعة من الناس. لكن ما كان أثر ذلك الدعاء؟! والصلاة التي كان يصليها ناصر الدين شاه الذي ينقل عنه أنه قال ذات يوم: "نظرنا من شمس العمارة فوجدنا الناس فرحين، ونظرنا فوجدنا أن الصلاة قد تأخرت، فصلينا".

فهل تتصورون أن تلك الصلاة كانت مفيدة؟

إن هكذا دعاء وصلاة لا فائدة منها. أعمال كهذه لن تقرّب الإنسان من الله، والتاريخ يبرهن لنا ذلك. فلو كانوا قريبين من الله لما ظلموا الخلق كل هذا الظلم، ولما فسقوا وفجروا وأجحفوا الناس حقوقهم.

بكاء هارون الرشيد

كان خلفاء بين أمية وبني العباس في منتهى السوء والظلم والخبث، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يصلّون ويصومون ويبكون ويتهجدون. ويحكي عن هارون الرشيد أنه بكى بكاءً ابتلت لحيته منه عندما نصحه أحد زهّاد عصره. هل كان لبكائه أثر؟! في الواقع إن البكاء على النفس هو المطلوب وهو المؤثر. وطوبى لمن يبكي على نفسه. لكن بكاء هارون لم يكن كذلك، فأنانية هارون هي الأساس في بكائه، هو يريد كل شيء لنفسه، حتى الله يريده لنفسه. هارون كان يعبد نفسه، وهذا هو التكبر.

انتبهوا، لا تتكبّروا. لا تغرّوا أنفسكم بأن لديكم منصب أو إمكانات أو مستوى علمي أو ميزة وأفضلية معينة. فستكون مثل ذلك الرجل (الملك ناصر الدين شاه) الذي كان ينظر إلى الناس من أعلى شمس العمارة بتحقير واستصغار.

عند محاسبة النفس يجب أن لا يرى الإنسان نفسه فوق الآخرين. وإذا صلّينا وبكينا وتصدقنا وعملنا في طريق الإسلام، فإن ذلك لا يعطينا الأفضلية على هذه المجموعة أو تلك. إن حسّ الأفضلية مضرّ للغاية. لكنه في المقابل لا يمنع المرء من رؤية نفسه أعلى من أعدائه (لأنهم أعداء الله تعالى) إذا كان الدوافع وراء ذلك هو ولاية الله عز وجل. بل في هذه الحال يجب ذلك. الإنسان يجب أن يتواضع أمام أولياء الله وأمام المؤمنين، وإلا فالتكبر سيؤدي به نحو الهاوية، والقصص كثيرة حول أحوال المتكبرين في العالم.

الحاكم المتكبر

كان يوسف بن عمر الثقفي حاكماً على العراق في عهد هشام بن عبد الملك ــ أحد خلفاء بني أمية ــ وقد كان يوسف شديد الظلم والجور، فهو الذي قتل زيد بن علي بن الحسين الذي يعتبر من كبار شهداء الإسلام. كان هذا الحاكم الجائر قصير القامة كثير التكبر والغضب، وقد عرف عنه أنه كان يقتل كل من ينعته بقصير القامة أو نحيف الجسد، ويذكر أن خياطي ملابسه كانوا يأتون بكميات كبيرة من القماش ليأخذوا مقاس الثقفي ويخيطوا أثوابه. وعندما كان يسألهم عن كفاية حجم القماش كانوا يضطرون للقول بأنه بالكاد يكفي أو أنه ناقص، لأن من يقول بأنه كثير يقطع رأسه مباشرة. كان الثقفي في بعض الأحيان يبعث بالقماش إلى الخياط فإذا أرجع الخياط مع الملابس القماش الزائد وقال إنه زيادة عن المطلوب قطع رأسه، كان الخياطون دائماً

يجيبون بأن القماش قليل وأنهم سيجهدون لخياطته بشكل صحيح، وذلك الأحمق كان يفرح بذلك.
الغرق في حب النفس يحدث عقداً في نفس الإنسان. ويجب أن نحذر دائماً من الوقوع في هذا المرض والحجاب الذي لا يأمن شره أحد حتى ذوو الصلاح والتقوى. ففي أي مقام كنتم ومهما كانت عبادتكم صالحة استجيروا بربكم وانظروا إلى ما بين أيديكم، فإنه لا شيء أمام الله. إن عظمة الخالق أوسع من دائرة تفكيرنا. أين نحن من عظمة الله. بل أين نحن من عظمة الأنبياء والأولياء. وأكثر من ذلك ما هي قيمتنا مقابل عظمة الصالحين وكبار رجال التاريخ.
هؤلاء الكبار هم الذي تنازلوا عن النفس في سبيل الله، وذابوا في الأنوار والمحبة الإلهية.
ما هي قيمتنا أمام هؤلاء؟! نحن الذين غرقنا في الدنيا وفي إنيتنا وأوهامنا. أئمتنا يستغفرون ربهم ويتوبون إليه ويتألمون من الذنوب، فأين نحن؟ وذنوب الأئمة ليس من قبيل الغيبة والكذب وغيرها... فهم معصومون، إن أقلّ غفلة هي ذنب عندهم، عليه يبكون وإلى الله يلتجأون وينيبون.
فما هي قيمتنا أمام هؤلاء؟ إننا وفي أي مستوى كنا، يجب أن لا نرى أنفسنا أكثر من تراب تحت أقدامهم.

أحاديث النور
قال الإمام علي (ع) : "فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد... عن كبر ساعة واحدة! فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟!.. فاحذروا عباد الله عدو الله، أن يغويكم بدائه وأن يستفزكم بندائه."
نهج البلاغة ــ 192

قال الباقر (ع) : "ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك، قلَ ذلك أو كثر."
البحار، ج78، ص186

عن الكاظم (ع) قال: "الكبر رداء الله والمتكبر ينازع الله رداءه."
البحار، ج73، ص214

قال الإمام علي (ع) : "طلبت الخضوع فما وجدت إلا بقبول الحق، أقبلوا الحق فإن قبول الحق يبعد من الكبر."
البحار، ج69، ص339

عن الإمام الحسن (ع) قال: "لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا، وعز الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذللوا له."
البحار، ج78، ص104

قال الباقر (ع) : "عجباً للمختال الحضور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به."
البحار، ح78، ص104

5ـ اللين

إن من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان في علاقاته مع الآخرين هو اللين. واللين مطلوب حتى في علاقاتنا مع أعدائنا إلاّ أن يكونوا أعداء الله، فهؤلاء الكفار مستثنون من ذلك حيث يقول تعالى {وليجدوا فيكم غلظة}.
يجب على الإنسان أن يتخذ اللين شعاراً في تعامله مع الجميع: مع السجناء في سجونهم، والمحكومين بالإعدام حتى تنفيذ الحكم بهم (إلاّ أن يكونوا أعداء الله) ، وحتى مع كل المذنبين الذي سيعاقبون على أفعالهم.

الحدود الإلهية يجب أن تبقى محفوظة
إلاّ أن اللين والعطف ينبغي أن لا يصل إلى المستوى الذي يخرج فيه المرء عن الحدود الإلهية، فالحد الإلهي يجب أن يبقى محفوظا. السارق يجب أن يلقى جزاءه، والقاتل والظالم كذلك. كل يلقى جزاءه بحسب ما تقضى الشريعة الغراء. أحكام الله يجب أن تراعى وتنفذ. ومع ذلك كله يبقى اللين مطلوباً، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر حسبما يأمر الإسلام ونكون لينين بالشكل المناسب. من المهم جداً أن نميز بين هذه الأمور جميعاً.

عدم الخشونة حتى مع الحيوانات
لقد نهى الإسلام عن الشدة والغلظة والقساوة حتى مع الحيوانات. يروى أنه كان لأبي حمزة الثمالي ــ راوي الدعاء المعروف بأبي حمزة، وهو كان من أصحاب الإمام السجاد (ع) ــ حفيد لديه سرب من الحمام. وكثيراً ما كان يزعج هذا السرب أبا حمزة. حتى قام ذات يوم بذبحه كله. وقد سافر أبو حمزة بعد ذلك إلى المدينة لزيارة الإمام السجّاد (ع) . يقول أبو حمزة: "عندما وصلت ودخلت منزله الشريف وجدت فيه عدداً كبيراً من الحمام. فتذكرت حفيدي وندمت على ما فعلت، كنت أتصور أن تربية الحمام عمل قبيح، ولو كانت كذلك لما وجدت هذا العدد منها في بيت الإمام (ع) . دخلت على الإمام وعرضت عليه عدداً من المسائل، فبدأ يجيبني وأنا أكتب. ولكن قلبي وفكري كان منشغلاً بتلك الطيور التي ذبحتها دون رحمة وعطف، فسألني الإمام عن سبب شرودي، فأخبرته ما حدث. عند ذلك تغيّر لون وجه الإمام ونهاني عما فعلت".
وكأن الإمام كان يطلب منه بذلك أن ينصرف من محضره الشريف. وقد وجدت في رواية أن أحد الأئمة (ع) قتل عن غير عمد (ومن الممكن أنها كانت على بدنه وأزعجته فقتلها) فدفع حصاناً كفارة لما فعل: وهذا هو اللين في الإسلام!

طبيعة الإنسان
طبعاً ليس معنى اللين أن نترك مواجهة الفاسقين والمنحرفين بل من الواجب مواجهتهم. فالبشر نوعان: السيئ الخلق والليّن. أصحاب الخلق السيئ يتعاملون مع الناس بغلظة وقساوة، وإن ألقيت عليهم تحية يجيبونك بغضب، فالغلظة والقساوة تكون من طباعه تماماً كمحمد رضا شاه الذي كانت القساوة. لقد كان قاسياً قبل الوصول إلى الحكم وبعده، هو كان دائماً على نفس الحال. الإنسان الغليظ السيئ الخلق إذا صار ملكاً سيكون كرضا شاه، وإذا صار ضابطاً سيكون كذلك الضابط الذي كنا نراه في السجن سنة 1349ه ــ ش [1970م]. كانت السلطات حينها قد أتت بمجموعة من الشباب إلى السجن وكنا معهم إضافة إلى عدد من الضباط الذين خالفوا القوانين العسكرية. وفي وقت الاستراحة قال لي أحد مسؤولي السجن، وقد كان يصاحبني ويحبني كثيراً أنه لو أمرني السافاك بقتل هؤلاء الشباب (وكان يقصد بعض الشيوعيين في السجن) لقطعت رقابهم جميعاً فهم أعداء الشاه والدولة، وكل من يكون كذلك يجب أن يقتل. لا أدري ما كان شعوري عند ذلك، ولكني سألته إنه إذا أمروك بقتلي (لأنني مخالف

للشاه والدولة) فهل تقتلني، فقال عندها: "أقسم بجدك أنني سأقتلك...". نعم هذا الشخص كانت خصاله هكذا. هذا السيئ الخلق كان يحبني وفي نفس الوقت يقسم بجدي انه يقتلني. فسيئ الخلق سيئ، فقيراً كان أو غنياً، رئيساً كان أو ضابطاً أو بائعاً. ففي مدرسة الحجتية في قم كان يوجد خادم سيئ الخلق. لم يكن هذا الخادم قوياً ولا غنياً ولكنه على العكس من ذلك ضعيفاً، فقيراً، وسيئ الخلق في نفس الوقت. لقد كانت قساوته تنال الجميع. إن الإسلام لا يحب هكذا الأشخاص، بل يحب الذين يدارون الناس ويكنّون لهم الحب ويعاملونهم بلين وعطف.

الإنسان ليس مضطراً أن يبتسم في وجوه الجميع في علاقاته ومعاملاته، ولكن يجب أن يداريهم على الأقل. نحن ننام في مكان واحد، ونأكل من طعام واحد، وقد نسافر معاً، ونلعب معاً، ولكن يبقى البعضُ أصحابَ خُلقٍ سيئ والبعض الآخر ليّنون.

أحاديث النور

عن جابر عن أبي جعفر (ع) قال:قلت له أن قوماً إذا ذكروا بشيء من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أنه لو قطعت يداه ورجلاه لم يشعر بذلك، فقال: سبحان الله، ذاك من الشيطان. ما بهذا أمروا. إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل.

البحار، ج92، ص212

ومن كتاب له (ع) إلى بعض عماله:

"أما بعد، فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك قسوة وغلظة واحتقاراً وجفوة، فنظرت فلم أرهم أهل لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا ويجفوا لعهدهم، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرأفة، وامزح لهم بين التقريب والإدناء والابعاد والاقصاء إنشاء الله.

6ـ العفو

العفو من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان في معاشرته مع الناس، فإن أساء إليكم شخص من الممكن أن تسيئوا إليه كما أساء إليكم. لكن اعفوا عنه واصفحوا، فالعفو من أحسن الصفات وأسماها في الأوقات التي يتعرض فيها المرء لإساءة أو سوء أدب من قبل أخيه المؤمن، وفي لحظات الغضب والانفعال التي تدعو صاحبها إلى رد السوء بالسوء.

في تلك الحالات يكون الإنسان حيواناً حقيقياً، أسير غضبه ونفسه التي تستهدف فقط منافعها الشخصية. وعند العجز عن رد الإساءة بالمثل يقبل البعض بالذلة والضعف، ومتى سنحت الفرصة للرد يكون الرد وحشياً شديداً. إن هذه مسـألة طبيعية لدى الإنسان، ولكن علينا ضبطها وتقييدها. هذه الحالة الحيوانية التي تظهر حين غضبنا وحين الرد على من أساء إلينا، يجب أن نسيطر عليها.

عفو رسول الله (ص)

إن النبي (ص) عفا عن وحشي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، لقد كان لقتل حمزة في "أحد" وقع كبير على قلب النبي (ص) . وقد قيل ان الرسول (ص) أقسم إنه اذا وجد الوحشي سيفعل به كذا وكذا... وبعد حادثة "أحد" التي كانت في العام الثالث بعد الهجرة مرت السنين إلى أن تم فتح مكة في العام الثامن، وكان الوحشي حينها في مكة ففر منها إلى الطائف حيث إنها كانت أبعد، ولكن أهل الطائف عندما رأوا جيوش النبي (ص) تتحرك نحوهم أرسلوا جماعة لإبلاغ النبي (ص) باستسلامهم، فعلم الوحشي بذلك وخاف على نفسه، كما هو حال أمثاله اليوم زمن الحرب مع العراق. نعم فأعداء الثورة الذين فروا إلى العراق كانوا يخافون من الإيرانيين أن يدخلوا العراق ويقضوا عليهم، وهكذا كان الوحشي. ففكر أن يذهب إلى اليمن أو الروم أو الشام، لكن الوقت لم يسعفه ولم يقدر على الذهاب إلى أي مكان، فقال له أحد أصدقائه انه لا داعي لأن يحزن فالنبي (ص) رجل رحيم وسوف يعفو عنه إن آمن به وبدينه، ولأن وحشياً لم يجد مفراً غير هذا، فقد ذهب إلى النبي (ص) ليلاً ودخل عليه فجأة، حتى إذا ما رآه النبي (ص) نطق وحشي بالشهادتين. لقد نظر النبي (ص) إليه نظرة غاضبة وقال: "هل أنت وحشي". فقال: نعم. وكان من حق النبي (ص) وباستطاعته قصاصه (وإن أسلم) ، لكنه قال (ص) : "ويحك تغيب عني" حيث تقال هذه الكلمة عند اظهار الرحمة والشفقة والتعامل بالحسنى، وقد يفسر قول النبي (ص) الكريم أنه لم يرد رؤية وحشي حتى لا يثير أحاسيسه ويذكره بالجرم الذي ارتكبه، وهكذا فقد عفا الرسول (ص) عنه.

نموذج آخر من عفو النبي (ص)

يروى أنه في بداية الدعوة الإسلامية أتى رجل إلى النبي في مكة وبصق في وجهه ــ لاحظوا أن الإنسان اذا بُصق في وجهه كيف سيكون حاله ــ فقال له النبي (ص) انه سيقتله إن وقع بين يديه يوماً. ولقد عرف المسلمون أن هذا الرجل أهان الرسول (ص) وأنه (ص) ينوي قتله. وبعد مرور عدة حروب وانتشار الدين الإسلامي بشر أحدهم النبي (ص) بأنه تم القبض على ذلك الرجل وسيؤتى به إلى النبي (ص) . كان النبي (ص) ــ ومن حقه ذلك ــ يريد قتله، فلما أحضر بين يديه نزع النبي (ص) رداءه وسحب سيفه ثم تحرك نحوه، فقال ذلك الرجل: "أشهد أن لا اله إلاّ الله"، فقال الرسول (ص) : "ألست فلاناً؟" قال: "بلى". قال (ص) : "أرأيت كيف أذلك الله وأعز الإسلام"، قال: "نعم، ولكن لا تقتلني" وأسلم... عندها أعاد الرسول سيفه إلى غمده وارتدى عباءته وقال: "دعوه".

طبعاً يصح العفو في غير إقامة الحدود الشرعية، أما فيما يتعلق بالحد الشرعي فيجب تطبيقه دون تردد. لا يمكن أن يعفو الإنسان عن أعداء الله، لكن الإمام وقائد الأمة الإسلامية باستطاعته، ونيابة عن الأمة الإسلامية، العفو عن بعض الكفار والمؤمنين الخاطئين ؛ لكن يده ليست مبسوطة إلى الحد الذي يفعل فيه ما يريد. المسلمون لا يعفون عن حق الله، ولكن باستطاعتهم العفو

في ما يتعلق بهم.

أحاديث النور
قال الإمام الصادق (ع) :
"العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين، وتفسير العفوان لا تلزم صاحبك فيما أجرم ظاهراً، وتنسى من الأصل ما أصبت منه باطناً، وتزيد على الاختيارات احساناً، ولن يجد إلى ذلك سبيلاً إلاّ من قد عفى الله عنه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وزيّنه بكرامته وألبسه من نور بهائه، لأن العفو والغفران صفتان من صفات الله عز وجل أودعهما في أسرار أصفيائه ليتخلقوا مع الخلق بأخلاق خالقهم وجعلهم كذلك. قال الله عز وجل:
{وليعفوا وليصفحوا ألاّ تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}
ومن لا يعفو عن بشر مثله، كيف يرجو عفو ملك جبار.
قال النبي (ص) حاكياً عن ربه يأمره بهذه الخصال، قال (ص) : صلْ من قطعك، واعف عمن ظلمك، واعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء اليك، وقد أمرنا بمتابعته، يقول الله عز وجل {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}.
والعفو سر الله في القلوب، قلوب خواصه ممن يسرُّ له سر، وكان رسول الله (ص) يقول: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم.
قالوا: يا رسول الله، وما أبو ضمضم؟ قال: رجل كان ممن قبلكم، كان إذا أصبح يقول اللهم إني أتصدق بعرضي على الناس عامة.
بحار الأنوار، ج71، ص423

7 ـ شهر رجب

أيها الأعزاء، ها قد حلّ علينا شهر رجب، شهر العبادة والتوجه إلى الله، وهو الشهر الذي يشكل مقدمة لشهري شعبان ورمضان. ولاشك أن من جرّب الأنس مع ربه في رجب فسوف يتهيأ لشعبان الذي هو من أفضل الشهور، ويقول فيه النبي (ص) "شعبان شهري". هذا لا يعني أن هذا الشهر مختص بالنبي، ولكن كلام الرسول (ص) يدل على أنه في هذا الشهر، ولكثرة فضائله، كان يجهد جهداً كبيراً في سبيل طاعة الله.

ورد في دعاء شجرة النبوة والذي نقرأه في كل ظهر ومساء من شعبان: "وهذا شهر نبيك سيد رسلك شعبان الذي حففته منك بالرحمة والرضوان الذي كان رسول الله (ص) يدأب في صيامه وقيامه في لياليه وأيامه".

النبي (ص) كان دائم الصيام والقيام في شهر شعبان. إذاً هذا الشهر شهر مبارك لا يمكن مقارنته مع جمادى الثانية، فاجعلوا صلاتكم ودعاءكم وذكر الله في هذا الشهر أفضل من الشهر الذي قبله. فإن كنتم تقومون ببعض المستحبات فاسعوا لذلك في هذا الشهر أكثر من السابق، وإن لم تكونوا تقومون بها فابدأوا بذلك في هذا الشهر.

في السابق ذكرت الأخوة أنكم شباب، ومن مستلزمات عملكم التدين والإيمان بالله. استفيدوا من هذه الطاقة وابنوا أنفسكم معنوياً ومادياً. فمعنوياً اسعوا لأن تكونوا عباداً تطبقون أحكام الشريعة من واجباتها حتى المستحبات وأن تجعلوا الأوامر الإلهية نصب أعينكم دائماً. وأما مادياً فتعلموا جميع الفنون اللازمة كالرماية وغيرها وكل ما يناسب عملكم. تعلموا كل شيء بأحسن وجه.

ولكن يبقى الجانب المعنوي هو الأهم، حيث يجب أن لا يكون التدين ضعيفاً عند الأخوة المجاهدين. يتصور البعض أن نفس العمل الذي كانوا يقومون به في السابق يجب أن يستمروا فيه الآن، ولكن النفس البشرية تتحرك نحو الكمال، ولا محل ولا معنى للتراجع. عليكم أن تكثروا من فعل الصالحات التي كنتم تلتزمون بها في السابق من صلوات وصوم مستحب، وحتى مراقبة الأعمال اليومية التي هي من أهم الوظائف لكي نتخلص من كل سيئ في أفعالنا. أنتم معرضون للتلوث بأنواع الفساد، والفساد ليس منحصراً بالجانب الجنسي والأخلاقي بل قد يكون فساداً سياسياً ومالياً ومعنوياً وكل هذا...

وإنني حريص جداً على أن لا يتلوث الأخوة المجاهدين بأي من أنواع الفساد، ولذلك عليكم بالمراقبة . ابدأوا بأنفسكم وانتبهوا للآخرين ولا تتركوا إخوانكم إن انخرطوا في الفساد. اسعوا لاصلاحهم وهدايتهم.

دعاء شهر رجب

يعد الدعاء من فرائض شهر رجب، فهذا الشهر هو شهر الله، شهر التوجه إلى الله وشكره، شهر الدعاء والزيارة، وأعماله كثيرة جداً. من الأدعية المستحبة والتي تقرأ بعد كل صلاة في شهر رجب دعاء "يا من أرجوه لكل خير"، وقد يقرأ هذا الدعاء بنحوين، قراءة تلتفت إلى المعاني والمفاهيم السامية التي يحملها الدعاء في كلماته، وقراءة لفظية لا يلتفت فيها إلى المعاني ولا تترك أثراً في القلب. طبعاً القراءة الأولى في كل مرتبة تقدم الانسان درجة نحو الله، فهذا الدعاء يمثل حال التضرع والعبودية تجاه الخالق الباري.

"يا من أرجوه لكل خير وآمن سخطه عند كل شر، يا من يعطي الكثير بالقليل، يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة، أعطني بمسألتي إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة، واصرف عني بمسألتي إياك جميع شر الدنيا وشر الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت، وزدني من فضلك يا كريم."

"يا من أرجوه لكل خير". نحن نرجو الخير والثواب في كل عمل نقوم به، في الحراسة والصلاة، في الكلام الصادق والعمل الخير. نرجو الثواب في كل عمل إلهي.

حلم الله ورحمانيته

"وآمن سخطه عند كل شر". نحن نرى أنفسنا في أمن من سخط الله في ما نفعله من سيئات... أليس كذلك؟ لا يوجد لدينا أي خوف في ذلك. أليس هذا كافياً ليكون درساً لنا؟ أن أرى نفسي آمنة من غضبه تعالى في كل شر؟ حقاً إن هاتين العبارتين كافيتان لمناجاة الله، ومعناهما أنك يا رب حليم لا تستعجلني بالعذاب، وهذا يظهر العظمة الإلهية من جهة وصفات العباد من جهة أخرى.

كرم الله

"يا من يعطي الكثير بالقليل". نحن نرى مجاهدات هذه الأمة وبالأخص مظلومية الإمام (س) ودماء الشهداء المضحين الذين كانوا يفدون أنفسهم ويصبرون ويستقيمون مقابل الشدائد والى ما هنالك من أعمال جعلت العالم اليوم يتحول وينقلب على نفسه، وحقاً إن أعمالنا مقابل هذا الثواب قليلة جداً.

"يا من يعطي من سأله". يا من تعطي كل من يطلب منك كل ما يريده عبدك، طبعاً كل ما يصب في مصلحة الإنسان.

أصلاً أساس الخلقة أن يعطي الله عباده ما يشاؤون وإن لم يلتفت الإنسان لذلك، وقد يتقدم أو يتأخر زمن تحقق حاجة الإنسان، لكن لابد أن تتحقق ولا صعوبة في ذلك. كان البعض يقولون قبل انتصار الثورة إننا ندعو كثيراً ومع كل ذلك الدعاء لم يزل حكم الشاه ونظامه من الوجود ! وكنت أقول إن للدعاء وقتاً للإجابة ووقتاً خاصاً به، وإن تصبروا حتى وصول ذلك الزمن يفرج الله عنا، وكما رأينا فقد أتى ذلك الزمن واستجيب الدعاء.

عطاء النعم دون طلب

"يا من يعطي من لم يسأله"، أي يا من تعطي من لم يسألك من قبل أي عطاء، فعندما تولد هل تطلب من الله لبناً؟ ولكن الله يمدنا بلبن من خلال الأم. نعم إن عطاء الله متحقق دون طلب العباد.

"ومن لم يعرفه" كالكفار والذين لا دين لهم ولا معرفة لهم بالله. وما هو سبب ذلك؟ "تحنناً منه ورحمة" عن رحمة وتحنن.

أحسن الدعاء

"أعطني بمسألتي إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة ": ترون أن الله لا يعطي الإنسان الكثير من الحاجات التي قد تتصورونها خيرة وحسنة، فبعض النعم، بعض الأموال، وبعض الجاه والمقامات قد يكون مضراً للإنسان، فالله هو العالم بمصلحة الإنسان، لذا يصح أن يقول الإنسان في طلبه "إلهي هب لي الخير فإنني لا أعلم ما هو وأين هو".

"واصرف عني بمسألتي إياك جميع شر الدنيا والآخرة " أي أبعد عني جميع شرور الدنيا والآخرة.

"فإنه غير منقوص ما أعطيت " فمقدرة الله وخزائنه لا متناهية، والنقص مني أنا، منا نحن، نحن ناقصون وضيّقو النظر. ويجب علينا أن نخاطب الله هكذا، فنقول: "وزدني من فضلك يا كريم".

هنا ينتهي الدعاء، وعندها تأخذ بلحيتك لتظهر منتهى التضرع والذلة والخشية أمام الله سبحانه وتعالى، فقد كان الإمام يأخذ بلحيته باكياً ويقول:

"يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا النعماء والجود، يا ذا المن والطول، حرم شيبتي على النار"، فإن أعطانا الله النعم ولكن لم يحرم أجسادنا على النار، فهل يكون لذلك فائدة؟؟

أنتم إن قرأتم هذا الدعاء يومياً خمس مرات ستتقربون من الله، وقد سبق أن قلت لكم إن عليكم أن تتيقنوا من هذه المسائل، ولاشك أنكم تعتقدون بذلك وترونه عملاً واجباً ذا أهمية، وهو حربة في وجه أعدائكم، وإن كنتم تعتقدون غير ذلك فإنكم تضيعون حياتكم هدراً.

ونظراً لحساسية عمل الأخوة، عليكم أن تعملوا جيداً. احرسوا جيدا. أدوا واجباتكم بسرعة ولا تتورطوا أو تأسروا أنفسكم بالأوضاع السياسية وتتوسلوا بهذا أو ذاك.

انتبهوا إلى أن هذا العمل عمل طاهر. فأبقوه كذلك، كل شخص مسؤول ومرهون بحياته وعمله الشخصي، ولكنكم أنتم في جبهة قتال، وهذا الجو مناف للحياة المرفهة المريحة. وباستطاعتي قول ذلك لأنني أرى نفسي في الجبهة.
عندما نكون في الجبهة فلنلحظ أن هذا المكان هو مقابل عدونا، وبهذه النظرة نؤدي وظائفنا والله يكون بعوننا.

8ـ إرادة الحق هي الغالبة

تحدث في هذا العالم أمور لا تكون ضمن حساباتنا واختياراتنا. لقد اعتمدت تلك الدول التي أشعلت نار الحرب بين العراق وايران على الحسابات المادية في لعبتها، ظناً منها أن هذه الحسابات هي الحاكمة. لكنهم خسروا في الواقع، ولهذا أرادوا بعد فشلهم استرجاع قواهم بخلق مشاكل أخرى. لقد أظهر الواقع عكس ما كانت تقضي به حساباتهم العقلية المنطقية.
أقطاب العالم اليوم يسعون لضرب نفس تلك القوة التي جهزوها هم لضرب الجمهورية الإسلامية. في الواقع لقد أرادوا جعل العراق فزاعة يستفيدون منها في أي حين لضرب الآخرين. لكن ما جرى لم يطابق حساباتهم العقلية والمادية. إن حسابات العقل والمادة تقول إن 313 شخصاً (في غزوة بدر) ، ليس لديهم إلا القليل من العتاد وبعض الخيل والجمال إضافة إلى كونهم جائعين، يجب أن يخسروا الحرب مقابل جيش يتألف من ألف شخص مجهز بسيوف وخيول وكافة ما يلزم من عتاد حربي إضافة إلى قوى احتياطية. لكن هذه الحسابات لم تصدق. فقد استشهد القليل من الـ 313 شخصاً وانتصر الباقي. هذا هو الحساب الحقيقي!
والحسابات المادية ليست هي الصحيحة في هذه الحياة.
لكن هل يعني ذلك أن نتوقف عن التفكير حيث إنه لا فائدة من الحسابات المادية لأن نتائجها ليست بأيدينا؟ وعلى سبيل المثال أن المصباح الذي يضيئ لنا لا ينفع لرؤية الأجزاء الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة، ولا يكشف ما خلف الجدار، فهل نستطيع القول إنه ولضعف إمكانات هذا المصباح يجب إطفاؤه؟؟
إن ما يستنتج من هذا الأمر شيء آخر: إن ما وراء هذا العالم المادي عوالم أخرى، لكن لا يمكننا القول بأنه لا يوجد نظام في هذا العالم وفي ظواهره أو أن كل ما فيه يحدد واقعه من نفسه.
المسألة التي ينبغي أن نلتفت إليها هي القدرة والارادة الإلهية المحيطة بهذا العلم الطبيعي. إن ما وراء عالم المادة عالم معنوي وملكوتي. وكم يحدث أن تتجلى الإرادة الإلهية في الطبيعة. فقوة القلب لدى شخص أو مجموعة، وإن كانت تبدو أمراً طبيعياً مادياً، إلا أن من أوجد هذه الحالة هو الله، إنها إرادة الله تتجلى في هذا العالم. كثير من الأمراض والأسقام والمشاكل التي تم الشفاء منها إنما عولجت بالدعاء وبالتعلق بالارادة الإلهية.

أثر الدعاء
لقد أصبحت بعض المسائل قطعية ويقينية بالنسبة إلي. فمثلاً من المسلّم لدي أن الإمام كان حياً لمدة عدة سنوات فقط من خلال دعاء الناس. فقد قال لي أحد أطباء الإمام إن ثلاثة أرباع قلب الإمام لا يعمل في حين أنه كان رضوان الله تعالى عليه يتمشى كل يوم ثلاث مرات لمدة نصف ساعة في كل مرة، وكان جسمه طبيعياً غير ضعيف رغم مسؤولياته الثقيلة. كان الإمام يطالع ويفكر أضعاف ما كان عند الأشخاص العاديين. فكيف يمكن أن يبقى شخص حياً بربع قلب؟!
هذه المسائل غير قابلة للحساب بالحسابات المادية، هي معاجز ترجع جميعها لسبب واحد غير قابل للحساب المادي.
انظروا لجميع أموركم بهذه النظرة وهي أنه وراء جميع حساباتكم يوجد مسبب آخر مؤثر للغاية في عاقبة الأمور وهو الإرادة الإلهية.
نحن نقرأ في الصلاة "إياك نعبد واياك نستعين"، وهذا يعني أننا نطلب أن تكون كل أمورنا تجلياً للإعانة الإلهية. فتوكلوا على الله، واطلبوا منه، واجعلوه فوق إرادتكم. اعلموا أن كل شيئ بيده ومنه وهو هادينا. هذه المسألة تتطلب من الذين يعرفونها أن يوثقوا ارتباطهم بالله، فالارتباط بالباري من المسائل الأساسية جداً ولكنه في نفس الوقت ليس أمراً صعباً. المطلوب أن نتوجه لذلك، فالصلاة وسيلة للارتباط بالله كما أن الأدعية كذلك وخاصة الدعاء بعد الصلاة. نفس دعاء رجب بعد الفرائض اليومية هو وسيلة للارتباط بالباري. صلّوا النوافل واعتنوا بها، فهي مع التوجه وسيلة للارتباط.
إنكم شباب، ويجب أن تعلموا قيمة شبابكم، إن معرفة هذه القيمة تكون بمعرفة كل إنسان ــ أياً كان وضعه أو موقعية عمله ــ لقدراته الشخصية والاستفادة منها. إن عمر وزمان شباب الإنسان هو مركز ثقل قدراته.

اغتنام الشباب

أما كيف نعرف قيمة الأشياء، فإن ذلك يكون بتفعيل قدراتها والانتفاع منها قبل أن يأتي اليوم الذي قد نفقدها فيه. فالرياضة البدنية مثلاً هي نوع من معرفة قيمة القدرات البدنية للإنسان. أنتم تستطيعون معرفة قيمة القدرات البدنية للإنسان. أنتم تستطيعون معرفة قدرات أجسامكم بالرياضة وبها أيضاً تؤمنون قدراً من صحة أبدانكم، وإن تأخرتم في هذا الأمر فقد لا تحصلوا في المستقبل على النتيجة المرجوة منه.

أنتم الشباب عليكم أن تستفيدوا من كل قواكم أكبر الاستفادة وأكملها، فإن كان لديكم قدرة على المطالعة والتفكير فافعلوا، وان كنتم قادرين على الحفظ فاحفظوا المسائل المفيدة، فمثلاً أنا أحفظ الآن دعاء كنت قد حفظته من 30 أو 35 سنة وما زلت أتذكره وأقرأه، ولكن في هذا العمر أحفظ دعاءً أو شعراً عربياً وغير ذلك مثلاً ثم أنساه بعد أسبوع فقط. إن معرفة قيمة القدرات هو بكمال الاستفادة منها.

فلنفرض أن مجموعة قد اصطفت في مكان خاص والكل يمشون في خط معين ينتهي بعد مئة متر بأنواع الفواكه والنعم. فإذا قيل لهؤلاء أن باستطاعتهم الاستفادة من هذه النعم سيكون وضعهم مختلفاً، حيث سيكون الكل في حركة دائمة لا تتوقف ولو قليلاً. حتى إن الإنسان لا يستطيع تصور الوقوف لأن الجميع يسيرون في اتجاه واحد بهدف الوصول للتمتع بتلك النعم.

صلاة الليل

الآن وقت جمع النعم، اقرأوا، طالعوا، اعملوا جيداً، اقرأوا الدعاء، التزموا الرياضة والتزموا برياضة الروح أكثر، أي العبادة، لأن ثمرتها أكبر. صلوا صلاة الليل، صلوها بتوجه، لتكن صلاة ليل تعلمون فيها ما تفعلون، لا صلاة دون توجه لأنها تتطلب العناية والتوجه. وبذلك يكون تأثيرها فيكم أيها الشباب أكبر من تأثير صلاة الليل التي أصليها أنا. حافظوا على هذه التأثيرات، وتعلموا كل ما ينفع لغايتكم وكمالكم. اغتنموا الفرص والأيام فإنها لن تعود. إن فعلنا ذلك، ثم ألقينا نظرة أخرى بمنظار أوسع، سنجد حياتنا في هذه الدنيا مشعشعة ذهبية مع أنها لا تتجاوز الستين أو السبعين سنة. لقد كان لنا قبل هذه الحياة حياة أخرى، وكذلك فبعد هذه الدنيا سيكون لنا حياة أخرى. إن حياتنا التي قبل هذه الحياة هي حياة ضعيفة، وبعد الموت والرحيل عن هذه الدنيا سينقطع عنا بعض أشياء الحياة الآتية، وما هو مهم هو حياتنا في هذه الدنيا وكل ما نريد فعله. إن هذه الحياة هي الساحة التي يتطور فيها الإنسان، هذه الحياة هي التي تعطيك فرصة ذهبية للوصول إلى الكمال. إن الحياة الدنيا زمان حسن. اسعوا لكي تعرفوا قيمته ولا تخسروه.

اسمعوا لهذه النصائح التي قد ذكرتها مراراً واعملوا بها. فإن سمعتم ولم تعملوا فستعتادون على ذلك وسوف لن تسمعوا بعدها أبداً ولن تعملوا. اسعوا لمعرفة قيمة حاضركم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حقوق الإنسان في الإسلام

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهرين المنتجبين وصحبه المهتدين..

إن مسألة حقوق الإنسان هي إحدى المسائل الأساسية المهمة، كما أنها من أكثر قضايا الإنسان حساسية، فقد اتخذت في العقود الأخيرة أبعاداً سياسية فضلاً عن أبعادها الأخلاقية والحقوقية. ومع أن تدخل الأهداف السياسية والتكتلات والمواقف السياسية قد وضع عقبات ومشاكل عديدة أمام الطرح الصحيح لهذه المسألة، إلا أن كل ذلك يجب أن لا يثني المفكرين والمهتمين بالأمر عن مواصلة دراسة حقوق الإنسان وحل مشكلاتها.

وفي الغرب هذه المسألة قد تم إحياؤها من قبل المفكرين، فهي ومنذ نحو مئتي عام تتصدر قائمة المسائل السياسية والإجتماعية للعالم الغربي، حتى أضحت مسألة مهمة نجد بصماتها على الكثير من الإنقلابات والتغييرات السياسية والإجتماعية.

وقد بلغ هذا الإهتمام الغربي ذروته خلال العقود الأخيرة، فكان صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وتأسيس منظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مصداقاً عينياً للإهتمام بقضية حقوق الإنسان في العالم، ويمكننا اتخاذ هذا المصداق مقياساً نستند إليه في تحليلنا وحكمنا على ما سمعناه من شعارات وضجيج عن حقوق الإنسان خلال المئتي عام الأخيرة، وخاصة خلال العقود الأخيرة.

وطبيعي أننا نحن المسلمين نعلم جيداً أنه إذا كان الغرب قد أولى هذه المسألة اهتماماً كبيراً خلال العقود الماضية، فإن الإسلام كان قد اهتم بها وبأبعادها الواسعة والشاملة منذ قرون عديدة. فقد عالجها بشكل أساسي وجذري، وهذا ما نلاحظه في الكتب والآثار الإسلامية الموجودة والتي لسنا بحاجة الى تفصيلها الآن ما دمنا نتحدث الى جمع من المسلمين.

إن الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم والأئمة (عليهم السلام) أكدت جميع حقوق الإنسان التي تنبّه إليها العالم واهتم بها خلال العهود الأخيرة، وهي تحظى دوماً باهتمام المسلمين والعلماء، وهم ليسوا بحاجة الى التذكير بها وتكرارها. وفي ختام حديثي، سأذكر بأن على المجتمع الإسلامي اليوم مسؤولية تعريف العالم بهذه الحقيقة الإسلامية الوضّاءة لكي لا يدع هذه الأصالة الإسلامية تضيع وسط أعاصير الضجيج والأجواء السياسية المفتعلة على الصعيد العالمي.

هنا تطرح عدة أسئلة نفسها، وتشكل الإجابة عنها، هدفنا من هذا البحث. من المؤكد، أيها المفكرون والباحثون، أنكم ستقدمون خلال هذا المؤتمر بحوثاً عميقة ونافعة حول الجوانب والأبعاد المختلفة لحقوق الإنسان، وهذا بحد ذاته سيكون ذخراً للعالم الإسلامي يمكنه من الإطلاع على الموضوع من منظار إسلامي.

السؤال الأول هو: هل كانت المحاولات التي جرت خلال القرنين الماضيين، وخاصة خلال نصف القرن الأخير، منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن وتحت اسم حقوق الإنسان، موفقة أم لا؟ وهل استطاعت كل هذه التصريحات والإجتماعات والمؤتمرات من جانب هيئة الأمم المتحدة والإذاعات حول حقوق الإنسان أن توصل البشر الى حقوقهم الحقة؟ أو في الأقل هل استطاعت إعطاء الإنسان الجزء الأكبر من حقوقه؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، فمجرد الإطلاع على حقائق عالمنا اليوم، يكفي لإثبات إخفاق كل ما بذل في هذا المجال لحد الآن، ونظرة عابرة لوضع المجتمعات المتخلفة التي تشكل النسبة الأكبر من سكان العالم ستثبت لنا أن أكثر البشر لم يحصلوا خلال نصف القرن الأخير على حقوقهم، وليس هذا فحسب بل إن أساليب سلب حقوق الإنسان والشعوب المحرومة قد تطورت وتعقدت وأصبح من الصعب علاجها. نحن لا يمكننا تقبّل ادعاءات منظمات حقوق الإنسان ولا ادعاءات هؤلاء الذين يدّعون مناصرة حقوق الإنسان، بينما نحن نشاهد الواقع المر لشعوب أفريقيا وآسيا، وجوع ملايين البشر، وحرمان العديد من الشعوب من أبسط حقوقها الإجتماعية. إن هؤلاء الذين رفعوا عقيرتهم خلال الأربعين عاماً الماضية دفاعاً عن حقوق الإنسان إنما هم أنفسهم قد سلبوا ولا زالوا يسلبون حقوق الشعوب المحرومة في العالم الثالث، واليوم نشاهد حكومات وأنظمة تسلّمت السلطة في العالم الثالث تستند الى تلك القوى نفسها وتنتهج طريقها نفسه في انتهاك حقوق الإنسان في بلدانها.

إن الحكام الجبابرة الذين كثر عددهم خلال نصف القرن الأخير في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، لا يستطيعون انتهاج الدكتاتورية دون الإعتماد على القوى الكبرى في العالم، والقوى الكبرى هي نفسها التي ترفع عقيرتها دوماً بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان، وهي التي أسست الأمم المتحدة التي لا زالت حتى اليوم خاضعة لسيطرتها.

إن تفشي الفقر والجوع والموت في العديد من دول العالم، إنما هو نتيجة التدخل والظلم والإغتصاب الذي تقوم به هذه القوى.
فمَن الذي أوصل أفريقيا المليئة بالخيرات الى ما هي عليه اليوم؟ ومَن الذي استغل شعبي بنغلادش والهند لسنوات طوال وأوصلهما الى هذا الوضع بحيث يتفشى فيهما الجوع والموت بينما تملكان من الخيرات والبركات ما شاء الله؟
ومَن الذي ينهب ثروات دول العالم الثالث ويطوّر تكنولوجيته وصناعته ويجمع الأموال الطائلة على حساب الفقراء والجياع في هذه الدول؟
إن الذين أسسوا منظمة الأمم المتحدة، وأصدروا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذين يواصلون اليوم وبكل صلافة الإدعاء بالدفاع عن هذه الحقوق، هم أنفسهم سبب معاناة الشعوب وتعاستها، وإلا فلماذا تبقى أفريقيا الغنية بالثروات والموارد الطبيعية، وأميركا اللاتينية المليئة بالثروات الطبيعية، والهند الكبيرة الواسعة، ودول العالم الثالث التي تمتلك كل هذه الطاقات البشرية والثروات الطبيعية، لماذا تبقى كل هذه المناطق متخلفة عن مواكبة ركب التطور والتقدم؟
إن الذي يحكم العالم اليوم، هم أصحاب المال والقدرة الذين وضعوا بأنفسهم أسس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وها نحن نرى الوضع المأسوي الذي تعاني منه الشعوب وهي ترزح تحت نير تسلّط هذه القوى ونهبها لها.
منظمة الأمم المتحدة التي تعتبر ثمرة كل الجهود الرامية الى حفظ حقوق الإنسان، ما الذي عملته للشعوب، وماذا تفعل اليوم؟ وفي أية قضية سياسية أو كارثة كبرى أصابت الشعوب إستطاعت هذه المنظمة أن تلعب دوراً فعالاً وإيجابياً؟ ومتى نهضت هذه المنظمة لدعم المظلوم؟ ومتى استطاعت هذه المنظمة منع القوى الكبرى من مواصلة سياساتها الظالمة؟ إن هذه المنظمة أكثر تخلفاً من الكثير من الدول والشعوب. فعلى الرغم من كل هذه الإدعاءات، فإنكم تشاهدون في أفريقيا اليوم نظاماً عنصرياً، بل إنكم تشاهدون التمييز العنصري داخل الدول المتقدمة نفسها. إذاً فمنظمة الأمم المتحدة لم تفعل شيئاً من أجل حقوق الإنسان، إذ قُصر دورها في المشاكل العالمية على التوصيات والإرشادات فقط كما تفعل أية كنيسة.
وفي منظمة الأمم المتحدة، يوجد مجلس الأمن الدولي الذي يعتبر النواة المركزية للمنظمة ومركز القرار، وفيه تمتلك الدول الكبرى حق النقض (الفيتو) فتستطيع الدول الكبرى نقض أي قرار يتخذه المجلس ضد المتسببين في إضعاف الشعوب وإبقائها متخلفة. إن منظمة الأمم المتحدة وكل المنظمات التابعة لها، سواء أكانت ثقافية أم إقتصادية أم فنية أم غيرها.. خاضعة لتأثير القوى الكبرى. وقد شاهدتم الضغوط التي مارستها أميركا ضد منظمة اليونسكو الثقافية بسبب مجيء رجل مسلم الى رئاسة المنظمة يسعى الى إبقائها مستقلة ؛ فقد شاهدتم خلال السنتين الماضيتين حجم الضغوط التي مارستها أميركا ضد هذه المنظمة ورئيسها.
إذاً فالأمم المتحدة، باعتبارها ثمرة كل الجهود التي بذلت من أجل حقوق الإنسان، تراها اليوم عقيمة لا فائدة منها، بل إنها تتصرف أحياناً وكأنها ملك للقوى الكبرى. ومع ذلك فإننا لا نرفض وجود الأمم المتحدة أساساً، بل نعتقد أنها يجب أن تبقى، ولكن يجب أن يجري إصلاحها، فنحن أيضاً عضو فيها. والذي أريد قوله هو إنه بعد كل تلك الجهود والضجيج والإدعاءات، وبعد كل تلك الآمال التي عُقدت على هذه المنظمة، نشاهد اليوم مدى عجز هذه المنظمة عن تأمين حقوق الإنسان، وهكذا فقط إتضحت الإجابة عن السؤال الأول، إذ يمكننا القول: إن الجهود التي بُذلت من أجل حقوق الإنسان خلال القرون الأخيرة قد باءت جميعها بالإخفاق.
السؤال الثاني هو: هل كانت كل هذه الجهود صادقة ومخلصة؟
من الواضح أن هذا سؤال تاريخي قد لا تكون له آثاره العملية، ولهذا فلن نطيل البحث والتفصيل فيه، ونكتفي بالقول إن أغلب هذه الجهود لم تكن مخلصة. صحيح أنه كان من بين المتصدين لهذا الأمر مفكرون وفلاسفة ومصلحون، إلا أن السياسيين كانوا يتحكمون بكل شيء حتى أن جهود بعض المصلحين أصبحت بالنتيجة تصب في مصلحة تجار السياسة. ففي الماضي، كان الذين يطلقون نداءات الدفاع عن حقوق الإنسان هم الأنبياء والحكماء وأمثالهم، أما اليوم فنشاهد هذه النداءات تصدر عن السياسيين، ولهذا فمن حقنا أن نشك في صدقها وإخلاصها. أنظروا مَن الذي ينادي بحقوق الإنسان اليوم، فالرئيس الأميركي السابق إتخذ من ضمان حقوق الإنسان شعاراً ليصل بواسطته الى الرئاسة، وفي أيام رئاسته الأولى كان يظهر من أحاديثه وتصريحاته أنه يريد العمل بجد بهذا الخصوص، إلا أنه وقف في النهاية الى جانب أظلم الحكام المعارضين لحقوق الإنسان وأقساهم وأشرسهم في المنطقة، فقد وقف الى جانب الشاه والصهاينة المتسلطين على فلسطين وسائر المستبدين المعروفين في هذا العصر.
إن الحكام ورجال السياسة الذين يرفعون عقيرتهم اليوم بالدفاع عن حقوق الإنسان في المؤتمرات والمحافل الدولية، ليسوا بأفضل ممن سبقوهم إذ أننا لا نشاهد الصدق والإخلاص في تحركاتهم. فالذين وضعوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وعلى رأسهم أميركا، كانوا يسعَون الى فرض سلطتهم وهيمنتهم على العالم. إن هؤلاء هم أنفسهم الذين قتلوا عشرات الآلاف من البشر بالقنبلة الذرية، وهم أنفسهم الذين زجّوا بأبناء الهند والجزائر وأفريقيا في جيوش تخوض حروباً لا علاقة لها بهذه الدول من قريب ولا من بعيد. نعم إننا لا يمكن أن نصدّق أبداً أن روزفلت وتشرشل وستالين وأمثالهم قد فكروا يوماً بحقوق الإنسان الحقيقية، أو أنهم كانوا صادقين ومخلصين في تأسيسهم منظمة الأمم المتحدة وإصدارهم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

إذاً، فقد اتضح الجواب عن السؤال الثاني، وهو أننا نعتقد أن تحركات السياسيين ومساعيهم وأغلب النداءات والصرخات الداعية الى إعطاء الإنسان حقوقه لم تكن صادقة أبداً.

أما السؤال الثالث، وهو السؤال الأساسي فهو: ما هي أسباب كل هذا العجز والإخفاق في هذه المساعي؟ إن هذه النقطة يجب أن تحظى بقدر أكبر من اهتمامكم، وسأتناولها أنا هنا باختصار. فنحن نعتقد أن ما يطرح اليوم باسم حقوق الإنسان إنما يطرح في إطار نظام معْوَجّ وخاطئ، ألا وهو نظام الهيمنة، نظام الظلم، وهو ما يؤمن به أولئك الذين أوجدوا الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذين يرفعون اليوم عقيرتهم ويملأون الدنيا شعارات دفاعاً عن هذه الحقوق، كما يؤمن به أيضاً - مع الأسف - أغلب الحكام والسياسيين في العالم، ويتلخص معنى هذا النظام في أن هناك مجموعة من الناس تهيمن على الباقين ويجب أن تبقى مهيمنة. هذا النظام تتبعه ثقافة الهيمنة. فالعالم اليوم مقسّم الى قطبين أو مجموعتين: مجموعة المهيمنين، ومجموعة الخاضعين لهذه الهيمنة، فالمجموعة الأولى تعتقد بأن نظام الهيمنة يجب أن يسود، والثانية رضيت بهذا النظام وخضعت للهيمنة. وهذا هو الخلل الكبير في الوضع العالمي اليوم. فالذين يرفضون هذا النظام والذين يتمردون على الوضع الإجتماعي والسياسي السائد في العالم، هم أولئك الثوار التحرريون أو دول قليلة جداً، وهؤلاء يتعرضون لضغوط مستمرة، والجمهورية الإسلامية خير مثال على ذلك، فقد رفضت نظام الهيمنة بكل أشكاله، ورفضت هيمنة أية جهة أو دولة أو مجموعة، سواء أكانت شرقية أم غربية. وقد شاهد الجميع ما واجهته الثورة الإسلامية خلال سنيّ عمرها الثماني من ضغوط سياسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية بسبب اتخاذها الموقف الصادق والجاد والمستقل من نظام الهيمنة.

فإن كانت هناك بعض التقدمية تقف بوجه الهيمنة الغربية والأميركية، فسنلاحظ أنها تميل الى المعسكر الشرقي بنسب متفاوتة، فبعضها يرتمي بشكل كامل في أحضان المعسكر الشرقي وروسيا، وبعضها الآخر يميل الى هذا المعسكر مع وضوح الإستقلالية في الكثير من مواقفه وسياساته.

إن الدولة الوحيدة التي رفضت الرضوخ لضغوط أية قوة، هي الجمهورية الإسلامية بشعبها وكل قواها، فقد رفضت نظام الهيمنة جملة وتفصيلاً. فنحن نعلن موقفنا الصريح والواضح وبدون أي تحفظ من أية حالة هيمنة تمارسها قوة أو فئة ضد شعب من شعوب العالم.

إن أكثر العالم رضي بنظام الهيمنة، فأنتم تلاحظون أنه حتى الحكومات الخاضعة للهيمنة، تملك الجرأة على الوقوف بوجه القوى الكبرى ومواجهتها، بينما نحن نعتقد أن هذا الأمر ممكن ويسير.

نحن نعتقد أن الدول الفقيرة، والدول التي رضخت للهيمنة والدول التي أُجبرت على الرضوخ للهيمنة رغم امتلاكها القدرات والثروات، بإمكانها الوقوف بوجه القوى الكبرى إن أرادت ذلك، وهذا الأمر يسير لا يحتاج الى معجزة، إذ يكفي حكومات هذه الدول أن تعتمد على شعوبها.

إن ضعف نفوس وإرادة بعض الحكام، وخيانة بعضهم الآخر أدّيا الى خضوع هؤلاء لنظام الهيمنة، فهذا النظام هو الذي يسيّر الإقتصاد والثقافة والعلاقات والحقوق الدولية، وطبيعي أن تكون مسألة حقوق الإنسان قد انطلقت من هذه النظرة، ووجدت وتنامت في إطار هذا النظام. فالذين ينادون بحقوق الإنسان في الغرب ويسعَون الى إعطاء مواطنيهم بعض الحرية الشكلية والإمكانات الرفاهية، يقومون هم أنفسهم بقتل آلاف البشر من الدول الأخرى، فما الذي يعنيه ذلك غير سيطرة ثقافة الهيمنة على عقول هؤلاء؟ إنهم يقسمون الإنسان في العالم الى نوعين: الأول/ إنسان يجب الدفاع عن حقوقه، والثاني/ إنسان بلا حقوق، يجوز قتله واستعباده واغتصاب ثرواته. هذه هي ثقافة الهيمنة المسيطرة على العالم، وحقوق الإنسان المطروحة اليوم، إنما هي وليدة هذه الثقافة.

هذا هو إطار حقوق الإنسان في عالمنا اليوم، والذي تعمل القوى الكبرى بواسطته على تعميق الهوة بينها وبين الدول الضعيفة، وتزيد من ضغوطها عليها، لتسرع هي في تطورها وتقدمها العلمي والتكنولوجي.

إن الأقمار الصناعية تدور اليوم حول الأرض لتجمع الأسرار والمعلومات الخاصة بالدول والشعوب، فبأي حق يتم كل هذا؟ إن جميع المحادثات واللقاءات بين الناس على سطح هذه الأرض تخضع للإنصات من قبل أولئك الذين يملكون التفوق التكنولوجي ولتجسسهم، فبأي حق يتم هذا؟ هل سأل أحد عن ذلك؟ هل مَن يعترض على ذلك؟ بما أن أميركا تملك أقماراً صناعية إذاً فمن حقها استخدام هذه المعلومات المستحصلة، والجميع يرضخ لذلك! ترى أليس التجسس على أحاديث الآخرين وأسرارهم اعتداءاً على حقوقهم؟ وهل قام أحد بطرح هذا السؤال على أميركا وروسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا؟ ونحن نسأل: هل يمكن طرح مثل هذا السؤال؟ ويأتي الجواب بالنفي، لأن الجميع سيقولون إن هذه الدول تملك القوة والقدرة ويجب أن تقوم بذلك.

إن مسألة القنبلة النووية واستخدام السلاح النووي تُطرح اليوم على الصعيد العالمي، تطرحها الدول الكبرى نفسها لأن كلاً منها تخاف الأخرى، فتقوم بافتعال الضجيج واللجوء الى كل وسيلة لخداع الأخرى ودفعها الى التقليل من تسليحاتها النووية، بينما تقوم هي بزيادة تسليحها. ترى هل فكرت الدول الصغيرة بأن تعلن للدول المنتجة للأسلحة النووية بأنها ستقطع علاقاتها معها

وستقطع عنها مواردها وتسهيلاتها وإمكاناتها ما دامت تواصل إنتاج هذا السلاح الذي يحمل خطراً كبيراً يهدد البشرية بالفناء في أية لحظة؟ هل فكرت دول عدم الإنحياز وسائر الدول بأن تشكل محوراً معارضاً لإنتاج الأسلحة النووية؟ بالطبع لا. ولو أنكم عرضتم عليهم هذه الفكرة لقالوا إن هذه الدول تملك تكنولوجيا متطورة وباستطاعتها إنتاج هذه الأسلحة. إن هؤلاء قد استسلموا واقتنعوا بنظام الهيمنة الذي بات مقبولاً من كلا الجانبين: المهيمنين والخاضعين للهيمنة في وقت واحد.

نحن نشاهد في المحافل الدولية أن ممثلي الدول تدهشهم إدانتنا للشرق والغرب ويعتبرون ذلك تهوراً من جانبنا بينما هو موقف طبيعي من شعب مستقل، وعلى الشعوب جميعاً سلوك نفس هذا النهج، كما أن على الحكومات أيضاً أن تتخذ هذا الموقف الذي تتركه وللأسف.

نخلص الى القول بأن ثقافة الهيمنة، تعتبر اليوم أكبر آفة وخطر يهدد العالم كله، خاصة الشعوب المستضعفة.

إن القوى الكبرى، وفقاً لثقافة الهيمنة تسمح لنفسها بنقض حقوق الإنسان حيثما شاءت، فهي تهاجم غرينادا وتساند الصهاينة الذي يقتلون الأبرياء في لبنان، وتساند – مع بعض الدول الأوروبية – النظام العنصري في جنوب أفريقيا في ظلمه واضطهاده لأصحاب البلد الأصليين، أما لو نهض شخص في إحدى بقاع العالم وتمـرّد على هذا الوضع غير المتوازن، فقام بتفجير قنبلة أو عملية ثورية، او قاد حركة ضد هذه المعادلة غير المتوازنة، لتعرَّض للإدانة، ولألصقت به صفة الإرهاب، بينما الإغارة على ليبيا وقصف منزل رئيس دولة والإعتداء على أراضي دولة أخرى لا تتعرض لأية إدانة.

عندما يتحدث هؤلاء عن الإرهاب يطرحون عمليات أفراد مظلومين نهضوا غاضبين، من فلسطين ولبنان ودول أفريقيا وأميركا اللاتينية، ويبعدون الأذهان عن الإعتداءات والإنتهاكات والإرهاب الذي تمارسه أميركا وبريطانيا وسائر القوى الكبرى. إن هذه هي ثقافة الهيمنة التي تسيطر، مع الأسف، على أذهان البشر.

في ثقافة الهيمنة، تعطي المصطلحات معاني تتلاءم مع نظام الهيمنة، فمثلاً يطرح معنى الإرهاب بشكل بحيث لا تعتبر الإغارة على ليبيا وتهديد نيكاراغوا والهجوم على غرينادا، مصاديق له، هذا هو الخطأ الكبير في عالمنا اليوم.

إذاً، فسبب عدم نجاح كل المحاولات والمساعي المبذولة باسم حقوق الإنسان من قبل المخلصين الصادقين والحريصين على هذه الحقوق، يكمن في أنهم يطرحون هذه الحقوق في إطار نظام الهيمنة وثقافتها، وفي هذا الإطار يريدون وضع حقوق الإنسان، وهذا أمر مستحيل. إذ يجب تحطيم هذا الإطار، أولاً تجب إدانة نظام الهيمنة ورفضه جملة وتفصيلاً حتى يمكن فهم مسألة حقوق الإنسان، والسعي من أجل ضمانها بالشكل الصحيح.

وهنا نصل الى السؤال الرابع والأخير وهو: ما العلاج؟

برأينا يكمن العلاج في جملة واحدة هي: العودة الى الإسلام والوحي الإلهي. إنها الوصفة الطبية النافعة للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء. إن على المجتمعات الإسلامية أن لا تفكر بغير هذا، عليها أن تحيي القرآن والفكر الإسلامي وتستنبط القوانين والأحكام من المصادر الإسلامية (القرآن والسنّة) فذلك كفيل بتحديد معالم حقوق الإنسان ومصاديقها، ومساعدتنا في ضمان هذه الحقوق. ولأجل إعطاء الإنسان حقوقه علينا ترك التوصيات والنصائح، فهي عديمة الفائدة، {خذوا ما آتيناكم بقوة} فلقد أعطى الله هذه الحقوق للإنسان وعليه أخذها بكل قوة. على الشعوب أن تعتمد على الفكر الإسلامي في مواجهة الهيمنة والضغوط، وهذا الكلام لا يصدر من إنسان يجلس في زاوية المدرسة يفكر بالمسائل والنظريات الإسلامية، بل إنه صادر عن ثورة خاضت تجربة ناجحة ولمست حقائق عديدة، فثورتنا تجربة تقدم نفسها لكل الشعوب. أنا لا أقول إننا استطعنا حل كل مشاكلنا، فبسبب الثورة واتجاهنا نحو الإسلام اختلقوا لنا مشاكل عديدة، إلا أننا استطعنا إنهاء مشكلة الهيمنة، وشعبنا اليوم مستقل عن جميع القوى، ويمكنه اتخاذ أي قرار يريده بكل حرية واستقلالية. وطبيعي أن أمام شعب يريد التحرر من كل أنواع التبعية طريقاً طويلاً وشاقاً، لكن التبعية التي لا تقترن بالهيمنة هي أمر طبيعي يمكن تحمله، وواضح أن ثورتنا وجمهوريتنا الإسلامية قد ورثتا مجتمعاً مدمراً واقتصاداً منهاراً وثقافة منحطة، لقد ورثت ثورتنا. إيران كانت خلال الستين عاماً الأخيرة معرضة للغزو من كل صوب وعلى الأصعدة كافة، ولا يتوقع أحد أن الثورة ستستطيع التعويض عما فات إيران على الصعيد الثقافي والأخلاقي والإقتصادي والعلمي والصناعي في فترة وجيزة، ونحن أيضاً لا ندّعي ذلك.

إننا نعتقد أنه إذا استطاع شعبنا الوصول الى مستوى مادي عالٍ، فيجب أن يتم ذلك في ظل الإستقلال والإعتماد على النفس واستخدام جميع إمكاناته المادية والبشرية.

إن الذي يمكن أن ندّعيه بكل ثقة، هو أن الجمهورية الإسلامية لم تعد تخضع لأية هيمنة أو ضغوط سياسية من جانب أية قوة، وليس بإمكان الضغوط السياسية التي تمارس ضدها تغيير نهجها وخطها، ولا التعديل من مواقفها أو إجبارها على الإتجاه نحو إحدى القوى الكبرى، إننا حررنا أنفسنا من سلطة القوى الكبرى وهيمنتها، وهذا بحد ذاته تجربة غنية.

نحن نعتقد أن أفضل النماذج لحقوق الإنسان في الإسلام هو حق الحياة، وحق الحرية، وحق التمتع بالعدالة، وحق التمتع بالرفاهية، وسائر الحقوق الأساسية التي أعطاها الإسلام للإنسان قبل أن ينتبه لها المفكرون الغربيون.

إن علينا أن نعود الى الإسلام، وعلى المفكرين الإسلاميين الإضطلاع بمسؤولية البحث والدراسة في مجال حقوق الإنسان خاصة، والنظام الحقوقي بشكل عام، وهذا ما أخذه هذا المؤتمر على عاتقه والذي سيكون خطوة على هذا الطريق، وستستمر هذه الجهود إن شاء الله على مستوى عالٍ لتتمكن الشعوب من التمتع بهذه الحقوق، وطبيعي أن بإمكان الحكومات مساعدة شعوبها في هذا الأمر بشرط أن لا تراعي رغبات القوى الكبرى، وهذا ما لا نشاهده الآن بكل أسف، فأغلب الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية تقع تحت تأثير القوى الكبرى، وأغلبها تحت تأثير الغرب وأميركا، ولهذا فإن جميع مواقفها وقوانينها لا تتماشى مع الموازين والأحكام الإسلامية وإرادة شعوبها، وهذا المؤتمر الذي عقد في الكويت مثال بارز على ذلك، فقد رأيتم كيف أنه لم يبحث القضايا الأساسية والمصيرية للمسلمين، بل ذهب الى طرح قضية وإصدار البيان الختامي بشأنها وهي لا تتفق والإسلام، فبدلاً من أن يدينوا العراق ويطردوه من المؤتمر بسبب اعتدائه على إيران ووقوفه بوجه بلد مسلم، وبدلاً من كشف دور القوى الكبرى في تأجيج هذه الحرب، فإنهم أبدَوا رضاهم عن العراق باعتباره – حسب قولهم – يلبي نداء السلام ؛ متجاهلين بذلك واقع هذه القضية وحقيقتها، ومتناسين أن دفاع شعب عن حقوقه أحق أن يُشاد به، وامتثال نظام معين لرغبات الإستكبار العالمي في الوقوف بوجه ثورة شعبية إسلامية أحق أن يدان.

إن هذه البيانات والقرارات ووجهات النظر خاوية لا تستند الى المبادئ والقيم الإسلامية، كما أنها تفقد أية أهمية، فليس هناك شعب ينتظر ما ستتخذه قمة الكويت من قرارات لكي يفرح أو يحزن لها، أي أن هذه المؤتمرات وهذه القرارات بعيدة عن الواقع والأصالة الإسلامية وطموحات الشعوب لدرجة أنها تواجه بعدم اكتراث من قبل الشعوب، فليس هناك من شعب متعطش لما سيصدر عن القمة الإسلامية، ليحدد واجبه على غرارها. لماذا يصل تجمع يضم ستاً وأربعين دولة، على مستوى القمة، الى هذه الدرجة من الخواء والضعف؟ إن السبب يكمن في أن أغلب هؤلاء الرؤساء يقعون تحت تأثير القوى الكبرى، وما دام رعب هيمنة هذه القوى يسيطر على قلوبهم فلن تصلح حال المسلمين، ولو أردنا إصلاح هذه الحال التي نمر بها اليوم، لكان علينا أولاً طرد ما في القلوب من رعب من القوى الكبرى، وكما قال الباري عز وجل {فلا تخشَوا الناس واخشون}، وإذا ما حدث ذلك فسينصلح حال الشعوب الإسلامية.

هنا أصل الى نهاية حديثي، وآمل أن يتمكن هذا المؤتمر من قطع خطوات مؤثرة في طريق معرفة الحقائق الإسلامية في مجال حقوق الإنسان، كما آمل أن يؤدي التقاء الإخوة المؤتمرين الى توضيح تجارب الثورة الإسلامية للإخوة غير الإيرانيين ليتسنى لهم دراستها والإستفادة منها ولشعوبها، الإطلاع على ثورة إخوانهم في إيران باعتبارها قدوة ونهجاً يمكن اتباعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قصة المحاضرة

لهذه المحاضرة قصة..
والقصة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الإسلامية بكل ما كان فيها من نشاط إسلامي، ومن تحديات وعقبات.
في شهر شوال سنة 1353 هجرية شمسية (1394هـ. ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الأستاذ المحاضر بمدينة مشهد. كان على الخط الأستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتح من طهران. بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتح من صاحب المحاضرة أن يقدم الى طهران في يوم 25 شوال (يوم وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام» ليلقي محاضرة عن الإمام الصادق.
كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك، بسبب زحمة الأعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران. كان يلقي المحاضرات في مسجد (الإمام الحسن) ثم في مسجد (الكرامة) في مشهد الواقعة شرق ايران، وينتقل منها الى غرب ايران ليحاضر في همدان وكرمانشاه. وفي مشهد يدرس التفسير ونهج البلاغة والحديث.. اضافة الى دروس تخصصية في الفقه وأصول الفقه.
كل هذا كان يقوم به في ظروف ضاغطة جداً.. ظروف مالية صعبة، وظروف سياسية قاسية.. لقد كان يعيش في فقر مدقع دون أن يعلم بذلك أحد، ودون أن يشكو لأحد. والسلطة كانت تحصي عليه أنفاسه وتتابعه وتراقبه بشدة. اغلقت (مسجد الكرامة) في هذا العام بالذات، واكتفى بمسجده الصغير (مسجد الإمام الحسن) يواصل فيه نشاطه.. ثم اعتقلته في شتاء ذلك العام. وبذلك دخل سجنه الخامس في قصة يطول ذكرها.
في مثل هذه الظروف جاء طلب الشيخ مفتح لإلقاء محاضرة عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، في طهران بمسجد (جاويد) حيث كان الشيخ مفتح يؤم الناس فيه.
اعتذر صاحب المحاضرة عن الحضور للأسباب المذكورة، ولعلمه بوجود أساتذة يملأون الفراغ في طهران من مثل الشيخ مفتح نفسه، ولكن الشيخ اصرّ.. وأصرّ.. وما كان من المحاضر إلاّ الامتثال.
بعد أيام دقّ جرس الهاتف ثانية، وكان الشيخ مفتح على الخط من طهران وقال:
إن الشرطة منعت المحاضرة !
تنفس الأستاذ المحاضر الصعداء، وأحس بالراحة وحمد الله على ذلك.
ولكن الأستاذ مفتح ما لبث أن اتصل ثالثة وقال:
لقد رُفع المنع والحمد لله، ولابد ان تحضر في الوقت المقرر. حاول السيد المحاضر أن يعتذر ولكن الشيخ قال له: لقد أعلنا نبأ المحاضرة في الجامعات. حاول المحاضر أن يتعلل بصعوبة الحصول على تذكرة الطائرة. لكن الشيخ أبدى استعداده لتوفيرها.. لابد من السفر إذن!
في يوم القاء المحاضرة نفسه غادر مشهد، وقبل ساعات من بدئها وصل طهران واتجه مباشرة الى المسجد.
فرح الشيخ كثيراً حينما رآه، وكان هو وما يقرب من مائتي شاب مستعدين للصلاة. وفي اثناء الصلاة التحق عدد آخر من الشباب فأصبحوا بضع مئات. وبعد دقائق تدفقت أفواج الطلبة فجأة على المسجد، بعد انتهاء الدروس في الجامعة.
غصّ المسجد وفناؤه والزقاق المجاور له بالناس.. بدأ السيد الأستاذ يلقي محاضرته وبيده أربعون ورقة كتب فيها مذكرات ترتبط بالمحاضرة. واستمر يتحدث ويتحدث والجالسون منشدّون اليه، وكأن على رؤوسهم الطير. واستمرت المحاضرة 3 ساعات، وخلالها تناول بالبحث بضعاً من الورقات الأربعين التي أعدها مذكرات لمحاضرته. واختتم المحاضرة رافعاً الأوراق الأربعين الى الحاضرين مشيراً الى انه بيّن قليلاً من كثير مما أعدّه.
ولم يمض طويلاً على هذه الحادثة اذ اعتقل الشيخ مفتح ومنع من الصلاة في مسجد (جاويد) فانتقل بعد الافراج عنه الى الصلاة في مسجد (قبا) .
وهنا لابد من التنويه الى أمر هام وهو: إن السيد الأستاذ حفظه الله ألقى هذه المحاضرة قبل عشرين عاماً، وبعدها كانت له مطالعات ودراسات واسعة في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وربما عنّت له نظرات جديدة، او تغير رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة. وكم كنّا نودّ ان نرى رأيه فيها لنحصل على آخر نظراته قبل أن نقدم على نقلها الى

اللغة العربية. ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الأعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك نقدمها الى القارئ الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الإسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الإسلام ما يهم كل متتبع.
ويلاحظ في المحاضرة أن السيد الأستاذ يواجه تيارين طالما واجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل على الإسلام وعلى رموز الإسلام، والذي يصف رجال الإسلام بأنهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلمين بل كانوا سنداً للظالمين والمترفين، والتيار المهزوم المتقاعد الذي يحاول أن يجد في حياة أئمة الإسلام ما يبرر قعوده وسكونه. وهذان التياران كان لهما ثقلهما في الساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الإسلامية، وكانا يشكلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع على المسيرة الإسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا}
{وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين}

نظرتان خاطئتان

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه.
ثمة نظرتان خاطئتان بشأن الإمام الصادق (عليه السلام) ، ناشئتان عن لونين من التفكير ؛ ومن الغريب أنهما على اختلافهما تتقاربان في الشكل والمحتوى والمنشأ، بل يمكن القول إن النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكاً تاماً:
النظرة الأولى: نظرة مدافعة يبديها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع الإمام ومواليه.. إنها نظرة شيعة الإمام الصادق (عليه السلام) بالقول، لا بالعمل، وتتلخص بما يلي:
إن الإمام الصادق (عليه السلام) توفرت له ظروف لم تتوفر لإمام من قبله ولا من بعده، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين، وأن يفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم. جلس في بيته، وفتح صدره للمراجعين، وتصدى للتدريس ونشر المعارف، وارتوى كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة. اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الإمام الصادق، منها العلوم الدينية: كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية: كالتاريخ والأخلاق وعلم الاجتماع.
وتصدى الإمام لمناقشة المنتمين الى الأفكار الدخيلة، والردّ على الزنادقة والماديين والملحدين، مباشرة او عن طريق تلاميذه، وقارع أصحاب النحل المنحرفة بقوة. ولكل مجال من مجالات الدين، ربّى كوكبة من الطلبة والمتخصصين.
ويقول أصحاب هذه النظرة أيضاً: إن الإمام ــ وحرصاً على استمرار هذا المشروع العلمي ــ اضطر الى عدم التدخل في السياسة، فلم يُقدم على أي عمل سياسي، بل وأكثر من ذلك فإنه سلك طريقاً يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم، ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تحوم حول نشاطه. لذلك لم يجابههم، ومنع ايضاً أن يجابههم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب اليهم وينال جائزتهم وحظوتهم، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن ــ نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفّقها نمّام ــ يتجه الإمام (عليه السلام) الى استمالة الحاكم ومجاملته.
ويورد أصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية، من ذلك رواية ربيع الحاجب وأمثالها، التي تصور الإمام في مجلس المنصور وهو يبدي الاعتراف بالتقصير واعلان الندم، وتنقل عن الإمام عبارات مدح وثناء يبديها تجاه الخليفة المنصور، مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الإمام الصادق (عليه السلام) تجاه طاغية كالمنصور. هذه العبارات تصور المنصور بأنه كيوسف وسليمان وأيوب، وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من إساءات الإمام او إساءات بني الحسن: (إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ..) .
هذه نظرة تصور الإمام عالما، باحثاً، وأستاذاً كبيراً انتهل من بحر علمه أبو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيداً كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين، وعن كل ما تتطلبه مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام السلطان الجائر.. كان بعيداً كل البعد عن الثوار من أمثال: زيد بن علي ومحمد بن عبد الله والحسين بن علي شهيد الفخ، بل عن الجنود المقاتلين من هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الإسلامي، ولا يكترث بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه أبناء رسول الله في جبال طبرستان ومازندران وفي رساتيق العراق وايران من جوع، بحيث لا يجدون ما يسد رمقهم، ولا ما يسترهم اذا أرادوا الصلاة جماعة. ولا يهتم بما كان يتعارض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الأفراد العاديون من أبناء المجتمع آنذاك!!
في ظن أصحاب هذه النظرة أن الإمام الصادق لم يبدِ أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه من مثل ابن أبي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بيته مهزوماً.. دون أن يؤمن طبعاً.
هذه هي صورة الإمام الصادق كما يرسمها أصحاب النظرة الأولى.
النظرة الثانية: يحملها أولئك الذين لا يعترفون بإمامة الصادق، وهي نظرة متحاملة على الإمام ترى أنه (عليه السلام) وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم الاكتراث. فالمجتمع في زمانه كان يضج بالمظالم الطبقية والطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم، واكثر من ذلك على عقولهم ونفوسهم وتفكيرهم ومشاعرهم. حتى لم تعد الأمة تتمتع بأبسط الحقوق الانسانية، بما في ذلك القدرة على الانتخاب. مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيف ما شاءوا، ويبنون القصور الفارهة، مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخرائب التي تعيش فيها البؤساء من عامة الشعب.. في مثل هذا المجتمع المليء بألوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق الى البحث والدراسة وتربية الطلبة، ويصبّ اهتمامه على

تخريج الفقهاء والمتكلمين..!!.

إن كلا النظرتين مجحفتان، لا تقومان على أساس ولا تستندان الى دليل واقعي. غير أن النظرة الأولى أشد اجحافاً واكثر ظلماً للإمام الصادق (عليه السلام) لأنها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته وأتباعه.

لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) وأقارن بينها من حيث المتن والسند لأخرج بنتيجة، فذلك له مجاله في مجالس البحث العلمي.

أريد أن أطرح هنا نظرة ثالثة مقابل تينِك النظرتين.. وأقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين أيديكم، لكي تستطيعوا ــ مثل حَكم محايد ــ أن تتطلعوا من خلالها الى الوجه الحقيقي للإمام (عليه السلام) .

وقبل أن أدخل في صميم البحث يلزمني أن أشير الى أن كلا النظرتين لا يقومان على أساس صحيح موثوق به.

فكما ذكرت أن النظرة الأولى تستند الى عدد من الروايات (أوضحت وضع اسنادها في الهامش) . وهذه الروايات تنسجم طبعاً مع طالبي الراحة ومحبّي العافية، فيتذرعون بها باعتبارها حجة قاطعة. إنها كافية لأن تكون مبرّراً للانتهازيين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة.

فهذه الروايات تصور الإمام بأنه راح يتملق المنصور لحفظ حياته، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف باسلوب حكيم. واذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نص هذه الروايات كافٍ لإثبات زيفها. فالإمام كان قادراً على دفع شر المنصور عنه بطرق أخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة، فلا دليل إذن على أن يعمد الإمام الى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب ليضفي على المنصور خصالاً ليست فيه ومكانة لا يستحقها. فمكانة الإمامة أرفع من ذلك بكثير دون شك، وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطة.

ومن حيث السند، فإن تحري الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة. ففي عدد من هذه الروايات نرى الاسناد ينتهي بالربيع الحاجب. الربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، واكثرهم زلفة لديه. استوزره المنصور سنة 153هـ (5 سنوات بعد وفاة الإمام الصادق) ، أي نال رفعة في المقام.. (ولعله نال هذا الترفيع ثمناً لما نسبه للصادق (عليه السلام) من أكاذيب) .

مثل هذا الشخص الذي ثبت إخلاصه ووفاؤه لجهاز الخلافة لا يستبعد منه أن يختلق الأكاذيب، فينسب كلام الملق الى الإمام الصادق او يغيّر كلاماً حاداً قاله الإمام الى كلام تضرع والتماس. هذا ليس بغريب على هذا الحاجب، لكن الغريب أن يصدق عاقل قول أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة، ومقولة تشيع هذا المفتري، وهي مقولة تشكل جزءً من المؤامرة الخبيثة.

والنظرة الثانية ايضاً واهية بالدرجة نفسها وغير علمية. إنها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض او جهل، ومن روح مادية محضة لا تنسجم اطلاقاً مع طبيعة الأحداث الإسلامية. ولقد شاهدنا تلك الأحكام الفجة التافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الإسلام وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) . كقول أحدهم عن الإمام الحسن المجتبى أنه باع الخلافة بالمال! وقضى عمره بين العطر والمرأة والترف! وقول مستشرق آخر: إن الإسلام نقل الإسلام من مرحلة الرقّية الى مرحلة الاقطاع!!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرع والمنطلق المادي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلقّفه أصحاب النظرة الأولى من أحكام!!

النظرة الصحيحة

النظرة الثالثة: والآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشأن الإمام الصادق، وهي نظرة يمكن ان يستنبطها كل ثاقب نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع. وهذا الاستنباط لا يختص بزمان الإمام الصادق وحده، بل يشمل كل أئمة أهل البيت، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، وهذا الاختلاف في الخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير.

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة، علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة أهل البيت باسم الإمامة، والذي تتكون عناصره الأصلية من أحد عشر شخصاً توالوا قرنين ونصف القرن تقريباً، إنما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة، وبعقيدة جديدة، وبمشروع جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة الى الانسانية، ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده ؛ كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الأهداف. ويجب أن يحمل أعباء المواصلة من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الأبعاد ؛ كي يبلغ بالأمانة إلى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

هؤلاء هم الأئمة وأوصياء النبي. وكل الأئمة العظام وأصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الإمام، لابد أن نعرف مهمة النبي. والمهمة يبيّنها القرآن الكريم إذ يقول: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط}.

هذه إحدى الآيات التي تبين علّة النبوة، وتبين من جهة أخرى مهمة الأنبياء. فالأنبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد، ولاقتلاع جذور الفساد، ولإعلان ثورة على جاهلية زمانهم، وقلب مجتمعاتهم. وعملية التغيير هذه يعبّر عنها الإمام علي (عليه السلام) في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: «.. حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم..».

إنها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الإنسان، وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والأفراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وإفساح المجال للطاقات والكفاءات الإنسانية، وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر والتفكير.. إنها عملية إقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الإنسان في جميع الأبعاد الأساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

هذه هي المهمة التي بعث الله الأنبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن الإمامة، باعتبارها امتداد لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الأبعاد. لو أن رسوله الله (صلّى الله عليه وآله) عاش 250 عاماً، فماذا كان يفعل يا ترى، وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة؟ نفس هذه العملية نهض بها الأئمة. هدف الإمامة هو نفس هدف النبوة، والطريق هو الطريق، أي إيجاد مجتمع إسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة.

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والاسلوب. النبي (صلّى الله عليه وآله) نفسه كان يعمل في بداية الدعوة باسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلّب الأمر تدبيراً خاصاً لمواصلة حمل الرسالة، وحين ترسّخت قواعد النظام الإسلامي، وضرب الإسلام بجرانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والاسلوب.. والثابت والباقي هو الهدف الأسمى الذي أنزلت الرسالة من اجله.. وهو السعي لإيجاد مجتمع يستطيع الإنسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الأبعاد، وأن تتفجر فيه الطاقات الخيّرة والقوى الكامنة الإنسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الإسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون ــ كالنبي ــ نحو هذا الهدف نفسه، نحو إقامة نظام عادل إسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه إقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب أولاً ايديولوجية موجهّة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه بصياغتها. ثم تحتاج ثانياً إلى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو

تحقيق الهدف. نعرف أن ايديولوجية الأئمة هي الإسلام. والإسلام رسالة البشرية الخالدة.. رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها.

وبملاحظة هذه الأمور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لأئمة أهل البيت وأوصياء النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) .

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الأول يرتبط بالعقيدة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهممهم إلى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الأطروحة الإسلامية لما يستجدّ من أمور، وإحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الأذهان العاديّة من كتاب الله عزيز وسنّة نبيّه.. فمهمة الجانب الأول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الإسلامية حيّة بثاءة متحركة على مرّ الأجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الإسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، او التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الأئمة الأطهار، وهذه هي الخطوط العامة لأهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

واذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الأئمة لا يثبت ما ذهبنا اليه، فإن عقيدتنا في الأئمة كافية لأن تصور حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك اذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة أئمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه!

مراحل مسيرة الإمامة

استمرت مسيرة الإمامة منذ رحلة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في شهر صفر سنة 11 هجرية، حتى وفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في ربيع الأول سنة 260 هـ. وخلال هذه السنين طوت المسيرة أربع مراحل كان للأئمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الإسلامي:

المرحلة الأولى: مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحاكم.
تميزت هذه المرحلة بأن المجتمع الإسلامي الوليد كان محفوفاً بأخطار الأعداء الذين تربّصوا بالإسلام من الخارج بعد أن أحسّوا بخطر الرسالة عليهم، وكان هناك أعداد غفيرة من جماعات حديثة العهد بالإسلام لا تطيق أن ترى تشتتاً في المجتمع الإسلامي، وكل ثغرة في جسد الأمة تشكل تهديداً لأساس المجتمع الإسلامي ووجوده.
ومن جانب آخر لم يكن منحنى الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلاً للتحمّل بالنسبة لشخص مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الإسلامي. ولعل هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الإسلامي هي التي أشار اليها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حين أوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها.
لقد استوعبت هذه المرحلة حياة الإمام علي (عليه السلام) منذ وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى توليّه الخلافة. وقد شرح الإمام موقفه في هذه المرحلة خلال الكتاب الذي وجهه إلى أهالي مصر مع مالك الاشتر لما ولاّه إمارتها إذ جاء فيه:
«فأمسكت يدي، حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (صلّى الله عليه وآله) فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم.. فنهضت في تلك الأحداث..».
حين عزفت عنه الولاية سكت في سبيل الإسلام، وحين واجه المجتمع أخطار جسيمة، قام ينافح عن الإسلام والمجتمع الإسلامي هادياً وموجهاً وعاملاً في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية. وفي نهج البلاغة وسيرة علي (عليه السلام) ما يدل بيقين على طبيعة تحرك الإمام خلال هذه الفترة.
المرحلة الثانية: مرحلة استلام الحكم. وهذه استغرقت أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، وبعضة أشهر من خلافة ولده الحسن (عليه السلام) . ومع كل ما اكتنف هذه المرحلة من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كل حكومة ثائرة، فأنها سجلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلامية، بما قدمته من طريقة إنسانية في التعامل، ومن عدل والتزام دقيق بأحكام الإسلام بأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلامي، هذا إلى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتخاذ المواقف.
هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الذي دعا أئمة أهل البيت (عليه السلام) خلال القرنين التاليين إلى تطبيقه في الحياة السياسية والاجتماعية. وأتباع مدرسة أهل البيت منشدّون باستمرار إلى تلك الفترة التاريخية، ينشدون استعادتها في حياتهم، ويتخذونها أساساً في تقويم أنظمة زمانهم.
وبهذا المعيار يدينون الأنظمة المنحرفة عن النهج الإسلامي، كما كانت هذه الفترة تجربة ودرساً لحكومة إسلامية ثورية تماماً في مجتمع عصفت به الأهواء والانحرافات. وكانت حالة المجتمع هذه قد ألقت عبئاً ثقيلاً ومسؤولية كبيرة على الأئمة التالين.
المرحلة الثالثة: هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الإمام الحسن (عليه السلام) سنة 41 هـ، وشهادة الإمام الحسين (عليه السلام) سنة 61هـ.
بعد صلح الحسن (عليه السلام) بدأ نوع من العمل شبه سرّي، هدفه إعادة القيادة الإسلاميّة إلى أصحابها الحقيقيين، إذ كان الأمر يتطلّب التريّث ريثما تنتهي مدة حكم معاوية، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناءة للتمهيد إلى المرحلة التالية.
المرحلة الرابعة: هي التي نحتاج إلى أن نقف عندها ولو قليلاً، لأنها هي التي تعنينا في دراسة الإمام الصادق (عليه السلام) . في هذه المرحلة التي استمرت قرابة قرنين، تواصلت مسيرة الإمامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الإسلام

في جميع المجالات، بما في ذلك القيادة السياسية. كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وممتزجة بألوان الأساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب، ومزدانة بأسمى وأروع مظاهر الإخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الإنسانية على الطراز الإسلامي.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة 61 هجرية، بعد استشهاد الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) وبدء إمامة علي بن الحسين (عليه السلام) . وفي هذه المرحلة نشط الأئمة ــ كما ذكرنا ــ في الحقل الايديولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلّفتها مراكز القدرة والأذهان الجاهلية، إلى جانب العمل على المدى البعيد لإقامة حكم إسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويتمثّل نموذج حكومة علي (عليه السلام) .

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرّت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملي يستدعي تكتيكاً دقيقاً وتخطيطاً أساسياً. فالمجتمع الإسلامي آنئذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تخدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبدئية، مما أدّى إلى تفاقم خطر الانحراف، حتى إنّ الأمر آل إلى مقتل ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في كربلاء على مسمع ومرأى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الأموي.

لابّد إذن من عمل كبير يعيد إلى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصية المسحوقة، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرّة أخرى مؤهلاً لحمل الرسالة والنهوض بأعباء المسؤولية الثقيلة. لابد من ثورة كالتي أعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي، ثم تولّي قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة.

أن إعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تقل صعوبة وأهمية عن خلق الثورة وإيجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة إلى إيمان عميق، وعزم راسخ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعّال. فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية؟!

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسير وراء الإمام الحسن (عليه السلام) وما ارتفعت إلى مستوى مناصرة الإمام الحسين (عليه السلام) غير قادرة دون شك على عملية الإحياء هذه. والاعتماد على هذه الفئة ليس وراءه إلا الفشل والخسران.

إن تجربة «التوابين» ثم قيام المختار وإبراهيم بن مالك خير دليل على ما ذهبنا إليه.

موقف الإمام السجاد (عليه السلام)

والإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يقف الآن بعد حادثة عاشوراء على مفترق طريقين:
إما أن يعمد إلى دفع أصحابه نحو حركة عاطفية هائجة، ويدخلهم في مغامرة، لا تلبث شعلتها ــ بسبب عدم وجود المقومات اللازمة فيهم ــ أن تخمد وجذوتها أن تنطفئ، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لبني أمية، يتحكمون في مقدّرات الأمة فكرياً وسياسياً.. أو أن يسيطر على العواطف السطحية والمشاعر الفائرة، ويعد المقدمات للعملية الكبرى، المقدمات المتمثلة في الفكر الرائد والطليعة الواعية الصالحة لإعادة الحياة الإسلامية إلى المجتمع، وأن يصون حياته وحياة المجموعة الصالحة لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، ويبتعد عن أعين بني أمية، ويواصل نشاطه الدائب على جبهة بناء الفكر وبناء الأفراد.
وبذلك يقطع شوطاً على طريق الهدف المنشود، ويكون الإمام الذي يليه أقرب إلى هذا الهدف.
فأي الطريقين يختار؟
لا شك أن الطريق الأول هو طريق التضحية والفداء، لكن القائد الذي يخطط لحركة التاريخ، ولمدى أبعد بكثير من حياته، لا يكفي أن يكون مضحّياً فقط، بل لابد أيضاً أن يكون عميقاً في فكره، واسعاً في صدره، بعيداً في نظرته، مدبّراً وحكيماً في أموره.. وهذه الشروط تفرض على الإمام انتخاب الطريق الثاني.
والإمام علي بن الحسين (عليه السلام) اختار الطريق الثاني مع كل ما يتطلبه من صبر ومعاناة وتحمّل ومشاق، وقدّم حياته على هذا الطريق (سنة 95 هجرية) .
وقد صوّر الإمام الصادق (عليه السلام) وضع الإمام الرابع ودوره الرائد بقوله:
«ارتدّ الناس بعد الحسين (عليه السلام) إلا ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى بن أم الطويل، وجبير بن مطعم، ثم أن الناس لحقوا وكثروا، وكان يحيى بن أم الطويل يدخل مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ويقول:{كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء}».
هذه الرواية تصوّر حالة المجتمع الإسلامي بعد مقتل الحسين (عليه السلام) .
إنها حالة الهزيمة النفسية الرهيبة التي عمّت المجتمع الإسلامي ابان وقوع هذه الحادثة. فمأساة كربلاء كانت مؤشّراً على هبوط معنويات هذا المجتمع عامة، حتى شيعة أهل البيت. هؤلاء الشيعة الذين اكتفوا بارتباطهم العاطفي بالأئمة، بينما ركنوا عملياً إلى الدنيا ومتاعها وبريقها.. ومثل هؤلاء كانوا موجودين على مرّ التاريخ، وليسوا قليلين حتى يومنا هذا.
فمن بين الآلاف من مدّعي التشيّع في زمن الإمام السجاد (عليه السلام) بقي ثلاثة فقط على الطريق.. ثلاثة فقط لم يرعبهم الارهاب الأموي ولا بطش النظام الحاكم، ولم يثن عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية، بل ظلّوا ملبّين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات.
هؤلاء لم ينجرفوا مع تيار المجتمع المنجرّ كالرعاع وراء إرادة الحاكم الظالم، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن أم الطويل في مسجد المدينة ويخاطب مدّعي الولاء لأهل البيت، معلناً براءته منهم ــ كما مرّ ــ ويستشهد بما قاله إبراهيم (عليه السلام) واتباعه لمعارضي زمانهم:{كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء}.
أراد ابن أم الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت (عليهم السلام) أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين: جبهة الرساليين الملتزمين، وجبهة الخلود الى الأرض والانحطاط الى الأماني الرخيصة والانشدادات المادية التافهة. وهو انفصال يرافق كل الدعوات الإلهي. والإمام الصادق (عليه السلام) عبّر عن هذه الانفصال بين الجبهتين بقوله: «من لم يكن معنا كان علينا» أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين، ولا معنى للحياد في هذا الانتماء.
إن يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم والموالي الحقيقي لأهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في قوقعة مصالحهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذاتياتهم الضيقة، وبين أولئك الملتزمين فكراً وعملاً بالإمام.
هذا الانفصال يعني ــ طبعاً ــ الترفع عن الانجرار وراء الاكثرية الضالة، ولا يعني اهمال هؤلاء الضالين. من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة الى انتشال من له قابلية التحرر من الإصر والأغلال، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة، والى هذا

يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في قولة المذكور آنفاً: «ثم إن الناس لحقوا وكثروا». وبذلك واصل الإمام السجاد (عليه السلام) نشاطه. وكان هذا النشاط وبعض المواقف الأخرى التي سنذكرها مما أدى الى استشهاده، واستشهاد بعض المقربين من أصحابه.

لم أر في حياة الإمام السجاد (عليه السلام) ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، والحكمة كانت تقتضي ذلك ــ كما ذكرنا ــ لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وبعده من الأئمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفر للإمام الباقر (عليه السلام) فرصة نشاط واسع، بل لصُفّي هو والمجموعة الصالحة الملتفة حوله.

في مواقف نادرة نلمس من الإمام (عليه السلام) رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته.

من تلك المواقف، رسالة تقريع واسعة وجهها الإمام (عليه السلام) الى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو (محمد بن شهاب الزهري) . ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الإمام يخاطب بها الاجيال على مر العصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الأغلال التي تشدّه الى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم. ولم يستطع بالفعل. لقد قضى عمره في خدمتهم، ودوّن كتاباً ووضع حديثاً ليتزلف اليهم.

هذه الرسالة اذن وثيقة توضح موقف الإمام من أوضاع زمانه. ونصها موجود في كتاب (تحف العقول) .

وثمة وثيقة أخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الإمام (عليه السلام) الى عبد الملك بن مروان بعد أن أرسل الثاني رسالة يعيّر فيها الإمام بزواجه من أمته المحررة، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للإمام (عليه السلام) أنه محيط بكل ما يفعله حتى في أموره الشخصية، كما أراد ايضاً أن يذكر الإمام بقرابته منه طمعاً منه في استمالته.

والإمام (عليه السلام) في رسالته الجوابية يوضح رأي الإسلام في هذه المسألة، ويؤكد أن امتياز الايمان والإسلام يلغي كل امتياز آخر. ثم باسلوب كناية في غاية الروعة يشير الإمام الى جاهلية آباء الخليفة، بل لعله يشير ايضاً الى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية اذ يقول له: «فلا لؤم على امرئ مسلم، انما اللؤم لؤم الجاهلية».

وحين قرأ الخليفة الأموي عبارة الإمام (عليه السلام) أدرك معناها تماماً، كما أدرك معنى ابنه سليمان اذ قال: «يا أمير المؤمنين لَشَدَّ ما فخر عليك علي بن الحسين!!».

والخليفة بحنكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له: «يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس».

ونموذج آخر من هذه المواقف رد الإمام (عليه السلام) على طلب تقدم به عبد الملك بن مروان. كان عبد الملك قد بلغه أن سيف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عند الإمام. فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة، وهدده إن أبى بقطع عطاء بيت المال عنه.

فكتب اليه الإمام (عليه السلام) :

«أما بعد فإن الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جل ذكره: {إن الله لا يحب كل خوان كفور} فانظر أيّنا أولى بهذه الآية».

وفي غير هذه من المواقف نرى الإمام السجاد (عليه السلام) يتحرك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الأفراد وصنع الشخصية الإسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات و.. وبذلك قطع في الواقع الخطوة الأولى على تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة إسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) . وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الإمام (عليه السلام) وأتباعه رغم هذا النهج ــ المسالم على الظاهر ــ من بطش الجهاز الأموي وتنكيله. فمن أتباعه من قتل بشكل فظيع، ومنهم من سجن، ومنهم من تشرّد بعيداً عن الأهل والديار، والإمام (عليه السلام) نفسه في مرة واحدة على الأقل سيق مقيداً بالاغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام، وتعرض مرات لألوان الأذى والتعذيب. ثم دسّ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك له السمّ واستشهد سنة 95 هجرية.

حياة الإمام الباقر (عليه السلام)

استمرار منطقي لحياة الإمام السجاد (عليه السلام)

أصبح أتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل، ودعوة أهل البيت التي اعترتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرّة وثورة التوابين وبسبب بطش الأمويين، قد أصبح لها وجود منتشر وواضح في كثير من الأقطار الإسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان، وأصبح لها «تنظيم» فكري وعملي. وولّت تلك الأيام التي قال الإمام السجاد (عليه السلام) عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصاً. وأضحى الإمام الباقر (عليه السلام) يدخل مسجد النبي (صلّى الله عليه وآله) في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن رأي الإسلام في مختلف شؤون الحياة. ويفد عليه أمثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وأبو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علم الإمام أو ليحاجّوه في أمور مختلفة. وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة أهل البيت، ويعبّرون عن أهدافها، منهم الكميت الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) . وتناقلت الألسن هذه الروائع الأدبية وحفظتها الصدور.

ومن جهة أخرى فإن خلفاء بني مروان أحسّوا خلالِ هذه الفترة بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان (ت86 هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه والجلال.

مهما يكون الأمر حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام وأتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم.

وكان من الطبيعي أن يقطع الإمام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميّز حياة الإمام الباقر (عليه السلام) .

ويمكن تلخيص حياة الإمام الباقر (عليه السلام) خلال الأعوام التسعة عشر من إمامته (95ـ114هـ) بما يلي:

إن أباه الإمام السجاد (عليه السلام) عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر أبنائه وعشيرته وسلّمه صندوقاً.. تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقال له: «يا محمد هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك. ثم قال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً». لعل هذا الصندوق يرمز إلى أن الإمام السجاد سلّم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلّمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي) .

ومع بدء الإمام وأتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) ، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ أبعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجد لها شيوعاً في أصقاع بعيدة عن مركز السلطة الأموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية.

إن الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الإمام وأتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الإلهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، فغرقوا إلى الأذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصيخون لنصيحة سمعاً «إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا».

ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو منحى استرضاء الطاغوت الأموي وتلبية رغباته. ومن هنا فإن كل أبواب عودة الناس إلى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة أهل البيت بواجبها «وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا».

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت إلى تقريع أولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة إلى ايقاظ ضمائرهم أو ضمائر اتباعهم من عامة الناس.

نرى الإمام يقول للكميت الشاعر مؤنباً:

«امتدحت عبد الملك؟» قال: ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت يا أسد، والأسد كلب، ويا شمس، والشمس جماد، ويا بحر، والبحر موات، ويا حيّة، والحيّة دُويبة منتنة، ويا جبل، وإنما هو حجر أصمّ. فتبسم الإمام وأنشد الكميت بين يديه:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

بهذه الميمية يضع الحدّ الفاصل بين الاتجاه العلوي والاتجاه الأموي في المكانة والسيرة في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الإمام، فيؤخذ بهيبة الإمام وشخصيته ووقاره ومعنويته وفكره، فيقول له: «يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفاً».

فقال له الإمام: «إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه».

ومن الأبعاد الأخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما أحاط بأهل البيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس الميتة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستنهاض عزائمهم الراكدة، وتوجيههم وجهة ثورية حركية.

عن المنهال بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر (عليه السلام) إذ جاءه رجل فقال له: كيف انتم؟ فقال الإمام الباقر:

«أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يذبّح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد قرشياً. قالوا لهم: صدقتم. فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأنا ذرية محمد، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرها. فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال: فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله إنه لأسرع الينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم».

فما إن بدت على الرجل علامات الهياج جرّاء استثارات الإمام حتى سارع الإمام إلى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والإمام رائد على هذا الطريق يصيبه البلاء أولاً قبل أن يصيب شيعته.

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الإمام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة، نراه بين هؤلاء الاتباع كالدماغ المفكر بين أعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحيوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بأيدينا وثائق تبين هذه الارتباط متمثلاً بإعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الاتباع، وبتنظيم مترابط محسوب بينهم.

منها وصية الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر الجعفي في أول لقاء بالإمام أن لا يقول لأحد انه من الكوفة، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة. وبذلك يعلّم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الإمام فيه قدرة على حفظ الأسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الإمام. ويبلغ به الأمر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير:

«كنت ملازماً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر (عليه السلام) فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حتى وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلّينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. قال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم امسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاماً له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتاً من نحو هذا، فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، الناس يقولون: جنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك الي وإليه أن أنظر رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا، أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يعلب على القصب. فقال: الحمد الله الذي عافاني من قتله».

هذا النموذجّ من نماذج الارتباط بين الإمام وخاصة أتباعه، يوضّح دقة التنظيم والارتباط، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطنة الحاكمة من هؤلاء الاتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الإمام بأتباعه المقربين، بل كان يراقب هذه

العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابهتها.

وبالتدريج يبرز جانب المجابهة في الحياة الإمام الباقر (عليه السلام) وفي حياة الشيعة ليسجل فصلاً آخر في حياة الأئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثية لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الإمام. وهذا يعود إلى عوامل كثيرة منها جوّ البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقية بيت اتباع الإمام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الإمام السياسية.. ولكن ردود الفعل المتشددّة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخذ جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر أقوى حاكم أموي، ضد الإمام الباقر (عليه السلام) كل أسباب الشدّة والحدّة، فإن ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جرّاء حركة الإمام وأتباعه. لو كان الإمام منهمكاً فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فإن الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الإمام، لأن ذلك يدفع بالإمام وبأتباعه إلى موقف ساخط متشدّد كالذي اتخذه الثائر العلوي شهيد فخ الحسين بن علي من السلطنة.

باختصار، موقف السلطنة المتشدّد من الإمام الباقر (عليه السلام) يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الإمام من عمل معارض للسلطة.

من الأحداث الهامة في أواخر حياة الإمام الباقر (عليه السلام) استدعاء الإمام إلى الشام عاصمة الخلافة الأموية. فالخليفة الأموي أراد أن يستوثق من موقف الإمام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله وإرساله مخفوراً إلى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضا جعفراً الصادق) .

يؤتى بالإمام إلى قصر الخليفة. وهشام أملى على حاشيته طريقة مواجهة الإمام لدى وروده. تقرر أن يبتدئ الخليفة ثم تليه الحاشية بإلقاء سيول التهم على الإمام، وكان يستهدف في ذلك أمرين: أولهما إضعاف معنويات الإمام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة إدانة الإمام في مجلس يضم زعيمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الإمامة) ، ثم نقل هذه الإدانة عن طريق أبواق البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصاراً على خصمه.

يدخل الإمام مجلس الخليفة، وخلاف ما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير إليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الأذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الإمام أضرم نار الحسد والحقد في قلب هشام.. وبدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي، لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم، وجعل يوبّخه.

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والإمام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الإجابة.. وحين أفرغت البطانة ما في كنانتها وخيّم السكوت على المجلس، نهض الإمام وتوجه إلى الحاضرين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بيّن تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بيّن فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير إسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال:

«أيها الناس! أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة. يقول الله عزّ وجلّ: والعاقبة للمتقين».

عبارات تظلّم وتهكم وتبشير وتهديد وإثبات وردّ جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الإيمان بحقّانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الأمر بسجن الإمام.

الإمام في سجنه واصل علمه التغييري فأثّر على من معه في السجن. بلغ الأمر هشاماً فكبُر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصّنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويرسل إلى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام.

مرت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا (مدين) . وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر أبواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعاً. واشتد على أتباع الإمام الجوع والعطش. صعد الإمام على مرتفع يطل على المدينة ونادى بأعلى صوته:

«يا أهل المدينة الظالم أهلها. يقول الله: {بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ}».

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب (عليه السلام) . والله لئن لم تخرجوا الى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدّقوني وأطيعوني.. فإني لكم ناصح.

استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا الى أبي جعفر وأصحابه الأسواق.

وآخر فصل في هذه الرواية يبين ايضاً بطش الخليفة العباسي وتجبّره. فبعد أن فتح أهل المدينة أبوابها للإمام وصحبه، كتب بجميع ذلك الى هشام. فكتب هشام الى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته.

ومع ذلك، يتجنب الإمام أي مواجهة حادة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم، فلا يعمد الى سيف، ولا يسمح للأيدي المترعة الى السلاح أن يشهره، ويوجهها توجيهاً حكيماً، وسيف اللسان ايضاً لا يشهره اذا لم يتطلب عمله التغييري الأساسي الجذري ذلك. ولا يسمح لأخيه زيد، الذي بلغ من الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيما ثورة، أن يخرج (يثور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء أساس ايديولوجي في اطار مراعاة التقية السياسية.

ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الإمام ــ كما أشرنا ــ من توضيح (حركة الإمامة) لأتباعه الخلّص. وإذكاء عمل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسي الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحياناً الى اثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق. والتلويح بمستقبل مشرق هو أحد من السبل التي مارسها الإمام الباقر (عليه السلام) مع أتباعه. وهو يشير الى تقويم الإمام (عليه السلام) لمرحلة التي يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عيينة: بينا أنا مع أبي جعفر (عليه السلام) والبيت غاص بأهله اذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت. فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الإمام وقال: يا بن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك. فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوتر كان بيني وبينه. والله إني لأحلُّ حلالكم وأحرّم حرامكم وانتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الإمام: إليّ إليّ، حتى أقعده الى جنبه، ثم قال: «أيها الشيخ، إن أبي علي بن الحسين (عليه السلام) أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه، فقال له أبي (عليه السلام) : إن تمت ترد على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين.. وإن تعش ترى ما يقرّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى». قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبا جعفر. فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر، إن انا متّ أرد على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين وتقرُ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي واستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقرّ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتى لصق الأرض. وأقبل اهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الإمام أن يناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم ضمّها الى صدره، وقام فودّع وخرج، والإمام ينظر اليه ويقول: «من أحب أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا».

مثل هذه التصريحات، تذكي الأمل في قلوب تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخماً ودفعاً نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الإسلامي العادل.

تسعة عشر عاماً من إمامة الباقر (عليه السلام) تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح.. تسعة عشر عاماً من التعليم الأيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقية، واذكاء روح العمل.. تسعة عشر عاماً من مسير شائك وعر يتطلب كثيراً من الجد والجهد. وحين أشرقت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفس أعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموّجه سوف يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكن الإمام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة، ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده الصادق (عليه السلام) في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهاً يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقية التي مارسها الإمام الباقر (عليه السلام) والاسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «قال لي أبي: يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا النوادب تندبني عشر سنين بمنى ايام منى».

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث حياة الإمام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلّف الإمام (800) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى.. وندب الإمام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشعّ دائماً بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمركز الوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسك الحج يمر بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلا في منى، حيث يبيت الليلتين او الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطّلع. وندب الإمام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّى، من هو؟ فيحصلون الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. إنه من أبناء رسول الله، وأستاذ الفقهاء والمجتهدين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ لم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الأموي؟ و.. وعشرات الأسئلة التي كانت

تثار حين يندب الإمام في هذا المكان ثم يحصل السائلون على الاجابة.. وتنتشر الأخبار في أطراف البلاد وأكنافها بعد عودة الحجيج الى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمع المسلمين، وليبثّ روح التشيع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الإمام، وهكذا خطط لما بعد وفاته، فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً.

توفى الإمام الباقر (عليه السلام) وهو في السابعة والخمسين من عمره، وعلى عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أمية اقتداراً. ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإن ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة، أي الإمام الباقر، فأوعز هشام الى عملائه أن يدُسّوا السم للإمام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

قيادة الإمام الصادق (عليه السلام)

وتحمّل الإمام الصادق (عليه السلام) مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقّدة وصعبة للغاية.
فالانتفاضات تنشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة، والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها خراسان والعراق، والجهاز الحاكم يبطش دون رحمة، ويخلق حالة من الذل والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقلّ عن خطر الساسة والحكام، وهم الذين يفترض بهم أن يكونوا ملاذ الناس وملجأهم، كثير من هؤلاء كانوا يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة. وكثير منهم كانوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بتوافه الأمور، ويثيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمتّ بصلة إلى الإسلام وإلى معاناة الجماهير. مهمة الإمام الصادق (عليه السلام) في هذه الظروف المظلمة هي ما ذكرناه بشأن مهمة الإمامة، وتتلخص في طرح الفكر الإسلامي الصحيح، أي تبيين الإسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلة والمغرضة، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الإسلامية، وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.
كلا المهمتين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية، تشكلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم. ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة، فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان و وعّاظه باسم الدين إلى المجتمع. من هنا فإن العملية الفكرية لها الأولوية، لأنها تقضي على الزيف الديني الذي يستند إليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة أخرى فإن الأوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري، والحرب والفقر والاستبداد عوامل تغذّي روح الثورة، أضف إلى ذلك عامل الأجواء التي وفّرها نشاط الإمام الباقر (عليه السلام) في المناطق القريبة والنائية.
إن الاستراتيجية العامة للإمامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية. ومتطلّباتها هي:
أولاً: إيجاد تحمل فكر الإمامة وتهضمه، وتتطلع بشوق إلى تطبيقه.
وثانياً: إيجاد مجموعة منظّمة مجاهدة مضحّية.
وهذه المتطلّبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم، وإعداد الأرضية النفسية لتقبّل الفكر الإسلامي الثائر في جميع الأقطار، وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد افراد مضحّين متفانين يشكلون التنظيم السرّي للدعوة.
وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الإمامة الحقة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت، وعلى التفرعن والتجبّر والعدوان والظلم في المجتمع، وتلتزم بالمعايير الإسلامية، لابدّ أن تستند إلى إرادة الجماهير وقوّتها وإيمانها ونضجها. خلافاً لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها، دون أن تتقيّد بمبادئ أخلاقية واجتماعية. فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة، وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الإمامة على المدى العاجل، وهو أيضاً سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الإمامة (مثل حركة العباسيين) .
الظروف المساعدة والأرضية المناسبة التي وفّرها نشاط الإمام السابق ــ الباقر (عليه السلام) ــ أدّت إلى أن يظهر الإمام الصادق (عليه السلام) ــ في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة ــ بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره أتباع أهل البيت في أيامهم. والإمام الباقر (عليه السلام) ذكر بالإشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم.
عن جابر بن يزيد الجعفي: «سئل الإمام الباقر (عليه السلام) عن القائم فضرب يده على أبي عبد الله (عليه السلام) وقال: هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد (صلّى الله عليه وآله)» .
والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان، وهو المهدي (عليه السلام) الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان، وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقيل خطير، سواء في اسلوب النشاط الفكري أو التنظيمي أو بأية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم.
فالإمام الباقر (عليه السلام) يركز هنا على مفهوم نهوض الإمام الصادق (عليه السلام) بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة، ولا يركز على النتيجة.. بل في رواية أخرى يتحدّث بلغة تكاد تكون يائسة من إمكان انتصار حركة الإمامة على الوضع السياسي القائم.
ومن الروايات التي يركز الإمام الباقر (عليه السلام) على الدور الذي سينهض به الإمام الصادق (عليه السلام) ما رواه أبو الصباح

الكناني قال: «نظر أبو جعفر إلى ابنه أبي عبد الله فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: {ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين}».

ولعل تصريحات الإمام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الإمام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت أصحاب الباقر والصادق (عليهما السلام) يترقبون ساعة الصفر بين آونة وأخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين أتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان عن زرارة، أنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل من أصحابنا مختفٍ عن غرامة. فقال: أصلحك الله، إن رجلاً من أصحابنا كان مختفياً من غرامة، فإن كان هذا الأمر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم، وإن فيه تأخير صالح غرامة؟ فقال له أبو عبد الله (عليه السلام) : يكون، فقال زرارة: يكون الى سنة؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : يكون إن شاء الله، فقال زرارة: يكون الى سنتين؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : يكون إن شاء الله، فخرج زرارة فوطّن نفسه على أن يكون الى سنتين فلم يكن، فقال: ما كنت أرى جعفراً إلا أعلم مما هو.

وعبارة «هذا الأمر» في عرف أتباع اهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم، أي استلزام زمام الحكم او القيام بما يقرّبهم من ذلك كالثورة المسلحة مثلاً. والقائم هو الذي يقود تلك العلمية.

وفي رواية أخرى يذكر هشام بن سالم، وهو ايضاً من وجوه الشيعة المعروفة، أن زرارة قال له: لا ترى على أعوادها غير جعفر، قال: فلما توفي أبو عبد الله (عليه السلام) أتيته فقلت له: تذكر الحديث الذي حدّثتني به؟ وذكرته له، وكنت أخاف أن يجحدنيه، فقال: إني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأيي.

من مجموع ما تقدم نفهم ان الإمام الصادق (عليه السلام) كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الإمامة والتشيع. وكأن سلسلة الإمامة قد ادّخرته ليجسد مساعي الإمام السجاد والإمام الباقر (عليهما السلام) . كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي، يجب أن ينهض نهضة إسلامية أخرى. الإمامان السابقان طويا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحب، وعليه أن يقطع المرحلة الأخيرة، والظروف ــ كما ذكرنا ــ قد تهيّأت، والإمام استثمر هذه الظروف لينهض برسالته الجسيمة.

منذ استلام المسؤولية حتى الوفاة، قضى 33 عاماً في جهاد متواصل، وخلال هذه الأعوام كانت الظروف في مد وجزر، مرة تتجه لصالح مدرسة أهل البيت، ومرة أخرى تعاكسها، مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة أخرى تشتد الضغوط وتختنق الأنفاس، فيخيّل الى أصحاب الإمام أن كل الآمال قد تبدّدت. والإمام الصادق (عليه السلام) في كل هذه الأحوال ماسك بدفة القيادة بعزم وتصميم، يجتاز بالسفينة عبر هذه الأمواج المتلاطمة الممزوجة بالأمل واليأس، لا يفكر إلا بما يجب قطعه في المستقبل من أشواط، باعثاً الجد والنشاط والايمان في اتباعه للوصول الى ساحل النجاة.

ويلزمنا أن نشير هنا الى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) ، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الأولى لبدايات إمامة الصادق (عليه السلام) التي اقترنت بأواخر أيام بني أمية. كانت حياة صاخبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام، يمكن أن نفهم بعض ملامحها من خلال مئات الروايات. غير أن المؤرخين والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتب منسجم مترابط، ولابد للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة، ليفهم محتوى الرواية وتفاصيلها.

ولعل أحد أسباب هذا الابهام يكمن في سرية حركة الإمام وأتباعه.. فالتنظيم السري القائم على أسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنتشر هذه المعلومات إلا بعد أن تحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسيين، لأن حركتهم انتصرت. ولا شك أن حركة أهل البيت لو قدّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الأمور، لأطلعنا على أسرار تنظيمها الواسع.

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملاً في هذا الغموض، هو أن المؤرخين كانوا يدوّنون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء ولهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشأن الثائرين والمظلومين والمسحوقين، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرّى ويبحث ويخاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة، وغنيمة باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء.

والمؤرخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المنوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الإمام الصادق (عليه السلام) ، ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتدّ به من المعلومات عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) او أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا الى الخط العام لحياة الإمام الصادق (عليه السلام) هم اكتشاف المعالم الهامة لحياة الإمام من خلال الأصول المتناثرة العامة لفكر الإمام وأخلاقه. ثم نبحث في القرائن والأدلة المتناثرة التاريخية والقرائن الأخرى

غير التاريخية لنتوصل الى التفاصيل.

والمعالم الهامة البارزة في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:
1ــ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها.
2ــ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) .
3ــ إقامة تنظيم سرّي إيديولوجي ــ سياسي.
وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الإمام (عليه السلام) ، وأن يكون ذلك قدر المستطاع باسلوب المؤرّخين لا باسلوب المحدّثين.

1ــ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات الأولى التي أعقبت رحيل النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) . كانت مسألة إثبات إمامة أهل البيت (عليهم السلام) تشكل طليعة الدعوة في كل أعصار الإمامة.. هذه المسألة نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي (عليهما السلام) ، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت، مثل زيد بن علي. ودعوة الإمام الصادق (عليه السلام) لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع، يجب علينا أن نعرف أولاً مفهوم «الإمامة» في الفكر الإسلامي. وما معنى الدعوة إلى الإمامة؟

كلمة «الإمامة» تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق، وفي الفكر الإسلامي تطلق غالباً على مصداقها الخاص، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية، الفكرية منها والسياسية.

وأينما وردت في القرآن مشتقات لكلمة الإمامة (إمام، أئمة) ، فيراد بها هذا المعنى الخاص لقيادة الأمة. ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية، وفي مواضع أخرى يراد بها القيادة السياسية، أو الاثنتين معاً.

بعد رحيل النبي (صلّى الله عليه وآله) وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصة، لأن مسألة القيادة السياسية شكلت المحور الأساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلولها السياسي أكثر من أي مدلول آخر، ثم انضمّت إليها بالتدريج معانٍ أخرى، حتى أصبحت مسألة «الإمامة» تشكل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الإمام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الإسلامي، وهو معنى سياسي للإمامة.

إن الإمامة في مدرسة أهل البيت ــ التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار فكري إسلامي ــ لها المعنى نفسه، ونظرية هذه المدرسة بشأن الإمامة تتلخص فيما يلي:

الإمام والزعيم السياسي في المجتمع الإسلامي يجب أن يكون منصوباً من الله، بإعلان من النبي. ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسّراً للقرآن وعالماً بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوماً مبرّأً من كل عيب خلقي وأخلاقي وسببي. ويجب أن يكون من سلالة طاهرة نقية و...

وبذلك فإن الإمامة كانت في العرف الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاص بأتباع أهل البيت تعني، إضافة إلى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والأخلاقية أيضاً.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعاً بخصائص هي ــ إضافة إلى قدرته على إدارة الأمور الاجتماعية ــ مقدرته على التوجيه والإرشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية. وإن لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يرقى إلى مستوى «الإمامة الحقة». وليس بكافٍ ــ في نظرهم ــ حسن الإدارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وأمثالها من الخصائص التي كانت معياراً كافياً لدى غيرهم.

فمفهوم الإمامة لدى اتباع أهل البيت ــ إذن ــ يتجه إلى إعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية. فالإمام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية. ومن هنا كان «النبي» (صلّى الله عليه وآله) إماماً أيضاً، لأنه القائد الفكري السياسي للمجتمع الذي أقام دعائمه. وبعد النبي تحتاج الأمة إلى إمام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك المسؤولية السياسية) . ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ثم تنتقل الإمامة بعده إلى الأئمة المعصومين من ولده.

ولابدّ من الإشارة إلى أن تداخل المهام الثلاث للإمامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهذيب الأخلاقي والروحي في الإمامة الإسلامية ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الإسلامي للحياة البشرية. فقيادة الأمة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة أيضاً، وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الإمامة لدى الشيعة كان لابد أن يعيّن الإمام من قبل الله سبحانه.

نستنتج مما سبق أن الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السطحية، مفهوماً يقابل «الخلافة» و «الحكومة» أو منصباً منحصراً بالأمور المعنوية والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشيعي «قيادة الأمة» في شؤون دنياها، وما يرتبط بذلك من

تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئيس الدولة) . وأيضاً في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحلّ المشاكل الفكرية وتبيين الإيديولوجية الإسلامية. «قيادة فكرية».

وهذه المسالة الواضحة أضحت ــ مع الأسف ــ غريبة على أذهان اكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من مئات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال:

في كتاب «الحجة» من «الكافي» حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الإمام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة بأنها: «هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين (عليه السلام) وميراث الحسن والحسين (عليه السلام) ، إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إن الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزّكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف».

وحول الإمام أنه:

«النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الردى، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية، وأمين الله في حلقه، وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين».

كل ما كان يمارسه النبي (صلّى الله عليه وآله) من مسؤوليات ومهام يتحملها علي (عليه السلام) والأئمة من ولده.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (عليه السلام) نرى تأكيداً على إطاعة «الأوصياء» وتوضّح الرواية أن الأوصياء هم أنفسهم الذين عبّر عنهم القرآن بأولي الأمر.

مئات الروايات المتفرقة في الأبواب المختلفة تصرّح أن مفهوم الإمام والإمامة في الفكر الشيعي ما هو إلا القيادة وإدارة شؤون الأمة المسلمة، وأن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم الأصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدل جميعاً بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في ادّعائهم الإمامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي، بل كانوا يطالبون بالحكومة أيضاً. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل إنما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة.

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية، بينما كانت في فهم أصحاب الأئمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق، حتى أن «الكميت» في إحدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بأنهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم.

نعود إلى الموضوع الأصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) وسائر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كان يدور حول «الإمامة». ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية، أمامنا روايات متضافرة تنقل بوضوح وصراحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) ادّعاءه الإمامة. وكما سنوضح فيما بعد، أن الإمام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكام زمانه، وأنه يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي، وصاحب الولاية والإمامة. ومثل هذه التصدّي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح. ولابدّ أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الأرضية الإيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الأفراد، وأن جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل، وأن يكون القائد ــ أخيراً ــ قد اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فإن إعلان إمامة شخص معين وقيادته الحقة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه.

المسألة الأخرى، التي لابدّ من التركيز عليها في هذا المجال، أن الإمام ما كان يكتفي في بعض الموارد بإثبات إمامته وحسب، بل يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي إنه يطرح في الحقيقة سلسلة أئمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال.

هذا الموقف يشير إلى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتواصله من الأزمنة السابقة إلى عصر الإمام الصادق (عليه السلام) . إن الإمام الصادق (عليه السلام) يقرر إمامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة أسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الإسلامية، وارتباطها بصاحب الدعوة الرسول الأكرم (عليه أفضل الصلاة والسلام) . ولنعرض بعض نماذج دعوة الإمام:

أروع رواية في هذا الباب عن «عمرو بن أبي المقدام»، وفيها تصوير لواقعة عجيبة.

في يوم التاسع من ذي الحجة إذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء منسك الوقوف، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق.. من أقصى خراسان حتى سواحل الأطلنطي.. والموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الإسلامي. انضمّ الإمام (عليه السلام) إلى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة، ليوصل إليها كلمته، يقول الراوي: رأيت الإمام

قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلغ أسماع الحاضرين ولينتقل إلى آذان العالمين وهو ينادي:
«أيها الناس، إن رسول الله كان الإمام ثم كان علي بن أبي طالب، ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم...» فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه، اثني عشر صوتاً.

ورواية أخرى عن «أبي الصباح الكناني» أن الإمام الصادق (عليه السلام) يصف نفسه وأئمة الشيعة بأن لهم «الأنفال» و«صفو المال»..

عن أبي الصباح قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : «يا أبا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه».

و «صفو المال» هو من الأموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين، كي لا يستأثر به أحد دون آخر ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس، بل إنه يبقى لدى الحاكم الإسلامي يتصرف به لما يحقق مصلحة عامة المسلمين. وكان الحكام الظلمة يستأثرون بهذا المال ويجعلونه مختصاً بهم غصباً. والإمام يصرّح بأن «صفو المال» يجب أن يكون لهم، وهكذا الأنفال. وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤولاً عن استثمار هذه الأموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الأمة.

وفي حديث آخر يذكر الإمام الصادق (عليه السلام) أسماء أسلافه من الأئمة (عليهم السلام) واحداً واحداً، ويشهد بإمامتهم ووجوب طاعتهم، وحين يصل إلى نفسه يسكت، والمخاطبون يعلمون جيداً أن ميراث العلم والحكم بعد الإمام الباقر (عليه السلام) وصل إلى الإمام الصادق. وبذلك يعلن الإمام (عليه السلام) حقه في قيادة الأمة باسلوب يجعله مرتبطاً بجدّه علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وفي أبواب كتاب الحجة من «الكافي» وكذلك في الجزء 47 من «بحار الأنوار» أحاديث كثيرة من هذا القبيل، تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادّعاء الإمامة والدعوة إليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أمامنا شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الإمام (عليه السلام) في جميع أرجاء العالم الإسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمراً حتمياً لا مراء فيه. وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوثوق بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالاً قاطعاً، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال.

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة:

1ــ ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الأئمة (عليهم السلام) وأتباعهم، وكانت الأموال تحمل من أطراف العالم إلى المدينة كذلك والأسئلة الدينية تتقاطر عليها.

2ــ اتساع الرقعة الموالية لآل البيت (عليهم السلام) خاصة في البقاع الحساسة من العالم الإسلامي.

3ــ تجمّع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الإمام (عليه السلام) .

فهل أن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة؟

ولابد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادةً كل الجد في إلغاء حتى اسم علي وآل علي (عليه السلام) ، بل سبّ علي على المنابر، وتسليط أنواع البطش والارهاب على اتباعهم. فكيف أمكن في مثل هذا الجو خلق قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الأميال للوصول الى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت (عليه السلام) وتأخذ عنهم فكر الإسلام في الحياة الفردية والاجتماعية، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، او بعبارة الروايات، تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج؟!!

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة (عليهم السلام) وزهدهم، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الاتباع دائماً عن الثورة المسلحة؟

ألا يدل كل ذلك على وجود شبكة منظمة للدعوة الى إمامة أهل البيت (عليه السلام) بالمعنى الكامل للإمامة، أي الفكرية والسياسية؟

وهنا يطرح سؤال عن سبب سكوت التاريخ عن وجود مثل هذه الشبكة المنظمة في دعوة أهل البيت (عليه السلام) ، ولماذا لم يذكر التاريخ صراحة شيئاً عنها؟

والجواب ما أشرنا اليه مسبقاً، يكمن في التزام أصحاب الأئمة بالمبدأ الحركي الحكيم المسمّى بالتقية، الذي يحول دون نفوذ أي عنصر أجنبي في تنظيم الإمام. كما يكمن ايضاً في عدم استطاعة الحركة الجهادية الشيعية من تحقيق أهدافها ومن استلام زمام الحكم.

لو أن بني العباس لم يستولوا على السلطة لبقيت دون شك كل نشاطاتهم السرية وذكريات دعوتهم، مرّها وحلوها، حبيسة في

الصدور، دون أن يعلم بها أحد ودون أن يسجلها التاريخ.

ومع ذلك، ليست قليلة هي الروايات التي تصرح الى حدّ ما بوجود دعوة واسعة لإمامة أهل البيت (عليهم السلام) . ونكتفي برواية تقول:

قدم رجل من أهل الكوفة الى خراسان، فدعا الناس الى ولاية جعفر بن محمد (عليهما السلام) ، ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وأنكرت، وفرقة ورعت ووقفت.. ثم تقول الرواية: فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبد الله (عليه السلام) فكان المتكلم منهم، الذي ورع ووقف. فقال: أصلحك الله، قدم علينا رجل من اهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايتك، فأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الإمام (عليه السلام) : فمن أي الثلاث أنت؟ قال: من الفرقة التي ورعت ووقفت. قال: فأين كان ورعك ليلة كذا وكذا (وذكره بسقوطه في موقف شهواني) ، فارتاب الرجل.

الداعية كما ترى من أهل الكوفة، ومنطقة الدعوة خراسان، واسم الرجل مكتوم، ودعوته الى إمامة جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) وولايته وطاعته.

ثمة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم الى الإمامة، تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الأمويين والعباسيين) . هذه المنازعات كانت تدور أحياناً بلغة الاستدلال الكلامي والديني، وأحياناً بلغة الأدب الرفيع المتمثل بالشعر. وكان كل الحِجاج يقوم على أساس اثبات حق الإمامة السياسية والحكم لأئمة اهل البيت (عليهم السلام) ، ومقارعة المتربّعين ظلماً وغصباً على كرسي حكومة المسلمين. إن عصر الإمام الصادق (عليه السلام) ــ لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة ــ كان مفعماً بهذا اللون من الحِجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استناداً الى الأدلة نفسها التي يقدمها عادة الطامعون الى السلطة والمتشبثون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلين على زيف الحكم العباسي من منطق إسلامي، يقوم على أساس رفض الظلم والاجرام والخيانة بحق الأمة الإسلامية.

وللحِجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والأفكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب «العباسيون الأوائل» دور الأدب في القرنين الأول والثاني فيقول:

«.. كان الأدب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم الى هذه الفئة او تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر، يعبر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين، مبرزاً الدليل تلو لدليل على صحة دعواه، مفنّداً آراء الخصوم بكلام مؤثر واسلوب بليغ».

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في اثبات حق العباسيين في الخلافة باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك بأن الارث لا ينقل الى أبناء البنت مع وجود الأعمام، فالخلافة بعد النبي من حق العباس عم النبي ومن بعده أبناؤه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أتى يكون وليس ذاك بكائــن لبني البنــات وراثــة الأعمــام

وقال ابان بن عبد الحميد اللاحقي:

فأبنــاء عــباس همُ يرثونــه كما العمُ لابن العم في الارث قد حجب

منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الأدلة، بالمنطق نفسه، وأحياناً بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الإمامة. من ذلك استدلالهم بحديث غدير خم كقول السيد الحميري:

من كنــت مولاه فهــذا لــه مولى فلم يرضوا ولم يقنعــوا

ويردّ محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي على استدلال الشاعر العباسي بشأن وراثة الاعمام فيقول:

لِمَ لا يكون وإن ذاك لكــائــن لبنــي البنات وراثة الاعمــام

للبنت نصف كامل من مــــاله والعــم متروك بغير سهـــام

مــا للطليــق وللتراث وإنمــا صلّى الطليق مخافة الصمصام

ويرى دعبل أن كل ما حلّ بأهل البيت (عليهم السلام) من مصائب إنما هو لأنهم ورثوا النبي، فتكالب على الارث الطامعون، واضرّوا بمن له الحق في الإمامة:

أضرّ بهــم ارث النبــي فأصــبحوا تساهم فيهم خــيفة ومنــون

دعتهم ذئـــاب من أمية وانتــحت عليهم دراكاً ازمة وسنــون

وعــاثت بنو العباس في الدين عيثة تحكم فيــها ظالــم وخؤون

وسَمّوا رشيــداً ليــس فيــهم لرشده   وها ذاك مأمــون وذاك أمين
فمــا قبلت بالرشد منهــم رعـــاية   ولا للولــي بالأمــانة ديــن

وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الأول أن يجد مئات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال. وكان شعراء الشيعة وخصومهم يقيمون الحجج على دعواهم. وليس من المهم أن نعرف في هذه المواجهة مقدار صحة هذه الحجج واستقامتها، ولكن من المهم أن نعرف المحور الذي يدور حوله النزاع، والحق الذي يدعيه الجانبان.

هناك حق يدعيه كل جانب، وهذا الحق هو وراثة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الحكم وفي قيادة المسلمين.

ليس النزاع بين الجانبين العلوي والعباسي في وراثة الخصال الأخلاقية والمعنوية والفكرية للنبي (صلّى الله عليه وآله) . ليس الخلاف في أحقية هذا او ذاك في وراثة هذه الخصال. لأن هذه الخصال لا تشكل حقاً يتنازع عليه الفريقان. النزاع حول «حق» يدّعيه الجانبان. وقد رأينا أن الشعراء في زمن الإمام الصادق (عليه السلام) يدافعون عن حق الإمام في قيادة الأمة المسلمة وفي حكم المجتمع الإسلامي، ويخوضون حرباً ضد من ليست لهم صلاحية حكومة المسلمين، ولذلك شواهد كثيرة في شعر القرن الثاني الهجري.

وقبل أن نختتم هذا القسم من المناسب أن نشير الى لغة حِجاج أخرى، هي لغة الرسائل. هذه الرسائل الاحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس، وكانت تجد لها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها، وتأثيراً قوياً على الأنصار والخصوم. نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبد الله بن الحسن ذي النفس الزكية الى المنصور العباسي. هذا العلوي الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة من خصومه لتكون في أبناء علي (عليه السلام) ، يقول:

«وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟!».

ويبدو أن هذه الاستدلال أورده العلوي ردّاً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارث المزعوم، فأراد عليهم الطريق ويردّ عليهم بنفس منطقهم. ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركز على إمامة علي (عليه السلام) انطلاقاً من فهمه لمعنى الإمامة، ثم يركز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر.

2ــ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

هذا النشاط يمكن ملاحظته في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) بشكل متميّز عما نراه في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، حتى سمّي فقه الشيعة باسم «الفقه الجعفري». حتى الذين يغضّون الطرف عن النشاط السياسي للإمام الصادق (عليه السلام) يجمعون على أن الإمام كان يدير أوسع، او واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستوراً عن أعين أغلب الباحثين في حياة الإمام، هو المفهوم السياسي ومفهوم المواجهة لهذا اللون من نشاطات الإمام، وهذا ما سنتعرض له الآن.

لابد أن نذكر أولاً، أن منصب الخلافة في الإسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الأخرى. فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب، بل هي جهاز سياسي وديني. وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الإسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في المجتمع.

والخليفة في الإسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معاً. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الأولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، او لم يكن لهم منه حظ أصلاً، دفعتم الى سدّ هذا النقص عن طريق رجال دين مسخّرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً ايضاً للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الأخرى من وجود وعاظ السلاطين في الجهاز الحاكم، هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغيّر ويبدّل أحكام الدين وفقاً للمصالح. وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية ارضاءً لأولياء نعمتهم، تحت غطاء من الاستنباط والاجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة، وسنشير الى جانب منها في أقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالباً في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الأول) شكل وضع رواية او حديث، راح تدريجياً يأخذ طابع الفتوى. ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في أصول الاستنباط، ليصدروا الأحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم.

هذه العملية نفسها أنجزت ايضاً في حقل تفسير القرآن. فالتفسير بالرأي اتجه غالباً الى إعطاء مفاهيم عن الإسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق المفسّر ورأيه المستمدّ من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الإسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الإسلامية الى تيارين عامين:

التيار الأول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبة، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قرباناً على مذبح «المصالح» التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز ايضاً بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

والتيار الثاني: التيار الأصيل الأمين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبيين الأحكام الإلهية الصحيحة، وكان يصطدم ــ شاء أم أبى ــ في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاهاً شعبياً في إطار من الحيطة والحذر.

انطلاقاً من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف «الفقه الجعفري» مع الفقهاء الرسميين في زمن الإمام الصادق لم يكن اختلافاً فكرياً عقائدياً فحسب، بل كان يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض ايضاً.

أهم أبعاد هذا المحتوى اثبات خواء الجهاز الحاكم، وفراغه من كل مضمون ديني، وعجزه عن إدارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى، عدم صلاحيته للتصدي لمنصب «الخلافة». والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي.. هذه

التحريفات القائمة على أساس فكر «مصلحي» في بيان الأحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والإمام الصادق (عليه السلام) بنشاطه العلمي وتصدّيه لبيان أحكام الفقه والمعارف الإسلامية، وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم. الإمام (عليه السلام) بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرّغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبيّن التفات الجهاز الأموي الى هذا المحتوى المعارض لما قام به الإمام الصادق (عليه السلام) من نشاط علمي فقهي، ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي ــ وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحنكة ودهاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الأموي قبل وصوله الى السلطة ــ كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوطات والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الإمام الصادق (عليه السلام) التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة الينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات الى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقر حكومته ــ كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة ــ فإنه ناشئ عن هذا الالتفات ايضاً.

في حديث الإمام (عليه السلام) وتعاليمه لأصحابه ومقرّبيه كان يستند الى «خواء الخلفاء وجهلهم» ليستدل على أنهم في نظر الإسلام لا يحق لهم أن يحكموا. ونحن نشهد هذه الصيغة من الهجوم على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله (عليه السلام) : «نحن قوم فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمّون بمن لا يُعذر الناس بجهالته».

أي أن الناس انحرفوا بسبب جهل حكامهم وولاة أمورهم، وسلكوا سبيلاً غير سبيل الله. وهؤلاء غير معذورين لدى الله. لأن إطاعة هؤلاء الحكام كانت عملاً انحرافياً، فلا يبرّر ما يستتبعها من وقوع في الانحرافات.

في تعليمات الأئمة (عليهم السلام) قبل الإمام الصادق (عليه السلام) وبعده نرى ايضاً تركيزاً على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والايديولوجية. ففي رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن جدّه الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قال: «إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني اسرائيل، أينما دار التابوت دار الملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) وأينما دار السلاح فينا دار العلم.. وفي رواية أخرى: حيثما دار السلاح فينا فثمَّ الأمرُ (الحكم)» .

ويسأل الراوي الإمام: فيكون السلاح مزايلاً (مقارناً) للعلم؟

قال الإمام: لا. أي أن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معاً.

الإمام (عليه السلام) إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من شروط الإمامة، ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي، وجمع عدد غفير من مشتاقي علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عملياً أصالة المحتوى الديني لمدرسته، وزيف الظاهر الديني الذي يتقمّصه جهاز الخلافة ومن لفّ لفّه من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادئ يضفي على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الحكام العباسيين الأوائل الذين قضوا سنين طوالاً قل تسلّمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي والى جانب أنصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات، وكانوا متفهّمين لدور الهجوم والمواجهة الذي يؤديه هذا النشاط في الفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الأمويين. وقد يكون هذا السبب هم الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الإمام الصادق (عليه السلام) أن يمنع الإمام زمناً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردّد الناس عليه. حتى أن المفضل بن عمر يقول: «إن المنصور قد كان همّ بقتل أبي عبد الله (عليه السلام) غير مرة، فكان اذا بعث اليه ودعاه ليقتله فاذا نظر اليه هابه ولم يقتله، غير أنه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس، واستقصى عليه أشد الاستقصاء، حتى أنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه في نكاح او غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون اليه فيعتزل الرجل وأهله، فشق على شيعته وصعب عليهم..».

3ــ إقامة تنظيم سري ايديولوجي ــ سياسي

مرّ بنا أن الإمام الصادق (عليه السلام) قاد في أواخر العصر الأموي شبكة اعلامية واسعة استهدفت الدعوة الى إمامة آل علي (عليهم السلام) وتبيين مسألة الإمامة بشكلها الصحيح. وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الإسلامي، وخاصة في العراق وخراسان لنشر مفاهيم الإمامة.

ونشير هنا الى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للإمام الصادق (عليه السلام) وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدها ابهاماً. وكما ذكرنا، لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الإمام او أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات ــ السياسية ــ الفكرية.

فهذا مما لا يمكن الكشف عنه. الشيء المعقول هو أن الإمام ينفي بشدة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه، ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة (عليهم السلام) ايضاً من حقه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. اذن فلابد أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال. بهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة (عليهم السلام) خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن الى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة (عليهم السلام) .

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف، وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد ودماغ مفكر واحد، تسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن الإمام علي (عليه السلام) (أي خلال السنوات الخمس والعشرون بين وفاة الرسول الأكرم وبيعته للخلافة) كان يجمعها الايمان بأحقية الإمام علي (عليه السلام) في الخلافة، وكانت تعلن وفائها الفكري والسياسي للإمام، غير أنها كانت تحذو حذو الإمام علي (عليه السلام) في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الإسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الإمام علي (عليه السلام) في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الإسلام ونشره، ومحاولة الحدّ من الانحرافات. واتخذت لولائها هذا اسم «شيعة علي»، ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي (عليه السلام) بشكل حكيم. وعملهم هذا كان مقدمة لالتفاف الناس حول الإمام وإقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الإمام علي (عليه السلام) مقاليد الأمور سنة 35 هجرية، كان حول الإمام علي صنفان من الناس: صنف عرف الإمام ومكانته وفهم معنى الإمامة وآمن بها، وهم شيعته الذين تربّوا على يد الإمام بشكل مباشر او غير مباشر. وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الإمام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي ربّاها الإمام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين أتباع الإمام صنفين من الأفراد بينهما تفاوت كبير: صنف يضم عماراً ومالكاً الأشتر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد وأمثالهم، وصنف من مثل أبي موسى الأشعري وزياد بن أبيه نظرائهم.

بعد حادثة صلح الإمام الحسن (عليه السلام) كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الإمام لنشر فكر مدرسة أهل البيت، ولمّ شتات الموالين لهذا الفكر، اذ اتيحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الأموية. وهكذا كان دائماً، فالاضطهاد يؤدي الى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذّرها بدل تبعثرها وتشتّتها. واتجهت استراتيجية الإمام الحسن (عليه السلام) الى تجميع القوى الأصيلة الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الأموي، ونشر الفكر الإسلامي الأصيل في دائرة محدودة، ولكن بشكل عميق، وكسب الأفراد الى صفوف الموالين، وانتظار الفرصة المواتية للثورة على النظام وتفجير أركانه، وإحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الإمام الحسن (عليه السلام) أمام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برئاسة المسيب بن نجية وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الإمام الحسن (عليه

السلام) بعد حادثة الصلح في المدينة، حيث اتخذها الإمام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة والاشتباك مع جيش الشام، الإمام يستدعي هذين الاثنين من بين الجمع، ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الاثنان الى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة، ولابد من العودة الى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها.

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدث ببعض المؤرخين المعاصرين الى اعتبار ذلك المجلس الحجر الأساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الإمام الحسن (عليه السلام) والرجلين القادمين من العراق، فإن مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الإمام علي (عليه السلام) من قبل حين أوصى المقربين من أصحابه بقوله: «لو قد فقدتموني لرأيتم بعدي أشياء يتمنّى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثَرَة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه، فاذا كان ذلك:

ــ فاعتصموا بالله جميعاً ولا تفرقوا.

ــ وعليكم بالصبر والصلاة.

ــ والتقية.

واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده (التلوّن) . لا تزولوا عن (الحق وأهله) فإن من استبدل بها هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً».

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الأموي، ويوجه المؤمنين الى التلاحم والتعاضد والتنسيق والانسجام، يعتبر أروع وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة أهل البيت (عليهم السلام) . وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الإمام الحسن (عليه السلام) واثنين من الشيعة الخلّص. ومما لاشك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعاً مطلعين على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرّر ما كان يصدر من بعض صحابة الإمام الحسن (عليه السلام) من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول الإمام الذي مضمون: «.. من يدري، لعل اختبار لكم ونفعٌ زائلٌ لأعدائكم ..».

وفي هذه الاجابة إشارة خفية الى سياسة الإمام وتدبيره.

خلال الأعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما أحاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثف مضاد، بلغ درجة لعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الإمامين الحسن والحسين (عليهما السلام) من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر أهل البيت واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم.

ولنلقِ نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاماً من صلح الإمام الحسن (عليه السلام) .

في الكوفة نرى رجال الشيعة من أبرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلمّ بالبعض الآخر.

حين يستشهد بعد أعوام أحد رجال الشيعة وهو «حجر بن عدي» ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الإسلامية، على الرغم الارهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والأسى بشخصية معروفة في خراسان ان يموت كمداً بعد إعلان الاعتراض الغاضب.

وبعد موت معاوية ترد على الإمام الحسين (عليه السلام) آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الإمام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة «التوابين»، او ينخرطون في جيش المختار وابراهيم بن مالك ضد الحكم الأموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الإسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرك الموالي لآل البيت (عليهم السلام) . هل يمكن أن تتم دون وجود نشاط مكثف محسوب منظم متحد في الخطة والهدف؟!

الجواب: لا طبعاً. فالإعلام الهائل، الذي وجهته السلطة الأموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء، لا يمكن إحباطه وإفشاله دون إعلام مخطط مرسوم، ينهض به تنظيم منسجم موحّد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذه الجهاز العلوي المنظم وتصاعدت سرعة عمله. حتى أن والي المدينة يكتب الى معاوية ما مضمونه: «أما بعد، فإن عمر بن عثمان ــ عين والي المدينة على الحسين (عليه السلام) ــ أخبرنا بأن رجالاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي، وتدور بينهم أحاديث حول رفع راية التمرد والعصيان.. فاكتبوا لنا ماذا ترون».

بعد واقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين (عليه السلام) تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أصيبوا بها من مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) ، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل

بيته في كربلاء. وكان هذه التحرك مؤطراً بالألم والحسرة والأسف.

يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم القوم بعد القوم والثغر بعد الثغر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية.

وحقاً ما تقوله مؤلّفة جهاد الشيعة اذ تعلّق على قول الطبري بالقول:

وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعماؤها، ثم لها قواتها العسكرية، وكانت جماعة «التوابين» أول مظهر لذلك كله.

ويبدو من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية، أن الشيعة كانوا يتولّون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني أمية، فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضم الى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فإن المتحركين ضدّ بني أمية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة، أي في عداد الجهاز التنظيمي لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

انطلاقاً مما سبق، أودّ التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) أُطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالإمام الحق، تماماً كما كان الحال في زمن أمير المؤمنين (عليه السلام) .

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الإمام الحسن (عليه السلام) إلى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الإمام، وهي التي نشطت في كسب الأفراد إلى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي إلى مستوى الانخراط في التنظيم، نحو التيار العام للحركة الشيعية.

والرواية التي أوردناها عن الإمام الصادق (عليه السلام) في بداية هذا الحديث، والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة، إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

وعلى اثر النشاط المتستر الهادئ الذي قام به الإمام السجاد (عليه السلام) توسعت قاعدة هذه المجموعة، وإلى هذا يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في الرواية المذكورة: «ثم لحق الناس وكثروا». وسنرى أن عصر الإمام السجاد والإمام الباقر والإمام الصادق (عليهم السلام) شهد تحرّك هذا الجمع تحرّكاً أثار الرعب والفزع في قلوب الحكام الظالمين، ودفع هؤلاء الحكام إلى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة، فإن اسم الشيعة في القرنين الأول والثاني الهجريين وفي زمن الأئمة (عليهم السلام) ما كان يُطلق على الذين يحبّون آل بيت النبي (عليهم السلام) أو المؤمنين بحقهم وبصدق دعوتهم فقط، من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي، وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعملي بالإمام، والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه، وإقامة النظام العلوي الإسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع اسم «الولاية».

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الإمامة.. هذا الحزب الذي كان يتحرّك بقيادة الإمام (عليه السلام) وكان يتخذ من الاستتار والتقية خندقاً له مثل كل الأحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الإرهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة (عليهم السلام) ، وخاصةً الإمام الصادق (عليه السلام) . وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه المسألة دلائل صريحة، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: «هذا بيت سرّي»! وكذلك لا يمكن أن نطمئن إلى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتتبّع القرائن والشواهد والإشارات.

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الأئمة (عليهم السلام) ، أو في كلام مؤلّفي القرون الإسلامية الأولى، عبارة «باب» و«وكيل» و«صاحب السر» وهي عبارات تطلق على بعض أصحاب الأئمة. فمثلاً، يقول ابن شهرآشوب المحدث الشيعي الشهير في سيرة الإمام السجاد (عليه السلام) : «وكان بابه يحيى بن أم الطويل»، وفي سيرة الإمام الباقر (عليه السلام) يقول: «وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي»، وفي ترجمة الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: «وكان بابه محمد بن سنان». وفي «رجال الكشي» ترد حول زرارة وبريد ومحمد بن مسلم وأبي بصير عبارة: «مستودع سرّي». وفي كتب الحديث تروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) عبارة «وكيل» بشأن المعلّى بن خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الإمام، فإنها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الأئمة، نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى. واختبار هذه التعبيرات العميقة على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) . ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعّال مستتر وراء النشاط الظاهري للأئمة (عليهم السلام) .

مستودع السر

إذا لم يكن لأحدٍ «سرّ» فليس له مستودع سر. فما هو هذا السر في حياة الأئمة؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الأئمة عامة، بل ثمة نفر معدود له لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شرف اسم «مستودع السر»؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الأحداث وتمحيصها تفسّر هذا السر بأنه «سر الإمامة». كما راحت تفسّر سرّ الإمامة بأنه الأسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعاجز.

أنا أؤمن بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت، الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله، أن يحملوا مثل هذا القدرة ومثل هذه العلوم، كما أؤمن بأن تحلّيهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الإسلام إلى الإنسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي «سر الإمام». فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الإمامة وعلى صدق دعوى الإمام. لماذا يكتم الإمام هذه الأمور ويوصي أصحابه بكتمانها في روايات كثيرة، تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان: «باب الكتمان»؟ لابدّ أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الإمام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق.

هل السر هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للإسلام وفقهها وأحكامها؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الأموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير، لكي لا يخوض فيها كل من هبّ ودبّ، ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سر الإمام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص، كانت تدرس في مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الإسلامي آنذاك، كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سرية.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدوداً بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل الى غير الشيعة ايضاً في ظروف خاصة. لم تكن أبداً محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم.

الحق إن الأسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للإمام.. بالجهاز الذي يخوض معتركاً سياسياً باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهجه الجهاز.. بالعمليات التي ينفذها.. بأسماء ومهام أعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالأخبار والتقارير المتعلقة بالأحداث الهامة.. هذه وأمثالها من الأسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلاً أم آجلاً لإعلان هذه الأسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الأسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها، وهم «مستودع السر». وكل تسريب لهذه المعلومات الى أوساط الشيعة فإنه يفتح ثغرة تسرّبها الى الأعداء، وهو خطأ كبير لا يغتفر، خطأ قد يؤدي الى انهدام الجهود والأعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الإمام (عليه السلام) اذ قال: «ليس الناصب لنا حرباً بأعظم من المذيع علينا سرّنا. فمن أذاع سرّنا الى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضهُ السلاح».

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الإمام (عليه السلام) والشيعة قد يتطلب الأمر ايصال بعض المعلومات الى الشيعة عن طريق «واسطة»، وهذا تدبير معقول وطبيعي. العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الإمام (عليه السلام) تترصد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم، لذلك نرى أن الإمام (عليه السلام) كان يُبعد عنه بعض الأفراد بلهجة لينة أحياناً، ومعاتبة تارة أخرى. يقول لسفيان الثوري مثلاً: «أنت رجل مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود».

ويترحم الإمام (عليه السلام) على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلّم عليه باحترام واجلال.

مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الإمام (عليه السلام) وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الإمام، وهذا الواسطة هو «الباب»، ويجب أن يكون من أخلص أتباع الإمام، وأقربهم اليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل «نحلة» اذا عرفت الحشرات المضرّة ما تحمله من عسل قطعتها وأغارت على شهدها. وليس صدفة أن نرى تعرض هؤلاء «الأبواب» غالباً للمطاردة وأقسى ألوان البطش والتنكيل.

إن يحيى بن أم طويل «باب» الإمام السجاد (عليه السلام) يقتل بشكل شنيع. وجابر بن يزيد الجعفي باب الإمام الباقر (عليه السلام) يتظاهر بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجّيه من القتل الذي صدر الأمر به من الخليفة قبل أيام من اشتهار جنونه. ومحمد

بن سنان باب الإمام الصادق (عليه السلام) ، يتعرّض لطرد ظاهري من الإمام رغم أن الإمام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه، وما ذلك إلاّ لتعرّض محمد بن سنان لمثل هذه الأخطار. كما أن إعلان الإمام براءته من راوٍ معروف ومشهور حظي بإعلان رضا الإمام (عليه السلام) مراراً يعود على الأقوى الى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه «الوكيل» ايضاً. مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالإمام وتوزيعها، يملك ايضاً كثيراً من الأسرار وأقلها أسماء الدافعين والقابضين، وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الإمام، وأفضل دليل على ذلك مصير المعلّى بن خنيس وكيل الإمام الصادق (عليه السلام) في المدينة، وتعبيرات الإمام القائمة على أساس التقية بشأن المفضل بن عمر وكيل الإمام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالاً على واقع الشيعة وارتباطهم بالإمام والحركة التنظيمية الشيعية.

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل اليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاماً دينياً العمل السري، مثل حفظ الأسرار، وقلة الكلام، والابتعاد عن الأضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.